الأمثال

مِنَ الكِتابِ وَالسُّنَّة

لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي

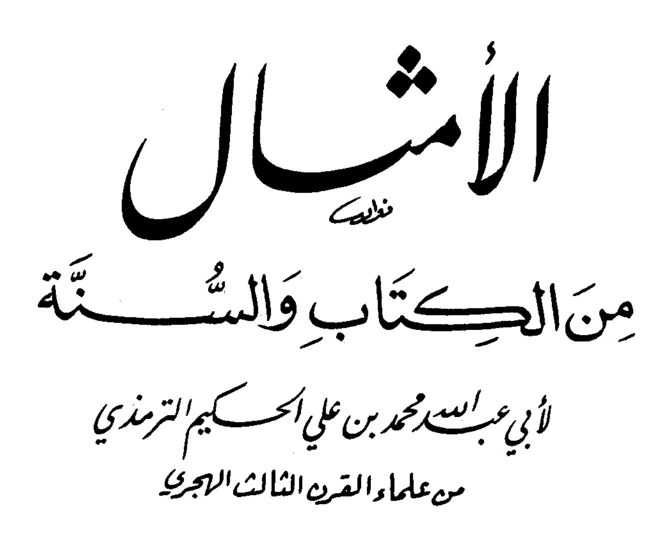
من علماء القرن الثالث الهجري

حققه وعلق عليه وقدم له

الدكتور السيد الجميلي

دار ابن زيدون

بيروت



حققه وعلق عليه وقدم له

الدكتور السيد الجميلي

دار ابن زيدون
بيروت / لبنان

دار أسامة
سوريا / دمشق / ص.ب ٤٣٠٦

الأمثال

مِنَ الكِتابِ وَالسُّنَّة

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع

شارع الاستقلال - تلفون ٢٤٧٩٥٠ - ٢٢٥٨٨٨ - ٢٥٥٤٥٤ - برقياً : جباحبكوم - ص.ب ٧٨٤٦ - بيروت (لبنان)

Istiklal St.- Phone 247950 - 225888 - 255454 - Cable. JABAHABKOUM-P.O. Box 7846 - Beirut(Lebanon)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وبعد لقد جاء القرآن الكريم بأمثال مضروبة ، بقصد الإفهام والتفهيم والتوضيح والبيان في روعة بلاغية يقف عندها ، ويتقاعس إزاءها فهم وعقل وفكر البشر ، من روعة وقدسية ما يحتوي السمع إذ ينتشي ويغتبط الفؤاد وينشرح الصدر إجلالاً وخشية للحق سبحانه وتعالى .

وهذه الأمثال المضروبة في مجملها لم تترك للعقل البشري شيئاً ، فهو مسبوق بها في كل أطواره ، وهذا هو سر إعجازها ومناط عظمتها وجلال عزتها ، وحقيقة جدتها المطلقة التي لا تبلى ولا تخلق وهي قديمة جديدة متجددة رغم صروف الزمان وحدثانه ، لأن الذي أنزلها أخلد من الزمان والحدثان لأنه خالق كل شيء ، وبيده مقاليد كل شيء ، سبحانه وتعالى .

وهذه الأمثال قد اجتمعت أداتها ، واستحكمت معانيها ، وأبرمت أفكارها ، وكملت رصانتها ، وتشعبت فوائدها ، فالألفاظ مشاكلة

للمعـاني ، في الحسن والبهـاء والقيمـة ، وكـذلـك فـالمعـاني مـوافقـة للألفاظ في جمـالها ، وهي في انسجـام تركيبهـا كالعقـد النظيم ، وقـد صفت درره ، واتسقت أطرافه ، وتماسكت أنحاؤه .

ومما جعل لها هذا القدر من التقييم والإجلال أنها تخاطب الفطرة البشرية المجبول عليها تكوين النفس الإنسانيـة ، وليس ثمة من يعـرف دقائقها أو طبائعها ولا أحد أقدر على سبر أغوارها مثل خالقها جل شأنـه لأنه هو الـذي جمع شتـاتها وركب أسـرارها وهـو أعرف بـرصيد العقـل الإنسـاني من الفهم والإدراك والـوجـدان في مختلف أطـواره ومتبـاين أحواله .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا قد جمـع كثيراً من الأمثـال القرآنيـة كنماذج لكنه لم يحشدها جميعاً ، وإلا لصار أضعاف حجمه .

وعلى كـل حال فـإن للمؤلف رحمه الله جهـده وسبقه وفضله في هـذا العمل الجيـد وله على جهـده ووقته المبـذول في هذه المـادة كـل تقـدير حيث أفـرغ مجهـوده في التـرتيب والتنقيـح فله من الله سبحـانـه وتعـالى حسن الجزاء وأكـرم المثوبـة أجـزل الله لـه الثـواب والـرحمـة والرضوان .

وقـد استقى المؤلف مـادة الكتـاب من القـرآن الكـريم ، والسنـة النبـوية الشـريفة ، ثم من أقـوال العلماء والحكمـاء والبلغاء في تنـاسب وتناسق جميل ، ولذلك فقد لوحظ أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثـة أقسام : الأمثـال من القـرآن ، والأمثـال من الحـديث النبـوي ، والأخبـار ، ثم الأمثال التي تفوه بها كبار الحكماء .

وقد أخذ الإمام القرطبي (رحمه الله) من هذا الكتاب وأشار إليه في تفسيره الشهير (الجامع لأحكام القرآن) وهو يذكر كتابنا هذا باسم (نوادر الأصول)[1] .

وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي ، وقد اعتمدنا عليها أيضاً في ضبط النص وتحقيقه .

ولقد أردت أن يكون لي شرف التحقيق والشرح والتعليق على هذا السفر الممتع ، فدققت النظر فيه ، وتأملت عباراته ملياً ، وأمعنت البحث والتدقيق في مراد المؤلف من كل منها فقمت بضبط النص وشرح عباراته الغامضة وتخريج آياته وأحاديثه ، كما اهتممت بتراجم الأعلام الهامة ، ثم صوبت كثيراً من الأخطاء الواردة في النص من تصحيف وتحريف وأخطاء أخرى غيرها ، انشائية ونحوية .

وفي معرض تفسير بعض الآيات ذكرت آراء الأئمة وعلماء التفسير مشيراً إلى المرجع الذي أخذت منه حتى ينتفع به القراء ويتهيأ للباحثين أكبر قدر من الفائدة والمعونة ، والله سبحانه من وراء القصد ! .

السيد الجميلي

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٣٢٢) ط . دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١م .

هذا الكتاب والحكم عليه

يمتاز هذا الكتاب بلطف أسلوبه ، وجميل عباراته ، ورقيق معانيه ، وبديع إشاراته ، وجزالة ألفاظه الموحية المعبرة عن مراد المؤلف في سهولة ويسر .

إلا أني لاحظت التكرار لألفاظ كثيرة وردت أعادها المؤلف رحمه الله أكثر من مرة ، وهذا قد يستدل به من لا يعرف الحكيم الترمذي على أنه ذو رصيد لغوي قليل لا يسعفه أن يأتي بمرادف للكلمة عوضاً عن تكرارها مرة بعد مرة .

وقد ورد في أحيان شتى صوغ المؤلف عبارات شائعة في أسلوب ساذج سطحي خال من البيان أو البلاغة لكني أعذره ولا أعذله في هذا فقد يرجع هذا إلى محاولته التفهيم للبسطاء ، وعلى كل حال فإن هذا لا يوافي ولا ينهض بعظمة الكتاب وصدق مراده وشرف مقصده . ولفت نظري أيضاً أن مؤلفه كان ذا نزعة صوفية باطنية مما يجعلني أرجح - وأستغفر الله من الظن - صحة ما نسب إليه من الإنتماء لفكر الباطنية ، وإن لم تكن الأدلة محمولة على اليقين فإن أمره إلى الله ، وما لنا إلا أن نأخذ منه ما أحسن فيه وصدق .

وإن كان الباطنية والروافض هم أشر خلق الله ، وأكثر المخالفين المبتدعين جناية وهم من أكبر النحل التي خرجت على السنة والجماعة ، إلا أننا مأمورون أن نحسن الظن بالعلماء المجتهدين فنستغفر لنا ولهم ونسأله سبحانه وتعالى العفو والصفح الجميل عما فرطنا في جنبه ، ولأنني أرى أن تتبع سقطات العلماء ، والاستدراك المشين على أفكارهم ومعتقداتهم في كثير من الأحيان ليس له مسوغ لأنه يحرمنا من جوانب الخير الكثيرة عندهم وفيهم فلنأخذ من كل منهم ما أحسن فيه ونستغفر له عما لم يوفق فيه وكلنا معرضون للخطأ والصواب ، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجنبنا الخطأ وأن يثبتنا على جادة السواء وسبيل الاستقامة .

وقد أشرنا إلى هذه اللمحات الباطنية والإشارات الصوفية في مواضعها من الكتاب ليقف عليها القارىء ، وعلقنا عليها ، ونوهنا عنها . فلعل الكتاب بهذا الجهد الكبير المتواضع المبذول في مادته مع جهد مؤلفه رحمه الله قد أصبح أتم وأقرب إلى الكمال وأجدى وأنفع للقارىء الكريم .

والكتاب في جملته جيد في موضوعه شيق في أسلوبه ، فنسأل الله جل شأنه أن ينفعنا بما علمنا ، ويعيننا على البحث والدراسة فإنه خير مأمول وأكرم مسؤول ، وهو وحده على كل فضل وخير مستعان ! .

القاهرة في مارس سنة ١٩٨٥م .

السيد الجميلي

ص . ب ٤٠٣ المعادي

ت ٩٨٤٤٨٠

مؤلف الكتاب

هو محمد بن علي بن الحسن بن بشـر ، أبو عبـد الله ، الحكيم الترمذي وهو باحث ، صوفي ، سني ، عالم بـالحديث والفقـه ، حنفي المـذهب ، ولد في (تـرمذ) ثم نفي منهـا حيث قذعـه أهلهـا بـالسـوء وطاخوه بالقبيح ورموه بالمنكرات ، وقد وصـل الحد إلى تكفيـره ، لأنه ألف كتـاباً في الإشـارات الصوفيـة الباطنيـة ، وقـال البعض لأنـه ادعى الكشف والـولاية وقـد قال البعض إنـه قال إن الأوليـاء أكرم من الأنبيـاء وأفضل وقال إنه ثَمَّ خاتم الأولياء مثل خاتمِ الأنبياء ، وهذا ما لم يقل به مسلم[1] .

وإن كنت لا أستبعـد هذا لا سيمـا وأن أسلوبـه في هـذا الكتـاب وأحـزابه يجلي لنـا مسلكه الصـوفي في استعمالاتـه لكثيـر من إشـارات

(١) راجـع ترجمـة الحكيم الترمـذي في لسان الميـزان لابن حجـر (٥/ ٣٠٨) ومفتـاح السعادة (٢/ ١٧٠) والفهرس التمهيدي ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ وكشف الظنون (١/ ٩٣٨) ودائـرة المعارف الإسـلاميـة (٥/ ٢٢٧) وطبقـات السبكي (٢/ ٢٠) ودار الكتب (١/ ٣٤٥) والكتبخانة (٧/ ١٧٧) .

ومصطلحات الصوفية إلا أني أرجو أن يكون هذا الإتهام كاذباً ، ومفترياً عليه فيه .

وقد قال صاحب لسان الميزان (٥/ ٣٠٨) : إن أهل ترمذ هجروه في آخر عمره لتأليفه كتاب (ختم الولاية وعلل الشريعة) .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته ، فقال البعض أنه توفي سنة ٢٥٥هـ[١] .

وقال آخرون : بل توفي سنة ٢٨٥هـ[٢] .

ولكن ابن الأنباري قال إنه سمع منه سنة ٣١٨هـ[٣] .

ولكن خير الدين الزركلي قال : توفي نحو سنة ٣٢٠هـ[٤] .

* * *

ومؤلفات الحكيم الترمذي تقع في نحو ثلاثين مصنفاً بين مخطوط ومطبوع منها هذا الكتاب وله كتاب (غرس الموحدين) و (أدب النفس) و (المسائل المكنونة) وكتاب (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) .

---

(١) راجع لسان الميزان (٥/ ٣١٠) .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٥/ ٢٢٧) .
(٣) لسان الميزان (٥/ ٣١٠) بتصرف .
(٤) الإعلام (٧/ ١٥٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

[٤٣] عونكَ اللّهمَّ وَحْدَكَ ، الحمدُ للّهِ وَلِيّ ِ الحمد وأَهله ، والصَّلاةُ على رسوله محمد وآلهِ أَجمعين .

قال الإمامُ محمد بن علي التِّرْمِذِيّ الحكيم رَحِمَه الله :

أَمّا بَعْدُ فإنَّكَ سَأَلْتَنِي عن شأْنِ الأَمثال وضَرْبِها للناس ؛ فاعلم أَنَّ اللّه تعالىٰ ضربَ الأَمثالَ للعباد في تنزيله ؛ لقوله تعالى[1] : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ واللَّهُ بكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وقال جلَّ ذِكْرُه[2] : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ . وقال جلَّ ذِكْرُه[3] : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسكم ﴾ .

ثم اعْلَمْ بأَنَّ ضَرْبَ الأَمثالِ لِمَنْ غاب عن الأَشياءِ ، وخفِيَتْ عليه

---

(١) النور (٢٤/٣٥).
راجع تفسير الآية الشريفة في الطبري (١٨/١٠٩) والقرطبي (١٢/٢٣١) واللسان (١/٦٦) لابن منظور، (٥/٣٦٨).

(٢) إبراهيم (١٤/٤٥).

(٣) الروم (٣٠/٢٨).
راجع تفسير القرطبي (٢٣/٢٩٧) و (٢٣/٤١٠).

الأَشيـاءُ ؛ فـالعبـادُ يحتـاجـون إِلى ضَـرْب الأَمثــالِ لَمّـا خفيت عليهم الأَشيـاءُ ؛ فضرب اللّه لهم مثـلاً من عند أَنفسهم ، لا مِنْ عنـد نفسه ؛ لِيُدْرِكُوا ما غاب عنهم ؛ فأَمّا مَنْ لا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ في الأَرض ولا في السَّماءِ فلا يحتاجُ إِلى الأَمثال ، تعالىٰ اللّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً .

فَـلاَ جَرَمَ[1] مـا ضرب الأَمثـالَ من نفسه لنفســه ؛ وكيـف ولا مِثْلَ لـه ، ولا شبيه لـه ؛ فلذلـك قـال جـلَّ ذكـره[2] : ﴿ فَـلاَ تَضْـرِبُـوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ .

فالأَمثالُ نمـوذجات الحكمـة لِمَا غـابَ عن الأَسماع والأَبصـار ؛ لتهدِيَ النفوسَ بما أَدركَتْ عِيَانا .

فمن تـدبيـر اللّهِ لعبـاده أَنْ ضـربَ لهم الأَمثــالَ من أنفسهم ، لحاجتهم إليها ، ليَعْقِلُوا بها ، فيدركوا ما غابَ عن أَبصارهم وأَسماعهم الظاهرة ؛ فمَنْ عقَلَ[3] الأَمثالَ سمّاه اللّهُ تعالىٰ في كتابه عالماً ؛ لقـوله تعالى[4] : ﴿ وَتِلْكَ الأَمثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إِلاَّ العالِمُون ﴾ .

الأمثال مرآة النفس

فالأَمثالُ مِـرْآةُ النفسِ ، والأَنوار ـ أنـوار الصفات ـ مـرآةُ القَلْبِ ؛ وإِن اللّهَ تعالىٰ جعل على الأَفئدة أَسماعاً وأَبصاراً ، وجعلَ في الرُّؤُوسِ

---

(١) لاجرم : لا محالة ، حقاً .

(٢) النحل (١٦/٧٤)

(٣) عقل الأمثال: وعاها وفهم مقصودها والمراد منها .

(٤) العنكبوت (٢٩/٤٣).

أَسماعاً وأَبصاراً ، فما أَدركت أَسماعُ الرُّؤُوس وأَبصارُها أَيْقَنَ بِهِ القَلْبُ ، واستقرَّت النَّفْسُ ، واتَّسعت في علم [ذلك][1] وانْشَرَحَ صَدْرُه بذلك ؛ وما غاب عن أَسماع الرُّؤُوس وأَبصارها ، وجاءَت أَخبارُها عن الله ـ وتلك الأَشياءُ مكنونة ـ أَيْقَنَ القَلْب بذلك ، ولكن تحيّرت النفسُ وتذَبْذَبت .

وإِنَّ النفس مستقَرُّها في الجَوْف ، والقلبُ مستَقَرّه في الصَّدر فوق النفس ؛ فالقلبُ كدَلْوٍ معلَّق في الصَّدر بعُروقِهِ وبما فيه من المكنون ؛ وتحته النَّفْسُ ، وفيها الشهواتُ ، والهوى رِيح مِنْ تنفُّس النار خرجت إلى محلِّ الشهوات بباب النار ، واحتملت نَسِيمَها وأَفراحَها حتى أَورَدَتْها على النفس ، فإِذا هبَّت ريحُ الهَوَى[2] بأَمرٍ ، وجاءَت بذلك النسيم والفَرَح إلى النفس ، تحركت النفس وفارت ، ودَبَّ[3] في العروق طيبُها ولذَّتها في أَسرع مِنَ اللحظة ، فإِذَا أَخذت النَّفْسُ في التذَبْذُبِ والتمايل والاهتشاش[4] إلى ما تَصَوَّر وتَمَثَّل[5] لها في الصَّدر تحرَّك القَلْبُ وتمايل هكذا وهكذا مِنْ وصولِ تلك اللَّذةِ إليه ، فإِذا لم يكن في القلب شيءٌ يُثْقِلُه ويسكِّنه مال إلى النَّفْس ، فاتَّفَقَا واتَّسقَا على تلك الشهوات ؛ فإِنْ كانت تلك مَنْهِيّاً عنها ، فبرز إلى الأَركان فِعْلها ؛ فصارت مَعْصيةً وذَنْباً .

وإِنَّما يثقل القَلْبُ بالعِلم بالله ؛ لأَنَّ العلمَ بالله يُورِثُ الخَشْيَةَ ،

---

(١) ما بين المعقوفين من (ب) و (ج) .
(٢) الهواء [ج]
(٣) كذا في [أ] و [ج].
(٤) الاهتشاش : الخفة والنشاط .
(٥) ويمثل [أ].

فـإذا تـأَدَّتْ تلك الخَشْيَـةُ إلى النفس ذَبُلَتْ وتـركت التـردد ؛ فـاستقـرَّ القَلْبُ .

العلم بالله يورث الحياء

والعِلْم بـالله يُورثُ الحيـاءَ ، فإِذَا تَـأَدَّى ذلـك الحيـاءُ إلى النفس انكسرت وخَجِلَتْ ؛ فإِذَا جهل القلبُ رَبَّه صـار صفةُ القلبِ مـع النفس على ما وصفنا بَدِيّاً[1] .

والقلبُ مـوقِنٌ بالله تعـالىٰ بيقين التوحيـد ، فـإِذَا جـاءَت نـوائبُ الأُمـورِ استقـرَّ القلبُ بـذلـك اليقين ؛ لأَنَّـه ليس في القَلْبِ شهـوةٌ ، وتذبذبت النفسُ ، وترددت بالشهوة التي فيها .

فـإِذَا ضُـربت لهـا الأمثـالُ صـار ذلـك الأَمـرُ لهـا بـذلـك المَثَـل كالمُعَاينة ؛ كالـذي ينظرُ في المـرآة فيُبْصِرُ فيهـا وَجْهَهُ ، وَيُبْصِـرُ بها مَنْ خَلْفه ؛ لأَنَّ ذلك المثلَ قد عـايَنه بِبَصَـرِ الرَّأْس ، فـإِذَا عايَنَ هـذا أَدرك ذلـك الـذي غـاب عنـه بهـذا ؛ فسكنت النَّفْسُ ، وانقـادَتْ للقَلْب ، واستقرَّت تحت القَلْبِ في معدنها ؛ فهي كالعِمَـادِ لسَطْحِ البيت ؛ فـإِذَا تحرَّكَ العِمادُ تحركَ السَّطح وانهار وتبدّد العِمَادُ .

الأمثال من القرآن

فضـرب اللهُ الأَمثالَ لنُفُـوسِ العباد ، حتى يُـدْرِكوا مـا غاب عن

---

(١) بديا : ابتداء .

أَسمـاعهم وأَبصارهم الـظاهرةِ ، بمـا عـايَنُـوا(1) ؛ فـابتـدأَ في تنـزيله ، فضَرَبَ مَثَلَ المنـافقين ؛ فقال جـلَّ ذِكره(2) : ﴿ وإِذَا لَقُـوا الَّذِينَ آمَنُـوا قالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْـزِئُون * اللَّهُ يَسْتَهْـزِىءُ بهم وَيَمُدُّهُم(3) في طُغْيَـانِهِم يَعْمَهُون(4) * أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَـروا الضَّلالَـةَ بالهُـدَىٰ(5) فما رَبِحَتْ تِجَـارتُهم وما كـانوا مُهْتَـدِين * مَثَلُهُم كمَثَلِ الَّذي اسْتَـوْقَدَ(6) نـاراً ، فلما أَضـاءَت ما حَـوْلَهُ ذهبَ اللَّهُ بنُــورِهم وتــركَهُمْ في ظُلُمَــاتٍ لَا يُبْصِــرُون * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يَرْجِعُون ﴾(7) .

مثل المنافقين

قال : مَثَلُ المنافقِ الذي تكلَّم بكلمةِ الإِيمان مُرَائياً للنـاس ، كان له نُورٌ ، بمنزلةِ المستَوْقِد ناراً يَمْشِي في ضَوْئها ما دامت تتَّقِدُ نارُه ، فإِذا تركَ الإِيمانَ صار في ظلمة كمَنْ أُطْفِئَت نارُه ، فقام لا يَهْتَـدِي ولا يُبْصر ذلِكَ .

---

(1) والمشاهدة والمعاينة والمكاشفة كلهـا مصطلحـات صوفيـة تأثـر بها الحكيم التـرمذي رحمه الله ، فتأمل .

(2) البقرة (2/ 14 ـ 18).

(3) يمدهم : يتمادى بهم ويطيل لهم .

(4) العمـه : هـوعمـى البصيـرة ومعنى يعمهـون أي يتخبـطون ويــركبـون رؤوسهم فــلا يبصرون . راجع البحر المحيط بتصرف وزيادة (1/ 63) ورجل عمه وعامه أي حائـد عن الطريق . تفسير الطبري (1/ 210) بتصرف .

(5) اشتروا الضلالة بالهدى : استبدلوا ، ومن اشترى شيئاً بشيء فقد استبدل منه .

(6) استوقد ناراً : أوقدها .

(7) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (1/ 206).

ثم قـال : ذهب اللَّهُ بنورهم ؛ أي بـإيمانهم الـذي تكلَّمـوا بـه ؛ وترَكَهم في ظُلُماتٍ لا يُبْصرون . في ضلالـةٍ لا يُبْصرون الهُـدَى . هذا قول مُقَاتِل[1] .

وقال قَتَادة : هذا مَثَلٌ ضربه اللَّهُ تعالىٰ للمنافِقِ الذي تكلَّمَ بكلمةِ الإيمانِ ظاهراً ؛ فناكَـحَ ووَارثَ بها ، وحقنَ بهـا دَمَه ومـالَه ؛ فلمـا كان عند الموت ولم يَكُ مُصَدِّقـاً بها سُلِبَتْ عنـه ، فتُرِكَ في كَـرْب وظُلمة ، فتحيَّر فيها كما كانت معاملتُه في الدنيا في حَقِّ اللَّهِ سبحانه وتعالىٰ .

وقال مجاهـد رحِمَه الله : أَضـاءَت ما حَـوْلَه[2] إلى إقبـالهم إلى المؤمنين . وذهب بنـورهم ، يعني ذهـابَ نـورِهم عنـد إقبـالهم إلى المشركين : فالمنافقُ قلبه متحدِّرٌ[3] لا يستقرُّ فيه شيءٌ كلَّما برق فيه نُورُ الحق خـرج من الجانِب الآخـر ، فقَلْبُه كنَفَق اليَـرْبُوع[4] ، يـدخـل من باب [٤٤] ويخرج من باب .

مثل اليهود مع النبي

وهـذه الآيةُ مَثَـلُ اليَهُودِ مـع نبيِّنـا صلَّى الله عليـه وسلَّم ، مثَلُهم

(١) وهـو مقاتـل بن سليمان ، من أعـلام المفسرين تـوفي سنـة ١٥٠هـ . راجـع وفيـات الأعيـان لابن خلكـان (١١٢/٢) وتهـذيب التهـذيب (٢٧٩/١٠) وميـزان الاعتـدال (١٩٦/٣) وتاريخ بغداد (١٦٠/١٣) .

(٢) يقول ابن كثير : ـ « أما إضاءة ما حولهم فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى » اهـ . تفسير ابن كثير (٥٣/١) ط . الحلبي .

(٣) منحدر [ج] .

(٤) نفق اليربوع : إحدى حجر اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق .
راجع القاموس المحيط ـ مادة نفق .

كمثلِ رجُلٍ يكـونُ في ضِيق وتَعَبٍ وشـدّة وظُلْمـةٍ ، يَنْتَـظِرُ الفَـرَج والمَخْرَج والضياءَ والنُّور ؛ كانوا ينتظرون خروجَ محمَّدٍ صلَّى الله عليـه وسلَّم ، وعرفوا أَنَّه الحق فكذَّبُوهُ وحسدوه مخافةَ أَن يَـذْهَبَ عنهم عِزُّهم ومَأَكَلَتُهُم(١) .

ذهب اللَّهُ بنـورِهم ، أَي بالحَـلَاوَةِ التي كانت في قلوبهم عقـوبةً لهم بجحودهم ، وتركَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصرون الهُدَى .

وأَيضاً مَثَلُهم كمثل الـذي اسْتَوْقَـدَ ناراً في مَفَـازةٍ(٢) مُهْلِكَةٍ ليَـأْمَنَ بهـا ، فلما أَضَـاءَت ما حـوله أُطفئت نـارُه ، وَبَقِيَ في ظلمةٍ ، فكـذلك اليهـود استنصروا بـه قَبْلَ خـروجه ، وطلبـوا خُروجَـهُ لِيَـأْمَنُـوا من سيْفِ الفُرقة ، فلمّا جاءَهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ اللَّهِ على الكـافرين ـ يعني اليهود ـ .

وبئس ما اشتروا به أَنفسهم : بئس ما ربحوا بِعوَضٍ(٣) قليلٍ من الـدنيا ، وهـو ما كـانوا يُصِيبـون من سِفْلَة(٤) اليهود من المَـأْكَلةِ في كل عام .

مثل المنافقين بتكذيب القرآن

وقيـل(٥) : ﴿أَو كصَيّب من السّماءِ﴾(٥) ، أَي مَثَـلُ المنافقين في

---

(١) المأكلة : ما يأكلونه ويمتارونه .
(٢) المفازة : الصحراء القاحلة الممحلة لا ماء فيها .
(٣) بعوض : ببديل .
(٤) سفلة اليهود : غوغاؤهم وساقطوهم .
(٥) البقرة (٢/ ١٩) والصيب : المطر .

القرآن مع القرآن كقَوْمٍ نزلوا في فَـلَاةٍ[1] لَيْلًا ، فجاءَهم مطَرٌ شـديد ؛ وإنَّمـا شبّه القـرآن بالمـطر ؛ لأَنَّ حياةَ النـاس في المـطر ، كمـا أَن في القرآن حياةً ومنفعةً لمن آمَنَ به .

فمَثَلُ المنافقين بتكـذيب القرآن كمثـل مطر نـزل من السماءِ ليـلاً قُرّاً[2] وفيه البرق وشدة الرعد .

يقـول : ﴿ فيه ظلمـاتٌ ﴾ : يقول في هـذا المطر ظلمـاتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ ، يقول : يمطر في ليلةٍ مُظْلمـة ؛ وفي ذلك المـطر رَعْدٌ وبَـرق ، فمَثَلُ المطر مثـل القرآن ، كمـا أَنَّ في المطر حيـاةً ، كذلـك في القرآن حيَاةً لمن آمَنَ به ، وحياة الآخرة بالإيمان .

ومثل الظلمات مثل الكفر . ومثل الرَّعد ما خُوِّفوا به من الوَعِيد ، ومثل البَرْقِ الذي في المطر مثَـلُ الإيمان ، وهـو النورُ الـذي في القرآن يهتـدي النـاسُ ببيـان القـرآنِ كمـا يَهْتَـدِي النـاسُ في مثـل تلك الليلة بالبرق . شَبَّه القرآن بالمطر ، وشبّه تخويف القرآن بالرعد .

مثل آخر قوله[3] : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصـابِعَهم في آذانِهم من الصَّوَاعق حَذَرَ المَوْتِ ﴾ . أَي من خـوف الصَّوتِ مِنْ شِـدَّةِ الرَّعـد ، هكذا مثَـلُ المنافق إِذَا سمعَ قراءَةَ القرآن مِنْ مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ختم على أُذُنَيْهِ كراهةً له ، بمنزلةِ الذي يجعلُ إِصبعيه في أُذنيه من شدّة الصاعقـة حذَر الموت ؛ فالمنافِقُ يجعلُ إِصبعيه في أُذُنيه ، ولا يسمَعُ إِلى صـوتِ

---

(١) الفلاة : الصحراء لا ماء فيها .

(٢) قرى [ج] وقد وردت كذا كما أوردنا في[أ ،ب] والقر : البرد .

(٣) البقرة (٢ / ١٩) .

النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم مخافةَ أَنْ يَتَّعِظَ به وتدخُلَ حلاوةُ قراءَتـه في قَلْبه .

مثل الذين كفروا

مثَلُ[1] الذين كفَرُوا أَنَّ قلوبهم قاسيـةٌ كالحجـارة أَو أَشدّ قَسـوةً ، ثم وصف أَنَّ من الحجارة ما قد يخرج منها الرطوبة ، ويَهْبِطُ مِنْ خشيـة الله ؛ أَي يخرُّ ساجِـداً ؛ [والقلوبُ القاسيـةُ لا تلين ، ولا ترطب ، ولا تخشع ، ولا تخرُّ ساجدةً][2] .

﴿ وَمَثَل[3] الَّذِينَ كفرُوا كَمَثَلِ الَّـذِي يَنْعِقُ بما لَا يَسْمَـعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي لا يفهم معاني الكلام الذي يتَّعِظُ به ، ليس له من معاني القرآن وكلامِ الخير إلَّا دورة[4] الكلامِ .

مثل محمد صلَّى الله عليه وسلَّم مع الكافر

يعني مَثَلُ محمد صلَّى الله عليـه وسلَّم مع الكـافر كمَثَـل الرَّاعِي مع البهيمة يَنْعِقُ الراعي بالبهيمة ؛ ولا تسمع إلَّا دعاءً ونداءً ، أَي تسمَعُ الصَّـوتَ ولا تعقلُ مـا يُقَال لهـا ، كذا الكـافِرُ يسمـع مواعظَ القـرآن ولا

---

(١) البقرة (٢/ ٧٤).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من [ب] و[ج].

(٣) البقرة (٢/ ١٧١).

(٤) كذا ورد في [ج] وفي [ب] دورة وفي [أ] وردة .

يعقِلُ كالبهيمة[1] ، لا يَسْمَعُون إلَّا صوتاً .

ثم قـال[2] : صُمٌّ عن الحقِّ فـلا يَسْمَعُـون الهُـدَى ؛ وبُكْمٌ ، أَي خُرْس عن الكلام بالحق يتباكَمُونَ[3] فلا يتكلمـون بالهُـدَى ، عُمْي عن الحق لا يُبْصِـرون الهُدَى ، فهم لا يعقِلُون ؛ يعني لا يعقلون مـا يقـولُ محمدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ، ولا يرغبون في الحق ؛ وذلـك لأَنَّ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعاهم إلى التوحيد ومواعظ القرآن حيث قـال جلَّ ذِكْرُه[4] : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالوا : بَل نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا[5] عليه آباءَنَا ﴾ ؛ فقال جلَّ ذِكْرُه : قل أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً من الـدين ، ولا يقرّون بوحدانيـــة الله ، ولا يهتدون إلى سنَّـةِ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَفَتَتَّبِعونهم ؟

ثم ضرب لهم مثل البهيمة في قوله عزَّ وجلَّ[6] : ﴿ أَوْ كالَّذِي مَرَّ على قَـرْيَةٍ وهي خـاويةٌ على عُـرُوشها قـال : أَنى يُحْيِـي هذه اللَّه بعـد مَوْتها ، فأَمَاتَـهُ اللَّهُ مَائَـةَ عامٍ ثم بَعَثَـهُ ، قال : كم لبثْتَ ؟ قـال : لبِثْتُ يـوماً أَو بَعْضَ يَـوْمٍ . قال : بـل لبثْتَ مائـةَ عـامٍ فـانْـظُر إلى طَعَـامِـك وشَرَابك لم يَتَسَنَّـهْ وانظر إلى حِمَـارِكَ ولِنَجْعَلَك آيةً للنـاس ، وانْظُر إلى

---

(١) أي كالأنعام التي لا تنتفع بما تسمع .

(٢) راجع تأويل مشكل القرآن ص ١٥٦ .

(٣) يتباكمون : يظهرون عدم القدرة على الكلام .

راجع أيضاً في تفسير الآية الطبري (٣/٣١٣) والبحر المحيط (١/٤٨١ ـ ٤٨٤) .

(٤) البقرة (٢/١٧٠) .

(٥) ألفينا : وجدنا وفي الأصول : وجدنا وهو تحريف من الناسخ .

(٦) البقرة (٢/٢٥٩) راجع القـرطبي (٣/٢٩٣) والـطبـري (٥/٤٦١) والبحر المحيط (٢/٢٨٥) .

العِظَام كيف نُنْشِزُها ثم نَكْسُوها لَحْماً ، فلما تَبَيَّنَ لَه قال : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ على كل شيء قَدِير ﴾[1] .

فتحيّرت نَفْسُه كيف يُحْيي هـذه اللَّه بعد مَـوْتِها فـأَماتَـهُ اللَّهُ مائـةَ عـام ، ثم بَعَثَهُ ، ثم أَمـره أَن ينظرَ إلى حِمـاره كيف أَحْيَاه ، فـأَراهُ بمـا حضره ما غاب عنه .

في شأن الخليل :

وقـال في شأْن الخليـل صلوات اللَّه عليه[2] : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيـي الموتى ﴾ . فَتَحَنَّنَ قَلْبُه إلى رُؤية صنْع اللَّهِ ، فـأَكرمـه بالمُعَـاينة لإِحياءِ تلك الطيور ، وقد كـان مُوقناً بأَنَّـه فاعـل ، ولكنه حَنَّ قلبـه إلى رؤيـة صُنْع ربـوبيته ، فـأَكرمـه اللَّهُ بها[3] . . حتى اطْمَـأَنَّ قَلْبُـه وسكن الحَنِين .

مثل المنفق ماله في طاعة اللَّه

مثـل المُنْفِق مالَـه في طاعـة اللَّه تعـالى [٤٥] قـولـه تعـالى[4] : ﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَموالَهم في سبيـلِ اللَّهِ كَمَثَـلِ حَبَّـةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

(١) قال القرطبي أن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها هو عزير أو أرمياء وكـان نبياً . الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٨٩) وأرجو مراجعة اختلاف أهل التـأويل فيـه في تفسير الطبري (٥/ ٤٣٩ ـ ٤٤٤) .

(٢) البقرة (٢/ ٢٦٠) .
راجع الدر المنثور (١/ ٣٣٤) وجامع البيان للطبري (٥/ ٤٨٥) .

(٣) بياض في [أ] وطوى له [ج] .

(٤) البقرة (٢/ ٢٦١) .

سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبّة ، واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ واللَّهُ واسعٌ عليمٌ ﴾ . كذاك الذي يتصدق بماله لوَجْهِ اللَّه تعالى . واللَّه يضاعفُ لمن يشاءُ ؛ أيْ يضاعفُ له ثوابَه في الآخرة بالتربية[1] من واحد إلى سبعمائة ، وإلى سبعمائة ألف ، وإلى ألفي ألْف إلى ما شاءَ اللَّه من الإضعاف مما لا غايَةَ له . واللَّه واسعٌ : يعني جَوَّادٌ بتلك الأضعاف ؛ وأضعاف الصَّدقة عليهم بما نَوَوْا فيها .

ثم قال[2] : ﴿ الَّذين يُنفِقُون أَمْوالَهم في سبيل اللَّه ثم لا يُتْبِعُون ما أَنْفَقُوا مَنًّا ﴾ على اللّه ﴿ ولا أذىً ﴾ لصاحبها ، أي الفقير . والمنُّ على اللَّه ألَّا يرى التوفيقَ منه ، فلَهُمْ أَجْرُهم عند ربِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون .

ثم ذكر مَثَل مَنْ يَمُنُّ على مَنْ يَتَصَدَّق عليه بألَّا يرى التوفيق من اللَّه تعالى ، ويُؤْذِي الفقير ؛ فقال : مَثَلُه كَمَثَلِ[3] ﴿ الذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ[4] الناس ولا يؤمِنُ باللَّهِ واليوم الآخر ﴾ يعني لا يُصدِّقُ بالبعث الذي فيه جزاءُ الأعمال ؛ فهذا مُنْفِقٌ أنفقَ مالَه فأبطل شِرْكُهُ إنفاقَه وصدقتَه ، كما أبطل المنُّ والأذى صدقَة المؤمن .

ثم ذكر مَثَلَ نفقةِ المصدِّق بالبعث المحتسِب بالإيتاءِ ، يريد بها وَجْهَ اللَّه تعالى مِنْ غير مَنٍّ ولا أذىً ، فقال[5] [٤٥] : وَمَثَلُ الذين

---

(١) التربية : التنمية والإكثار ، ومنها اشتق الربا .
(٢) البقرة (٢/٢٦٢).
(٣) البقرة (٢/٢٦٤) راجع تفسير الإمام الطبري (٥/٥٢٤).
(٤) رئاء الناس : لكسب ثنائهم .
(٥) البقرة (٢/٢٦٥).

يُنْفِقُون أموالَهم ابْتِغَاءَ[1] مَرْضَـاةِ اللَّه وَتَثْبِيتاً[2] من أَنْفُسِهم ؛ أي تحقيقـاً وتصديقاً من قلوبهم ، كمثل جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[3] ، أي بستان في بُقْعَة مُـرتفعة طَيِّبة ، فأصابها وَابِل ؛ أي المطر الشديد ، فآتت أُكُلَها[4] ضِعْفَين ، أي أخرجت ثَمَرها ضِعْفَين .

مثل المرائي والمشرك

ثم ذكـر مَثَل[5] المُـرَائِي والمشرك كمَثَـل صَفْـوَان[6] عليـه تُـرابٌ فأَصابُـه وابل : المـطر الشديـد ، فلا يَبْقَى من ذلـك التُّرَاب على ذلـك الصَّفـا[7] شَيْءٌ ، كذلـك صدَقَـةُ المُشرك والمـرائي الـذي يمن ويُؤْذِي الفقيرَ لا يَحْصُلُ له شَيءٌ من الثواب يوم الجزاءِ .

مثل ما ينفقون في هذه الدنيا

مثل سَفِلَة اليهودِ قوله تعـالى[8] : مَثَلُ مـا يُنْفِقُونَ في هـذه الحياةِ الدنيا ـ يعني سَفَلَة اليهودِ ـ من الطعام والثمار على رؤسائهم وأحبارهم ،

---

(١) إبتغاء : طلب .

(٢) وتثبيتاً من أنفسهم : أي تحقيقاً من أنفسهم . راجع المطبوعة .

(٣) الجنة : البستان والربوة : المرتفع من المكان . راجع الطبري (٥ / ٥٣٦).

(٤) أُكُلها : ثمرها الذي يؤكل .

(٥) الآية السابقة على هذه الآية .

(٦) الصفوان : الحجر الكبير الأملس .

(٧) الصفاة : الحجر الصلد الكبير ويجمع على صفا وصفوات .

(٨) آل عمران (٣/١١٧).

وهم كَعْب بن الأَشرف وأَصحابُـه ، يريـدون بها الآخـرة ، مثلهم كَمَثَلِ رِيح فيها صِرّ[1] - يعني برد شديد - ، أُصابت الرِّيـحُ الباردة حَـرْثَ قومٍ ظلَمُـوا أَنفسهم ، فـأَهلكتـه ، ومـا ظلمهم اللَّه ، فلم يُبْق منــه شيئـاً ، كذلك أهلك اللَّه نفقة اليهودِ فلم تنفعهم نفقاتهم .

ويقال : مثَلُ ما ينفقون في هذه الحياةِ الـدنيا في غيـر طاعـة اللَّه تعالى - يعني اليهود - وينفقون أموالَهم في عداوة محمّد صلَّى اللَّه عليـه وسلّم ؛ ينفقـون أموالَهم على أَحبـارهم ليَذُبُّـوا[2] عن دِينهم ، ويعادُونَ محمّـداً صلَّىٰ اللَّه عليـه وسلَّم كمثـلَ رِيـح فيهـا صِـرٌّ ، بَـرْد ، وهـو السَّمُـوم ، أُصـابت زَرْع قـومٍ ظلمـوا أَنْفُسهم لمَنْـعِ حَقِّ اللَّهِ عليهم ، فأَحرَقَتْهُ الرِّيـحُ ، وما ظلمهم اللَّهُ بهـلاك حَرْثِهم ، ولكن كـانوا أَنفسهم يظلمون بمَنْعِ حقِّ اللَّهِ سبحانه وتعالى عنه .

ويقال : هذا مَثَلٌ في شَأْن الكفار ، قال : مثـل نَفَقَتِهم في أَعمال الخير كمثل رِيح فيها صِرّ ، أي برد ؛ لأَنَّ قلوبَهم خَلَتْ عن حـرارة نُورِ الإيمان ، فماتت عن اللَّه تعـالى وبردت ، فـذلك البَـرْدُ أَهلك أعمالَهم الحسنَة ، فلم يُقبل منها شيء ؛ لأنها صارت إلى اللَّه بلا حرارةٍ من نور التوحيد ونور الحياة بالإيمان .

أَلَا ترى أَنَّ الميتَ إذا خرج منه الرّوحُ والنفَس كيف يبـرد ويَجْمُدُ الذي فيه من الدّم .

---

(١) القر والصر : البرد . « وقد ورد أنـه صلى الله عليه وسلم قـد نهى عما قتله الصر من الجراد » راجع اللسان (٦/١١٩) .

(٢) يذبوا : يدافعوا .

وضرب فيهم مَثَلاً آخر في سورة إبراهيم عليه السلام ، فقال[1] : ﴿ مَثَلُ الَّـذِينَ كَفَرُوا بربِّهم أعمالُهم كـرَمَادٍ اشتـدَّتْ به الـرِّيحُ في يَـوْمٍ عاصِفٍ ﴾ ، فلم يَرَوا منه شيئاً من ذلك التراب .

كذا الكفَّار لا يَقْدِرون على ثواب شيءٍ مما عملوا في الدنيا ، ولا يَنْفَعهم ؛ لأنهم اتَّخَذُوا أهواءَهم آلهةً من دون اللّه ، وعملوا بأهوائهم لا بِنُور الإيمان ، فجاءَت رِيحُ الهوى فذَرَتْه في النار .

مثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها

مَثَلُ[2] الذي آتَيْنَاه آياتنـا فانْسَلَخَ منهـا[3] فَمَثَلُه كمثَل الكَلْب إنْ تَحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتـركه يلهث[4] ؛ وذلـك[5] لأَنَّ الكلب مَيِّت الفُؤاد من بين السباع ؛ وذلك فيمـا رُوِي لنا عن ابن عباس رضي اللّه عنه أنـه قال : لما أُهبط آدمُ عليه السلام إلى الأَرض وَسْوَس العدوُّ إلى السِّبَـاع إنَّ هـذا عدوّ لكم فـاقتلوه ، جاءَت الـوحوش فـاحتَـوَشَتْـه[6] واجتمعـوا عليه ، وجاءَ العـدوّ فَأَشْلَى[7] الكَلْبَ حتى ينبح ، فأَوَّل مَنْ حَمـل عليه

---

(١) إبراهيم (١٤/١٨).

(٢) الأعراف (٧/١٧٥ ، ١٧٦).
راجع تفسير الطبري (٩/٨٥).

(٣) انسلخ منها : نزع منه ما تعلمه من علم .

(٤) يقال لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من شدة العطش أو الجري .

(٥) راجع الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٢٣) وفيه عزى القرطبي هـذا الكـلام للحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

(٦) احتوشته : أحدقت به .

(٧) أشلى : أغرى ، والإشلاء هو الإغراء .

الكلب ؛ فتخوّف آدمُ عليه السلام فنُودي أن يا آدم لا تَخَفْ . فأُعطي العصا الذي[1] لموسى عليه السلام فضربه بذلك ، فذلَّله وهزمه[2] ، ثم أُمر بأن يمسح يده على رَأْسِه فأَلِفَ به وبوَلَده بعد التذلُّل ؛ ثم أَشْلَاه على السباع ، فحمل عليها معادِياً لها إلى يوم القيامة ، وصار يحرسهم ويصطاد لهم . فلما وصل إليه سلطانُ العصا[الذي][3] جُعل فيها صار الكلْبُ ميّت الفؤاد فبَقِي فيه اللَّهث إلى يوم القيامة ، حَمَلْتَ عليه أو لم تَحْمِلْ ، فلم تزل تلك العَصَا في حفْظِ اللّه تتداولها الأَيْدِي إلى وقْتِ موسى عليه السلام .

ويقال : كانت تلك العصا مِنْ آسِ الجنة[4] ، فذلك الذي آتاهُ اللّه من الكرامة ما لو أراد أَنْ يَصْرِفَها إلى الآخرة لحصل له ذلك ؛ لقوله تعالى[5] : ﴿ ولو شِئْنَا لَرَفَعْنَاه[6] بها﴾ ؛ أي لو صرفها إلى الآخرة آتيناه ذلك ، ولكنه أَخْلَدَ[7] إلى الأَرض ، صرفها في وُجُوهِ الدُّنيا التي هي للفناءِ ، وركب الهوى ، وقصد إلى كليمنا ، كما قصد الكَلْبُ إلى صَفِيِّنا ؛ فصار مَثَله مثل الكلب ؛ فمعنى قوله : مثَلُه كمَثَلِ الكَلْب ؛ أي إن هذا الذي صار كَلْباً وهو بلعم[8] إنْ رأى آياتنا وعِبَرنا لم يَتَّعِظ ، وإن لم ير لم يَتَّعظ ؛ لأنه انسلخ مما آتيناه .

---

(١) قال الإمام القرطبي : ـ « فنزل جبريل بالعصا التي صرفت إلى موسى بمدين » اهـ .
(٢) وهربه [ب] .
(٣) كذا في [ج] .
(٤) راجع الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٢٣) .
(٥) الأعراف (٧/١٧٦) راجع تأويل مشكل القرآن ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٦) المقصود هو بلعام بن باعوراء .
(٧) أخلد إلى الأرض : سكن وركن إليها .
(٨) الأصح (بلعام) ولعله تحريف .

مثل الحياة الدنيا

وقال[1] : ﴿ إنما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزَلْنَاهُ من السماءِ فاخْتَلَطَ بـه نَبَاتُ الأرضِ[2] ممـا يأكـل الناسُ والأنعـامُ حتى إذا أَخَذَت الأرضُ زُخْرُفَهـا[3] وازَّيَّنَتْ وظنَّ أَهْلُها أنهم قادرونَ[4] عليها أتاهـا أَمْرُنـا[5] ليلاً أو نَهاراً ، فجعلناها حَصِيداً[6] كأن لم[7] تَغْنَ بالأَمْسِ ، كذلك نفصِّـلُ الآيات لقوم يتفكَّرُون ﴾ .

فأراهم اللَّه عاقبـةَ أَمْرِ الـدنيا وفَنـائِها بمـا عايَنُـوا من انقضاءِ أيـام الربيع كيف تلاشت زِينتُها وبَهْجتُها ، كذا حال زينةِ الدنيا .

وقـال في شأْن الـرؤيا من أمـر الكواكب والشمس والقمـر ، فهي شعبة من هذا ، وَأُرِيها في منامـه ، وضرب لـه شأْن الآخـرة بالكـواكب والشمس والقمر مثلاً : ﴿ وكُلًّا[8] نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسـل ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ ﴾ .

فإذا كانت الأَخبارُ المتقادمـة فيها تثبيتٌ للفؤاد كـان فيما أَراك اللَّهُ بِبَصَر رَأْسِكَ وسَمْع أُذُنِك ما له تثبيتٌ للفؤاد .

---

(١) يونس (١٠/ ٢٤) .
(٢) اختلط بِهِ نبات الأرض : أي شرب النبات من المطر فتندى وحسن واخضرّ .
(٣) زخرفها : حسنها وزينتها .
(٤) قادرون عليها : على الانتفاع بها .
(٥) أمرنا : هلاكـها وعذابها .
(٦) حصيداً : مجذوذة مقطوعة لا شيء فيها .
(٧) كأن لم تَغْنَ بالأمس : كأن لم تكن حافلة عامرة ممرعة خصيبة بالأمس .
(٨) هود (١١/ ١٢٠) .
راجع تفسير الطبري (١١/ ٨٨) .

وقـال في شأن داود صلَّى اللَّه عليـه وسلَّم من قول الملكين[1] : ﴿ إنَّ هـذا أَخِي له تِسْـعٌ وتِسْعُـون نعجـةً ولي نعجـةٌ واحـدة ، فقـال : أكْفِلْنيها وعَزَّني في الخطاب ﴾[2] يُعَرِّفه قُبْحَ ما أتاه .

مثل الماء الذي جرى في الأودية

وضـرب اللَّه مثلاً ليُبيِّن الحقَّ من البـاطل فقـال[3] : ﴿ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فسـالَتْ أوْدِيةٌ بقَـدَرِها[4] فـاحتمل السَّيْـلُ زَبَداً رابيـاً[5] ومِمّا يُوقِدونَ عليه في النار ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه، كذلك يضـربُ اللَّهُ الحقَّ والباطلَ فأما الزَّبَد فيذهبُ جُفَاءً[6] وأما ما ينفع الناسَ فيمكُثُ في الأرض كذلك يضربُ اللَّه الأمثال ﴾ .

فالحقُّ مثلُ الماءِ الذي جرى في الأَوْدِيَة . فسالت أودية بقدَرِها ؛ أي اختلط الحقُّ بالباطل ، لأن النَّفْس جاءَت بأباطِيلها ومُنَاها وشهواتهـا التي هي إلى فناءٍ ، فمنَّتها فاغترّ بها القَلْب ، والحق لا يَفْنَى ولا يَبْلى . فقوله : أنزل من السماءِ ماءً ؛ أي القرآن ؛ شبَّه القرآن بالماءِ ، لأَنَّ فيه منفعةَ الدّين من الأَحكام والشرائِع ، كما أَنَّ في المطر منفعة الدنيا ، ثم

(١) ص (٣٨/٢٣) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/١٧٤).

(٢) عـزَّني في الخطاب : غلبني فيـه ، ويقال صـار أعز مني ، ويقـال عازرته ، فعـززتـه وعزني ، راجع تفسير الطبري (٢٣/٩١ ، ٩٢) والقرطبي (١٥/ ١٧٤ ، ١٧٥).

(٣) الرعد (١٣/١٧).

(٤) بقدرها : بقدر ما تمتلىء .

(٥) زبداً رابياً : زبداً عالياً في الماء .

(٦) الجفاء : ما أجفاه الوادي أي رمى به .

شبَّه القلوبَ بالأَودية لأَنه وجد النُّورُ في القلب مَنْفذاً ومجازاً ، كما وجد الماءُ في هذه الأَودية منفذاً وَمَجَازاً . ثم شبه القلوبَ بالسّيل، وشَبّه الباطلَ بالزَّبَدِ الذي يَعْلُو فَوْقَ الماءِ ؛ فكلُّ قلب لم يتفكَّر ولم يَعْتَبر ، ولم يَرْغَب في الحق خذَله اللَّهُ تعالى ، ووجدت الظلمةُ والْهَوَىٰ في قلبه مَنْفَذاً ومجازاً ، كما أَنَّ السيلَ وجد في الأَوْدِية مَنْفَذاً ومجازاً ، فلما خُذِل هذا القلبُ احتمل الباطلَ كما احتمل السيلُ الزَّبَدَ الرابي . وإذا وَجَد القلبُ التوفيقَ فتفكَّر واعتبر احتمل الحقَّ كما انتفع الناسُ من الماءِ الصافي ؛ ثم وصف الحقَّ والباطل لصاحبهما فقال : فأَمَّا الزَّبدُ فيَذْهَبُ [٤٦] جُفَاءً ، يعني تَذْهبُ منفعتُه ، كذا الباطل تَذْهَبُ منفعتهُ على صاحبه في الدنيا والآخرة . وأَمَّا ما ينفع الناسَ فيمكثُ في الأَرض ؛ وهو الماءُ الصَّافي . كذلك الحقّ : شبّه الحقَّ بالماءِ الصَّافي ؛ لأنه تَبْقَى منفعتُه لصاحبه في الدنيا والآخرة كما يبقى الماءُ لمن أَخذه .

مثل الكافر إذا دعا

ومَثَل(١) الكافر إذا دَعَا كباسِطٍ كَفَّيْهِ إلى الماءِ ليَبْلُغَ فَاهُ وما هو ببالِغِه ؛ أي لا يُستَجابُ دعاءُ الكافر كما لا يَبْلغ الماءَ الذي بَسطَ كفَّيْه ، لقوله تعالى : ﴿ وَما دُعَاءُ الكافِرين إلا في ضَلال ﴾ ؛ أَي إلا في باطل .

---

(١) الرعد (١٣/ ١٤)
راجع تفسير الطبري (١٣/ ٨٦)

مثل كلمة طيبة

وقــال(١) : وَمَثَـلُ كَلِمــةٍ طَيِّبَـةٍ(٢) كشجَــرَةٍ طَيِّبَـة ؛ وهي كلمــةُ الشهــادةِ ، طابَتْ واستنــارت ، وتفرَّعَت بــالأعمــال الصَّــالحـة ، وكلمـة الشِّــركِ كشجرة خَبِيثـة(٣) ، وهي الحنظلةُ ، ليس لهـا قرار ولا قـائمة ، فهي ساقطةٌ بالأرض .

مثل أعمال الكفار

وقــال(٤) : مَثَلُ أعمــالِ الكفارِ كـرَمَادٍ اشتـدَّتْ به الـرِّيحُ في يـوم عــاصفٍ . فـالكفَّــار اتخــذوا أَهْــواءَهم آلهــةً مِنْ دون اللَّهِ ، وعملوا بأهوائهم ؛ فجاءَت رِيحُ الأهواءِ فذَرته في النار .

---

(١) إبراهيم (١٤/٢٤ ، ٢٥) .

(٢) الكلمة الطيبة : هي كلمة التوحيد (لا إلـه إلا الله) والشجرة الـطيبة : النخلة وقـال ابن عبـاس رضي الله عنهما : « الكلمـة الـطيبـة لا إلـه إلا الله ، والشجـرة الـطيبـة المؤمن ، وقال مجاهد : الكلمة الطيبة الإيمان » اهـ .
راجع القرطبي (٩/٣٥٩) بتصرف.

(٣) إبراهيم (١٤/٢٦) .
الكلمـة الخبيثـة : قـال القـرطبي « هي كلمـة الكفـر والشجـرة الخبيثـة هي شجــرة الحنظل » اهـ .
راجع الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٦٠) بتصرف .
وارجو مراجعة الطبري أيضاً (١٣/١٤١) .

(٤) إبراهيم (١٤/١٨) .
واليوم العاصف : شديد الريح ، شبه أعمالهم بذلك ؛ لأنه يبطلها ويمحقها .

وقال فيمن افترى على اللّه كذبا[1] : ﴿ وَيَجْعَلُون للّه البناتِ سبحانَهُ ولهم ما يَشْتَهُونَ ﴾ .

أي إن كنتم لا تَرْضَوْن لأَنفسكم البنات وتُؤْثِرُون لأَنفسكم البنين فكيف نَسَبْتُم إليّ ما لا تَرْضون لأَنفسكم .

وقال[2] : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فكأَنما خرَّ من السّماءِ فَتَخْطَفه الطَّيْرُ أو تَهْوي به الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحِيق ﴾[3] ؛ فإذا أَشرك باللّه فقد سقط عند اللّه ، وَبَرِيءَ اللّهُ منه ، فاختطفه العَدُوُّ ، وَهَوَىٰ به رِيحُ الهوى إلى قَعْرِ النارِ .

مثل الوثن الذي يعبدونه من دون اللّه

ومَثَل الوَثَن الذي يعبدونه من دُونِ اللّه كمثل عبد مملوك لا يَقْدِرُ على دانق ولا حبَّة قوله تعالى[4] : ﴿ ضَرَبَ اللّهُ مثلاً عَبْداً مَمْلوكاً لَا يَقْدِرُ على شَيْءٍ ومَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رزْقاً حَسَناً ، فهو يُنْفِقُ منه سِرًّا وَجَهْراً ، هل يستوون ، الحمدُ للّه ، بل أَكثرهُم لا يعلمون ﴾[5] . قال : فكيف

---

(١) النحل (١٦/٥٧).
سبحانه : تنزيهاً له عن ذلك ، ولهم ما يشتهون : أي من البنين . يقول القرطبي : - « نزلت في خزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون : الحقوا البنات بالبنات » اهـ.
الجامع لأحكام القرآن (١٠/١١٦)

(٢) الحج (٢٢/٣١).

(٣) المكان السحيق : البعيد وتخطفه الطير : تقطعه مخالبها .

(٤) النحل (١٦/٧٥).

(٥) راجع الطبري (١٤/١٠٠).

سوَّيْتمُوه بي وأنا الرازقُ أُنْفِقُ عليكم .

وضرب مثلاً آخر ، فقال[1] : ﴿ وضرب اللّه مَثَلاً رجُلَيْن أَحَـدُهما أبْكَمُ لا يَقْـدِر على شيء وهو كـلٌّ[2] على مَوْلاَه أيْنَمـا يُـوَجِّهْـه لا يَـأْتِ بخير ، هل يستوي هو ومَنْ يأْمرُ بـالعَدْلِ وهـو على صراط مستقيم ﴾ ، كيف عدلتموه بي في العبادة وأنا لَسْتُ بأَبْكم ، خلقتُكم بكلمةٍ واحدة ، وأقـدرتكم مِنْ قُدْرتي على دُنيـا محشوَّة بـالنعم ، أَعُولُكم وأُطعمكم ولا تطعموني . وهذه الآية والآية التي قبلها قد ذكرنـا مَعَانيهمـا في مَوْضـعٍ آخر وسطَّرناهما .

مثل ناقض العهد

وضـربَ اللّهُ في ناقض العَهْـدِ مثـلاً ؛ فقـال[3] : ﴿ وَلاَ تَكُـونُـوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بعد قُوّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيمـانَكم دَخَلاً بينكم أَنْ تكونَ أُمَّةٌ هي أَرْبى من أُمة إنما يَبْلُوكمُ اللّهُ به وَلَيُبَيِّنَن لكم يَوْم القِيامةِ ما كنتم فيه تختلفون ﴾ ؛ فقال : مثل الذي نقض العَهْدَ كَمَثـل الغَزْل التي نقضت تلك المرأة الحمقاءُ .

= ومعنى الآية أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء من أمـره ورجل حر قد رزق رزقاً حسناً فكذلك أنا وهذه الأصنام .

(١) النحل (١٦/٧٦) .

(٢) كلٌّ على مولاه : ثقل على وليه وقرابته .

(٣) النحل (١٦/٩٢) .

راجـع تفسير القـرطبي (١٠/١٧١) وتأويـل مشكـل القـرآن ص ٣٠١ بتصـرف

والأنكاث : ما نقض من غزل الشعر وغيره .

أمة : فريقٌ منكم ، أربى من أمة : أغنى من فريق .

كان لعمرو بن كعب بن سعد بنتٌ تسمَّى رَيْطة ، وكانت إذا غزلت الصوفَ أو شيئاً آخر نقضته لحُمْقها ، فقال : ولا تَنْقضوا ؛ أي لا تنكثوا العُهودَ بعد توكيدها كما نقضت تلك الحمقاءُ غَزْلها من بعد قُوةٍ : من بعد إبرامه . أنكاثاً : يعني نَقْضاً ، فلا هو غـزْل تَنْتَفِعُ بـه ولا صوف يُنْتَفـع به ، فكـذا الذي يُعْـطِي العهد ثم ينقضُـه لا هو وَفى بـالعَهْـد إذا أعطاه ولا هو ترك العَهْد فلم يُعطه .

وضرب مثلاً آخر لناقض العهد ، فقال[1] : ﴿ ولا تَتَّخِـذُوا أَيْمَانَكم دَخَلاً بينكم فتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثبوتها وَتَذُوقوا السُّوءَ[2] بِمَا صَدَدْتم عن سبيلِ اللّهِ ولَكُمْ عَذَابٌ عظيم ﴾ ؛ أي عهودكم بالمكر والخديعة . فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها : يَقولُ إنَّ ناقضَ العهد يَـزِلُّ في دِينه عن الطاعة كما تَزِلُّ قَدَمُ الرّجل بعد الاستقامة .

مثل لأصنام أهل مكة

وضرب مثلاً لأصنام أَهْلِ مكَّة ، فقال[3] : ﴿ يا أَيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا له إنَّ الَّذين تَدْعَونَ من دُونِ اللّهِ لن يَخْلُقُوا ذُبَاباً ولو اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبهم الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذونَه منه ضعُفَ الطالِبُ والمطلوب ﴾[4] .

(١) النحل (١٦/٩٤).
(٢) ذوق السوء في الدنيا : ما يتتابعهم من المواقع والمكاره .
(٣) الحج (٢٢/٧٣).
(٤) الاستنقاذ : التخليص .

قال : أَراهم اللَّه ضَعْفَ الذُّبَابِ وعَجْزَه عن القُدْرَةِ لِيَعْلَمُوا عَجْزَ أَصنامِهم التي لا تتحرَّكُ وليس فيها حياة ، أَنها أَقل وأَضعفُ غياثاً عن الذُّباب ، فكيف تكونُ شريكةً للقادر ؟

وقال(١) : ﴿ لَوْ كَانَ فيهما آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لفَسَدتا فسُبْحَان اللَّه رَبّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ ، يُرِيهم أَنَّ الشركاءَ يتزاحَمُونَ ويتفاوَتُون بأَهوائهم وإراداتهم ، فلو كان لي شُركاءُ كما تزعمون لفسد التدبير ولزَالَتا . وقال(٢) : ﴿ إذاً لذَهَبَ كلُّ إِلَهٍ بما خَلَقَ ولعَلاَ بَعْضُهم على بَعْض ﴾ .

مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله

وضرب مثلاً لقَلْبِ المؤمن وأعماله وَقَلْب الكافر وأعماله ؛ فقال(٣) : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّموات والأَرْض مَثَلُ نُوره كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ يكادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُور على نورٍ ، يَهْدِي اللَّه لنُورِه مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّه الأَمْثَالَ للناسِ ، واللَّهُ بكلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) الأنبياء (٢١/٢٢) .

(٢) المؤمنون (٢٣/٩١) .

(٣) النور (٢٤/٣٥) .
راجع في تفسير الآية الطبري (١٨/١٠٩) والبحر المحيط (٦/٤٥٦) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/٢٣١) .

(٤) المشكاة : الكوة غير النافذة ، وقيل عمود القنديل الذي فيه الفتيلة . المصباح : السراج .

ضرب المثلَ لنورِه في قَلبِ المُؤْمِن ليُعْلِمَه قَـدْرَه ومَنْزِلَتَـه ؛ فدلَّـه بالحاضر عَلَىٰ ما أَعـدَّ له في الآجـل ؛ فنَفْسُ المؤمِن مِثْلُ بَيْتٍ ، وَقَلْبُـه مثلُ قِنْدِيـل ، ومعرفتُـه مثلُ السِّـرَاج ، وفَمُه مِثْـلُ الباب ، ولسـانُه مثـل المِفْتَـاح . والقنديـلُ معلَّقٌ فيه دُهْنُهـا من اليَقِين ، والفَتيلةُ من الزُّهـد ، وزُجاجُها من الرضا ، وعلائقها من العَقْلِ ؛ إذا فتح المؤمنُ لسانَه بإقرار مـا في قلبه ، فـاستضاءَ المِصْبَـاحُ مِنْ كُوَّتِـه[1] إلى عَرْش اللَّه تَعَـالَىٰ ؛ فكـلامُه نـورٌ ، وعَمَلُه نور ، وظَـاهِرُه نـور ، وباطنُـه نور ، ومَـدْخله في الأَعمال نُور ، ومَخْرَجه منها نُور ، ومَصِيره يوم القيامة إلى النور .

مثل أعمال الكفرة

وقال[2] : مَثَلُ أَعمالِ الكفَرة كـالسَّراب الـذي يَحْسَبُه الـظَّمآنُ[3] ماءً ، حتى إذا قدم عليـه غداً أَكـذبه[4] أُمْنِيتـه ، وساقَـهُ عَطْشَـان[5] إلى النـار ؛ وهو قـوله تعـالى[6] : ﴿ فوفَّـاهُ حِسابَـه ﴾ ، مستعدّاً لعـذابـه ، ويُجَازِيه بِعمله .

ظلمـات[7] بعضُها فَـوْقَ بعض : ضرب مثـل صَدْرِه وقَلْبـه وعَمله

---

(١) الكوة : الخرق في الحائط .

(٢) النور (٢٤/ ٣٩، ٤٠).

(٣) السـراب : ما يـرى من الشمس كالمـاء نصف النهار في اشتـداد الحر . الـظمـآن : العطشان . راجع الطبري (١٨/ ١١٤) والقرطبي (١٢/ ٢٨٢).

(٤) كذا في [أ] و[ب] وفي [ج] كذبه .

(٥) عطشانا في [ج].

(٦) النور (٢٤/ ٣٩) والـ « بِقيعة » والقيعة هي القاع .

(٧) النور (٢٤/ ٤٠).

بظلمة البحر والمَوْج والسحاب ؛ فالبَحْرُ قَلْبُه المُظْلِمُ والمُتَحيِّر ، والمَوْج[1] شِرِكه ، والسّحاب أعماله السّيئة ؛ إذا أخرج يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاها ؛ أيَّ لم يَرَهَا [هو][2] البتَّة . ولم يكد ؛ أيْ ولم يكد أنْ يَرَاها ؛ فكذا قَلْبُ الكافرِ مُظْلِمٌ في صَدْرِ مُظْلم ، في جسدٍ مظلم ، لا يُبْصِر نُورَ الإيمانِ ، ولم يُرد أن يراهُ.

ويقال : سَمْعُه ظُلْمَة ، وبَصَرُه ظُلْمَة ، ولسانُه ظُلْمة ، وقَلْبُه ظُلْمَة ؛ فذلِكَ قولُه تعالىٰ[3] : ﴿ ظلماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْض . وَمَنْ لَم يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِنْ نُور﴾ .

مثل بيت العنكبوت

ثم ضرب مَثَلاً آخر للكافر ؛ فقال[4] : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دونِ اللَّهِ أولياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخذَتْ بَيْتاً ﴾ .

قوله : اتَّخَذُوا ؛ أي عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أولياءَ ؛ أي بالربوبية ، لا يَنْفَعهم في الآخرة، كما لا يَنْفَعُ بيتُ العنكبوتِ العنكبوتَ في حَرٍّ ولا قُرٍّ[5] ؛ فكذا ضعف الصَّنَم ؛ ثم قال : وإنَّ أوْهَنَ[6] البيوتِ لبَيْتُ العنكبوتِ لا يستر ، ولا ينفَعُ ، ولا يَدْفَعُ حَرّاً ولا بَرْداً ؛ كذا كل معبود

---

(١) والمورد [ج].
(٢) مأخوذة من هامش [ب].
(٣) النور (٢٤/ ٣٩) .
(٤) العنكبوت (٢٩/ ٤١).
(٥) القر: البرد .
(٦) أوهن البيوت : أضعفها .

دُونـه ؛ أَي إِن الكافـر عارٍ[1] عن ستـر اللَّهِ يخـرُج إِلى اللَّه عـارِيـاً فـلا يكسى ، وتَبْدُو فَضائِحُهُ وقبائحه على رُؤُوس الأَشهاد .

مثـل الشـرك

وضـرب مثـلاً آخـرَ للشـرك ؛ قـال[2] : ﴿ ضـربَ لَكُمْ مَثَـلاً مِنْ أَنْفُسِكم هل لكم مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكم مِنْ شُرَكاءَ فيما رَزَقْنَـاكم فأَنتم فيـه سَـواءٌ تخـافُـونَهم كخِيفَتِكم أَنفُسكم كـذلِـكَ نفصِّـلُ الآيـاتِ لقـومٍ يَعْقِلُون ﴾ . معناه : هل أَنتم تجعلونَ عَبِيدَكم شُركـاءَ فيما أَعـطيناكم ؛ فـأَنتم فيه سـواءٌ . تخافُـونَهم ؛ أَي تخـافـونَ مِنْ لائِمـةِ عَبيـدِكم إِنْ لم تشـاركـوهم في أَمْـوَالكم [٤٧] كخِيفتكم أَنْفُسَكم ؛ أَي كـلائمـةِ أَهـلِ الميراث من الأَولاد والقرابات إِن لم يُعْطُوا الميراثَ .

معناه لا يخافُ المخلوقُ من شركة عَبْدِه في مالـه في حياتـه وبَعْدَ ممـاتِه ، كمـا يخافُ من أَهله وأولاده وقَـرَابته ؛ فكـذا جميـع الخـلائقِ عبيدهُ ، وإِماؤه ، لا يخافُ منهم الشَّرِكةَ في مُلْكِه .

---

(١) عاري [ج].
(٢) الروم (٣٠/٢٨).
راجع تفسير القرطبي (٢٣/٢٩٧) و(٢٣/٤١٠).

مثـل المشـرك

وضـرب مثلاً آخـر لأهل الشـرك ، فقال[1] : ﴿ ضـربَ اللّهُ مَثَلاً رجُلاً فيه شُركاءُ مُتَشَاكِسُونَ[2] ورَجُلاً سَلَماً لرجُل ، هل يَسْتَويـان مَثَلاً ، الحَمْدُ للَّه ، بل أكثَرُهُم لا يعلمون ﴾ .

فالموَحِّـدُ أسْلَم وجْهَهُ لِلَّهِ وَحْـدَه ، والمشركُ أسلم وجهـه لأربابٍ متفرِّقين ، فكيف حالُه في الدنيا في بَعث عبوديته[3] لهم ؟ وكيف حالُـه في الآخرة ؛ فهو وأربابُه في النار .

مثـل المنـافقيـن

مَثَلُ[4] المنافقين[5] مع بني قُرَيْـظَة وبَيْعَتهم إياهم كمثـل الشيطان مع برصيصـا ؛ إذ قال لـلإنسان : اكفُـرْ ، فلمّا كَفَـرَ قال الشيـطان له :

---

(١) الزمر (٣٩/٢٩).

(٢) متشاكسون : مختلفـون يتنازعـون ويتشاحنـون فيه ، ورجـل شكس :سيِّىء الخلق، ورجلاً سلماً : أي خالصاً لسيد واحد . راجع الجامـع لأحكام القـرآن (١٥/٢٥٢ ، ٢٥٣) والـطبري (٢٣/١٣٦) وقـال قتادة :«هو الـرجـل الكـافـر ، والشـركـاء هم الشياطين » اهـ .
راجع الدر المنثور (٥/٣٢٧) والطبري(٢٣/١٣٧)أما قوله تعالى : ﴿ورجلاً سلماً﴾ فهو المؤمن يعمل لله وحده .

(٣) عبودته [في الأصول] وهي العبودية .

(٤) الحشر (٥٩/١٦).

(٥) «وهذا مثل ضرب للمنافقين واليهود في تقاعسهم وتخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم » راجع الجامع لأحكام القرآن (١٨/٣٧) بتصرف .

إنبي بَرِيءٌ منكَ ـ تَبَرَّأَ منه ـ تبايَعُوا مع يهود بني قريظة إنَّا معكم للقتال على محمّد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ، فلما آلَ الأَمْرُ إلى القتال تبرَّءُوا منهم ، وعاقبةُ الكُلِّ في النارِ كعاقبة الَّذين[1] في النار .

مثل الذين حملوا التوراة

وقال[2] : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثم لم يَحْمِلُوها كمثل الحِمَار يَحْمِلُ أسفاراً ﴾[3] .

شَبَّه اليهودَ بالحُمُر ، لأنهم تَحَمَّلوا دراسةَ التوراةِ ، وتركوا العملَ بها ، فأتعبوا أبدانَهم ، ولم يَنْتَفِعوا بها .

فهذه الأمثال نموذجات ما غاب عن العين والأسماع لِتُدرِكَ النفوسُ ما أُدرِكَتْ عياناً لما أُنْبيء .

الأمثال من الأخبار

وما في الأخبار مِنْ ضَرْبِ الأمثالِ أكثر مِنْ أَنْ يُحْصى ، نذكر بعضها :

---

(١) اللذين [في الأصول] وهو تحريف من الناسخ .

(٢) الجمعة (٦٢/٥).
راجع تفسير الإمام الطبري (٢٨/٦٣) والفخر الرازي (٨/١٥٠)والجامع لأحكام القرآن (١٨/٦٤) ط. دار الكتب .

(٣) السفر : الكتاب الكبير ، والمقصود في الآية الجزء من أجزاء التوراة وهي كتاب اليهود المقدس .

قـال : حدثنـا سفيان ، حـدَّثنيه أبـو الـزَّعْـراءِ عَمْـرو بن عَمـرو ، وسمعه ابن عمه ، أي الأحوص ، عن أبيه ، عن رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ، قال : أرأيْتَ لو كان لكَ عَبْدَانِ أحدهما يكذبك ويخـونُك ولا يصدقك ، والآخر لا يكذبـك ولا يَخُونـك ويصدقـك ؛ أيُّهما أحبُّ إليك ؟ قلتُ : الذي لا يكذبني ولا يخونني ويصدقني . قال : فكـذلك أنْتُم عَبيـدُ رَبِّكم ، أرأيت لو كـان لك إبِـل[1] ؛ فجدعْتَ هـذه ، فقلت صَـرْماءَ[2] ، وتشقّ هـذه وتقول بَحِيـرة[3] ، فساعِـدُ اللَّهِ أشدُّ ، ومُـوسَاهُ أحَدّ ، لو شاءَ أنْ يَأْتيكَ بها صَرْماءَ فَعَلَ .

عن عُثمان رضي اللَّه عنه قال : قَيِّدُوا العِلْمَ . قلنا : وما تَقْييدُه ؟ قال : تعلَّمُوه وعَلِّموه واستَنْسِخُوه ؛ فإنه يُوشِكُ أنْ يَذْهَبَ العلماءُ ويَبْقَى القُرَّاءُ لا يجاوِزُ قراءَة أحدهم تَرَاقِيَه[4] .

مثل العـالم

ومنها : قال عليه السلام : إنما مَثَل العـالم كمَثَل ينبـوع مـن مـاء يسقِي بلدَه وَمَنْ مَرَّ به ، كذا العالم ينتفِعُ به أهْلُ بلده ومن مرَّ به .

---

(١) وردت بالأصل [إبلا] وهو تحريف من الناسخ .
(٢) صـرماء : من صـرم أي قطع والصـرماء هي مقـطوعة الأذن والصـرم جمع صـريمة . راجع مختار الصحاح ص ٣٦٢ ط. دار القلم .
(٣) بحيرة : هي التي بحرت أذنها أي شقت .
(٤) التـراقي : جمع مفـرده ترقـوة ، وهي العظمـة التي بين ثغرة النحـر والعـاتق ، وهمـا ترقوتان من الجانبين .

مثل الرسول في الدعوة

ومنها : قال عليه السلام : مَثَلِي في الدَّعْوَةِ مثـلُ سَيِّدٍ بَنَى داراً ، واتَّخَذَ مَأْدبة ، وبعثَ دَاعياً يَدْعو إلى مَـأْدبته في داره ، فـالسيّدُ هـو اللَّهُ تعالى ، والمأْدُبةُ الجنة ، والداعي أنا .

مثل الآدمي ومثل الموت

ومنها قال عليه السلام[1] : مَثَلُ الآدَمِيّ ومَثَل الموتِ كمثل رجُلٍ له ثلاثةٌ من الخِلاَّن ؛ فقال أحدُهم له : هذا مـالي فخُذْ مِنْـهُ ما شِئْتَ ، وأَعْطِ منه ما شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شئت .

وقـال الآخـر : أنـا معـكَ أَحملك لي مـا دمْتَ حيًّـا، فـإذا متَّ تركتُك .

وقـال الثـالث : أنـا معـك أدخـل معـك ، وأخـرجُ معـك متَّ أو حَيِيت .

فـالأَوَّلُ مالـه . والثاني عَشِيـرتُهُ . والثـالث عَمَلُه حيثما كـان فهو معه .

مثـل القـرآن

ومنها ما رَوَىٰ نافع عن ابن عمر رضِيَ اللَّه عنهما[2]: مثَل القرآن

---

(١) راجع الإصابة (٢١٨/٤) ط. نهضة مصر بتحقيق علي محمد البجاوي.

(٢) صحيح مسلم (٥٤٣) وفي رواية (إنما مثل صاحب القرآن).

مثل الإِبلِ المَعَقَّلة[1] إنْ عقلها صاحبُها أمسكها عليـه ، وإن أرسلها مِنْ عُقلها ذهبت .

مثل من لعب الميسر

ومنهـا قولـه عليه السـلام : مثـل مَنْ لَعِبَ الميسـر ثم قـام يصلي كمثل الذي يتوضّأُ بالقَيْح ودَمِ الخنزير ثم قام فصلَّى ، فيقول : قد يقبلُ اللَّهُ صَلاَتَه .

مثل قارىء القرآن

ومنهـا قولـه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : مَثَـلُ القرآن مثـل جِرابٍ فيـه مِسْكٌ قد ربط فمهُ ، فإن فتحه فاح ريحُ المسكِ ، وإنْ تركه مربوطاً كان مِسْكاً موضوعاً ؛ فإن قرأت القرآن وإلَّا فهو في صَدْرِك .

وقال صلَّى اللَّه عليـه وسلم أيضـاً[2] : مَثَـلُ المُؤْمِنِ الـذي يَقْـرأُ القرآن كمثلِ الأُتْرُجّة[3] ، طعمُها طيّب ، وريحُها طيّب . ومثـل المؤمن الذي لا يَقْرَأُ القرآنَ كمثل التَّمْرةِ طَعْمُهَا طيِّب ولا رِيحَ لها .

---

(١) الإبل المعقلة : المشدودة بالعقال .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (٥٤٩).

(٣) الأترجة : مفرد جمعه (الأترج) وهي نبت طيب الطعم طيب الرائحة حسن اللون .

مثل المنافق القارىء للقرآن وغير القارىء له

ومَثَل المنافق الذي يَقْرَأُ القرآنَ كمثل الرَّيْحَانَةِ ريحُها طيِّبٌ وطعمها مرّ . وَمَثَلُ المنافق الذي لا يَقْرَأُ القرآن كمثل الحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مُرٌّ ولا رِيح لها .

مثل الكافر

ومثَل الكافر كشجرةٍ خَبِيثة طَعْمُها مُرٌّ خبيث لا خَيْرَ ولا أصل ، اجْتُثَّت ؛ أي انْتُزِعت من فوق الأرض ما لها من قَرَار ؛ أي من أصل ، بِأَدْنَىٰ رِيح تقَعُ عَلى وَجْهِ الأرض ، وتخرج من أصلها؛ كذا كلمة الكفر[1] .

مثل كلمة الشهادة

ومَثَلُ كلمةِ الشهادة من المؤمن كمثَلِ شَجَرَةٍ طيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماءِ . تُؤتِي أُكُلَها كلّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّها ، ويضربُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للناس لعلهم يتذكرون[2] .

مثل من يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أو لا يعلم

ومنها ما حدثني به عمر بن أبي عمر بإسناده عن سفيان بن

---

(١) راجع سورة إبراهيم (١٤/ ٢٦).

(٢) إبراهيم (١٤/ ٢٤، ٢٥).

حسين ، قـال : قال لي إيـاس بن معـاويـة : إني أراك قـد لهجت بعلم القـرآن ، فاقـرأ عليَّ سورةً وفسِّـرها حتى أنْـظُرَ أيْنَ تقع . فقـرأْتُ عليه سـورةً وفسّرتُهـا، فقال : يـا سفيان ، لا عِلْمَ أَشْـرف من عِلْمِ القرآنِ . وهل تَدْرِي ما مَثَلُ مَنْ يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أو لا يعلم ؟

مَثَلَهُ مَثَلُ قومٍ جاءَهم كتابٌ من صاحبٍ لهم ليلاً ، وليس عندهم مِصباح ، فقد دخلهم بهـذا الكتاب رَوْعـةٌ[1] ، لَا يَدْرُون مـا فيه ؛ فهم خائفون ، فإذا جاءَهم المصباحُ عَرفُوا ما فيه .

مثل من أُعطِيَ القرآن ولم يعط الايمان

وعن علي رضي الله عنـه قال : أُخبـركم بمن أُعْطِيَ القـرآن ولم يُعْطَ الإيمانَ ، ومن أُعْطِيَ الإيمانَ ولم يُعْطَ القُرْآنَ ، وَمَنْ أُعـطي القرآن والإيمان . ومن لم يُعْطَ القرآن ولا الإيمان : فأَما من أُعطي الإيمان ولم يُعْطَ القرآن فهو بمنزلة ثَمَرَةٍ طيبةِ الطَّعْمِ لا رِيح لها ؛ ومنزلـة من أُعطي القرآن ولم يُعْطَ الإيمانَ منزلة الآسَةِ[2] طيّبة الرّيح خبيثة الطعم ؛ ومنزلةُ من أُعطي القرآن والإيمان بمنزلة الأُتْرُجّـة طيِّبةُ الـطعم ، طيّبةُ الـرّيح ؛ ومنزلة من لم يُعْطَ القرآن ولا الإيمان مثـل الحَنْظَلَة خَبيثـة الطعم خبيثـة الرِّيح .

---

(١) الروعة: الفزعة من الخوف والرهبة .

(٢) الآسة : شجرة جمعها آس .

مثل الرسول والأنبياء

ومنهـا مـا رُوي عن أَبي هـريـرة رضي الله عنــه قـال[1] : قــال رسولُ اللّه صلّى الله عليه وسلم : مَثلي وَمَثَلُ الأنبياءِ كمثَـلِ رجُلٍ بَنَى بُنْيَـاناً ، فعجِبَ لـه الناسُ فقـالوا : واللّهِ مـا رأينا مِثْـلَ هذا البُنْيَـانِ لولا موضع اللَّبِنة ؛ فكنْتُ أَنا موضِعَ تلك اللَّبنة[2] .

مثل المنفق ومثل البخيل

ومنها ما رُوي عن رسـول الله صلّى الله عليه وسلم أنـه قال[3] : مَثَلُ المُنْفِقِ ومثَل البَخِيل كمثل رَجُلين عليهما جُبَّتَان من حَدِيد من لَـدُن ثُـديِّهما إلى تَـرَاقِيهما ، فـأمـا المُنْفِقُ فـلا يُنْفِق شيئـاً إلا سَبَغَتْ[4] على جِلْدِهِ حتى تُوارِيَ بنانَه وَتَعْفُو أَثره[5] .

مثل الصلوات الخمس

[٤٨] ومنهـا[6] مـا رُوي عن رســول الله صلى الله عليـه وسلم

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٧٩١).

(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) الحديث أخرجه بنحوه أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريـرة رضي الله عنـه ، وصححه السيـوطي في الجامـع الصغير (٢/١٥٣) ط. دار الكتب العلمية .

(٤) سبغت : اتسعت .

(٥) تعفو أثره : تمحي أثر سيره بسبوغها .

(٦) حديث صحيح رواه الإمام مسلم .

قال : أَرأيتَ[1] لو أنَّ نَهْراً ببابِ أحدِكم يغتَسِلُ [منه] كلَّ يوم خَمْس مرات ما تقولون ؟ هل يَبْقَى من دَرَنِهِ[2] شَيْءٌ ؟

قالوا : لا . قال : ذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس يَمْحُو اللّهُ بها الخَطَايَا .

مثل لموت المرأة المعجب بها زوجها

وعن القاسم بن محمد أنه قال : هلكت امرأةٌ لي ، فأتاني محمد ابن كعب القُرَظي يُعَزِّيني بها ، فقال لي : إنه كان عالم في بني إسرائيل ، وكان له امرأةٌ وكان بها مُعْجَباً ، فماتت فوجَدَ عليها[3] وَجْداً شديداً ، ولَقِيَ عليها أسفاً[4] ، حتى خلا في بيت ، وأغلق على نفسه ، واحتَجَبَ عن الناس ، فلم يكن يدخُلُ عليه أحَدٌ ؛ وإنَّ امرأةً سمعت به ، فجاءَتْه فقالت : إن لي إليه حاجةً أَسْتَفْتِيهِ[5] فيها ، وليس يُجْزِيني إلاَّ مُشافهته .

فذهب الناسُ ولزمت بابَه ، وقالت : ما لي منه بُدٌّ . فقال له قائل : إنَّ ها هنا امرأةً أرادت أَنْ تستَفْتِيك ، وقالت : إني أُريد مشافهَتَه ؛ وقد ذهب الناسُ ؛ وهي لا تفارِقُ البابَ . قال : ائذنوا لها .

---

(١) وقد وردت « أرأيتم » في صحيح مسلم .
(٢) الدرن : الوسخ والقاذورات .
(٣) وجد عليها : حزن عليها ومنها الموجدة وجمعها مواجيد .
(٤) الأسف : شدة الحزن .
(٥) أستفتيه : أطلب منه الفتيا ، أو الفتوى .

فدخلت عليه فقالت : إني جئتُ أَسْتَفْتِيكَ في أمر . قال : وما هو؟ قالت : إني استَعَرْتُ من جارة لي حُلِيّاً ، فكنت ألبسه وأُعيره ؛ فلبث عندي زماناً ، ثم إنَّهم أَرْسَلُوا إليَّ فيه ، أَفَأُرُدُّهُ عليهم ؟ قال : نعم . قالت : إنَّه مكثَ عندي زماناً . قال : ذاكَ أَحقُّ لِردِّكَ إياه عليهم حين أَعَارُوكه[1] . فقالت : أي رحمكَ اللّه ! أفتتأسَّف على ما أعارك اللّه تعالى ، ثم أخذه ، وهو أحق به منك !

فَأَبصر ما هو فيه ، ونفعه الله تعالى بقولها .

الصيام جنة

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[2] : الصّيامُ جُنَّة كجُنَّة أحدكم من القِتَال .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : حُسن الحِفَاظ صيامُ ثلاثة أيّام من الشَّهْرِ .

مثل من جاء مسجده

ومنها ما رُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه قال : قال

---

(١) أعاروكه : أعاروك إياه .

(٢) اتفق الشيخان على روايته عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد رواه أحمد والنسائي وابن ماجة عن عثمان بن أبي العاص بلفظ الصيام جنة من النار كجنة أحدكم من القتال . اهـ.
راجع كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني (٢/٤٣) بتصرف .
والجنة : هي الستر والوقاية .

رسـولُ اللّه صلّى الله عليه وسلم : مَنْ جـاءَ مسجدي هـذا لم يـأْتِ إلاَّ لخير يتعلَّمه أو يُعَلِّمه ؛ فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى ، ومَنْ جاءَ لغير ذلكَ فهو بمنزلة رجل يَنظُرُ إلى متاعِ غيره .

مثل الرؤيا حين تعبر

ورُوي عن أَبي قِلَابَة رَوَاه قال : مثل الرؤيا حين تعبر كَمَثَل رجُلٍ أُمِرَ أَن يرفع إحدى رجليِه ويضَع أخـرى ، فهو ينتـظرُ متى يُؤْمَر بـوَضْعِهَا فتستقرّ الرّؤيا على ما تعبّر عليه ، فلا يحدِّث إلاَّ عالماً أَو نَاصِحاً(١) .

مثلكم ومثل اليهود والنصارى

ومنهـا ما رُوي عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أَنـه قـال : مَثَلكم وَمَثَلُ اليهود والنصارى كمثل رجُـلٍ استعمل عُمَّـالاً ؛ فقال : مَنْ يعمَـلُ عملاً من صـلاةِ الصبحِ إلى نصف النهـار على قيـراط قيـراط ؟ فعملت اليهودُ .

ثم قـال : مَنْ يعمل لي مِن نِصْفِ النهـارِ إلى صلاةِ العصـر على قِيراط قيراط ؟ فعملت النصارى . ثم قال : من يعملُ من صلاة العَصْـرِ

---

(١) وقد روي الحديث بلفظ (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت) .
رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن مـاجة عن أبي رزين ، كـذا في الدرر ، وقـال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد إسناده صحيـح على شرط مسلم ، وذكـره العجلوني في كشف الخفـا ومـزيـل الإلبـاس عمـا اشتهـر من الأحـاديث على ألسنـة النـاس (١/ ٥١٧) وما بعدها .

إلى صلاةِ المغرب على قيراطين قيراطين ؟ أَلَا فَأَنْتُم .

فَغَضبت اليهـودُ والنصارى ، وقـالوا : نحن أكثـرُ أعمـالاً ، وأَقَـلُّ عطاءً . فقال : أَظلمتكم مِنْ حقِّكم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هـو فَضْلي أُوتيه مَنْ أَشَاءُ .

الناس كإبل مائة

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : إنما النّاسُ كالإبل المائة لا تكاد تَجِدُ فيها راحلة(١) .

مثل المؤمن مثل النخلة

ورُوي عن مجـاهـد رحمـه الله ، قـال : صحبْتُ ابْنَ عـمـر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة ، فما سمعته يحـدِّثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ هذا الحديث(٢) : مثل المؤمن مثـل النخلة إن جَالَسْتَه نَفَعَكَ ، وإن شاركتَه نفعك ، وإن شاورته نفعك ، وإن صاحَبْتَـه نفعك ، وكلُّ شيء من شأْنه منافع ؛ فكذلك النخلة كلُّ شيء من شأْنها مَنَافع .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . (١٩٧٣).

(٢) وقد ورد الحديث بلفظ :

مثـل المؤمن مثـل **النخلة** إن أكلت طيبـا ، وإن وضعت وضعت طيبـا ، وإن وقعت على عـود نخر لم تكسـره ، ومثـل المؤمن مثـل سبيكـة الـذهب ، إن نفخت عليهـا احمرت وإن وزنت لم تنقص .

رواه البيهقي عن ابن عمر وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ١٥٥).

مـثـل الصحــابـة

ومنهــا مـا رُوي عن ابن عبــاس رضي الله عنـه عن رســول الله صلّى الله عليه وسلم ، قال : مَثَلُ أصحابي في النـاس كمثل الملح في الطعام ؛ لا يصلح الطعامُ إلا بالملح .

مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

ومنهـا مـا رُوي عن أَبي هــريـرة رضي الله عنــه عن رسـول الله صلّى الله عليـه وسلم : إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلكم مثـلُ رجُـلٍ أَوْقَـدَ نـاراً فهـو يَذُبُّ[1] عنها أَنْ يقع فيها الجَـرَاد والفَرَاش ، وإني آخِـذٌ بحُجَزِكم[2] أَنْ تَقَعُوا في النار .

مثـل المـؤمنين

ومنها ما رُوي عن رسـول الله صلّى الله عليه وسلم أَنـه قال[3] : مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهِمْ وَتَـرَاحُمِهم كمثل الجَسَـدِ إذا اشتكى شيءٌ منه تداعى[4] سَائِرُهُ بالحُمَّى والسَّهَر .

---

(١) يذبُّ عنها : يدافع عنها .

(٢) الحجز : جمع حجزة وهي معقد الإزار والسروال .

(٣) الحـديث رواه بنحوه الإمـام مسلم بلفظ (عضو منـه) والإمام أحمـد في مسنـده عن النعمان بن بشير ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢/١٥٥) .

(٤) تداعى : دعا بعضه بعضاً للمشاركة في ذلك .

ومنها ما رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال[1] : مَثَلُ الَّذِي اسْتَرَدَّ مَا وَهَبَ مَثَل الكلب يَقِيء فيأْكل قَيْئه .

مثل التاجر

ومنها ما روي عن علي بن الحسين رحمهم الله أنه قال : إنما مَثَلُ أَحدِكُم مَثَلُ التاجر يحسب الربْح ولا يوفي رَأْسَ مَالِهِ ، يوفي أحدكم التطوّع ، ولا يوفي الفَرِيضة .

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَثَلُ المؤمن ومثل الإيمان كمثل فرس في آخِيَّته[2] يَجُول ثم يرجع إلى آخِيَّته ؛ وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان ، وأطعموا طعَامَكم الأتقياءَ ، وأَوْلُوا معروفكم المؤمنين .

مثل المنافق

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم[3] : مَثَلُ المنافق مثل الشاة العائرة[4] بين الغَنَمَيْن تتردَّد بينهما مرَّةً إلى هذه ومرّة إلى هذه .

ومنها قولُه صلى الله عليه وسلم : مَثَل المنافق مَثَلُ رجلٍ في نَهْرٍ

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٢٤٠ ، ١٢٤١)
(٢) الآخية : حبل يعرض في الحائط يدفن طرفاه فيه ويصبح وسطه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمع الآخية أواخي .
(٣) حديث صحيح على شرط مسلم .
(٤) الشاة العائرة : التي تتردد حائرة بين قطيعين .

يَسْبَحُ فيه ، فلما بلغ أَنْ يَقطعَه نُودِي من الجانب الآخر ، فرجع إلى ذلك الصَّوت ، ثم نُودي من ها هنا فأجاب ، ثم رجع ؛ فبينما هو في تردُّده إذ عَلاَ آذِيٌّ ، وهو الموج ، فغرقه .

مثل النبي ومثل الساعة

ومنها قولُه صلى الله عليه وسلم : مَثلي وَمَثَل الساعة كفرسي[١] رِهَان سبق أحدُهُما الآخر بأُذُنِه .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : مثلي كمثل قَوْمٍ بَعَثُوا طَلِيعَةً[٢] ، فرأى العدوَّ فجاءَ ليخبرهم أنَّ العدوَّ قد هجم فَلاَحَ[٣] بثَوْبِهِ مَخافَةَأنْ يَسْبِقَه العدوُّ .

خمس كلمات وأمثالها

وقال صلّى الله عليه وسلم : إنَّ يحيى بن زَكريّا عليهما السّلام أمره اللّهُ تعالى أن يَأْمُرَ قَوْمَه بخَمْسٍ كلمات ، وأَنْ يضرب لهم مَثَلاً ، فقال : إن اللّه تعالى أمرني أَنْ آمُرَكُم أَنْ تَعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا به شيئاً ؛ وَمَثَلُ ذلك كمثل رَجُلٍ اشترى عَبْداً من خَالص ماله ، فذهب العَبْدُ فعمل لغيره ، فأَيُّكم يحب أن يُؤتَى إليه ذلك .

وأَمرني أَنْ آمُرَكم بالصلاة ؛ وَمَثَلُ ذلك مَثَلُ رَجلٍ دخل على

---

(١) فرسي رهان : متسابقان لغاية .

(٢) الطليعة : هي ما يبعث به في المقدمة ليستكشف أمر العدو .

(٣) لاح : ظهر ، وبان.

ملك فهو يُنَاجِيهِ حَوائِجه وهو يسمَعُ له وَيَقْضِي له الحوائج .

وأَمَرَنِي أَن آمُرَكم بالصدقة ؛ وَمَثَل ذلك مَثَلُ رجل قتل قتيلاً فهرب مِنْ وَطَنِهِ مخافة أن يُؤخَذَ به ، فبعث [٤٩] إلى أهْلِهِ ، فقال : ما ينفعكم إزْعَاجي مِنْ وطني ، فأنا أُؤدِّي إليكم دِيَةَ قَتِيلكم نجوماً[١] ، وأرجع إلى وَطَنِي ، فَرَضُوا بذلك ؛ فما زال يُؤدِّي نُجُومَه حتى فَكَّ رَقَبَته .

وأمركم بالصِّيام ؛ وَمَثَلُ ذلك كمثل رجل لَقِيَ العَدُوَّ في جُنَّة حَصِينَةٍ ، فما وجد في الجُنَّة مِنْ خَلَل وصل إليه سلاحُ العدوِّ .

وأَمَرَكم بذِكْرِ اللّهِ ؛ وَمَثَل ذلك كَمَثَل رجل أَتاه فَوْجٌ من عدوٍّ من ناحية ، فهو يحارِبُهُم ؛ ثم أَتَاه فوجٌ آخر من ناحية أُخرى ، وأَتاهُ الفَوْجُ من كل ناحية ؛ فلما رَأَى ذلك ترك مُحَارَبَتَهم ، ودخل الحِصْنَ . . وأَغلق الباب على نفسه ، وكذلك ذِكر الله تعالى .

مثل المصلي الذي لا يتم ركوعه وسجوده

ورُوِيَ عن أَبي بُرْدَة بن أبي موسى ، عن أَبي سلام الأسود ـ رضي الله عنهم ـ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَأَى رجلاً يَنْقُر[٢] في صلاته ، لَا يُتِمُّ الركوعَ والسُّجودَ ، فقال : لو مات هذا مات على

---

(١) نجوماً : المقصود بها تنجيم الدين أي تقديمه على دفعات في أوقات معلومة متتابعة إما مياومة أو مشاهرة أو مسانأة .

(٢) رجل ينقر في صلاته : وهو يصلي النقرى ، إذا نقر في صلاته نقر الديك . راجع أساس البلاغة للزمخشري ص ٩٨٤ ط. الشعب .

غيـر مِلَّة محمـدٍ صلى الله عليـه وسلم ؛ فـإذا صَلَّيتم فَـأَتِمُّـوا الـرُّكـوعَ والسجـودَ ؛ فإنَّ مَثَـلَ المُصَلِّي الذي لا يُتِمُّ ركـوعَـه ولا سجـودَه كمثَـل الجائِع الذي يأْكُل المَرَّةَ والمَرتين لا تُغْنِيَانِ عنه شيئاً .

قال أبو بُرْدَة : قلت لأبي سلام : مَنْ حَدَّثَكَ بهـذا عن رسول الله صلّى الله عليـه وسلم ؟ قال : حـدثني أُمَـرَاءُ الأجنـادِ : يَـزِيـد بن أبي سفيـان(١) ، وعمرو بن العـاص ، وخالـد بن الـوليـد ، وشُـرَحْبِيـل بـن حَسَنَة(٢) .

فهذه الأمثال كلُّها ضربَها رسول الله صلى الله عليـه وسلم لِيُرِيَهُمْ ما غاب عنهم بما حضر .

الحكماء يضربون الأمثال

ولم يزل الحكماءُ يضربون الأمثال :

---

(١) يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أبو خالد ، أمير ، صحابي من رجالات بني أمية شجاعة وحـزماً ، أسلم يـوم فتح مكـة ، واستعمله رسول الله صلى الله عليـه وسلم على صدقات بني فراس وكانوا أخوالـه ، توفي سنـة ١٨هـ . راجع تهـذيب التهذيب (١١/٣٣٢) وتاريخ الإسـلام للذهبي (٢/٢٥) والبدايـة والنهايـة لابن كثير (٧/٩٥) وسير أعلام النبلاء (١/٢٣٧) ومجمع الزوائد (٩/٤١٣).

(٢) شرحبيل بن حسنة : هو شـرحبيل بن عبـد الله بن المطاع بن الغـطريف ، الكندي ، حليف بني زهرة ، صحابي من القادة ، يعرف بشرحبيل بن حسنة (وهي أمه) وقد أسلم بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، وغزا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم فأوفده رسولاً إلى مصر ، وتوفي صلى اللّه عليه وسلم وشرحبيل بمصر ، وقد افتتح الأردن عنوة ما خلا طبرية فصالحه أهلها ، توفي سنة ١٨هـ . راجع تهذيب ابن عساكر (٦/٢٩٩) وتهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/٢٤٢).

مثل العلماء

مثل العلماءِ مثلُ النجوم التي يُقْتَدَى بها ، والأعلام التي يُهتدى بها إذا تغيَّبَتْ عنهم تحيَّرُوا ، وإذا تركوها ضَلُّوا .

مثل الإمام

مثل الإمام مثل عينٍ صافيةٍ[1] يخرِج منها نَهْرٌ عظيم ، يخوضُهُ الناسُ ، فيكدِّرُونَه ؛ فيأْتي عليها صَفْوَةُ العَيْن ؛ فيصير صافياً من تلك الكُدُورة ، فإذا كانت الكدورةُ من قِبَل العَيْن فَسَدَ النَّهْر فكيف يصْفو ؟ فلم يكن من الحِيلة إلَّا سدُّ النهر .

مثل الناس والإمام

مَثَلُ الناسِ والإمام كمثَلِ الفُسْطَاط[2] لا يقومُ إلا بعَمُود ، ولا يقوم العَمُود إلا بالأوتاد ، فكلما نُزِعَ وتدٌ[3] ازداد العمودُ وَهناً[4] .

---

(١) صافي [ا، ب، ج] وما أوردناه أصح ولعل ذلك تحريف من الناسخ .

(٢) الفسطاط : السرادق والخيمة المضروبة .

(٣) وردت وتداً في الأصول ، وهذا خطأ تحريف لأن (وتد) نائب فاعل حكمه الرفع بالضمة الظاهرة .

(٤) الوهن : الضعف .

مثل الجليس الصالح والسوء

مَثَلُ الجليس الصالح مثل صاحب المِسْكِ إنْ لم يُصِبْكَ منه شَيءُ أَصَابَكَ من رِيحه . ومثل جَلِيس السُّوءِ مِثْلُ كِيْر[1] الحدَّاد ، إذا جَالَسْته إنْ لم يُصِبْك من سَوَادِهِ أَصَابَكَ من دُخَانِهِ .

مثل القلب

مَثَل القَلْب مَثَلُ حَدَقَةِ العين فإن أَدْنَى[2] شَيْءٍ يشغل العينَ . والقلبُ أيضاً يشغله أدْنى شيء .

مثل العالم

مَثَلُ العالم مثل العطَّار إنْ مَرَرْتَ به وجدْتَ رائحةَ الطِّيب ؛ وإنْ جالَسْتَه أَصَابك اللَّطْخُ[3] من العِطْر ؛ وإن صاحبته تناوَلْتَ منه الطِّيب ؛ فترجع إلى أهلك بذلك .

مثل المؤمن المنتبه

مَثَلُ المؤمن المُنْتَبِه مَثَلُ وَلَدٍ فَتَحَ عينيه من النوم فأَبْصَرَ مائةَ أَلف

---

(١) الكير : هو زق ينفخ فيه الحداد .
(٢) أدنى : أقل .
(٣) اللطخ : التلوث .

ثَدْيٍ ، وَحِجْرٍ لم يلتفت إلى واحد منها ما لم يجد رِيح أُمِّهِ ، فحينئذ يتعلَّقُ بثدييها ، ويدخل في حِجْرِهَا ؛ لأنَّ ريح الأُمِّ رِيحُ الرأفة ، ولذلك قال الصِّديق لعمر رضي الله عنهما ، حين طَلَّقَ امرأتَه وأراد أنْ يأخُذَ ولَدَه منها ؛ فمنعه أبو بكر رضي الله عنه ، وقضَى به للأُمّ ؛ وقال : رِيحُهَا ولِقَاحُهَا[1] خَيْرٌ له منك يا عُمر .

فالعاقلُ أيضاً لمّا وجد رائحةَ رأْفةِ الرؤوف الجوادِ الكريم ، ونظر إلى إحسانِهِ لدَيْه ، لا يلتفتُ إلى شيءٍ سِوَاه ، حتى يَصِلَ إليه ؛ فهذا الصَّادق في قول : لا إلَهَ إلَّا الله ، علم أَنَّ الأشياءَ التي تضرُّ وَتَنْفَعُ كلَّها من الله ، فلم يتعلَّقْ قَلْبُهُ بِشَيءٍ من أَسباب الضَّر والنفع ، وردَّ وَلَهَ[2] قَلْبه في تلك الأشياءِ إلى أُلوهيّة الله تعالى ؛ لأنه عايَنَ أَنَّ هذه الأوْدية كلَّها تتفجَّرُ من تلكَ العين ، وَبِقَدْرِ[3] ما ينصبُّ من تلك العين التي منها تَسِيلُ هذه الأودية ، فلم يغتر بالأوْدية ؛ ومَنْ حُجِبَ عن رؤية تلك لم يجد قراراً لكثرة ملاحظته الأوْدِية وادياً وادياً ، فمتى يستفرغ رُؤْية الأودية ؟ ومتى يَقْدر أَنْ يتعلَّق بشيءٍ منها ؟ لأن كل وادٍ يدعوه إلى نفسِه ، فَقَلْبُهُ ذو شُعَب ، ونفسُه غير مطمئنة إلى شيء منهم[4] ؛ فهي كالرِّيشةِ ؛ يطير مرّة إلى هذا ، ومرّة إلى هذا إلى ما لا يَتَنَاهَى .

---

(١) لقاحها : لبنها .

(٢) الوله : ذهاب العقل من شدة الحب ، يقال وله فلانٌ ، وولهت الأم على وليدها ، كما يقال وله الصبي إلى أمه أي فزع إليها .
راجع أساس البلاغة للزمخشري ص ١٠٤٢ .

(٣) فبقدر [ج] وهو تحريف .

(٤) كذا ورد بالأصول .

مثل المؤمن المخطىء الغافل

ومثل المؤمن المُخْطِىء[1] الغافل مَثَـلُ رجلٍ في خَـرِبة في فَـلاَةٍ من الأرض يَأْتيه صَوْتٌ من كلِّ جانب يَدْعـوه ولا يَدْري مَنْ يجيب ولِمَنْ يُجيب ، وإلى مَنْ يَطْمَئنُّ ، فهو أَسِيرُ كلِّ ناعق ؛ فالمُؤْمن مِنْ شَرْطه أَنْ يـطمئنَّ إلى ربه ، ويَفْـرغ في كلِّ شيءٍ إلى رَبِّـه ، ويتعلَّق في كل أمْـرٍ برَبِّه .

مثل العاقل المحق

ومثَلُ العاقل المُحِقّ في إسلامه مَثَلُ رجُلٍ باع دَاراً هـو ساكِنُها ، فقيل له : سَلِّمْ ما بِعْتَ ، فخرج مِنْ ساعته ، وترك ثقلَه[2] ثَمّة ، وقـال للمشتـري : هذا كلُّه لـكَ مع الـدَّار من غيـر بَيْـع ، ووهبتُ الثمنَ لـك أيضاً .

مثل المؤمن المخلط

ومَثَل المؤمن المِخْلط[3] مثل مَنْ باع داراً هو فيهـا ساكن ، فلمـا قِيل له سَلِّمْ ما بعْتَ قام من مـوضعه ، وجمـع ثَقَلَه في زاوية أُخـرى من

---

(١) المخط في [ب] و [ج].

(٢) الثقل : متاع المسافر وحشمه ، وهو أيضاً كل نفيس مصون مضنون به .

(٣) المخلط : الـذي يخلط الأشياء فيلبسهـا على الناظـرين والسـامعين كمـا يقـال فـلان (خولط في عقله) إذا لم يستقم منطقه وأصابته لوثة .

الدار ، وجلس ثَمَّة ؛ فإذا قيل لـه ثانيـاً : سَلِّم ما بِعْتَ ذهب إلى زاويـة أُخرى مع ثِقَله ، ولا يزال دَأْبُه[(١)] هكذا في التسليم ؛ يتحوَّلُ من مكـانٍ إلى مكـان ، ويفـرغ نـاحيـة ، ويشغـل أُخـرى إلى أَنْ يَقْبِضَ الثمنَ ، ويسلم ويخرج منها ؛ فالمُؤْمِن مِنْ شَرْطـه تسليمُ النَّفْسِ إلى الله تعالى في كـل شيءٍ ، فلو اقتحم النَّهْيَ ، وَفَـرَّطَ في الأمـر ، صـار كمن سلَّم بَعْضَ النفس دُونَ البعض ، كمن تحوَّل من زاوية إلى زاوية ؛ لا تَسْخُو نَفْسُه بتسليم ما باع ؛ فالمسلمُ باع نَفْسَه ومـالَه مِن مَـوْلاَهُ يقولُ لـه[(٢)] : ﴿ إن الله اشْتَرَى من المؤمنينَ أنْفُسَهُم وأمْوَالَهُم بأنَّ لهم الجنة يُقَـاتِلُونَ في سبيـلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عليـه حقّـاً في التـوراة والإنجيـل والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَـاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الـذي بَايَعْتُم بـه ، وذلـك هو الفـوزُ العظيم . التـائبُونَ العـابِدُونَ الحـامِدُونَ الســائِحُونَ[(٣)] الراكِعُونَ الساجدونَ الآمِرُونَ بالمعروفِ والناهونَ عن المُنْكَر والحافظونَ لحدود الله ، وَبَشِّر المؤمنين ﴾ ؛ وصيّر تسليمه في عشر خصال مذكورة في الآيـة ، وجعل منهـا الجنة ؛ فكلَّمـا وَفَى تحصيله[(٤)] منها فقـد سلَّم جُزْءاً من المَبِيع ، ثم مـع هذا يقتضي رَبُّـه الثَّمَن ، فلو عقل هـذا كيف

---

(١) دأبه : شأنه وعادته .

(٢) التوبة (٩/١١١ ، ١١٢) .

(٣) السائحون الصائمون ، وأصل السائح الذاهب يضـرب في الأرض ، ومنه يقـال : ماء سائح وسيْح : إذا جرى وذهب ، ويقـال السائـح في الأرض ممتنع من الشهـوات ، فشبه الصائم به ، وذلك لإمساكه عن المطعم والمشرب والنكاح .
راجع تفسير الطبري (١١/٢٨) وفيـه عن أبي هريـرة قال : قـال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : السائحون : هم الصائمون .
وقال الزجاج كما في اللسـان (٣/٣٢٣) « السائحـون في قول أهـل التفسير واللغـة جميعاً : الصائمون » اهـ .

(٤) تحصله [ج] وهو تحريف خطير .

يَسْتَحيي من ربِّه اليوم إلى أَنْ يَجِيءَ قَبْضُ الثَّمن ؟

مثل المصلي الساهي

مَثَلُ المُصَلِّي الذي يُصَلِّي ويكون ساهياً في قَلْبه كمثَلِ رَجُلٍ جَنَى في حقِّ الأمير ثم نَدِمَ ، فاستجمع خَدَمَه وَخَوَلَه ، وتوجَّه إلى بابِ الملك معتذراً ، فلما قام بين يدي الملك بشاكِرِيَّتِهِ(1) وَخَدَمِهِ ، ووقف بهم عليه مُعْتَذِرِينَ مِمَّا كان منه ومِنْ خَدَمِهِ من سُوءِ الأدب ، صفح عنه وحُيِّي وأُكْرم ، وَمَنْ أَقبل إلى الملك ثم زاغ عنه في الطريق وبعث بِشَاكِرِيَّتِهِ وَخَدَمه حتى وقفوا مقام الاعتذار ومحلَّ الكرامة ، ولما أقبل الملك إليه ليقبل عُذْره ، ويُحسن إليه ، أَعْرَضَ عن مقام [٥٠] الاعتذار ، وشغل بِنهْمَاتِهِ(٢) ، وترك خدمَه وَخَوَلَه بين يدي الملك مُعْتَذراً منه ؛ أفليس من مقالة الملك أن يَقُول : أَنْتَ الذي جَنَيْتَ في حقِّي ، وتركْتَ أَمْري ، وَضَيَّعْتَ أُموري ؛ وهؤلاء الخَدَمُ إنما حضروا لأَجْلك ، فَأَقَمْتَهُم مقامَ الاعتذار عنك ، واشتغلت بِنَهْماتك(٢) ! أليس أنه ممقوت ، ولا يُعْبَأُ باعتذار خَوَلِهِ فيما هنالك ؟

مثل الدعوات دون حضور القلب

وكذا مثل دعواته التي تَجْرِي على لسانه بدون حضور القَلْبِ رغْبَةً وَرَهْبَةً كمثلِ سائِلٍ يقفُ على بابٍ يسأَلُ شيئاً ، ولم يلبث ، وَمَضى

---

(١) الشاكري : هو الأجير والمستخدم .

(٢) النهمة : الحاجة ، والكلف بالشيء والولوع به يقال فلان منهوم بكذا .

لسبيله ، فأُخرج له ما طلب فلم يَجِدُوه ، فيُدْخَل في الدار مع ما أُخرج لـه ويقول : لم يمكث السـائلُ على بـابِنا ، فلم يـزل هذا دَأْب[1] هـذا المسكين على كـل بـاب حتى صـار محـرومـاً ؛ كـذا هـذا الـداعي ؛ والتقريبُ معلوم .

مثل من يثني على ربه عن غفلة

ومثـل مَنْ يُثْنِي على ربِّه عن غَفْلَةٍ كمثَـلِ مَنْ جَنَى إليكَ جِنَـاية ، فلم يَعْتَذِرْ حالةَ الإِفاقة حتى شَرِبَ وَسَكِرَ ، فجاءَ في حـال سُكْره ووقف بين يـديك ، وقَبَّـلَ قدَميـك ، ومدَحَـك بمدائـح السَّكَارى ؛ أُوليس مِن مَقَـالتك إن هـذا لا يَعْقِلُ مـا يقول ، ولا مَـا يَعمل ، فلَسْتَ تَعْبَـأُ بِقَوْلِـهِ وَفِعْله ؛ كذا هذا .

مثل من يثني ولا يعلم معنى ما نطق به

وَمَثَـلُ مَنْ يُثْنِي على ربِّه في غَفْلَةٍ ولا يَعْلَمُ مـا معنى مـا نـطق بـه كَمَثَل رَجُلٍ أَتَى بشِعْـرٍ في دَفْتَرٍ بـابَ الملك ، فقرأه عليـه من الدَّفْتـر ؛ فقال له الملك : ما هذا ؟ قال : هذا مَدْحُك الذي مدحْتُـك . فقال لـه الملك : عقلْتَ مـا أثنيت ؟ قـال : لا ، إلَّا أَني علمتُ أَنَّ هـذا ثنـاءٌ . فقـال له الملك : فَمِنْ أَي شيءٍ عقلتَ أنـه ثناءٌ ، فلعله هجـاءٌ ؛ فتحيَّر الـرَّجُلُ فلم يَبْقَ لـه شيء إلا أَنْ يقولَ : هـذا طمع في نَـوَال[2] شيء ؛

---

(١) دأبه : عادته وشأنه .

(٢) نوال الشيء : اقتناؤه والحصول عليه .

فجعل هذا الثناءَ سبباً لنَوَاله ؛ فيعطونه شيئاً ويخرجونه من بابِه .

مثل من يثني ويعقل معنى الثناء تعريفاً

ومثَل مَنْ يُثْنِي على رَبِّه وهو يَعْقِلُ معناه ، ولكن لا يعقله عَقْلَ المُشَاهَدَةِ ، كَمَثَلِ شاعرٍ أَتَى بابَ الملك بِشِعْرٍ يُثْنِي عليه ، فلما أنشده قال له الملِك : عَرَفْتَنِي بهذه الخِصال أَمْ عُرِّفْت به ؟ قال : لا ، بل عُرِّفْتُ به في السوق أنك هذا[1] .

فسقطَتْ مَنْزلتهُ عند الملك ، وأُنالَهُ من معروفه على قَدْر انحطاطِ قَدْرِهِ وسقُوطِ منزلته .

مثل من يثني ويعقل عقل مشاهدة

ومثل مَنْ عَقَلَه عَقْلَ مشاهدةٍ بِقلبه ، فقال : عَرَفْتُكَ بهذه الخصال معرفةً أشدَّ من معرفتي بنفسي ، فإنَّ معرفتي بكَ لا تصير نكرة أبداً . فيقول له الملك : إذاً لا أُجَهِّلُك[2] علمك فِيَّ ، ولا أجعَل معرفتك لي نكرة أبداً ، ولا يَقِينَك شكّاً ، ولا بصرك عَمىً ، ولا هُدَاكَ حَيْرَةً وَضَلَالَة ؛ وأُوفي لكَ بجميع ما عَرَفتني ؛ إن عَرَفْتَنِي جَوَاداً فجُودِي لك ، وإن عَرَفْتَني رَحيماً فَرَحْمَتي لك ، وإنْ عَرَفْتَني كريماً فكَرَمِي لَك ، وإن عَرَفْتَنِي رَؤُوفاً فَرَأفتي لك ، وإن عَرَفْتَنِي لطيفاً فَلُطْفي لك ، وإن عرفْتَ قَدْري فمحبَّتي لك ، ولك المَزيد مِنْ فضلِي ودوامُ هذه

---

(١) كذا ورد بالأصول.

(٢) أجهلك : أنسبك إلى الجهل .

الأشيـاءِ ؛ وليس يحسنُ بي أَنْ تَعْرِفني بشيءٍ فـأُريك من نفسي خلافَ ذلك حتى تَصِيرَ مَعْرِفَتُكَ لي نكـرةً ؛ أَنا كمـا عرفتني (١) حق المعـرفة ، وأنا أُوجِبُ لك ما عرفتني به ليكُونَ ما عرفتني به ظاهراً مكشوفـاً بارِزاً ؛ وهـو قولـه صلّى الله عليـه وسلّم : لـو عـرفْتُم اللّه حَقَّ معـرفتـه لـزالت بدعائكم الجبالُ ، ولو خِفْتُمْ الله خِيفَته(٢) لتعلمتم العِلْمَ الذي لا جَهْلَ معه ؛ فمن عرَفَه حقَّ المعرفة عرفه بالقُدرة ، ومَنْ عرفه بالقُدرة لم تَعْظُم في عينه زوالُ الجبال عن مكانها ، وَمَنْ عرف كَرَمَه حقيقةً لم تَعْـظُمْ في عَيْنِـهِ أَنْ تُجاب دعـوتُهُ في إزالـةِ الجبال عن مكـانهـا ، ومَنْ خـافـه حَقَّ الخِيفَة زال عنه الجَهْلُ ؛ لأنَّ نورَ الخوفِ من الذَّات ، فإذا أشرقَ ذلـك النـورُ خاف حقَّ الخِيفـةَ وطار الجهـلُ ؛ لأنَّ القَلْبَ حَيِيَ بـاللّه ؛ وإنمـا الجهلُ من الموت والعِلْمُ من الحياةِ .

مثل التالي كتاب الله في غفلة

ومَثَلُ التَّالي كتابَ اللّهِ في غَفْلَةٍ كمثل رَجُلٍ بين يديـه حِقَاق(٣) ، في كـل حُقَّة منهـا جَـوْهَـرٌ بعثَـه إليـه الملِكُ ، فهـو في غـطَاءٍ عن تلك الجـواهر ؛ ففي حَقَّـة منها يـاقوتَـةٌ حمـراءُ ؛ وفي أُخـرى منهـا يـاقـوتَـةٌ صفراءُ ؛ وفي أُخرى ياقوتـةٌ زَرْقَاءُ ؛ وفي أُخـرى ياقـوتةٌ خَضْـرَاءُ ، وفي أُخرى لُؤْلُؤَة بَيْضَاءُ صافية ؛ فليس لـه من تلك الجواهـر إلا عَدُّ الحِقَـاق

---

(١) كما عرفتني في حق المعرفة [ب] و[ج].

(٢) خيفته : خوفه .

(٣) الحقـاق : جمـع مفـرده حقـة وتجمـع أيضـاً على حق ، وحقـوق وهي الـوعـاء من الخشب .

وإحصاؤها ، وهو يَعْلَمُ أنها ثمينةٌ نَفِيسة(١) ، ولكن لا يَلْتَذُّ بها ولا يتغنَّى بها ؛ لأنَّ عَيْنَه إنما تأخذ الحِقَاق ، وَنَفْسُهُ تُحسِّن ما تَرَى عَيْنُه ، وعِلْمُه بنَفَاستها وأثْمَانِها عِلْمٌ لا يحرِّكُه ، ولا يَبْعَثُه ، ولا يَهِيجُهُ إلى شيءٍ ؛ فهو كالناعس قد أخذه رِيحُ النوم ، فهو في نفسه ثَقِيل ؛ فإذا فتَّش الحُقَّة فأبصر جواهر تتلألأ ، ونظر إلى شيءٍ ملأ نَفْسه سروراً ، وسُبِي قلبُهُ بها ، فإذا نَظَرَ فيها فَوَجَدَ اسْمَهُ مكتوباً عليها منقوشاً فاشْتَدَّ عَجَبُهُ ، وتضاعف سرورُهُ وَبَهْجَتُه ، وتاه في البهجة ، فسرورُه بنفاسةِ تلك الجوهرة يهنِّيه ، ويُهَنِّيه في اسْمِهِ الذي وجده منقوشاً على تلك الياقوتة ؛ فقال في نفسه : صار لي إلى الملك محلاًّ ؛ بعث إليَّ جوهراً مِثْلَ هذه ، وَاسْمِي منقوشٌ عليها ، يُعَرِّفُني ذلك مَحَلِّي عنده ؛ إني قد أعدَدْتُ لَكَ هذه الجواهر وبِاسْمِكَ ؛ لَعَظِيم قَدْرِكَ عندي ، وَكَثْرَةِ بالي بك ، وَرَفِيعِ مَحَلِّك عندي ، وَحُبِّي لك ؛ فكيف يكون حالُ هذا العبد من الفَرَح والسرور ؛ ككتاب الله تعالى . كلام عَزيز ، حروف منسوقة(٢) مؤلَّفة ، أَلَّفَهَا رَبُّ العالمين بحكمته البالغة ـ ومعنى قوله البالغة ؛ أي بلغت تلك الحكمة يَوْمَ المقادير ، ومنها خرجَتْ إلى العِبَاد ، فصارت حكمةً ؛ فقيل : حكمة بالغة ؛ أي تَبْلُغُ بصاحبها عِلْمَ المقادير ، فمن بلغ عِلْمَ المقادير فقد وَفَر حظُّه من العلم ، كما وفر(٣) الحظُّ للخضر عليه السَّلام حتى ساح في المفَاوز ، وخاض البحار ، وَعَبَرَ معابِرَ العِبَرَ بحظِّه من علم(٤)

---

(١) النفيسة : ذات القدر والقيمة والتي يتنافس فيها .

(٢) منسوقة : منظومة في طريقة بديعة ، ويقال نسقت الدرنسقاً ، ونسقت الكلام نسقاً إذا عطفت بعضه على بعض .

(٣) وفرحظه : تم وسبغ وكمل .

(٤) من العلم في [ب] .

المقادير ، فرأى في كل شيءٍ ربوبيَّة العزِيز القهَّار ـ فذلك تأْليفٌ عجَزَتْ عنه الملائكـةُ والرُّسُـلُ والثَّقلَانِ[1] وجميـع الخلق ؛ لأنه وَضَـعَ في كلِّ حرفٍ لعباده شيئاً ؛ فهو أَعْلَمُ بمـا يحتاجُ إليـه عِبَادُه من تلكَ الأشيـاءِ ، فألَّفَ الحروف للأشياءِ الموضوعـة في الحروف ، يخـاطبهم بها ، وهي لَـطَائِفُ وبُشْرَى ، وَوَعْـدٌ وَوَعِيـد ، وَنِـذَارة[2] وتـأْديب ، وتَحضِيض[3] وتنديب[4] ، وأنباءُ ما مضى ، وأنباءُ مـا هو كـائن في الدَّارَيْن ؛ فـذلك قوله تعالى[5] : ﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذا القـرآنِ لا يَـأْتُـونَ بِمِثْلِهِ ولـو كـان بَعْضُهُمْ لبعضٍ ظَهِيـراً ﴾[6] ، فمن غَبِيَ[7] فَهْمُهُ عن هذا تحيَّر فيه .

ولو قال قائل : كيف لا يَقْـدِرُونَ أَنْ يَأْتُـوا بمثله ، وإنما هـو لسانُ العرب ، فمن شاءَ ساق[8] [كلامـاً بهذه اللغـة ، فكيف لا يمازجـهُ ولا يُدَانِيهِ] .

وهـذا هوس[9] وكـلام المنهوكين[10] الـذين أَعينُهُم في غـطاءٍ عن

(١) الثقلان : الإنس والجن .
(٢) نذارة : إنذار .
(٣) تحضيض : حث على الأمر .
(٤) تنديب : ندب ودعوة إلى الأمر .
(٥) الإسراء (١٧/ ٨٨) .
(٦) الظهير : المعين والملاحق .
(٧) عيى [ج] وهو تحريف خطير .
(٨) من هنا إلى آخر ما بين المعقوفين ساقط من [ب] مثبت في [أ، ج] .
(٩) هوس : طرف من جنون .
(١٠) المنهوكين : المعتلين المهزولين . وربمـا تكون المتهـوكين بالتـاء وهم المتحيرون ، فلعل هذا يكون تصحيفاً .

ذِكْرِه . وإنما معرفتُهم رَبَّهم على أَلْسِنَتَهُم .

وإنما عَجزت الجِنُّ والإِنْس عن تَـأْليف مثله ؛ لأنَّ جميعَ الكـلام الذي أبرزه ربُّ العالمين للعباد إنما هو تسعٌ وعشرون حَـرْفاً وَضَـعَ في كل حرف أَمْراً من أُموره ، وأَعلم خَـوَاصَّهُ بـذلك من الأنبيـاءِ ، وخاصِّ الأوليـاءِ ؛ فَمَنْ دام على ذلك الأمْـرِ وخالصـه وصفاه ، فـاستوجب هـذا النور الأعظم الذي إذا أشرق في صَدْرِهِ ، وطالع ما في حَشْوِ كلِّ حَرْفٍ من هذه الحروف فعندها يَعْقِلُ تَأْلِيفَ رَبِّ العالمين .

قال له قائل : اشرح لنا شيئاً نَفْهَمُ به بَعْضَ ما وَصَفْتَ .

قال : نُبَيِّنُ ذلك في قوله : ﴿ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرحيم ﴾ : ففي الباءِ بَهَاؤُهُ[١] ، وفي السين سَنَـاؤُهُ[٢] ، وفي الميم مَجْده ؛ فمن أُعـطِي في قلبـه سِراجـاً فَأَنَـارَ ذلك السـراجُ في صَدْرِهِ عـايَنَ فُؤَادَهُ ذلك البَهَـاءَ والسناءَ والمَجْدَ ، وعايَنَ ما أَجْـرَى إليه ربُّ العـالمين من بهائـه وسنائـه وَمَجْدِه ؛ فَأَوْصَل إليه في دِينه ودُنياه ، فإذا عايَنَ فُؤادَه ذلـك كان كمثـلِ مَنْ وَضَعَ بين يديه حُقَّة[٣] وقد علم أَنه فيهـا جوهـر ثمين نَفِيس يَخْطَفُ الأَبْصَارَ تَلأْلأً فيضيءُ القلوبَ شغوفاً به ، فهو في ذلك حَيْرَان لا يَلْتَذُّ ولا يُبْهَج[٤] به ، لأنه سكران أَو نـائم ؛ فالسكـرانُ والنائم لا حَظَّ لهمـا من اللذة والبهجة ؛ فإذا رَفَعَ عن الحُقَّة رأْسها[٥] ، وتلأْلأَ ذلك الجوهـرُ في

(١) بهاؤه : حسنه وجماله .
(٢) السناء : الرفعة .
(٣) الحقة : الوعاء من الخشب .
(٤) يُبْهَجُ : يبتهج ويغتبط به .
(٥) رأس الحقة : غطاؤها .

وَجهه يكادُ يَخْطَفُ بَصَرَه ؛ وسبى قلبه ؛ فإذا رأى اسْمَه منقوشاً على ذلك الجوهر كاد يَنْصَدِعُ[1] قَلْبُهُ فَرَحاً وسروراً بما اطَّلَعَ مِنْ حاله عند الملك .

قال له قائل : زِدْنا في شَرْحه .

قال : نَزَّلَ رَبُّنا جلَّ جلالُه كلامَه تنزيلاً ؛ فهو كلام مؤلَّفُ محشوٌّ كل حرف بما فيه حَشَاه ، ثم تكلَّم به ، ثم أنزله ، فلو عقلتَ هذا لدهشتَ من قَبْلِ أَنْ تسمُو إلى حَشْوِهِ .

مثل الناظر إلى حروف القرآن

مَثَلُ الناظر إلى حروف القرآن كمثل رجُل اشتدَّ شوقُهُ إلى حبيب غائبٍ ، فوجد له كتاباً بخَطِّه ؛ فهاج شوقُه ، ثم نظر إلى آثارِ أصابِعِه وصُنْعِ يده فالتذَّ بها ، فسكن إلى وجودِ لذَّته ساعةً ، وتقطع أيامُ شوقه ، فكذا المشتاقُ إلى لقائه إذا وقع بَصَرهُ على خطِّ الحروف ، وتراءَى له بُدُوّ هذه الحروف من عِند مَليكِهِ ، والمُجْرَى من الوحي إلى صَدْرِهِ ومستودعه وهو الحِفْظ الذي قد قُرِنَ بالعقل ، واؤْتمن عليه ؛ والتذَّ بها[2] ، وسكن غليانُ شَوْقِ مَنْ لا يجدُ إلى ما وجد مِنْ آثارِ كلامه ، وهو تأْليفُ تلك الحروف قولاً ثم كلاماً ، فإنه قال وَتَكَلَّم .

قال له قائل : ما هذا ؟

قال : القول وهو تَرْجيعُ الصوت ، فذلك الترجيع هو القولُ مأْخُوذٌ من الإقالَة والقيلولَة ؛ والكلام هو سُلْطَان تكلُّم القلب ؛ أَي يُؤَثِّر

---

(١) ينصدع قلبه : يتفطر وينشق .

(٢) التذ بها : تلذذ واستمتع بها .

عليه ، ولذلك سميت الجراحة كَلْماً ، لأنه لا بُدَّ مؤثر فيها[1] .

مثل التالي كتاب الله من غير تفهم

ومثلُ التالي كتاب الله من غير تَفَهُّم ولا تَدَبُّرٍ كمثل رَجُل جمع الحلي من أُناس عارِيَّة ، وفيها جواهِر نَفِيسة مُثْمَنَة[2] ، فجعلها في صُرَّةٍ ثم عَلَّقَهَا في عُنُقِهِ كهيئة جَرَسِ البعير ؛ فذلك الصوتُ من الجرس كائن ، والجرس مثمن عظيم الثمن بجَوْهره ، فماذا له من تلك الجواهر ؟ وماذا له مِنْ ذلك الضوءِ إلا الإخبار بأني على الطريق .

مثل من يربي القرآن

ومثل مَنْ يُرَبِّي القرآن كمثلِ رجل آوَى يتيماً إلى منزله وكَفَلَهُ وكساه وأطعمه وسَقَاه ، وَنَزَّهَه[3] ، وَنَقَّاه ، ووَقاه من الآفات والأَدْنَاس ، وجعل حِجْرَه له[4] حواءً فهو يَغْسِلُه بيده ، ويَنَقِّيه كما لولده ، ويرشفه ، ويقوم عليه في جميع أحواله ؛ فلا يزال دَأْبه[5] معه ؛ يتربَّى هذا اليتيمُ في حِجْرِه إلى أَنْ يُدْرِك ، فإذا أدرك فَعَرَفَ تَرْبيتَهَ فشكر له وقام له بالبنوَّةِ ؛ يحْمي عنه في كل مكان ، ويذُب عنه ، ويدفع عنه ، ويربيه في وَقْتِ ضَعْفِه وَكِبَر سِنِّه .

---

(١) لأنه يؤثر منها [ج] وهذا تحريف خطير .

(٢) مثمنة : مبيعة بثمن معين ، وثمنت الشيء جعلت له ثمناً بالحدس والتخمين .

(٣) وترضه [ج] وهذا تحريف .

(٤) الحواء : جماعة البيوت المتقاربة .

(٥) دأبه : شأنه وعادته .

وآخر رام تَرْبِيَـةَ هذا اليتيم فـأَدخله بيته سـاعَةً من نهـار ، فأعـطاه كِسْرَة خُبْزٍ وشيئاً من عِنب، ثم أخَذَ بيده وأَقَامَه على قارِعَةِ الطريق؛ فإذا أُدرك هذا اليتيم مَدْرَكَ الرجال قَـلَّ ما يلتفتُ إلى هـذا ، وإنما يعـرف له بِقَدْرِ ما رأى من تلك الكسرات والعناقيد .

فكذا مَنْ قرأ كـلامَ الله عز وجـل في كل يـوم وِرْداً أو جُزْءَاً ، ثم وضعه في ناحية من بيت ، ولم يقم بين يديه ، فالقرآن في زماننا كاليتيم الذي ليس له مأوى مُلْقىً على قارعة الطريق ، لا يُؤْبَـه به ، ولا يتكفَّـل أَحَدٌ بتربيته ؛ فالمُحْسِنُ من أَهْل هذا الـزمان كمن أُدخـل اليتيم في بيته ساعةً ، فأَطعمه شيئاً وسقاه ، ثم أَعرض عنه وترك كفالته .

فالقرآنُ إنما يَلِجُ صدوراً طاهرة نَقيَّة ، فإذا لم يجـد تلك الصدور فهو كاليتيم الذي لا يجدُ كفيلاً ولا مَأْوى . وقد قال جلَّ ذِكْرُه[1] : ﴿ يَا أَهْـل الكتابِ قـد جاءَكم رسـولُنا يبيِّن لكم كثيـراً ممَّـا كُنْتُم تُخْفُـون من الكتاب وَيَعْفُو عن كثير . قد جاءكم مِنَ اللّهِ نُورٌ وكتابٌ مُبين ﴾ .

قـال : كتـابٌ مُبين من الله الحـروفَ المؤلفـةَ التي تـضمـنت المعاني ، والنور كسوة تلك الحروف أهداها رَبُّ العزة إلى هذه الأُمةِ ، قـد تضمَّنَها الـوَحْيُ حتى أُوصلها إلى الـرسول صلى الله عليـه وسلم ، وَتَلَقَّتْها الأَذهانُ والعقـول ، وأخذَتْهـا منه ؛ قـال جلَّ ذِكـره[2] : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ للمتقين ﴾ . فالتذكرة كدفتر حساب ؛ [يـرجع إليـه][3] في كلِّ يوم وساعة ، إذا أَصبح ينظر فيه فيدبِّر أَمْرَه من التذكرة مما أحكمـه وردَّه

(١) المائدة (١٥/٥).
(٢) الحاقة (٤٨/٦٩).
(٣) مكانها مطموس في [أ] وبياض في [ب] [ج].

إلى الديوان الأكبر الذي فيه جملةُ حساب تجارته، فالمتَّقي ينظر فيه كلَّ يوم يتبدر أمره فيه ومنه، ويقابِلُ أمورَه مما أَمَرَ الله فيه، ويسوِّيهِ وَيَتَلَافى ما ضاعَ منه وما قَصَّرَ فيه؛ ثم يُؤَدِّيه إلى ديوانِ اللّهِ عزَّ وجلّ، وهو اللَّوْحُ المحفوظُ.

ثم قال[1]: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ على الكافرين ﴾.

فإذا رأى الكافرُ ما يَصْنَعُ القرآنُ بأهله من الثناءِ عليهم بين يَدَي اللّهِ عزَّ وجل، ونظر إلى كرامة اللّهِ على أهلِ القرآن صار ذلك كلُّه حسرةً عليه، وتقطَّعَ قلبُهُ حسرات.

ثم قال[2]: ﴿ وإنه لحقُّ اليَقين ﴾؛ أي هذا القرآنُ من حق اليقين؛ أي كما أعطيتكم من نُورِ المعرفة، فاستقرت قلوبُكم، وأيقنت بربُوبيتي وبوحدانيتي فاطمأَنَّتْ نفوسُكم بي، وآمنت، كان مِنْ حَقِّ ذلك اليقين علينا أَنْ أُنزِل كلامي إليكم لتَسْكُنَ به تلك الصدور التي استقرَّ اليقينُ في تلك القلوب فيها، ويُجاورُه بأحسن المجاورة، فهذا حَقُّه، ويساكته في مُستقره، فاليقينُ في القَلْب، وكلامي في الصُّدور، وهو ساحَةُ اليقين؛ فذلك حقُّ اليَقين.

مثل من يقرأ القرآن من غير تدبر

وَمَثَلُ مَنْ يَقرؤه من غير تدبُّر كجَرسٍ على بَعِير، فالسّائق للجِمال تسير من أمامِه[3] بصوت ذلك الجرس لثقالتها، ليس عندهم إلا ذلك الصَّوت في أسماعهم.

---

(١) الحاقة (٦٩/ ٥٠).
(٢) الحاقة (٦٩/ ٥١).
(٣) فالسابق .. من أمامها في [ب].

مثل التالي لكتاب اللَّه

ومثلُ التَّالي لكتاب اللَّه تعالى مثل رَجُلٍ طاهرٍ طيِّب ، له محبوب له حَنين إليه أخذ حُبُّه قَلْبه ، وهُو بِـهِ مشغوف ، يَمْضُـغ شيئاً في فمـه ، فإذا وجدَ ذلـك الشيءَ في فمه كيف يلتـذُّ به ؟ وكيف يَجِـدُ حلاوتَـه في حَلْقِه وَصَدْرِه ، فلا يملّ مِنْ مَضْغِه وازْدِرَاد[1] رِيقِه بذلك الشيءِ ، فكذا التالي لكتاب اللَّه تعالى إذا فكَّر أنَّ هـذا كلام تكلَّمَ بـه ربُّ العالمين ، وأنـزَله ، ومكَّن لـه في صَـدْرِي[2] حتى تـردَّد واستقـر ؛ وأقـدرني على استخـراجـه من صَـدْرِي حتى اختلج بـه لسـاني ، مُسْتعينـاً بـالحَنَك والأَسْنَان والشَّفتين ، فتُرَدِّدُ كَلِمهُ المنزَّلُ الذي تكلَّمَ به ، وأنزله فيما بين صدري وشفتي ، وقَرَّت عينُه بهذه الفكـرة والتدبُّـر ، وابتدأ بتـردّدها في فمه ولسانِه وحَلْقه وشَفَتيـه ، هذا مِنْ قبـل أن يشتغلَ بلطائفـه ومعانيـه ، قـال اللَّه عـز وجـلَّ[3] : ﴿ إنَّـه لقـرآنٌ كـريم ﴾ ، وقـال[4] : ﴿بَـلْ هُـوَ قرآنٌ مَجِيـد ﴾ . وقال : ﴿ وإنَّـه لكتـابٌ عَـزِيـز ﴾[5] ومُهَيْمِن[6] ؛ فوصف كلَامه بالكرَم والمَجْدِ والعزِّ والهَيْمَنة .

فأمَّا كرَمُه فمِنْ سهـولته الممـزوجة بـاللُّطف والتقريب والتعليـل .

---

(١) ازدراد لريقه : بلعه .
(٢) كذا ورد بالأصول .
(٣) الواقعة (٥٦/٧٧) قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ عن قوله تعـالى : (في كتاب مكنون) وقال مجاهد : هو المصحف الذي بأيدينا .
راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٧/٢٢٥) بتصرف .
(٤) البروج (٨٥/٢١).
(٥) فصلت (٤١/٤١) راجع القرطبي (١٥/٣٦٧) ط. دار الكتب المصرية.
(٦) قوله تعالى : ـ ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ المائدة (٥/٤٨) راجع تفسير الطبري (١٠/٣٨٤).

وأمَّـا مجَادَتُـه ففي الأمر والنهي . وأمَّـا عِزُّه ففي شَـرَف الألفاظ . وأمـا هَيْمَنَتُه ففي نَفْي الأشباه ونَزَاهة القلوب .

التمثيـل والتشـبيه

فإنْ نَفَر نـافِرٌ مِنْ هـذا فقال : أليس هـذا تشبيه ؟ قيـل له : هـذا تمثيل ، وليس بتشبيه . قال : والتمثيل أن تَصِفَ شيئاً غاب عَنْكَ فتمثِّل له في الشاهد ليقفَ على ما يُؤدّي معنى الغائب .

قـال : مِثْل مـاذَا ؟ قال : جـاءَنا عن رسـولِ اللّه صلَّى اللَّهُ عليـه وسلَّم أنـه قال : لمـا كلَّم اللَّهُ تعالى مـوسى عليه السـلام يوم الـطُّورِ ، ورجع إلى بَنِي إسرائيل رأَوْا على وَجْهه من النُّور والبهاءِ ما لم يَرَوْه قَبْـلَ ذلك ؛ فقام إليه اثْنَا عَشَر سِبْطاً[1] ، فقـالوا : يـا موسى ، إنـك سمِعْتَ كلامَ رَبِّكَ فصفْهُ لنا . فقال : سبحانَ اللّه ! إنه لا يُوصفُ ـ قالها ثـلاثَ مـرات ـ قالـوا : فشَبِّهْهُ لنـا . فقال : سبحـانَ اللّه ! إنَّه لا يُشْبِـهُ شيئاً ـ ثـلاث مرات ـ قـالوا : يـا مـوسى ، فبَيِّن لنـا منـه شيئاً نَفْهَم . قـال : سمعْتُ كلامَ رَبّي لا رِيبةَ فيه[2] ولا شُبْهة كأشدّ رَعْد خلَقه اللَّهُ في أشـدِّ صـواعق خلقها اللَّهُ في أحْلَى حـلاوةِ مَنْطِق ، مـا خـطَر على قلبِ بَشَـرٍ قطُّ . فقلت : يـا ربِّ ، أهكذا كـلامك ؟ قـال : لا ، يا مـوسى ، إنما كلَّمْتُك بقوّة عشرة آلاف لسان ، ولي قوةُ الألْسُن[3] كلِّها ، ولـو كلمتك بكُنْهِ[4] كلامي لم تكُ شيئاً .

---

(١) أسباط وسبط : وهم القبيلة من اليهود .
(٢) لا ريبة : لا ارتياب ولا شك .
(٣) الألسن : الألسنة ، راجع ابن كثير في تفسيره (١/٤٢٧).
(٤) كنه الشيء : حقيقته .

رُوي عن الحُوَيْرث أنه قال : كلَّمَ اللَّهُ موسى عليه السلام بقدر ما أطَاق ، ولو كلَّمه بغير ذلك لم يُطِق ؛ فليس هذا بتشبيه ؛ فقد عَلِمَ المؤمنون الذين عرفُوا اللَّهَ صِدْقاً ويقيناً أنَّ كلامَه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولكن حلاوةَ الكلامِ ، وَبَركة[1] الكلام ، وذَوْق[2] الكلام ؛ واصلٌ إلى قلوبِ الموحِّدين ، فهيّج أنوارَ المعرفةِ والتوحيد مِنْ مَعْدنها[3] ، ثم أخلص إليها مِنَ الحَلَاوة والبركة والذوق . ولكل هيج معمل ، ولكل معمل ثَمَرَة ، ولكلِّ ثَمرةٍ طَعم ولذَّة سِوَى المَنْفَعة ؛ وإنَّما أَسْمَعَ اللَّهُ تَعالى كلمهُ موسى صلوات اللَّه عليه لاختصاصه بذلك ، فلو لم يَكُنْ له حَلاوةٌ ولذَاذة ما نَفعَتْهُ هذه الخصوصية وطَعْمه ولذَّته .

ورُوي في الخبر أنه قال : يا موسى ، إني مُتَوَفِّيكَ . قال موسى : يَا رَبِّ ، مَنْ يغسلني ؟ قال : بحسبك[4] طُهْري . قال : يا ربّ ، مَنْ يَبْكِي عليّ ؟ قال : الجِنُّ والشَّجَر .

أفلا ترى أن كلامه قد طهَّره ، ومِنْ دون هذا[5] نُودِيَ عَمَلاً .

المرأة التي في لسانها بذاء :

بلغنا أنَّ امرأةً كان في لسانها بَذَاء[6] ، فوافَتْ رسولَ اللَّه صلَّى

---

(١) وركه في [أ] و [ب] وهذا تحريف خطير .

(٢) وذرو الكلام [ج] يقال ذرأ القوم ويذرؤهم أي خلقهم ويخلقهم .

(٣) معدن الشيء : أصله .

(٤) بحسبك : يكفيك .

(٥) كذا في [أ] ، [ب] وفي [ج] يؤذي .

(٦) بذاء : قبيح .

اللَّه عليه وسلَّم وهو يَمْضُغُ اللَّحْمَ ، فقالت : أَطْعِمْني منه يا رسولَ اللَّه . فناوَلها مِنَ الذي بين يديه ، فقالت : لا ، إلَّا الذي فِي فَمِك ، فأَخرج عليه السّلام من فَمِهِ وناوَلها ، فابتلَعَتْهُ المرأةُ، فذهب عنها البَذَاءُ ، وظهرت عليها غَضَاضة[1] وعَفَافة وَحَيَاءٌ .

فهذا مِنْ آدَمِيّ أكرمه اللَّهُ تعالى وطهَّره ، فكيف بكلامٍ تكلَّم به ربُّ العزَّة ؟ ولذلك قال[2] : ﴿ وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدور ﴾ .

وقد قال في شأْن النَّحْل[3] : ﴿ يَخرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُه فيه شِفَاءٌ للناس ﴾ .

فالَّذي يَلْعق العَسَل يُصيبه الشِّفَاءُ ؛ لأَنَّ ذلك شرابٌ خرج من جَوْفِ مَنْ تَذلَّلَ لوَحْيِ اللَّه ، وسلكَ سُبُلَ رَبِّه الذي سبَّل له ، فصار بذلك شفاءً للبدن ، وحلاوةً في المطعم ؛ فما ظَنُّك بكلامِ ربِّ العزَّة ؟

وإنَّما يتحيَّر في هذا مَنْ كان قَلْبُه سَكْرَان عن اللَّه ، يحبُّ النفس ، ويُحِبُّ الشهوات ؛ فأَمَّا مَنْ أَفَاقَ مِنْ سُكْرِه ، وَحَيِيَ قَلْبُه باللَّه فانْتَبَه فهو وَاجدٌ لهذا .

وكما أَنَّ السّكرانَ من الشراب لا يَجِدُ طعْمَ العَسل ولَذاذَته إذا لعقه . فكذا السَّكْرَان مِنْ حُبّ الشهوات لا يَجدُ طَعْمَ كلامِ اللَّه ولا لَذاذته ، ولا يكون له شِفَاءٌ لا في الفَم ، ولا في الجَوف ، ولا في

---

(١) الغضاضة : الخفض والذلة والضعة .
(٢) يونس (١٠/٥٧).
(٣) النحل (١٦/٦٩).

القلب ؛ وهو عبدٌ[1] آبقٌ مُعَاقب بإبَاقِه ؛ قال اللَّه عزَّ وجلَّ[2] : ﴿ سَأَصْرِفُ عن آياتيَ الَّذِين يتكبَّرُونَ في الأَرْض بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

وكلُّ مَنْ تكبَّر على اللَّهِ أهانه اللَّهُ تعالى ، وذلَّله ورَمَى به في إكرام نفسه ، وطلبِ عِزِّها ورِفْعَتِها ؛ فقد عُوقِبَ بأَنْ صرف قَلْبَهُ عَن آياتِه حتى لا يَفْهمها ، ولا يَجِد حلاوَتها ولا لَذاذتها .

مثل التالي ولا يعلم التفسير

مَثَلُ التالي كتابَ اللَّه تعالى ولا يَعْلَمُ تفسيره كمثَلِ مَلِكٍ كتب إلى عامِله كتاباً فيه أَمْرٌ ونَهْيٌ ووَعْدٌ ووَعِيد على تَضْييع أَمْرِه ؛ فاستظهره هذا العامل ، فقام ببعضه في الأُمور التي أَوْعَدَ[3] عليها ،وضَيّعَ البَعْضَ التي وَعَد عليها ، فأخذ هذا العاملُ في كلِّ يوم يقرأُ هذا الكتابَ ، وكلَّما أَتى على وَعيدٍ[4] وَتَهَوُّل على النفس طرَّبَ[5] فيه ورَفع صَوْتَه ، كأنه يَتَغَنَّى بأَغَانِي السُّرور ؛ وكلَّما أَتى على طَمَعٍ ونَوَال ، وبُشْرَىٰ وكرامة ، ذَبُل وتكاسَل ؛ وربَّما يتَثاءَبُ في قراءَته ؛ فقرأه على تلك الهيئةِ كالمَصْرُوع والمَجْنُون ؛ فإنَّه[6] في القرآن أَمرٌ ونَهْي ، وَوَعْد ووَعِيد ، وذِكْرُ أَنباءِ القرون للطمَع والتخويف ، وضَرْبِ الأَمثال ، وذِكْرُ

---

(١) أبق : هرب ويقال عبدٌ آبقٌ إذا هرب من سيده .

(٢) الأعراف (٧/١٤٦).

(٣) أوعد عليها : توعد عليها ولا تأتي أوعد وتوعد إلا في الشر أما الوعد فهو في الخير .

(٤) تهول : دهشة من غرابة ما ترى من الشيء بما لا تتوقعه .

(٥) طرب تطريبا إذا تغنى ، وقديما قيل (كل كريم طروب) .

(٦) فإن [ج] وهذا تحريف .

الآلَاءِ[1] ، وذكر المِنَن واللَّطائف ؛ فإذا لم يَعْلَمْ هـذا كلَّه ، وَرَضِيَ من نفسه بالقراءَة فقط ؛ فكأنَّه العامِلُ يقرأُ كلَّ يوم كتابَ الملك ، ويَتْرُك ما فيه من المَعَاني بمنزلة رَجُل يَسْلُكُ طريقاً قَفْراً يستقبله عِقابٌ يحتاجُ إلى قَطْعِها ، وهـو أثقال الصـدق في أَمْرِه ونَهْيِـه ، ومرّةً يَستَقْبِله مفـاوِزُ وهو وَعِيده ، ومرّة يستقبله فَلَاة مُعْطِشـة ومَجَاعـة ، وهي منازلُ قَـوْمٍ وصَفها في تنزيله ، ومَدحهم بها ، ومرّةً يستقبله فَضَـاءٌ من الأَرض فيها رِيـاضٌ من خُضـر ، وهي ذكـر النعم ، ومـرةً يستقبله في تلك الأَرْضِ بسـاتين ذاتُ وَرْدٍ وبَـانٍ[2] ويـاسمين ، وهـو ذِكْـرُ المِنَنِ ، ومـرّة يَهْجُم على أغـراسٍ[3] في تلك البسـاتين ، وهي تلكَ الحـظوظ التي هَيّـأَ لـه من آلَائه ، وتلك اللطائف المذكورة ، ومرة تستقبله أَرْضٌ شَاكَة مَسْبَعة[4] ، وهي ذِكْر النفوس ومكايِدِ الشيطان .

فهـذا القرآنُ كـائن فيه هـذه الأَلوان ؛ فمن قـرأَ القرآن لـظَهْرِه[5] مـرَّت عليه هـذه الأَشياءُ ومـرَّ بها وهـو عنها سَكْـرَان أو نـائم ، فيـطرب ويُـظْهر السّـرور في وَقْت الأَحزان والانكسـار ، ويَرْفَـعُ صوتَـه في وقت الخَفْض والخُشُوع ، ويَنْشَط في حال الانقبـاض ، ويتحازَنُ[6] في وقت السرور والبَهْجَة .

---

(1) الآلاء : النعم .
(2) البان : شجر معروف .
(3) أغراس : جمع مفرده غرس وهو المغروس .
(4) أرض شاكة : كثيرة الشوك ، ومسبعة ، كثيرة السباع .
(5) قرأ القرآن لظهره : غير متدبر له متأمل فيه .
(6) يتحازن : يظهر حزيناً .

مثل من يقرأ القرآن بألحان

فمثل ذلك مثل ملكٍ أمر المنادِي أن ينادِي في الرعيّة بوعِيد هائل يكادُ أنْ تَشِيبَ منه الرّؤوس ، فنادَى بنداءٍ طَرّب فيه وتغنّى ، وجاءَ بألْحانِ السّرور ، أفليس يَمْقُتُه الملكُ على ذلك ويُغِيظه .

ولو أنَّ رجلاً تَلاَ هذه الآية(١) : ﴿ واتَّقوا يوماً تُرْجَعُون فيه إلى اللَّه ﴾ . أو تلاَ هذه الآية(٢) : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمعين ﴾ أو تلا(٣) : ﴿ إذ الأَغْلالُ في أعناقهم والسَّلاسِلُ يُسْحَبُون في الحَمِيم ثم في النارِ يُسْجَرُون ﴾ ، ثم قال في آخر ذلك(٤) : ﴿ ذلِكم بما كُنْتُم تَفْرَحُون في الأَرْض بغَير الحقِّ وبما كنْتُم تَمْرَحُون ﴾ . فهو يَرَىٰ نَفْسَه في الفَرَح والمرح إلى قَرْنِهِ وقَدَمه ؛ فَرجَّع بقراءةِ هذهِ الآيات وطرَّب ، وجاءَ بألحان السُّرور .

ثم قرأ(٥) : ﴿ وَبَشِّر الْمُؤْمنين بأَنَّ لهم مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبيراً ﴾ . ﴿ يومَ(٦) تَرَى المُؤْمنين والمؤمنات ؛ يَسْعَى نُورهم بين أَيْديهم وبِأَيمانهم بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تحتها الأَنهارُ خالدين فيها ذلِكَ هو الفَوزُ العظيم ﴾ ؛ فأَخذ يتحازَنُ ، ويَخْفِضُ في صوته وتَرْجيعه ، ويئنُّ فيها ، ويُخْرِجُ صَوْتَه أصوات الثَّكالى ، وإذا قرأ قوله تعالى(٧) : ﴿ يومئذٍ

---

(١) البقرة (٢/٢٨١).

(٢) الحجر (١٥/٩٢).

(٣) غافر (٤٠/٧١ ، ٧٢) ويسجرون : يحرقون .

(٤) غافر (٤٠/٧٥) راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٤/١٤) بتصرف.

(٥) الأحزاب (٣٣/٤٧).

(٦) الحديد (٥٧/١٢).

(٧) الحاقة (٦٩/١٨).

تُعْرَضون لا تَخْفَىٰ منكم خافيةٌ ﴾ ، يُغَنّي في صَوْته ولَحْنِه ، وأرسل كلَّ صوت كالمُتَنَشِّط المسرور .

وإذا قرأ صفةَ الجُـود(١) : ﴿ هَلْ جَـزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَـانُ ﴾ تمثَّلَ في تلاوتِهِ كهيئةِ أَهْلِ المصائب ، وذَبُل وانكسر .

فلو أَنَّ عَبْـداً مِن عبيد أَهْـلِ الدنيـا بَشَّـرَه مـولاه(٢) بشيء أَوْ أَمَّلَهُ نـوَالاً(٣) ، أو أَطمَعَه في بُشْـرىٰ انقبض وعبس وَجْهُه ، أو إذا أَوْعَـده أو وَبَّخه في شيء انبسـط وضَحِك في وَجْهِهِ ـ لمَقته(٤) ؛ ولو أَنَّ رجلاً قال في مَوْلاه سُوءاً فلفظ بـه العَبْدُ على الجَهْـر والتصريـح لَمَقَتَه ؛ فـإذا تَلَا التالي تلك المقالاتِ التي حكى اللَّهُ تعالى عن أَعدائه مِنَ الفَرَاعنة جَهَر بها وطَرَّب بها خيفَ عليه المَقْتُ .

قــراءة السـلف :

ورُوي عن إبراهيم النَّخعي رحِمه اللَّه أَنَه كان إذا مـرّ بقولـه(٥) : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ ، خَفَض صَــوْتَــه .

ورُوي عن بَعْضِ التـابعين أَنه قـرأ سـورةَ الفُـرْقَـان أَربعين ليلةً ، فكـانَ كلَّ ليلة إذا بلغ إلى قـولـه(٦) : ﴿ قـالُـوا ومـا الـرَّحْمٰن ﴾ ـ سقَط

---

(١) الرحمن (٥٥/ ٦٠) راجع تفسير أبي السعود (٥/ ١٢٧) .
(٢) المولى : السيد .
(٣) نوال : عطاء .
(٤) المقت : البغض والكراهية .
(٥) البقرة (٢/ ١١٦) راجع تفسير الإمام الطبري (٢/ ٥٣٩) .
(٦) الفرقان (٢٥/ ٦٠)
راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ١٦١) وما بعدها .

مَغْشِيًّا عليه ، فتعاهَدُوا ذلك أربعين ليلةً ـ كلما بلغ هذه الآيةَ سقَط ، ولم يقدر أنْ يجاوزَها .

هكذا صفةُ المُنْتَبِه لما يَتْلو ؛ فمن اتبع لتلاوته وقراءَته لبَطْنه[1] ؛ فإذَا أَتَى على مِثْل هذه الآيةِ انقطع صَوْتُه ، وتراجع في حَلْقه ، وإذا أَتى على العِقَاب أعيا ، وإذا قطع المَفَاوزَ عطش وَنَصب[2] ، وإذا قطع البَساتين والرِّياضَ طَرِب ، وإذا طعِم الأغراس سكر ؛ لأنَّ الأشربة الصَّافية الصَّرفة كائنة في الأغراس ؛ فذلك وَقْتُ الوَلَهِ[3] إلى اللَّه تعالى ، وَلَهَتْ قلوبُهم عن كل شيءٍ سِوَاه ، وإذَا أَتى على أَرْضٍ شَاكَة[4] أنَّ وضَاقَ عليه الطريقُ، وإذا أَتى على أَرْضٍ مَسْبَعة[5] أَرْعَد خَوْفاً ، وإذا أَتى على بلاءِ العدوّ تحيَّر واستغاث وصرخ إلى رَبِّه ؛ فهذه أحوالٌ كائنةٌ في قلوب المُنْتَبِهين الذين قَرَأوا القرآنَ لباطنه ، فَتحوَّلَتْ قلوبُهم على تحوُّلِ مَعَاني ما يَتْلُون ؛ وربّما هالهم في تلك الفَلاَة لا يحطُّون في تلك المواضع أثقالهم ؛ فإذا نزلوا استراحُوا ؛ وذلك لطْفٌ من اللَّه تعالى يلطفُ به عَبْده لما يَرَى مِمَّا حلَّ بقَلْبه من النَّصَب والتَعَب في قَطْعِ هذا الطَّريق على ما وَصَفْنا ، ففتَح له في بَعْضِ تلكَ الآيات ، ويُشرق على قَلْبه من نُوره فيردّد تلك الآيات ، فربما بَقِيَ في تلك الآياتِ ساعاتٍ لما يتراءَى[6] له فيها ؛ فذاك مُسْتَرَاحُ[7] قلبِه ، وفي ذلك الوقْتِ يَحُطُّ رَحْلَه ، ويحلُّ بفنائِه حتى يَقْوَى .

---

(١) كذا بالأصول .
(٢) النصب : التعب الشديد .
(٣) الوله : الحب الشديد .
(٤) أرض شاكة : كثيرة الشوك .
(٥) أرض مسبعة : كثيرة السباع .
(٦) يتراءى : يظهر فيها .
(٧) مستراح قلبه : راحته .

فـي التــوراة :

ورُوِي عن مالك بن دينار رحمه اللَّه ؛ قال : قرأْتُ في التَّـوْرَاةِ : لا تعجـزنَّ أنْ تقومَ في صـلاتِك بين يـديَّ باكيـاً ، فإني أنَـا اللَّهُ الـذي اقتـربتُ لِقلبك ، وبـالغَيْب رأيتَ نوري ؛ فهـذه خانـاتٌ ومنازل اولئك القـوم تُهَيَّـأ لهم نُـزُلاً من النـور حتى تتـراءَى لهم معـاني تلك الآيـات وبَـوَاطنها ، فيتلذَّذُون بهـا ، ويستريحـون من التَّعَب الذي لحقهم فيمـا تَلَوْا قَبْـل ذلك ؛ وإنمـا[1] مرُّوا بتلك الآيـات بعد ذلـك مرّةً أُخـرى فلم يُصِبْهم تعَبٌ ولا نَصَب كما كان قبل ذلك ، فطمعوا في حطِّ الرِّحَال لما كانوا وَجَدوه قَبل ذلك ، فدارُوا عليهـا ، وردَّدُوها يُـريدون حطَّ الـرحال من غيـر إعياءٍ ، واستـراحةً من غيـر نَصَب ، يطمَعُـون في إشراقِ ذلـك النـورِ تلذُّذاً بِفناءِ الملك الكـريم ، فيجدون تلك الخـانات لم تُهَيَّـأْ لهم نُـزُلاً ، إنمـا هي أَوَاريّ[2] خـاليـة ، وبيــوتٌ صُفْــر[3] ، فيــرتحلون ويَمْضُون . وإذا هُيِّيءَ النُّزُلُ فقد وَجَدُوا مـا طلبوا ، فـإذا ردَّدُوها تـراءَى للقلب شُعاع ذلك ، فالتهب النُّورُ ، وتُصـوّرت تلك المَعَاني المُنْـدَرِجة فيه على قَلْبه ، فصار طرباً في سمعه ، فأَعلمه وأبكاه .

فـإذا لم يعلم هـذا كلَّه ، ورَضِيَ من نفسـه بـالقـراءَة فقط فكـان كعامل يقرأُ كلَّ يوم كتابَ الملك وَيَتْرُكُ ما فيه من المعاني .

ورُوي عن ابن عبـاس رضي اللَّه عنهما أنـه قـال : مـا أَنـزلَ اللَّهُ

---

(١) لعله ربما [حاشية ب] .

(٢) الأواري : جمع آري وهو معلف الدابة أو محبسها .

(٣) صفر : خالية .

تعالى كتاباً إلَّا أَحَبَّ أَنْ يعلمَ تفسيره ؛ فمن قرأَ القرآنَ ولم يعلم تفسيره فهو أُميّ .

وقال سَعِيد بن جُبَيْر رحمه اللَّه : مَثَلُ مَنْ قَرأَ القرآنَ ولم يعلم تفسيره كمثل رجلٍ جاءه كتاب من أعز الناس إليه ، يفرح به ويطلب مَنْ يقرؤه عليه ، فلم يجد وهو أُميّ ؛ ففرح بالكتاب ولا يَدْرِي ما فيه فهكذا مَثَلُ مَنْ يقرأُ القرآن ولا يعلم تفسيره وما فيه .

مثل صاحب الأخلاق

ومثل صاحِبِ الأَخلاق مثل [٥٣] مَلِكٍ له خزانةٌ وقُوَّاد ومَمْلَكة ، فإن كانت الخزانةُ قليلةً كنوزُها ، وكُورَته(١) صغيرة ضاق به هؤلاءِ القُوَّاد ؛ وقال بعضُهم لبعض : هذا ملك له اسمُ الخزانة والكُنوز ، وليس لكنوزه مادَّةٌ يُجْرِي علينا ويُغْنِينا حتى نتَّخِذَ عُدَّةً للعدوّ الذي هو بمَرْصَدٍ منَّا ومِنْ ملكنا هذا ، وليست له مَمْلَكة فَسيحةٌ نَنْتَشِر فيها ، فَيأْخذ كلُّ قائدٍ منَّا ناحِيةً من المملكة ، فيتملَّك على أَهْل ناحيته ؛ وقُوَّةُ الملوك في الخزائن الجمَّة(٢) ، وبالكنوز والجوهر والقوّاد ، وحسن التدبير في هَذَيْن ، فيدبّر أَمره وأُمورنا بِحُسْن ما عنده من الكيَاسة(٣) ، فيدرّ علينا كنوزه وَقْتاً وَقْتاً ، وشَهْراً شهراً ، ويُعِدُّ جواهره للنوائبِ العِظَامِ ، فلا نرى ها هنا عُدَّة ولا فُسحة ؛ فتعالوا نَنْتَقِل عن هذا إلى

---

(١) الكورة : الصقع أو المدينة .

(٢) الخزائن الجمة : الكثيرة .

(٣) الكياسة : الفطنة والمروءة .

مَلكٍ لمَمْلَكَته فُسحة ومُنْتَشَر ، نَتَّسع في نواحيها ، ونَعْمَلُ للقيادة ؛ فيعود الجندُ إلى مَلكٍ له كنوزٌ جمَّة ، ولكنوزه مادَّة من غلَّات المملكة ، فله كنوزٌ وأَمْصَار[1] وقُرى وَبَرٌّ وبَحْر ، كملك الهِنْدِ والرّوم والعرب ؛ ما نصنَعُ بهذا الضعيف العاجز ؟ يطلبون مَلِكاً بتلك الصفة ، ولا يَثْبُتون مع هذا ؛ فالمِلكُ هو القلْبُ ، وخزانته في جوف القَلْب ، فيه كنوزُ المعرفة ، وَجَواهرُ العلم بالله ، والعقلُ وَزِيرُه ، والصَّدْرُ فسحته ، وساحَتُه ومَمْلكته ؛ والأَخلاق قُوَّادُه ، والأَركان رَعِيّته ؛ وهي الجواهر السبع ؛ فهؤلاءِ القوادُ قد أَحْدَقُوا[2] بالقلب في هذا الصّدر ، وأَطافوا بباب القَلْبِ بين عيني الفُؤَاد ؛ فإِنَّ الفؤادَ هو ما ظهر من القلب ، والقَلبُ ما بَطَن ، والقلبُ بَعْضٌ في بعض ، والعَيْن على الفؤاد ؛ وذلك قوله تعالى[3] : ﴿ ما كذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ[4] ﴾ . وقول رسول اللَّه صلَّىٰ اللَّه عليه وسلَّم : أَتاكُم أَهْلُ اليمن أَلْيَنُ قلوباً ، وأَرَقُّ أفئدةً[5] . فوصف القَلْبَ باللين ، والفؤادَ بالرّقة .

فالأخلاقُ في الصَّدْر قوَّاد الملك ، قِيَامٌ بين عيني الفؤاد ، والعَقْل شُعَاعُه ، يُشْرِق بين عَيْنَي الفُؤاد ، وَيُدَبِّرُ أمرَ القَلْب . والنفسُ في

---

(١) الأمصار : جمع مصر وهي البلد .

(٢) أحدقوا : أحاطوا به واحتوشوه .

(٣) النجم (٥٣/١١) .

(٤) يقول الإمام القرطبي رحمه الله : ـ « أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه سبحانه وتعالى ، وجعل الله تلك رؤية » اهـ.
الجامع لأحكام القرآن (١٧/٩٢) .

(٥) الحديث يروى بزيادة (الفقه يمان والحكمة يمانية) وقد أخرجه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/٦) .

الجوف رَابضةٌ[1] في مكان مَظَانِّها ، والهوى بباب النَّفْس يتلهَّبُ ويتلظَّى[2] بين يدي بَصِيرَةِ النفس ؛ فإذا خَطَرَت الخاطِرَةُ في الصَّدْرِ بين عيني الفؤاد نَظَرَ العقلُ ؛ فإنْ رآها حسنةً وأَمْراً رشيداً قَدَّرَ وَدَبَّر ماذا يراد ؟ وكَمْ يُرَادُ ؟ ومتى يُرَاد ؟ وإلى مَتَى يُرَاد ؟ وإن رآها سيئةً وَغَيّاً[3] نَفَاها عن الصَّدر ؛ ففي هذا الوقت للنفس مُنَازَعَةٌ مع القلب ولِلْهَوَى مع العَقْل .

في هذه الخاطرة النفسُ تشتهي ، والهوى يُزْعِجُ[4] النَّفْسَ ويُشَجِّعها ، والعدوُّ يُزَيِّنُ بِمُنَىً ويُغْرِي ؛ فإذا جاءَ مَدَدُ الأخلاَقِ بطلَتْ زِينةُ العدوّ وَأَمَانيه ، وانكشف غُرورُه ، وارتدَّ الهَوَى قَهْقَرى إلى مَعْدَن مهْنَتِهِ ، وجاءَ مَدَدُ الكنوز : كنوز المعرفة ، ومدَّ الملك يدَه إلى جوهر الخزانَة فانْمَحَقَتْ[5] الخاطرة وأسبابُها ، ومُعْتمَلها ، وجنودُها . وطليعةُ الخاطرة النفسُ العدوُّ إذا كانت خاطرة غَيّ ، وإن كان رشَداً كانت طليعتُهُ الخاطرة الحق ؛ فعزُّ هذا الملك وَمَنَعَتُهُ وقِوَامُ[6] مَمْلَكته بهذه الكنوزِ والقوّادِ ، وكذلك عِزُّ القلب ، ومَنَعَتُهُ بكنوز المعرفة بالله تعالى ، وجَوَاهر العلم بالله تعالى ، وبهذه الأخلاقِ التي أَحْدَقَت[7] بالقَلْب بين عَيْنَي الفؤاد .

---

(١) رابضة : ساكنة .
(٢) يتلظى : يلتهب .
(٣) الغي : الضلال .
(٤) زعجه : وأزعجه أقلقه .
(٥) محقه : دحضه ومحاه .
(٦) قوام مملكته : عمادها وملاكها ونظامها .
(٧) أحدقت : أحاطت .

أصـــول الأخـــلاق :

فالأخلاق أُصولُها في الـطبع ، ومـادَّتُها من المعـرفة والعلم بـالله تعالى ، ومُعْتَمَلها في الصّدر .

فالموحِّدُونَ هذه صِفَتُهم ، والكفّار أخلاقُهُم أُصولُها في الـطَّبع ، ومُعْتَملهـا في الصَّدر ، ومـادَّتُها في الفَـرَح بِمَدْح النـاس ، وطَلَبِ العُلُوّ والشَّـرَف والذِّكـر ؛ قال الله تعـالى[1] : ﴿ تلكَ الـدارُ الآخـرةُ نَجْعَلُهـا للذين لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأرْضِ ولا فَسَاداً والعاقِبَةُ للمتَّقِينَ﴾[2] .

فـالمؤمنون تَخَلَّقُـوا بخُلقِ الله تعالى ، وتـواضَعُوا بـه لله تعالى ، وأرادوا[3] بـه وَجْهَ الله ، وَتَقَـرَّبُوا بـه إلى الله تعالى ، وَتَحَبَّبُـوا بـه إلى الله .

والكفَّارُ تخلَّقُوا بذلك الخلق ؛ فتكبّروا على الله تعالى ، فجاوزُوا بهـا الحدودَ ، ولم يضَعُـوها مـواضِعهَـا بحقِّـه ، وتقـرَّبُـوا إلى الخَلْقِ ، وتحبَّبُوا به إلى أهل العلائق ، وَتَصَنَّعُوا[4] به ، واتخذوا جاهاً .

والأخلاقُ لها سلطانٌ ؛ فإذا وجدَ الخَلْقُ تَفَسُّحاً ساحَ في فُسْحَته ، فجاوزَ الحدودَ في أُموره ، فصار مُسْـرِفاً مُضَيّعـاً للحقّ ، وقد استمـرّ به الهوى والنفس .

والمؤمنُ يتخلَّقُ بذلك الخُلق ، فإذا تَفَسَّح الخَلق عَقَلَه[5] العَقْـلُ

(١) القصص (٢٨/٨٣).
(٢) الدار الآخرة : الجنة .
(٣) فأرادوا [ج] وهو تحريف .
(٤) كذا في [أ] و[ج] وتضيعوا في [ب] .
(٥) عقله : منعه .

عن المجاوزة ، ومنَعَه عن التعدّي ؛ ولهذا سُمِّي عَقْلا ؛ لأنه عَقَله عن الجهل ، وردّه إلى العلم الذي عَلَّمه اللّهُ تعالى ؛ وكان الله تعالى أَعْلَمُ بـذلك الأمـر ، كم يُرَاد ؟ وإلى متى يُـراد ؟ وبِأَي مقـدار ؟ وإلى متى ؟ فوكَلَ به العَقْل حتى يَهْدِيه لذلك .

أَلَا تَـرَى إلى قـول اللهِ عَـزّ وجـل ، حيث سَـأَلُـوا رَسـولَ الله صلّى الله عليه وسلم : كم تُنْفِق من هذا المـالِ الذي حَثَّ اللّهُ تعـالى على إنْفَـاقِـه ، وَعَـظَّمَ فيـه الثـوابَ ؟ فنـزلت قـولُ الله تعـالى[١] : ﴿ وَيَسأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُل العَفْوَ ﴾ .

والعَفْو: هو الفَضْلُ ؛ أي ما فضل مِنْ نَفْسِكَ وعِيَالك الذين تَعُولهم .

وقـال رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم : ابـدَأْ بمَنْ تَعُـول[٢] ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنىً[٣] .

وقال رجل : يا رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، عندي دِينـار ، مـا أَصنَع بـه ؟ قال : أَنْفِقْـه على نَفْسِكَ . قـال : عِنْدِي آخـر . قال : أَنْفِقْه على عِيالك ووَالدتك . قال : عندي آخرُ . قال : أَنْفِقْهُ في سبيل الله تعالى ؛ وذلك أَدْنَاهن .

فمن تَخَلَّق بالسَّخَاوة[٤] ، فـاستمرّ بـه طَبْعُهُ ، وَأَعْلَنَتْـه[٥] نَفْسُه ،

(١) البقرة (٢ / ٢١٩).
(٢) من تعول : من تلزمك نفقته من عيالك .
(٣) عن ظهر غنى : ما كان عفواً وزاد عن غنى .
(٤) السخاوة : الكرم والجود والسخاء .
(٥) وأعانته في [ج] وهو تحريف خطير .

وَمَلَكَ بـه هَوَاه ، وَزَيَّن لـه عَدوّه ، وذهب فَـأَنْفَق على أبـاعِـدِه ، وتـرك أقاربَه ، وعالَ[1] مَنْ لم تلزمه عِيَالَتُه ، وضيَّع عِيَاله ؛ فهذا فِعْلُ مَنْ أَرَاد بذلك الخُلق عُلُوّاً في الأرض ، وَتَصنّعاً عند الخَلْق .

فالعقلُ يكشِفُ عن هذا الغَيب ، وما هو أدَقُّ مِنْ هذا .

الأسخياء والأجواد :

رَوَى سُليمـان بن الحارث البَصْـري ، عن أبي هِـلاَل الـرَّاسبي ، عن حُميـد بن هلال ، قـال : تفاخَـرَ رَجُلان[2] : رجـل من بني هـاشم وَرَجُلٌ من بني أميّة ، فقال هذا : قَوْمي أَسْخَى من قومك . وقال ذاك : بـل قومي أسخى من قـومـك . فقـال : سَـلْ في قـومـك ، وأَسـأَلُ في قَـوْمِي ؛ فافتـرقا على ذلـك ؛ فسأَلَ الأُمـويّ عشرةً من قـومه ، فـأعطوه عشرةَ آلاف ، وجاءَ الهاشميّ إلى عبد الله بن عباس رَضِيَ الله عنهما ، فسـأله فَـأَعـطاه مـائـةَ ألف ، ثم أَتى الحَسَن بن علي رضي الله عنهمـا فسأله ، فقال : هل أَتَيْتَ أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، عَبْـدَ الله بن عباس رضي الله عنهمـا [٥٤] ، وأعـطاني مـائـةَ ألف ، فـأَعـطاه الحَسَنُ رَضِيَ الله عنه مائَـةَ أَلف وثلاثين ألفـاً ؛ ثم أَتى الحُسين رَضِيَ اللهُ عنه فسـأله ، فقـال : هل أَتَيْتَ أحـداً قَبْلي ؟ قال : أَخَـاكَ الحسن بن علي رَضِيَ الله عنهما فَأَعطاني مائةَ ألف وثلاثين ألفاً ، فقال : لـو أَتَيْتَني قَبْلَ أَن تَـأْتِيَه لأَعـطيتُكَ أكثَـرَ مِن ذلك ، ولكِنْ لم أَكُنْ لأَزِيـد على سَيِّدي ؛ فأَعطاه مائة أَلف وثلاثين ألفاً .

---

(١) عال : من يعول أي قام به وكفله ومنها العائل والعائلة .

(٢) تفاخر رجلان : فاخر كل منهما الآخر .

فهذه سَخَاوَةٌ مُستَمِرَّة في الطَّبْع والنَّفْس ، قد منعها العَقْل ، فزيّن هذا العقل من الحسين بن علي رضي الله عنهم .

فالكُفَّارُ كانوا يتفاخرُونَ ، ويُبَاهي أَحَدُهُم صاحبَه بالأخلاق وأفعاله ، ويُمَارِي[1] حتى يَتَعَادَوْا من أجْله .

مكارم الأخلاق :

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما أَتَانا سَبَايَا[2] طَيِّء تكلَّمَتْ فيه جارية جميلة نسيتُ[3] جمالها لِمَا رَأَيْتُ مِنْ فَصَاحَتها ، فقالت : يا محمد ، إنْ رأَيْتَ أن تُخَلِّي عني ولا تُشمِت بي أحياءَ العرب ، فإني ابنةُ سرّة قومي ، كان أبي يفكُّ العاني[4] ، ويحمي الذِّمَار[5] ، ويَقْري[6] الضَّيْفَ ، ويُشبع الجائع ، ويُفَرِّج عن المَكْرُوب[7] ، ويُطعم الطَّعام ، ويُفْشِي السلام ، ولم يردَّ طالبَ حاجةٍ قَطُّ ، وأَنا ابنةُ حاتم الطَّائي .

فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : يا جَارية ، هذه صِفَةُ المُؤْمن حقّاً ، لو كان أبوك إسْلَاميّاً لترحَّمْنَا عليه ، خلُّوا عنها ؛ فإنَّ أَبَاها كان يحبُّ مَكَارِمَ الأخلاق ، والله يُحِبُّ مكارمَ الأَخْلاق .

---

(١) يماري : يشك ويجادل .

(٢) سبايا : أسارى .

(٣) سبت جمالها [ب] .

(٤) العاني : الأسير .

(٥) الذمار : ما يلزم الإنسان المحافظة عليه وحمايته والذب عنه .

(٦) يقري الضيف : من القري وهو الإكرام ، بأن يكرم نزله .

(٧) المكروب : الذي نزلت به باقعة أو كربة .

فقامَ أَبُو بُرْدَةَ رضي الله عنه ، فقـال : يا رَسُـولَ الله ، اللهُ يُحِبُّ مكارمَ الأَخلاق ؟ فقال : يا أَبـا بُرْدَة ، لا يـدخل الجنـةَ أحدٌ إلَّا بِحُسن الخُلق .

حدثنا الجارُود ، أُخبرنا يزيـد بن هارون ، عن المسعـودي ، عن القاسم ، قال : قال عبد الله : تجـد الرّجـل فَظّاً ، فـإذا بَحَثْتَه وَجـدْتَ سَـرِيرَتَـه الإيمان ، وتجـده حُلْوَ الخلائق ، فـإذا بَحَثْتَه لم تَجِـد فيـه من الإيمان شيئاً ، وَمَنْ شاءَ اللّهُ جمع له حلاوَةَ الدِّين وحلاوةَ الخلق .

الفظاظة ضد الكرم :

والفَظَاظَةُ[1] : ضِـدُّ الكـرم ، فمن كـانت له فَـظَاظَةٌ غَلُظَ قَلْبُـه . والكَرَمُ لِينُ القَلْب وانقيادُه بمنزلة شجَر الكَرْمِ أَيْنَما قُدْتَه انقاد ؛ ولـذلك سمِّي جنَّة العِنَب كَرْما .

وكذلك ما رُوِيَ عن أَبي هُرَيـرة رضِيَ الله عنه ، عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قـال : لا تَقُولـوا لِلعِنَب كَرْمـاً ، إنما الكَـرْمُ قَلْبُ المؤمن[2] ؛ وذلك لأنه لاَنَ وَرَطُبَ بالرحمـة التي حلَّت به من الله

---

(١) الفظاظة : هي سوء الخلق ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ فالفظاظة هي الجفاء .

(٢) رواه الإمام مسلم برواية (لا تقولوا الكرم ،ولكن قولوا العنب والحبلة) رواه مسلم عن وائـل بن حجر ، ورواه الشيخـان عن أبي هريـرة رضي الله عنـه بلفظ الكـرْم (إنمـا الكـرم قلب المؤمن) وفي لفظ عنـد مسلم (لا تسمـوا العنب الكـرم ، وإن الكـرم المسلم) اهـ .
راجع كشف الخفا للعجلوني (٢/٥٠٢) بتصرف .
والحـديث أورده الإمـام السيـوطي في الجـامـع الصغيـر وصححـه (٢/٢٠٢) ط. العلمية .

تعالى ، وانقادَ لعبوديته(١) ؛ والكافرُ كزٌّ(٢) قاسِي القلب ، يابس كالصَّخر ؛ لأنَّ رحمةَ الله لم تَنَلْهُ فَيَبَّسَتْه حرارةُ النَّفْسِ وَشَهَوَاتها ، وَقَوَّاه التَّجَبُّر والكِبْر ، فَيبس وكزَّ ؛ فإن كان فيه بعضُ هذه الأخلاق المحمودة فاستعملها ، فبجوهريته استعمل ، لا بمعرفة اللهِ تعالى ، فيجاوز الحدودَ حتى أُفرط وضيَّع ، وشانَ(٣) ما حَسُنَ منه .

مثل من يسبح بتسبيح غيره

وَمَثَلُ مَنْ يُسَبِّحُ بتسبيحِ غَيْرِهِ مَثَلُ رَجُلٍ عَجز أَنْ يُهْدِيَ إلى الملك على قَدْرِ مُلكه وغِنَاه ، فأَهدى إليه مِنْ طَاقته وَمَقْدِرَتِهِ ، ثم قال له : أَهديتُ هذا من ذات يَدِي ، وأَهديتُ إليك بقلبي هدية مِثْلك ، فَعَلِمَ الملكُ أَنه صادق في مَقَالَته ، فاحتسبها منه على قَدْرِه ، وجعل ثَوابه على ذلك .

فكذلك العَبْدُ فيما بَيْنَه وبين الله تعالى ؛ إذا أَثْنَى عليه فإنما يُثنِي بمبلغ عِلْمه ، ثم عِلْمِ العَبْدِ أَنَّهُ عاجز عما وراءَ ذلك من الثناءِ ؛ إذ هو فوق ما أثنى ، فيقول : لَكَ الحمد كما حمدْتَ نَفْسَكَ ، وأَنْتَ كما أَثنيتَ ، ولكَ التسبيحُ كما سبَّحت به نَفْسَكَ ، ولك الحمدُ زِنَة عَرْشِكَ وَمِداد كَلِمَاتِكَ ، وَرِضَا نفسك ؛ فهذه المَعْجَزَة(٤) عن بلوغ هذه

---

(١) وردت بالأصول (لعبودته) ولعل هذا تحريف من الناسخ وكلاهما بمعنى .

(٢) كز : من الكزازة وهي الانقباض ، والوجه الكز هو القبيح ، ويقال : رجل كز اليدين إذا كان بخيلاً .

(٣) مثل (ب).

(٤) المعجزة : العجز .

الأشيـاءِ ، فجعل مقـالتَه بـالقَلْبِ كتلك الأشياءِ التي ذُكِـرَت ، ولا يقـدر بلسانه أَنْ يُعَبِّر إلاَّ بمبلغ عِلْمِه ؛ فربما يقبل منه كهيئة ما أَحـال عليه مِنْ حَمْدِهِ وَثَنائه عليه ، وكما أحبَّ وَرَضِيَ لنفسه ؛ وإنمـا أَمر العبـدَ بالثنـاءِ لعـظمته ، ثم يسـأَل الحاجـة ؛ فإذا سـأَل[1] الحـاجـة من قَبْـل أن يُثْنِي فكأنَّه لم يُعَظِّم الرَّبَّ ، ولم يُؤَدِّ حقَّ العَظَمَة .

ولـو أَنَّ ملكاً من ملوكِ الـدُّنيا رَفَـعَ الحِجَابَ فيمـا بينـك وبينـه ، وسهـلَّ ذلك السبيـلَ إلى نفسه ، وَرَفَعْتَ الحـوائِجَ إليـه لكان قـد عَظَّمَ رُتْبَتَكَ وَمَنْزِلَتك ؛ فكيف بربِّ العالمين تَعالى ؟ أَفليس يَجِبُ عليـك من ذلك الشُّكر ، وأَوَّلُ الشكر أَنْ تُعَظِّمَه باللسان والقلب ، ثم مِنْ بعد ذلك رَفْع الحجاب .

مثل النفس مثل الكرش

مَثَل النفسِ مِثْلُ الكَرِشِ[2] الذي فيه مُسْتَنْقَع البَوْلِ في المَثَانَة ؛ إذا دَلَكْتُه بالأرض حتى يـرقّ ، ثم نَفَخْتَ فِيه حتى يمتلىء من الـرِّيح ، ثم أَلقيتَ فيـه الزئبق ، فـإذا أَصابتـه حَرَارَةٌ طـار ذلك الـزئبق على وَجْهِ الأرض دَبيبـاً ، فإذا أَلقيتَ فيـه مع الـزئبق رصاصـة أَمسكته ؛ فكـذلـك الشهوات في النفس كالزئبق في تلك الجِلْدَة الممتلئة رِيحاً هفَّافة ، فإذا ثَقَّلَها الإيمانُ على القَلْب سكنت النفْسُ عن الـطيَاشـة[3] ؛ لِأَنَّ الإيمانَ بالرحمة ناله الْعَبْد ، وَبَرْد الرحمة يُطْفىء نـارَ الشهوةِ ، وإِثْقَـال العَظَمَـةِ

---

(١) سئل [ب] وهو تحريف خطير .

(٢) الكرش : المعدة .

(٣) الطياشة : الطين والنزق وذهاب العقل والتهور .

يسكِّنُ طيَاشَةَ النَّفس ، كثقل الرّصاصة سكَّن تلك الجِلْدَة وألزقها بالأرْض .

مثل التسبيح والثناء والقرآن مع التقوى

مَثَلُ التسبيح والثناءِ والقرآن مع التَّقْوَى كمثَل عَرُوس زُيِّنت للعَرْض على الزوج على رؤوس الجَمْع ؛ فمن شَأْنها أن تُقَلِّمَ أظفَارَهَا ، وَتُنَقِّي شَعْرها وَصَدْرَها وعُنقها وَيَدَيْهَا وَقَدَميها من الأوساخ والأدْران[1] ثم تتحلَّى بالحُليّ ، وَتَلْبَس أَلْوَانَ الثياب زِينةً لها ؛ فإن لم تَفْعَلْ ذلك ، وَتَركَتْ هذه الأظفار والدَّرَن والأوساخ على جَسَدِهَا ، وَحُلِّيت بالحُليّ ، وزُيِّنت بالثِّياب ، كان ذلك كاللّعب ، وينسب ذلك إلى فِعْلِ الجنُونِ والعَتَاهَةِ[2] . فكذلك الذي يَتَدَنَّس بالمعاصي ، ويتوسَّخُ بالبطالات ، ويتزَيَّن لربِّه بالثَّنَاءِ والتسبيح وقراءَةِ القرآن .

أَلا تَرَى إلى قول الله عز وَجَلّ[3] : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقِينَ ﴾ . فالصادق[4] والحاذِق[5] في أَمره بدأَ فتطهَّر وأَنْقى الدَّرن وأوساخ المَعَاصي والفُضُول ، ثم تَحَلَّى بالحُليّ ، وَتَزَيَّنَ بالحُلَل[6] ؛

---

(١) الأدران : الأوساخ .

(٢) العتاهة : من العته وهو نقص العقل من غير جنون .

(٣) المائدة (٥/٢٧) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/١٣٤) وما بعدها وتفسير البيضاوي ص ١٤٩ .

(٤) فالصاد [ب] وهو تحريف .

(٥) الحاذق : الماهر البصير بدقائق الأشياء .

(٦) الحلل : جمع مفرده حلة .

فـذلك فعـل لَبِق[1] ، فهو حـاذِق في فِعله ؛ وإنما وُكـل الآدميّ في أَمْرِ دِينه بِرَمْيِ الفُضُول ، فأُمـر بِنَفْيِ الشِّرْكِ بقـوله : لا إلـه إلاَّ الله . وأُمِرَ باجتناب المحارِم : الظلم ، والعدْوَان ، والسرقـة ، والزّنـا ، والخَمْر ، والكذب ، والغَيْبَة ، وسائر الآثام ؛ فهذا كلُّه فضُول ، ثم أُمر بالفرائض ثم السُّنَن لِيَتَحَلَّى بها ، ثم بالتطوُّع ليتزيّن به ، فإذا لم يَرْمِ بالفضول ، وقصد قَصْدَ الزِّينَةِ فهو مستهزىءٌ بربِّه يسخَرُ بنفسه .

مثل قلب يتردد فيه الذكر

مَثَـلُ قَلْبٍ يتردَّدُ فيـه الذِّكْـرُ مثـلُ عَيْنٍ لهـا نَبْعَـان . وفيهـا سَمَـك صِغَار ، فكلما تَوَحَّلَ كَثُرَ تردُّدُ السمكِ ؛ فكانت ينابيعُ [٥٥] مـاءِ تلك العين أَنْقَى ، ومـاؤُها أَسْلَس . وإذا قـلَّ السمَكُ انْسَـدَّت المنـابـعُ لمـا يجتَمِعُ هناك من الطِّين ؛ لأنَّ ماءَ العين وإنْ كـان صافيـاً فلن يخلو عن غُبـار عنـد هبـوب الـريـاح ، ولن يخلوَ من مُمَـازَجَـة[2] الأرض ؛ فـإذا انسدَّت تلك المَنَابعُ لم ينزّ[3] الماءُ ، ولم يَسِلْ ؛ فكذلك القَلْبُ تَنْسَـدُّ مَنابعُ الحكمةِ منه لما يجتَمِعُ هناك مِنْ كُدُورَة النفسِ ، وسلطان الهَـوَى وغُبَـارِهِ ؛ فـإنـه لكـلِّ سلطانٍ جَيْشٌ وَعَسْكَـر ؛ فـإذا سـار الجَيْش هـاج الغُبَار[4] ، فالهواءُ إذا أَقْبَلَ قِبَلَ النفس أَثار الشهوات ، فوقـع في النفس هبـوبُ رِيَاح الشهـواتِ ، فصار هنـاك غُبارٌ ودُخَـان وغَيْمٌ على قَدْر كـلِّ

(١) اللبق : الظريف .

(٢) ممازجة الأرض : مخالطة وممزوجة بها .

(٣) ينز الماء : يتحلب من الأرض .

(٤) ويسمى الدهج .

شَهْوَة ، فرُبَّ شَهْـوَةٍ لها غَيْم ، ورُبَّ شَهْـوَة لها غُبَـار ، ورُبَّ شهوة لهـا دُخان ؛ فإذا جاءَت هذه الرياحُ بغُبارها وغُيومها ودُخَانها انسـدَّت يَنَابِيـعُ حكمـةِ القلب ؛ لأنَّ الحكمـةَ مَنْبَعُهـا من الصِّـدق الـذي هـو صِـدْقُ الصـدق ؛ فالـذي يَظْهَـرُ من العباد مِنْ بـاطن إلى ظاهـرٍ هـو الصِّـدْق ، وصدق الصِّدق هو مِن باطن إلى باطن ، إنما يظهَرُ من باطن القلب إلى ظـاهِـرِ الصَّـدر حتى تُبْصِـرَه بصـائـرُ النفس ؛ فمن ذلـك الصِّـدق تَبْـدُو الحكمةُ العُلْيا .

الحكمة العليا :

قال له قائل : ومـا الحِكمة العُلْيَا ؟ قال : تلك حكمـةُ الحِكمة ، ولكلِّ علم حِكْمة ، فكما أَنَّ العِلْمَ عِلْمَان فكـذلك الحكمـة حكمتان ؛ فإنما صـار العِلْمُ علمين ؛ لأن عِلْمَ الصفات غَيْـرُ علم التدبيـر ، ولكل علم حكمةٌ ، فحكمةُ علم الصفات علم القُدْرة ، وحكمـةُ علم التدبيـر علم ملك الملك وعِلْم الرُّبوبية ، فقَلْبُ المؤمن خزانة اللّه فيها كنـوزٌ ، والكَنْزُ على خَطر الغارة .

قال له قائل : وما[1] هذا ؟ وما الكنوزُ ؟

الكنـوز :

قـال : إنَّ اللّه تعـالى أَعـطى المـوحِّـدين معـرفتـه حتى وجَـدُوه وعَرَفوه ، فـالمعرفـةُ كصُرَّةٍ فيهـا أَلوانُ جـواهرَ ثمينـةٍ من الدر واليـاقوتِ والزَّبَرْجَد ، كلُّ جوهرة ثَمَنُها مِلْءُ الدنيا ذهباً وفِضَّة ، فهذه الأَشياءُ كلُّها

---

(١) ما من غير واو في [ج] .

في صرَّة ؛ فمَنْ تناوَلَها ، فقيل له : هذه لكَ ، فكم تَرَى ثَمَنَها ؟ قال : مائةُ دِرهم ؛ فإذا فتحها فأَبْصَرها ازْدَادَ بها بَصَراً ؛ وذلك بَصَرُ العَيْن . قيل له : كَمْ تَرَى ثمنَها ؟ قال: أَلف . فلما أبصر بَصر العلم بجَوْهَرِ تلك الجواهر عجزَ عن الإحاطَة بعِلْم ثمنِها ؛ وقال : كلُّ واحدٍ خير من ملءِ الدنيا ذهباً وفضَّة ؛ فعند ذلك أَشْفَق على الصُّرَّة كلَّ الإشفاق في إحْرَازِها[1] وحِرَاستها وحِفْظها ، وإقامة الموكَّلين بحفظها ؛ وعندها ظهر غِنَاه بقَلْبه بتلك الأَشياءِ ؛ ومنها ظَهَر غِنَىٰ جَسَدِهِ بِشَارَتِهِ[2] وهيئته ، ومَطْعمه ومَشْرَبه ، ومَلْبَسه ومَرْكبه .

فالمعرفةُ متضمنةٌ لأَسماءِ اللَّهِ تعالى وعِلْم صفاتِ القُدْرة ، فكل شُعْبةِ من ذلك العلم تَمْلأُ ما بين العَرْش إلى الثَّرى[3] ، ويزيد ويفضل ؛ وكلُّ اسْمٍ للعَبْدِ به متعلّق ، وله إليه مُسْتَنَد ، وعليه مُعْتَمد ووسيلةٌ يَتَوسَّلُ بها إلى ربِّه ، وكلُّ اسمٍ له شَفِيعٌ إلى ربّه ؛ فهذه صُرّةٌ مكنونة تملأ الدنيا والآخرة ، وتملأُ الملكوت فَوْق العرش ؛ نال الموحِّدُونَ هذا مِنْ جُودِ اللّه ، وعظيم رَأْفته ، وواسع رَحمته .

حب اللَّه تعالى:

ورَأْسُ هذا الجوهرِ حبُّ اللَّهِ تعالى ، والفَرَحُ به ؛ فإنَّ اللَّه تعالى لم يُعْطِه ذلك حتى أَحبَّه وفرِحَ به ، فابتدأَ خلقته من باب الفَرح به ؛ فمَنْ لقي اللَّه قَبْل أَنْ يَفْتَح هذه الصُّرَّةَ ، ولم يَنْكَشِفْ له الغِطَاءُ لَقِيه

(١) إحراز الشيء : صونه في مكان أمين .

(٢) الشارة : البهاء والرونق والحسن .

(٣) الثرى : التراب .

على غَفْلة عظيمة ، وكُفْرانِ نعمةٍ ، وضَيَاعِ شُكْر ، وتهافُتٍ[1] في الذنوب ؛ فعَظُم حَيَاؤه ، واشتدّ خَوْفُه ، واستقبلته أهوالُ القِيامة وعُسْرَة[2] الحساب .

ومَن انفتحت صُرَّتُه ، وكُشِفَ له الغطاءُ لقِيَ اللَّهَ على بصيرةٍ ، شاكراً مؤمناً ، مُوقِناً ، باذلاً نَفْسَه ، قد وَفَى بالعهد ، وأتى بالإسلام وحقائقه ؛ فقرِّبَ وأُدْنِي وأومن .

فمع كلِّ واحد صُرَّةُ توحيد ، قد عقد عليها حياةَ قَلْبِه . فإنَّ أَصْلَ الحياةِ في القلب ، والذِّهنُ مقرون بالحياةِ فقد عَقَد بحرارةِ حياته وحِدَّةِ ذِهْنِه على الصُّرة ، وهي المعرفةُ ، وحُبُّ اللَّهِ تعالى فيها مكنون ، وكتابُ ربِّ العالمين فيها مكتوب ، وذلك قوله تعالى[3] : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ﴾ .

قال له قائلٌ : وما ذَلِكَ الكِتاب ؟

قال : إنه لما وقعت جبايته في البدو يوم المقادير على تلك القلوب قَبَض عليها ، وقال : أَنْتُم لي ، فصارت هذه المَقَالةُ في القَبْضَةِ كتابَه ، فاطمأنُّوا إليه ، وآمنُوا به ، وتعلَّقُوا به ؛ فذلك إيمانُهم صار هناك مكتوباً يومئذ ؛ فلما أخرجهم من بطون الأُمَّهات إلى الدنيا أشرقَ في القلوب منهم نورُ المعرفة ، من الحبِّ والرأْفةِ والرحمةِ والحياءِ[4] ،

---

(١) التهافت : الوقوع والتساقط والأفول .

(٢) عسيرة [ب] وهذا تحريف من الناسخ .

(٣) المجادلة (٥٨/٢٢) والإيمان هنا هو التصديق . راجع القرطبي (١٧/٣٠٨) .

(٤) فالحياء [ب] .

وعِلم الصفات[1] ، وعِلْم الأسماءِ ؛ فهي مكتوبةٌ لا يَكَادُ صاحبُها يُميِّز ، ولا يُعبِّر عنها ؛ فإذا عَقَل واستعمل عَقْلَه ، وتبحَّر ، ظهرَت الأنوارُ في الصدْر ، وانكشف الغِطَاءُ ، وحَيِيَ القَلْبُ ، وعمل بذَكَاوة الحَيَاءِ فجدَّدَتْهُ[2] ، وعمل بحلاوة الحبِّ ، فأخذ بمجامع قَلْبِه ، وَسبَتْهُ[3] حتى صار أسِير الحُبِّ ، وعملت أثقالُ الرأفةِ فضغطَت القَلْبَ وعَصَرَتْه ، وعملت أمطارُ الرحمة فليَّنَتِ القَلْبَ ، وسكَّنَتْ شُعُوثَتَه[4] واغْترارَه ، وعملت أنفةُ الحياءِ فقبضَتْه وفَتَّرتْه[5] ؛ وعَمل الجودُ فيه فوسَّعَه وأعتقه من رِقِّ النَّفْس .

فهذه معرفةٌ قد انكشفت الصُّرَّةُ عمَّا فيها من هذه الأسماءِ التي وصفْتها ، فاستقام القَلْبُ بما أبصر فُؤادُه في هذا الصَّدر من هذه الأسماءِ ، فاستعمل بالمعروف الموصوف ، فلَهَا عن كل شيء سِوَاهُ ، فأحبّه صِدْقاً ، وخافه صِدْقاً ، ورجاه صِدْقاً ، واستَحْيَا منه صِدْقاً ، ورَعَىٰ حقوقَه من تلك الرَّأفة صِدْقاً ، فما ظنُّكَ به ؟ ماذا يظهر على جَوَارِحه من الأعمال السَّنيَّة ؟

تغطية الشهوات :

وآخر وُضِعَتْ فيه هذه المعرفةُ ، فجاءَت الشهواتُ فغَطَّتْها ، ولم يستعمل صاحبُها العقلَ ، ولم يتبحَّر في ذلك ؛ فاستعمل الشهواتِ ،

---

(١) وعلم الصفاء [ج].
(٢) فحددته [ب] وهو تصحيف .
(٣) سبته : أسرته .
(٤) شعوثته : تلبد شعره .
(٥) فترته : أسكنته بعد ثورة وحدة .

فتراكمت على صَدْره غُيُومُها وغُبارُها ودُخانُها ؛ فكلُّ شهوةٍ استعملها مِنْ حلِّها ـ وللنفس نَصِيب الإكْبَاب[1] ـ صارت غُيوماً ، وكلُّ شهوةٍ استعملها من حلّها ـ وللنّفس فيها نصيبُ الغَفْلة فاستعمل القَلْبُ ذلكَ في غَفْلة عن اللَّه ـ صار غُبَاراً في الصّدر ؛ وكلُّ شهوة استعملها بِحرْص وهَلَع[2] وتَخْليط صار دُخَاناً ؛ وكلُّ شهوةٍ استعملها من غَيْر حَلِّها صارت ظُلْمةً كالليل ، فبقِيَتْ هذه المعرفةُ في القَلْبِ والصَّدْر متراكمةً هذه الأشياءُ فيه ، ولم تَجد المعرفةُ مَساغاً إلى أنْ تُشْرق بما فيها من بابِ القلب إلى الصَّدْر حتى تُبْصِر عَيْنُ الفؤاد ذلك فتقوى ، وتستقيم وتستمر في العبودية[3] ؛ فصار القَلْبُ بكنُوزِه كالمسجون الذَّليل ، وصاحبه [٥٦] فقير محزون ؛ لأنَّ غِنَاه بحُطَام الدّنيا ، وحُزْنه بما يَفُوتُ من الدنيا فلا يناله ، ويحرص ويكدّ ويَتْعب فلا يُدْرِك مُنَاه ؛ والعدوُّ منه بمَرْصَد[4] ينتظِرُ متى يَجِدُ فرصةَ الإغارة على هذا الكَنْز .

أصحاب هذه الصفة صنفان :

فأصحابُ هذه الصِّفَةِ صاروا صنْفَيْن : فمنهم مَنْ أحاط بقَلْبِه عَسْكرُ أعمالِ البرّ ؛ فهو يعمَلُ دائماً أعمالَ البرّ ، وهو في خلال ذلك يُرائِي بعمله ، ويتصنَّع بشمائله ، ويستلذُّ بخلائِقه ، ويُبَاهي في أمورِ اللَّهُ ؛ يَزِلُّ[5] مرّةً ، ويثبتُ أُخرى ؛ تراه مرّةً مُستقيماً ، ومرة متردِّياً[6]

---

(١) أكب على الشيء : إذا لازمه ولاحفه .

(٢) هلع : جزع وفزع وارتاع .

(٣) العبودة بالأصول وهي تحريف ولها نفس المعنى .

(٤) العدو منه بمرصد : يترقبه ويتوقع هجومه عليه .

(٥) يزل : يتنحى ، والزلة في القول : الخطل والخطأ .

(٦) متردياً : ساقطاً .

في آبـارِ المعاصي ، واسْمُـه في المستورين القَـرّائين المُعَدَّلين[1] عنـد الخَلْقِ في الـظاهـر ؛ فهـذا العسكَـرُ المُحيطُ بقلْبـه لـه عنـد اللَّه قَـدْرٌ يَسْتَجْلبُ منه الرحمـةَ لصاحبـه حتى لا ينقطع حَبْلُه ؛ فعـامـلُ عسكـره التعبّد ، وعامِل عسكره التزهُّد ، وعـامل عسكـره التورُّع ؛ فقـد صاروا أصنـافـاً مِنْ هـذا الصنفِ الـواحـد ، وكلُّهم يـرجعـون إلى تَحـرِّي[2] الصـدقِ ، وهم في غِطَاءٍ وغَفْلة عـظيمة عن اللَّه تعـالى ؛ فقـد حُـرِمـوا حلاوةَ التوحيد ، ولذاذة المعرفة ، ونزاهةَ عِلْم المعـرفة ؛ إنَّمـا يذُوقُـون حلاوةَ أعمالِهم من التعبُّد والتزهُّـد والتورّع ؛ فـإذا وَجَدُوا تلك الحـلاوَةَ حَسِبـوا أنَّ هـذه الحـلاوةَ والعبـادةَ والـزهـدَ والـوَرَع إنمـا هي حـلاوةُ أعمـالِهم ؛ تلتذُّ نفـوسُهم بها ، وتَبْـطَر وتأْشـر[3] وتَفْرَح بهـا ، وتـطمَئنُّ إليهـا ، وتتَّكِلُ عليهـا ؛ فإنْ لم يتـداركهم اللَّهُ برحمتـه ، ويَحْفَظ ذلـك عليهم ، ضـربهم العُجْب ، وكِبْرُ النفس بـالغَطْسَـة[4] فـرضَّت رؤُوسَهم رَضًّـا ، وصـاروا كمن يضـرب اللبنَ في المـاءِ إذا نُصبُـوا للسُّؤال يـوم الموقف ، وقبولِ صدقهم بشكرهم .

ومَنْ تراخَتْ به نَفْسُـه عن الصدق ، وخَـدَعَتْه[5] نفسُـه بأمـانيها ، فنـالَتْ به التـودّعَ[6] إلى راحاتِ الـدنيا ولـذّاتها ونُـزهتهـا ، فـاستعملت الشهوات ، وتوسَّعَتْ فيها ، أَبصر العـدوّ منْ مَرْصَـده ذلك منـه ، فعظُم

---

(١) المعدِّلين : المعروفين بالعدل .

(٢) تحرى الصدق : قصده .

(٣) تأشر : تبطر .

(٤) الغطسة : الحتف والموت .

(٥) جرعته [ج].

(٦) التودع : الإستسلام والخنوع .

طَمَعُه فيه ، واستعدّ له بأسلحته ، فهيّج منه الكِبْرَ والكبرياءَ ، وأثار الشهواتِ منه ، حتى اشْتَعَل حَرِيقُها وحرُّها ، وأَشْخَصَ آمالَه ، واستعدّ للحيلة عليه بنَفْسه ؛ فإذا وجد صَدْرَه مَشْحوناً بهذه الأشياءِ التي هي أسْلِحَتُه ، وتلك جنودُ الهَوَىٰ حَمَل حَمْلَةً واحدةً ؛ فلما رأت الجنودُ التي في صَدْره أنَّ سيِّدَهم قد أقبل ثارُوا من معادِنهم[1] ، واصطفُّوا بين يَدَيْهِ في صَدْر العبيد ، وَتَدَاعَتْ[2] منازِلُ الشهواتِ بعضُها بعضاً ، فإذا رأى القلبُ حَمْلَةَ العدوِّ وسلْطَانَ تلك الجنودِ ، وعلى مقدّمته جَيْشُ الهوى انهزم وتخلَّى عن الباب ؛ فوقعت الغارةُ في الكنوز : كنوزِ المعرفة ، حتى تَركت القلْبَ خالياً من الكنوز ، وبقيت المعرفةُ خاليةً كمُعَلَّقة بأَدَقّ من الشَّعْرَةِ ، فَبَقِيَ[3] القلبُ متحيّراً يَتَذَبْذَب ، وقد افتقد العلمَ والحياءَ ، والخشية والخوفَ ، والحبّ ، وجاءَ الهوى وشهوات النفس فسكَنوا القَلْبَ ، وأَحاطوا بالمعرفة ، فدَقَّتْ قوةُ المعرفة حتى تُورده النار معه ، فذهبت قوةُ المعرفةِ ، وصارت كالمُعَلَّقة بشَعْرَةٍ ، وصار الصَّدْرُ مملكة الهَوَى ، ورجع العدوُّ ، فظهر على الجَوَارح من الحِرْصِ جَمْعُ الدنيا ، ومن الكِبْرِ إبطالُ الحقوق وظُلْمُ العباد ، ومن الشهواتِ رَفْضُ العُبودية[4] ، ونَبْذُ العَهْد ، ونَقْضُ الميثاق ؛ وجاءَت أعمالُ الفِسْقِ والفُجور ، وخُبْث السريرة ، وحسن العُلَانية ، والنِّفاق ، وسُكر العَقْل ، وولاية الهَوَىٰ وإمْرَته ، وانكمَنَ[5] العقل ، وانْسدَّ الفَهْم ،

---

(١) مغازتهم [ج].

(٢) تداعت : تصدعت وتساقطت .

(٣) بغى [ب] وهو تصحيف .

(٤) العبودة بالأصل ولهما نفس المعنى .

(٥) انكمن : بمعنى كمن أي اختفى وتوارى .

وحَمُق الـذِّهن ، وانـطبق الحِفْظ ، وانـدفن العلمُ ، وذابت المعـرفـةُ ، وفاض جَهْلاً ، وامتلأ كذِباً وخِيانـة ، وذهب الوَفَـاءُ ، وطارت الأَمـانةُ ، وظَهَـر الاستبدادُ ، وعـلاه الكِبْر ، وأَحـاط به التجبُّـر ، وامتلأت الأَرض والسماءُ فضائح وقَبَائح ، وهو في حِلْم اللَّهِ ؛ والعدوُّ بمَرْصَدٍ ينتظرُ حتى يحـلَّ به سُخْطُ[1] اللَّه تعـالى ، فيحمـل حمله[2] بكفـر ، فيُـورِده حتى يَمْتد[3] ويضْبط ، فإذا حلَّ به السخطُ رُفِعَت المعرفةُ ، وانقطع الحَبْلُ ، وسَبَاه[4] العدوّ ، وصيَّرَ إِلهُهُ هَـوَاه ، وأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْم ، وخَتَم على سَمْعِه وقَلْبِه ، وجَعَلَ على بَصَرِه غِشَاوةً ؛ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ[5] ؟ .

مثل المعرفة مثل قطب الرحا

مَثَلُ المعرفةِ مثلُ قَطْبِ الرّحا ؛ فالرَّحَا تَدُور بالماءِ وبالقُـطْب على حَسبِ قُوَّةِ الماءِ وكثْرَتِهِ وانْحِداره مِنْ مَصَبِّهِ ، يَدُور القُطْبُ بالرَّحَا ، وقُوَّةُ القُطْبِ في عَمُودٍ من أَسفله إِلى أَعلاه ، وقوةُ العمـود في أَجنحةِ ؛ فـإِذا انحدر الماءُ دفَع الأَجنحةَ فأَدَارها ، فدار القُطْبُ فأَدَار الرَّحَـا ؛ فكذلـك القلب ، فالقلبُ رَحا ، وقُطْبُه العِلْمُ ، والمعـرفةُ هـو الماءُ المنصَبُّ في حَدُورِه[6] ؛ فإِذا لم يكن للمعرفةِ أَجْنِحةٌ لم يَنْفَعه المـاءُ، ولا القُطْبُ ؛

(١) سخط الله تعالى : غضبه .
(٢) كذا في [أ] وحملة تكفر [ب و ج].
(٣) كذا في [أ] ويسدد [ب] .
(٤) سباه : مثل استباه أي أسره .
(٥) الجاثية (٤٥/ ٢٣).
(٦) حدوره : انحداره ، والمنحدر مكان مسيل الماء .

فـالعلمُ هو حَمْلُه ، والمعـرفةُ ذواتُ شُعَب ؛ فمَنْ عَـرَفَ اللَّه فلمعـرفتـه شُعَب ؛ فعلامةُ الشُّعَب أن يقوم بتلك الشُّعَب ، فهذا قُطْبُه قد استقامت شُعَبُه ، فاستدار ؛ وإذا كان القُطْبُ قد انتثرت أَجنحتُه جَـرَىٰ الماءُ على عَمُودٍ ، فلم يُغْنِ شيئاً ، ولم يَدُرِ القُطْبُ ولا الـرَّحَا ؛ فـذهبت منفعَتُه ، فعلى قَدْرِ ما تناثَر مِن أَجنحةِ القُطْب ذهبت قـوةُ الرَّحَـا ، فما أَغْنَتْ عنـه كثرةُ الماءِ .

كـذلـك العلمُ هـو على القلب حَمْله ، والمعـرفـةُ ذات شُعَب ؛ فتلكَ الشُّعَب تهيج الشعبة استعمالها حتى يَقْـوَى القلبُ ، ويَدُور بـرَحاه حتى يخرجَ منه الأَعمال الطَّاهرةَ النَّقية فيرمي بها إلى الجوارح ؛ فذلـك الدقيق .

قال له قائل : وما تلك الشعب ؟

قـال : الخـوف ، والخشيـة ، والحب ، والحيـاءُ ، والفـرح ، والهيبـة ، والأُنس ، والوداد ، والـرغبة والـرهبة والتقـوى ، فهـذه كلهـا شعب المعرفة كأَجنحة القطب للرحا ؛ فإذا حَييَ القلبُ باللَّه صار عالِماً بـاللَّه ، فإذا رأَت تلك الحيـاة شُعَب المعرفـة ، وأَهاجت منـكَ الخَوْفَ والخَشْيَـة ، والحُبَّ والحَيَـاءَ ، والفَـرَحَ والـوداد ، والهَيْبَـة والأُنْسَ ، والرَّغْبَة ، والرهبة ، والتَّقْوَى ، ويظهر في الجوارح صِـدْقُ ما هـاجَ منكَ في البـاطن ، من أَدَاءِ الفرائض ، واجتنـاب المحَارِم ، والقيـام بحقـوقِ اللَّهِ تعالى دَقَّ أَو جَلَّ[1] ، والصَّفـاءِ في الصِّدق ، والإِخـلاص في هذه الأُمـور التي ظهـرت على الجـوارح ، فَبِقَـدْرِ مـا افْتَقَـدْتَ[2] من هـذهِ

(١) دقَّ أو جلَّ : صغر أو عظم .

(٢) افتقدت : طلبت الشيء عند غيبته .

الشُّعَبِ تَفْتَقِدُ القوةَ من نفسك في هَيَجَان هذه الأَشياءِ في باطنك ، ويظهر النَّقْصُ في ظاهرِ أَعمالك من القيام بأَدَاءِ الفرائض ، واجتناب المحارم ، وإقَامَةِ الحقوق ، والصّفاءِ والإخلاص والصّدق في الأُمور ، كما كان ؛ فكلما تناثر مِنْ أَجنحةِ القُطْبِ لم تُغْنِ له كثرةُ الماءِ وقوّةُ انحداره في مَصَبِّه شيئاً .

فصاحبُ الرَّحَا قائمٌ على الرَّحَا ، يَحْفَظُ أَجنِحَةَ القُطْب ، هل تَنَاثَر منها شيءٌ ؟ وكلما تَنَاثَر منها شيءٌ ، وبطلَت زيادَةُ الماءِ ، ذهب قوةُ هَيَجَان الأَجْنِحة .

مثل من استعمل عقله وذهنه في أمور الدنيا

وَمَثَل مَن استعمل عَقْلَه وعِلْمه وذهْنَه وكِيَاسَته[١] ورُوحَه في أُمورِ الدنيا لغير اللّه كمثَلِ حِمَارٍ تَنْقُل عليه سِرْقِيناً[٢] من المَزَابِل ، فما زِلْتَ تَكُدُّه[٣] في ذلك العملِ حتى إذا كان في آخرِ النهار حوَّلْتَ عليه سَرْجاً ، وابْتَغَيْتَ[٤] منه هَمْلَجةً[٥] وسَيْراً ، فكيف تَجِدُها منه ؟ وقد ذهب الكدود والعَمَل بكثَافة قُوَّتِه ، وحِدَّة مَقَاصده ؛ ونال الفُتُور[٦] منه كلَّ شَيْءٍ .

---

(١) الكيس : من الكياسة وهو الظريف الفطن العاقل .

(٢) السرقين : هو السرجين أو الزبل .

(٣) تكده : تتعبه من العمل والتعب في طلب الرزق .

(٤) ابتغيت : طلبت .

(٥) الهملجة : سير الدابة في إيجاف حسن .

(٦) نال الفتور منه كل شيء : بلغ درجة الملل والسآمة فانكسرت حدته فلان .

فكـذلك هـذا العلمُ والعَقْل والـذّهن والكِيَاسـة والفَهْم والفـطْنَـة والرّوح ، لِكُلٍّ حدٌّ وسلطان وقُوّةٌ تعمل في هذا الجسد ، فإذا استعملهم في أُمورِ الدنيا التي لا تَصْعَدُ إلى اللّهِ تعـالى من باب السّمـاءِ انْفَتَرَ منـه كلُّ شيء على حِدَتِهِ ، وَذَهبت قوتُه ، وظهر العَجزُ .

مثل الذي يختلف إلى مجالس العلم

مَثَـلُ الذي يختلف إلى مَجَـالِس أهْـلِ العلم كمثَـل رَجُـل دخـل السُّـوقَ ولا يَدْرِي مَـا يَشْتَرِي ، فمـا استقبله مِنْ شَيْءٍ رجا فيـه الـرِّبْـحَ اشْتَرَى ، فكم من شيء اشتراه فخسر عليه ، ولم يَنَلْ أَمَلَه .

وآخر دَخَلَ السوقَ يَشْتَرِي منـافِعَه ؛ فقيـل له : مـا تُريـد ؟ قال : مَتَاعاً . فقيل له : أيُّ متاع تُريد ؟ فإنَّ ها هنا أَلوانَ[1] الأمتعةِ من القُطْن والكَتَّـان والإبْريْسَم[2] ، وهـا هنا أَمْتِعَـةُ الـذَّهب والفضـة ، والصُّفْـر[3] والنُّحَاس والحَدِيد ، فلم يَدْرِ ما يَشْتَرِي ، فدخل من أعلاها وَخَـرَج من أَسْفَلها صِفر[4] اليَدَيْنِ .

وآخـر دخـل السـوقَ لحـوائجـه قـد رأى[5] مـا يشـتـري ؛ فَقَصَـدَ الحـوائجَ ، فـاشترى في الصيف مـا يحتاجُ إليـه في الشِّتَاءِ ، وتـركَ مـا

---

(١) ألوان الأمتعة : أشكال مختلفة منها وصور متعددة .

(٢) الإبريسم : الحرير .

(٣) الصفر : الذهب ، وهو من النحاس أيضاً .

(٤) صفر اليدين : خاليهما .

(٥) رأى ما يشتري : علم .

يحتـاجُ إليه في يَـوْمه وليلتـه ، فرجـع إلى المنزل معـه حوائـج الشتاءِ ، فبات جائعاً بائساً .

ودخـل آخرُ السـوقَ قـد لـزَّتْ بـه[1] الحـاجـةُ وأُلحَّتْ ، يعملونَ الطاعات عل طريقِ الثواب والعقاب .

ومَثَلُهُم في ذلك كالذي يَخُوضُ النَّهْرَ ، فما جَرَى بِهِ الماءُ فوجـده على ظَهْـرِ المـاءِ أخـذَه مثـل البَـرْدِي[2] والحَـطَب وأُصــول الأشـاءِ[3] والقِثَّاءِ ، وليس لهم غَوْص ؛ وأهلُ الانتباهِ يعملون الطاعاتِ على طريق العبودية[4] عارِفين مُوقِنين .

مثل الذي يغوص في البحر والأنهار

ومَثَلهم في ذلك كالذي يَغُوص في البَحْر والأنهار ، فيضـرب بيده ضربةً يَقَعُ فيها على جَوْهَرَةٍ لا يُحَاطُ بثمنها ، فـأُولئكَ الأوَّلـون يَجْمَعُون حـركـاتِ الجَــوَارِحِ بتلك الـطاعــةِ ، فليس لهم مِنْ ذلـك إلَّا عَمَلُهُم الظاهر ، وعليـه يُثَابُـونَ الجَنَّةَ . وهؤلاءِ المُنْتَبِهُـونَ يدخلون في الـطاعةِ بحـركـاتِ الجـوارح وفي قلوبهم عَجَـائب ، تعجَبُ لهم المـلائكـةُ إذا رُفعت تلكَ الـطاعاتُ وفي حَشْـوِهَـا تلك الأنـوار ؛ فـأَهْـلُ الغَفْلَةِ حَشْـوُ طاعاتِهِم التوحيدُ ونـورُ الصِّدق ، وهؤلاء الآخَـرُونَ حَشْوُ طـاعاتهم نـورُ

(١) لزت به : ولزبت به الحاجة إذا اشتـدت ، ويقال لـزبه الشيء وذلـك إذا التصق به ، والطين اللازب هو الملتصق .
(٢) البردي : نبات .
(٣) الأشاء : صفار النخل .
(٤) في الأصول وردت (العبودة) .



الحبِّ والحَيَـاءِ ، والشـوق والحنِين ، والتضــرُّع والمَلَق[1] ، والحُـزْن والسُّـرور ، والبَهْجَة والشُّكـر ، والذِّكْـرُ الصافي ، والإقبـال والإنـابَـة ، والخُضُـوع والخُشُـوع ، والتسليم والتَّبـرِّي من الحَـوْل والقُـوَّة ؛ فهؤلاءِ غَوَّاصُونَ يَغُوصُونَ في كلِّ طاعـةٍ في بحور المعـرفة[2] ، في صُـدُورهم في الطاعات من هذه الأشياءِ ، ويستخرجون منها الدُّرَر والجَوَاهر ؛ لأَنَّ القلوبَ خَزَائِنُ اللّهِ فيها كُنُوزُه ، فإذا طَهَّـرَ العَبْدُ سـاحةَ الخـزانة ، وهـو الصَّدْرُ ، ظهرت في تلك الساحةِ من باب الخزائن في وقتِ كـلِّ طاعـة يَدْخُل فيها ، عجائبُ لا توصَفُ من الجواهر والدُّرَر .

والطاعاتُ ذواتُ صُوَر ، وكلُّ طاعة لهـا صورة ، وفي كـلِّ صورةٍ يرائي نعمها ، فيُرَائي بها رَبَّه ، ويتزيَّنُ عنده بتلك الصُّورةِ ومـا فيها من الجَوَاهِرِ التي ذَكَرْنَا .

مثل المتعرف إليك باختلافه[3] إليك

مثلٌ مضروب : رَجُلٌ تَعَرَّفَ إليكَ باختلافه إليك ، وذهابُـهُ وَجَيْئَتُهُ وَعَوْدُهُ على بَدْئِهِ عَرَّفَكه ، فَحَلَّ في قَلْبِكَ محلَّ المعـروفين بالـوَجْهِ ، ثم مَعَ هذا الاختلافِ مِنْ بعد ذَلِكَ تَعَرَّفَ إليـكَ بالسـلام عليكَ ، والسؤالِ عن أحوالك ومُهمَّاتك صِـدْقاً ؛ فَتَعَـرَّف[4] إليكَ بـالاهتمام ؛ فحـلَّ مِنْ

---

(١) الملق : بالتحريك الود والتلطف .
(٢) وهذا التعبير نعت صوفي .
(٣) يقال فلان يختلف إلى فلان : أي يذهب إليه ويتردد عليه .
(٤) فيعرف في [ج] ولعله تصحيف .

قَلبك مَحَلَّ المُهْتَمِّين لك ، المبَالين بكَ وبأُمورك ، ثم أَبْدَى[1] صِدْقَ ذلك السؤالِ فِعْلاً حتى شاركَكَ في محبوبك ومَكْرُوهك ، ففَرِحَ بِمَفْروحك ، وسُرَّ بمسرورك ، وحزنَ لمصائبك ، وتوجَّعَ بفجائعك ، فتَعَرَّفَ[1] إليكَ بالإخلاص حتى حلَّ من قلبك محلَّ المخلصين ، ثم تَخَطَّى من هذه الدرجة إلى أن فَدَاكَ بنَفْسِهِ وماله ؛ فبذَلَ عند الشدائد نَفْسَه ، وَفِي[2] ذلك لا يُبَالِي ما ناله في نفسه ومالِه من النُّقْصَان والمكروه في جَنْبك ، فأَعطاك كلَّه ؛ فحلَّ من قلبك محلاًّ أحبَبْتَه كلَّ الحب ، وصارَ واحِدَكَ مِنْ بين الناسِ ، وصِرْتَ له واحداً ، فَأَفْشَيْتَ أَسْرَارَكَ بين يَدَيْهِ ، وأَطْلَقْتَ يَدَهُ في ممْلكتك ، وأنفذْتَ[3] أَمانيهِ وحُكمَه في أُمورك ، فعامَلَ اللّه بما يعامِلك عَبْدٌ من عَبيده بهذه الصفة .

مثل الحب بين الأشياء

مَثَلُ الحُبِّ من بين الأشياءِ كمثل شَجَرَةٍ لها قَلْبٌ وأَغصان ؛ فالقَلْبُ من الساق ، والأغصانُ : فروعُ الشجرةِ مِنْهَا الثمرةُ . ولكن أَصْلُ الثمرةِ من القَلْبِ ؛ فالمعرفةُ هي الشجرةُ ، والحبُّ هو قَلْبُ المعرفة ، والخوف والرجاءُ والحَيَاءُ والخَشْيَة والرِّضا والقَنَاعة ؛ وسائِر الأشياءِ أغصانُها ؛ ومنها تتولَّدُ الثَّمَرَةُ ، وهي الطاعات ؛ وإنما جادَ عليك ربُّك بالمعرفة ، فمنَّ بها عليكَ بعد أنْ قسم لك حظّاً من معرفته

---

(١) أبدى : أظهر .

(٢) وفاء [ج] وهو تحريف من الناسخ .

(٣) أنفذت : نفذت .

محبته ، وأَخْرَجَ إليكَ محبَّتَه من باب الرأْفة والرحمة ، فنِلْتَ حظّاً من المحبة والرأْفة والرحمة حتى ظفِرْتَ بالمعرفة ، فلما عَرَفْتَه خِفْتَه وَرَجَوْتَه وخَشِيته وَرَهِبْتَه واطمأنَنْتَ إليه ، واعتَقَدْتَ بقلبك عُبُوديته[1] وتسليمك نفسك إليه في أَمْر وَنَهْيه ؛ هذا كلُّه في عُقْدَةِ المعرفة ؛ وهي كالأغصان من الشجرة ، فإنما أُعطيتَ الشجرة بأَغصانها ، والثمرةُ من بَعْد ذلك كَسْبُك الطاعة .

الحب سر الله في العباد :

فالحبُّ سِرُّ اللّهِ تعالى في العِبَادِ ، يَفْتَحُ لهم من ذلك على أَقدارهم بمشيئته بما سَبَقَ لهم من الأقدارِ منه ؛ وهو قوله تبارك وتعالى[2] : ﴿ إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لهم مِنَّا الحُسْنَى أُولئكَ عنها مُبْعَدُون . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فيما اشْتَهَتْ أَنْفُسهم خَالِدُونَ ﴾[3] ؛ مبعدون ، أي عن النار ؛ ثم لا يسمعون حَسِيسها ، كأَنَّهُ أجازَهم الصِّراطَ وهم لا يَشْعُرُونَ بها .

فالحبُّ سِرٌّ في الإيمان ، والإيمانُ بارِزٌ ظاهِرٌ ، وهو قولُه تعالى[4] : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ فيكم رَسُولَ اللّهِ لو يُطِيعُكُم في كَثِيرٍ من الأمر لَعَنِتُّم[5] ولكنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكم وَكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أولئك هم الرَّاشِدُونَ ﴾ .

---

(١) عبودته في الأصل .
(٢) الأنبياء (٢١/١٠١ ، ١٠٢).
(٣) الحسنى : الجنة .
(٤) الحجرات (٤٩/٧).
(٥) لعنتُّم : من العنت وهو الفساد والتعب .

فـاللّهُ تعـالى عَـرَّف نَفْسَـه أَهْـلَ مِنَّتِـهِ بـالمِنَّـةِ[1] ، وَخَـوَّفهم من عظمته ، وَرَجاهم من كرَمه ، وأخشاهم من رُبُوبِيّته ؛ فَنَالُوا هذه الأشياءَ من المعرفة المشحونة بهذه الأشياءِ .

وأمَّا الحُبُّ فإنهم نالُوا حُبَّهم له مِنْ حُبِّه لهم .

الفرح بتوبة العبد :

كـان بدءُ أَمْـرِهِمْ من حُبِّـه لهم والفَـرَح بهم ؛ أَلَا تَـرَى إلى قـول رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم[2] : لَلَّهُ أَفْـرَحُ بتوبـة العَبْـدِ مِنْ فَـرَح رجـلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَـه في مَفَازَةٍ[3] مُهْلِكـة عليها زَادُه وَحُمُـولَتُه[4] ؛ فهـو يَضْرِبُ يميناً وشمالاً في طلبها حتى أَيِس[5] منها وأشرف على الهلكة ؛ فقال في نَفْسِهِ : أَرْجِعُ إلى حيث افتقدته[6] فَأَموت هناك ، فرجع فوجد بَعيرَه عليه زَادُهُ وَحُمُولَتُهُ ، فجعل يَهْلِكُ من الفَرَح ، فيقـول للّه تعالى : أَنْتَ رَبِّي ، وأنـا عَبْدُك ـ ثـلاثاً ـ . قـالوا : يـا رسول الله ، هَـلَّ[7] بهذا فَرَحاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ هَذَا ببعيره .

فَبَدْءُ شَأْنِ المؤمنِ فرحُ اللّهِ به ، وحبُّه له ، من ها هنا خرج وَظَهَرَ

---

(١) المنة : الإنعام .

(٢) حديث صحيح رواه الإمام مسلم (٢١٠٤).

(٣) مغارة [ج] وهو تصحيف .

(٤) الحمولة : الحمل والثقل .

(٥) أيس : يئس .

(٦) افتقدته : طلبته في غيبته .

(٧) هلَّ فرحا : طرب .

أَمْرُهُ في البدءِ ؛ فهـذا سرُّ اللّهِ فيمـا بينه وبين عَبْـده ؛ وضعَه في بـاطن مَعْرِفته ؛ فهو يُحِبُّه ويَخافُه ، وَيَرْجُوه ويَخْشَاهُ ؛ فهذا كلُّه نظامٌ واحد عند العـامّة ، ولكن خـاصَّة النـاس لمَّا اختصَّهم بـالرحمـة التي اختصَّ بهـا المُوَحِّدين حتى نالوا توحيده ، ثم أَوْلـج[1] الخاصـةَ بباب الـرحمة حتى دَخَلُوهـا ، فوصلوا إلى الـرحمة العُـظْمَى التي خرجت منهـا هذه المـائةُ الـرحمة التي كتبهـا على نَفْسه لعبـادِه ؛ وفي تلك الرحمـةِ حُبُّه ، فلمـا دخلوهـا ووصَلُوا إلى تلك الرحمـةِ العظيمـة غَـرقـوا فيهـا ، وفيهـا حبُّـهُ وَمَشيئتـه ؛ ففتح لهم بـابَ المشيئةِ ، وأَنَـالَهُم من حُبّه ، فلمـا فتح لهم بـابَ حُبِّه عَلِقَت[2] قلوبُهُم ، وَوَلِهَت[3] قلوبُهم عن كـل شيءٍ سِـوَاه ، وتشبَّثَت[4] النفسُ بتلك الحلاوَةِ التي نالَتْ ؛ فعندها انقـطعت الأسبابُ والعلائق ، وتطهَّرُوا من أدْنَاسها[5] بوصُـولهم إلى مقامِهم في القُـرْب ، فلما تطهَّرُوا تَقَدَّسُوا[6] بِقُدْس قُرْبَةِ القُدُّوس ، فلما تَقَدَّسُوا خلصـوا إلى فردانِيَّتِهِ ، فانفردُوا به ، فعندها جاز لهم أَنْ يقـولوا : يـا وَاحِدِي ؛ فـإذا قال صدق ، وأُجيب ، وكان من أُهل القَبْضَة .

المفـــردون :

أُولئـكَ الــذين وَصَفَهم رَسُــولُ الله صلى الله عليــه وسـلم في

---

(١) أولج : دخل وأدخل ، يقال : « اللهم أولجنا إلى عفوك » .
(٢) علق به وتعلق به علوقاً وتعلقاً أي أحبه .
(٣) ولهت قلوبهم ذهبت من الفرح والحزن .
(٤) التشبث : الكلف والتعلق .
(٥) الأدناس : الأوساخ .
(٦) تقدسوا : تطهروا .

قولـه[1] : سِيروا ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ . قالُوا : يا رسول الله ؛ ما المفَرِّدُون ؟ قال : الذين أُهْتِرُوا[2] في ذِكْرِ اللّهِ ، يَضَعُ الذِّكْرُ عنهم أثقالَهُم ، فَيَأْتُون يوم القيامَةِ خِفَافاً .

فالخوفُ أن تخافَه من عَظَمَته ، والرَّجَاءُ أَنْ ترجُوَهُ من رحمته ، والخشيةُ أَنْ تخشاهُ من مَهَابته ، والحبُّ هو أَحبَّك فأَعطاك من حُبّه لكَ حتى أحبَبْتَه ؛ فهذا مُبَايِنٌ[3] للخوف والرجاءِ والخَشْيَة في الأصل ، فالخَوفُ والرجاءُ والخشيةُ هاج من نفسك لعَظمته ، والحبُّ مِنه بَدَا[4] فوضع فيكَ حتى هاج له حُبُّ الرجاءِ من ذلك الوَضْع فيك ، والذي وَضَعَ فيكَ من الحبِّ سِرٌّ منظوم في نُورِ المعرفة، ونُورِ التوحيد ، ونورُ التوحيد كشيءٍ في شيءٍ ؛ فالمعرفةُ ظاهرةٌ ، والحبُّ فيها باطنٌ كلُبّ[5] الشَّيْءِ ؛ ولذلك قُلْنَا : إنه من الشجرة بمنزلة قَلْب الشجرة[6] ، فَعِظَمُ قُوَّةِ الشجرة من قَلْب الشَّجَرَة ، فمن اختَصَّ من العباد فتح عليه بابَ حُبّه حتى هاج ما في قَلْبه يَسْمُو[7] إلى الذي عنْدَ رَبّه ، فلا يزالُ قَلْبُه في السير ، وحُبُّ اللّهِ في مَزيد ، وَهَيْجُ[8] الْعَبْدِ في مَزيد ، حتى يَصِيرَ الْعَبْدُ هائماً به ؛ فكما كان هذا في الأصل يُسَرّ[9] فَحَقِيقٌ على العبد أن

---

(1) راجع صحيح الإمام مسلم (٢٠٦٢) .
(2) أهتروا : استهتروا .
(3) مباين : مغاير ومخالف .
(4) بدا : ظهر وانجلى .
(5) اللب واللباب : صريح كل شيء وخالصه ومحضه .
(6) لب الشجرة : قلبها .
(7) يسمو : يرتقي ويرتفع .
(8) هيج العبد : ثورته وهذا من المصطلحات الصوفية أيضاً فتأمل .
(9) سرٌّ في [ب] .

يُسِرَّ ذَلِكَ فيما بينه وبين ربِّه ، ولا يُبْدِيه[1] حتى يكون ذلك مَصُوناً فيما بينه وبيْنَه ، ويجتهدُ ألَّا يشتهر فيُنْسَب إلى ذلك فيُقْتَضَى غداً صدقَ ذلك وحقائقه ووَفَارته[2] ؛ فيَسْتَحِي من ذلك .

ألا تَرَى إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم لما ذَكَرُوا مِنَّةَ[3] اللّهِ عليهم بالإسلام طابت نفوسُهُم ، فقالُوا : إنَّا لَنحبُّ رَبَّنا ، فلو علمنا ماذا يُحِبُّ لأَتَيْنَا مَحْبُوبَه ، فَابْتُلُوا بهذه الكلمة ؛ فأَنْزَلَ اللّهُ عَزَّ وجلّ[4] : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُم اللّهُ وَيَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكُمْ واللّهُ غَفُورٌ رَحِيم ﴾[5] .

وامتحن دعوَتَهم لمحبَّتهم إياهُ بقوله[6] : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفّاً كأنهم بُنْيَانٌ مَرْصُوص ﴾ .

فاقتضاهم قِتالاً بهذه الصفةِ من الثبات ، ليُبْرِزَ حقائق حُبِّهم ، فلما خَرَجُوا إلى القتال فمنهم مَنْ وَفَى بذلك ، ومنهم مَنْ لم يَفِ بذلك ؛ فأنزل الله تعالى قولَه تعالى[7] : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُون ما لا تَفْعَلُون ﴾ .

---

(١) لا يبديه : لا يظهره .
(٢) وفارته : كماله وتمامه .
(٣) منة : نعمة .
(٤) آل عمران (٣/٣١).
(٥) محبة العبد لله ورسوله : طاعته لهما والتزامه أمرهما ، ومحبة الله لعباده هي إنعامه عليهم بالقبول والمغفرة .
(٦) الصف (٦١/٤) راجع الفخر الرازي (٨/١٤٤) والقرطبي (١٨/٨١) والبحر المحيط (٨/٢٦٠) وجامع البيان للطبري (٢٨/٥٦).
(٧) الصف (٦١/٣).

ورُوِيَ عن رسـولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم أنـه قـال : إذا قـال العبد اغْفِرْ لي ، إنه لا يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ إلا أنت ، ضحـك الرَّبُّ من قَـوْل العبد .

مثل رجل له عبد رباه بين يديه

فَمَثَلُ ذلك كمَثَلِ رَجُلٍ له عَبْدٌ تَلِيد[1] رَبَّاه بين يَـدَيه ، ولـه عليه رَأْفَةُ الأُمومَة وَعَطْف الأُبوّة ؛ فهو يحبُّ أنْ يكونَ بين يديـه لا يَبْرَح حتى يكونَ في رِعَايَته وكلاءَته[2] ؛ وهذا العَبْدُ يَجُولُ ويتردّد ، فإذا خـرج من المَـأْمَن نالَتْـه نكبةُ مِنْ عَثْـرَة إذا اشتدَّ في سَعْيـه فردَّده ، وربمـا شـاكَتْـه شَوْكَةٌ ، وربما خدشَتْه السِّبَاعُ بـالبَرَاثِنِ[3] والأنيـاب ، والسِّيدُ قـد حذَّرَه ذلـك ، فإذا لم يَـأْخُذْ حِـذْرَهُ نـالتـه هـذه الأشيـاءُ ،فَـفَـزِعَ إلى الأدْوِيـة والمَرَاهم يُدَاوِي نَكَباته ، وَفَزِع إلى مِنْقَاش ينزع شَوْكَتَه ، فهو يتـردَّدُ في طلبِ هـذه الأشياءِ للتَّـداوِي بها ؛ وهـذا كلُّه موجـودٌ عند سيِّـده ، وهـو أعلَمُ بدائِه ، وأَرْفَقُ بمُدَاوَاته وأَلْطَف ، فيتركه السيِّدُ في التردُّد حتى يَعْيَا ويعجز وَيَأْيَس[4] ، فإذَا أَيِسَ من هذه الأشيـاءِ فزع إلى سيِّـده طالبـاً مِنْ عنده دَوَاءَه وعلاَجَه ، فإذَا صار إلى سيِّدِهِ بتلك الحالِ ضحكَ مِنْهُ كأنَّـه يقـول : جئتَني بعـدمـا اقتـدرت وتـردَّدْت في الاقتـدار كـالمُسْتَغْني بمـا

---

(١) التليد : ما اشتريته صغيراً فكبر ونمـا عندك ، وهـو الذي ولـد ببلاد العجم ثم حمـل صغيراً إلى بلاد العرب .

(٢) كلأه : حرسه ورعاه وتولاه وتعهده بعنايته .

(٣) البرائن : جمع بَرثن وهو مخلب الأسد والكف مع الأصـابع وهـو للسبع مثـل الاصبع للإنسان .

(٤) يأيس : ييأس .

عنــدك ، فلمـا عجـزْتَ وأَيِست جِئتَنِي شِئْتَ أو أَبيتَ ؛ وسيِّدُهُ جَـوَادٌ كـريم ، حسن الخُلُق ، واسـعُ الصَّـدْر ، وليس[1] بكَـزٍّ ولا لئـيم ، فيضحك إلى عَبْدِهِ بجَهْلِهِ وَقِلَّته وَضَعْفه ، وَعَجْزِهِ وَفَقْرِهِ .

فكذلك العَبْدُ أَمَرَهُ رَبُّـهُ أَنْ يكونَ واقفـاً بين يديـه مُرَاقِبـاً لمشيئاتـه فيـه ، ساعيـاً في أَمْره ، يَسْعَى العَبْدُ خـائفـاً لِمَسَـاخِـطِهِ[2] ، معـظِّمـاً لأُموره ، شاكراً لأَنْعُمِهِ ، عـارفاً لِمِنَّتِـهِ ، عالمـاً بإحسـانه ، لاحـظاً إلى فَضْلِه ، واثِقاً بما تكفَّلَ له من رزْقـه ؛ فذهَبَ العَبْـدُ فبرح من المقـام ، وأَعرض عن المُراقبة ، وأَقبل على نَهمات[3] نَفْسِه ، حتى ضَيَّـع أَمْرَه ، وذهب في مَسَاخطه ، كالدابَّة الحَرُون[4] الجَمُـوح[5] ؛ حَرَن على ربِّـه في جميع أمره وَنَهْيِه ، فاستخفَّ بحقِّه ، واستهانَ بأَمره ، وعظَّم نَفْسَه ، وتكبَّرَ بأَحواله ، وكفَر بنعَمه ، وأَنكر مِنَّتَه ، وَجَهِلَ إحسانَـه ، وَعَمِيَ عن فضله ، وَتَذَبْذَب عَقْلُه في شَأْن ما تَكَفَّلَ له بـه ، ثم ذهب [٥٩] يتردَّدُ في الصلاة والصَّوم ، والصَّدَقَة والحج والجهاد ، وأَنـواعِ أَعمال البـر ، يُريد أَنْ يـأْخُذَ نَفْسَـه من رَبِّـه ، وينَجِّيهـا من عَذَابِـهِ بهذه الأشيـاءِ ؛ فَأَيُّ خائب أَخْيَبُ من هذا حيث يَعْمَلُ مِثْلَ هـذه الأشياءِ ، فـلا يكون مَفْـزعه إلى رحمته ، وافتقاره إلى مغفرته . فهذا أحمقُ جاهلٌ بربّـه ، أَخافُ أَنْ يَكلَه اللّهُ إلى عمله حتى يَفْضَحَه على رُؤُوس الأَشْهادِ .

---

(١) الكز : البخيل وهو اللئيم .
(٢) المساخط : مقعد القضب .
(٣) النهمات : جمع نهمة وهي الشهوة والنزوع إلى الشيء .
(٤) الحرون : الدابة التي تقف إذا هي تستحث .
(٥) جموح الفرس : ثورته وغلبه لفارسه .

وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما رُوي عنه[1] : أَنْ ليس أَحَدٌ منكم يُنْجِيه عَمَلُه . قالوا : ولا أَنْتَ يا رسولَ اللّه ؟ قال : ولا أَنَا ، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللّه منه برحمته .

والعاقلُ المُنْتَبِه عَقَلَ هذا الباب ، فعمل جميعَ أعمالِ البِرِّ ، وَرَمَى بها خَلْفَ ظَهْرِهِ ولسانِهِ ، لَا يَفْتُرُ[2] عن الدعاءِ والنِّدَاءِ عند التضرُّع ، وَعَيْنَا قَلبِهِ شاخِصَتَانِ إلى اللّهِ تعالى ، يَغْسله بماءِ الرَّحمة ، فَيَصْلُح حينئذ للمغفرة ؛ فعندها إذا قال : اغفر لي فإنه لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلا أَنْتَ ضحكَ الرّبُّ تبارك وتعالى اسْمُه ، كأَنَّه يقول : عَبْدي كانَ بين يديّ ، فترك المقام فَأَذْنَبَ ، ثم نَدِمَ فَجَالَ وَتَرَدّد ، فلم يجدْ عند أَحَد فَرَجاً ، فأَيِس[3] من الجميع ، ثم عاد إليَّ ، علم أَنه لا يَقْدِر أَنْ يُدَاوِيَه من هذا إلا أَنا ، لِأَنِّي لم أجعل المغفرةَ بيَدِ غيري ، وإذا ضحك إلى عبده لم يُحَاسِبْه .

وَرُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أَفضل الشُّهَدَاءِ عند الله تعالى الذين يلقون في الصفّ فلا يَلْتَفِتُونَ بوجُوههم حتى يُقْتَلُوا ، أُولئك يَتَلَبَّطُون[4] في الغُرَف الأعلى[5] من الجنة ،

---

(١) وجاء الحديث بلفظ « قال صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » راجع صحيح الإمام مسلم (٢١٢٩) و (٢١٧٠) .
ويتغمده الله برحمته : يستره بها ويلبسه إياها .

(٢) يفتر : من الفتور وهو الضعف .

(٣) أيس : سأم ومل وتقال أيضاً (يئس) .

(٤) يتلبطون : يتمرغون ويمرحون في النعيم .

(٥) لعل الأصح (العلا) .

يضحكُ إليهم الرَّبُّ ؛ إنَّ الربَّ إذا ضحك إلى قومٍ فلا حِسَابَ عليهم . والمغفرةُ حجابُ الرحمة ؛ فإذا ستر ذَنْب عَبْدٍ وَتَخَطَّى بذلك السِّتْر فقد نَجَا من العذاب ؛ لأنَّ الرأفة قد استكملت ، والعَرْض والحِساب باقٍ على العَبْد ؛ فإذا ضحكَ اللّهُ إليه نَجَا من العَرْضِ والحساب ؛ لأنّ الضحك من الجُودِ ؛ فإذا اسْتَعْمَلَ على العبد جودَه نَجَا وَكأنه لم يُذْنب .

مثل الهوى في الآدمي

وَمَثَلُ الهَوَى في الآدَمِيّ كالسحاب المُطْبق[1] على الأرض كلِّها قد أَحاط بالأُفق ، ومِن وراءِ السحاب شَمْسٌ ؛ فإذا انكسفت الشَّمْسُ صارَ النهارُ كاللَّيل ، فإذَا انْجَلَتْ[2] عن الكسوف في سحاب فذاك نهارٌ مُقِيم ذُو غُبار وَغَيْم ، فإذا انقشع منها مِثْلُ رَوْزَنَةٍ[3] حتى بدا منها بمقدار ذلك ، فأَشرق نورُها في الأرض أَضَاءت الأرضَ كُلَّها بقَدْر ما أَشرق في تلك الرَّوْزَنَة ، فلا تزال تَتَقَشَّع ، وَتَتَّسِعُ تلكَ الرَّوْزَنَة حتى تَتَقَشَّع كلُّها ، وتفضي[4] في جميع نواحِي الأُفق ، فتصير السماءُ مُصْحِية ، والشمس بارِزَة مُشْرِقة بكمالِها على جميع الأرض في التَّلِّ والجَبَل ، فالأَوَادية[5] والأمصار ، والقُرى والبيوتات والكُوَى[6] ، فَبِقَدْرِ ما ينقَشِعُ

(١) المطبق على الأرض : الذي غشاها وغطاها .

(٢) انجلت : انكشفت وظهرت .

(٣) روزنة : الكوة .

(٤) ويضحى [حاشية ب] .

(٥) الوادي : هو الطريق بين الجبال والآكام والتلال .

(٦) الكوى : جمع كوة .

السحابُ تُشْرِقُ الأَرْضُ بنورها ، ثم بِقَدْرِ ما يَبْقَى فَإِشْرَاقُهَا مُنْكَمِن[1] ، وهي محتجبةٌ بذلك الباقي من الغَيْم . فكذلك الهَوَى في الآدمي مُطْبِقٌ على الفؤاد في الصَّدْر ؛ والنور في القَلْب كالشمس المنكمنة في السحاب ، فلا ينتفعُ بِحَرِّها وإشراقها . وإذا غَرَّهُ العَدُوُّ حتى أَشرك بالله فقد انكشفت شَمْسُه ، وصارت معرفَتُهُ في كُفْرِه ؛ والكفْرُ الغِطاءُ ، فصار صَدْرُه كاللَّيْل المظلم ، وهو عالم بأَنَّ اللّهَ خالِقُهُ ورازِقُهُ ، وَمُمِيتُهُ ومالكه ؛ والعِلْمُ المُنْكَمِنُ في تلك الظلمةِ لا مستنير لعيني فُؤادَه ، وهو يَقُول : رَبِّي اللّهُ ثم لا يستقيم ؛ قال اللّه تعالى[2] : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السموات والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلقَهُنَّ العزيزُ العَلِيمُ﴾ .

وَمَنْ[3] يُدَبِّرُ الأُمورَ ؟ وَمَنْ يَرْزقك ؟ وَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصار ؟ وَمَنْ بِيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ ؟ فسيقولن اللّهُ ، ثم أَشركوا به . قال اللّهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللّهُ عليه وسلم : قل ﴿ أَفَلا[4] تَتَّقُون . فَذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُم الحقُّ ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلالُ ﴾ .

وإِنَّمَا حملهم على الشِّرْكِ الهَوَى ؛ لِأَنَّ الهَوَى يطلبُ الضرّ والنَّفْع ، والتجأ[5] من أَجْلِ المَضَرَّةِ والمنفعة إلى الأوثان ؛ وذلك قوله

---

(١) منكمن : كامن .

(٢) الزخرف (٤٣/٩) قال الإمام القرطبي رحمه الله : « أقروا له سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً » اهـ .
الجامع لأحكام القرآن (١٦/٦٤) ط . دار الكتب .

(٣) قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ يونس (١٠/٣١) .

(٤) يونس (١٠/٣١، ٣٢) .

(٥) ومن التجأ [ج] والوارد هنا من [أ ،ب] .

تعالى[١] : ﴿ مَا نَعْبُدهم إلاَّ لِيُقَرِّبونا إلى اللّهِ زُلْفَى ﴾[٢] .

وقال[٣] : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا من دُونِهِ شُفَعَاءَ ﴾[٤] .

وقال[٥] : ﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونِ اللّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لهم عِزّاً ﴾[٦] .

فـإذا مَنَّ اللّهُ على عبْدٍ فتـح رَوْزَنَةً مِنَ [هـذا[٧]] الهواءِ المُـطْبق بالنورِ الذي لاقَى هذا الـطَّبَق فخَرَقـه ، وخلص إلى قَلْبه إِشْـرَاقُه ، فقـد خرجت شَمْسُه من الكسوف ، وأَشرقَ الصَّدْرُ بنورِ اللّه ، فـاستقَرَّ القَلْبُ وَأَمِن .

فَهـذَا عَبْدٌ مَمْنُـونٌ عليه بـالإيمان ، حبّب إليـه الإيمانَ وَزَيَّنَـه في قَلْبه ؛ والذي لـم يمنَّ عليه بذلك فَقَلْبُهُ في غِـلَاف ؛ وذلك الغِـلَافُ هو الهَوَى المُطْبِق ؛ وذلك قولـه تعالى[٨] : ﴿ أَفـرأَيْتَ من اتَّخَذَ إِلَهَـهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْم ، وَخَتَمَ على سَمْعِـهِ وَقَلْبـه ، وَجَعَـلَ على بَصَـرِهِ غِشَـاوَةً ﴾ ؛ أَي على بَصَرِ فؤاده غشـاوة ؛ وتلك الغشاوة هـو[٩] الهـوى ﴿ فمن يَهْديه من بَعد الله ، أَفَلَا تَذَكَّـرُونَ ﴾ .

---

(١) الزمر (٣/٣٩) راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣٦٦/٣).
(٢) زلفى : قربة .
(٣) الزمر (٤٣/٣٩).
(٤) الشفعاء : الأصنام .
(٥) مريم (٨١/١٩).
(٦) واتخذوا : يقصد بهم مشركي قريش ، وعزاً : أعوانا وناصرين .
(٧) كذا في [ب].
(٨) الجاثية (٢٣/٤٥).
(٩) كذا ورد بالأصول .

وذلك قوله عز وجل[1] : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قلوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ وهو الغطاءُ ، وذلك الهوى ؛ فإذا مَنَّ اللّهُ عليه بهذا النُّور خرق ذلك الهوى ، فاستقرّ إشراقُهُ في مكانِ الهَوَى ، وَرَحَلَ الهَوَى عن مَوْضِعِه ، فَوَلَجَ[2] ذلك الإشراقُ في الصَّدر ، فَأَضَاءَ واستنار ، فزَكَا .

وقال الله تعالى[3] : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وقَد خابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[4] ، أي دَسّ تلكَ الرَّوْزَنة بظُلْمَةِ الهوى وظُلْمَةِ الشِّرْكِ ، فالخائِبُ خابَ عن الحظّ ؛ لأنه غاب يَوْمَ القسمة عن المَقْسَم يوم المقادير قَبْلَ خَلْق السمواتِ والأرض والعَرْش والكرسي واللَّوْح ، فلم يَحْتَظِ[5] من ذلك النور ؛ غاب وخاب ؛ وذلك قوله تعالى[6] : ﴿ وَمَنْ لم يَجْعَلِ اللّهُ له نوراً فَما لَهُ مِنْ نور ﴾ .

وقال لمن شهد المَقْسَم يوم المَقَادير[7] : ﴿ وَجَعَلْنَا له نُوراً يَمْشِي به في الناس ﴾ .

وقال[8] : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ للإسْلَامِ فهو عَلَى نُور مِنْ رَبّه ﴾[9] .

---

(١) الكهف (١٨/٥٧).
(٢) أولج [ج] وولج : دخل .
(٣) الشمس (٩١/٩، ١٠).
راجع القرطبي (٢٠/٧٧) والفخر الرازي (٨/٤٣٩) والطبري (٣٠/١٣٥) والبحر المحيط (٨/٤٧٧).
(٤) قال ابن الأعرابي : « وقد خاب من دساها ؛ أي دس نفسه في جملة الصالحين ، وليس فيهم » اهـ .
(٥) فلم يحظ [ب] .
(٦) النور [٢٤/٤٠] .
(٧) الأنعام (٦/١٢٢).
(٨) الزمر (٣٩/٢٢).
(٩) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٢٤٧).

فهـذا عَبْدٌ قـد مَنَّ اللّهُ عليـه حتى فتـح من هـذا الهـوى المُـطْبِق رَوْزَنَته ، حتى أشرق فيها نُورُ المعرفةِ في الصدر ، فوجدَ ربَّه ، واستقامَ له ، وذلك قوله تعالى[1] : ﴿ إنَّ الذين قَالُوا ربُّنا اللّهُ ثم استقاموا ﴾ .

الآخرون مثل العنكبوت

والآخرونَ قالوا : (رَبُّنَا اللّهُ) لِمَا وضع فيهم من العلمِ بِـهِ ، ثم زَاغُوا وقالوا بأفواههم ؛ طلباً للمنافع وَهَـرَباً من المضـارّ ، فلم يستَقِيموا واتَّخَـذُوا من دونــه أولياءَ يحتلبــونهم ويستَـدِرُّون مَنَـافِعَهُم منهـم ، ويستـظهرون[2] بهم ، وَيَتَّخِـذُونهم من دون اللّهِ وَليجةً يَـأْمَنُون في تلك الوَلِيجَة[3] ؛ فمَثَلُهُم كَمَثَل العنكبوت اتخـذَتْ بَيْتاً ، لاَ يَسْتُـر ولا يَدْفَـع حَرّاً ولا بَرْداً ولا يأْتي بخير .

ما في خطبة له عليه السلام

ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في خـطبته : إنَّ اللّه يقول : جَعَلْتُ[4] عبادِي كلَّهم حُنَفَـاءَ[5] ، فَأَمـرتُهُم ألَّا يشركـوا بي شيئـاً ، فـأتتهم الشيــاطينُ ، فَـأحــالتهم[6] عن دِينهم وأمَـرَتْهُم أَنْ يُشْرِكُوا بي .

---

(١) فصلت (٤١/ ٣٠)، الأحقاف (٤٦/ ١٣).
راجع تفسير القرطبي (١٥ /٣٥٨).
(٢) يستظهرون :يتقوون .
(٣) الوليجة : من يُعتمد عليه من غير الأهل ، وهو وليجتهم أي لصيق بهم .
(٤) خلقت [في صحيح الإمام مسلم] .
(٥) حنفاء: مسلمين على الحنيفية السمحة .
(٦) في رواية (فاجتالتهم) أي استخفتهم فذهبت بهم ، ولعل هذا تحريف من الناسخ .
وحولتهم : صرفت بهم عن الحق والصواب .

فهؤلاءِ صنف لم يَمُنَّ اللّهُ عليهم بنـورِ الهدايـة ، وَمَنْ هَدَاه حَبَّب إليه الإيمانَ بحبِّه ، وَزَيَّنه في قلبه بالعَقْل الذي هَـدَى إليه ؛ فثبت على التوحيد ، وَوَفَى بِلاَ إِلَه إلاَّ الله ، ثم اقتضاه الطاعةَ في الأمْر والنهي .

فكلَّما وَفَى العبد بهذه الطاعـة في جميع متقلَّبـه[1] ، ووقع عليـه الجهد والتَّعب ، واجتهد واحتمل التَّعَب كان إنما يعمل في اتِّسـاع هذه الرَّوْزَنة ، وانقشاع هذا الهوى ؛ فلا يزالُ يُوَسِّعها حتى تَغِيبَ في نواحي صَـدْرِه إلى جَـوْفِـه ، فيبقى هنـاك مسجـونـاً ، فيمـوت في الغَمّ غَمّ الجوف ؛ لأنه لَمّا جاءَهُ النـورُ الأول حتى خرق تلكَ الـرَّوْزَنة كـان ذلك من المِنَّةِ ، فَقَبِلَ أَمْـرَ اللّهِ في أَنْ يُطِيعَـه في كل أُمـوره كهيئة العبيـد ؛ فيعبـده بالـطاعة ؛ فـابْتَلاَهُ بـالأمر والنَّهْيِ ، لينـظرَ كيف وفـاؤه بمـا أُمـر وقَبِل ، فكلما أَطاع في أمرٍ أُمِدَّ من ذلك النُّور ، فلا يـزالُ في مَزيـد من المَدَد ، فكلما صعد إلى اللّهِ منه طاعةٌ أَمدَّهُ اللّه بمَدَد من ذلـك النُّور ، فإذا جاءَ النورُ الزائد وقع على الهوى ، فرحله عن مكـانه ، واستقـرَّ في موضعه ؛ فلا يزالُ هـذا دَأْب[2] العَبْدِ في الـطاعة وشـأْن اللّه تعالى في المَزِيد حتى يطبق الصدر بالنور ، ويَغِيب الْهَوَى كلُّه مِنْ نواحِي الصـدر إلى الجَوْف ؛ لأنَّ الهَوى مُظْلم ؛ فإذَا جاءَ مَدَدُ النور ومزيده أَشْرَقَ ذلك المكـانُ ، وغابت ظُلْمَـةُ الهَوَى حتى يَمْتَلِىءَ الصَّـدْرُ نـوراً ، كمـا كـان مُمْتَلِئاً من الهَوَى ، وتُشـرِقُ الشَّمْسُ بكاملهـا من قَلْبه في صَـدْرِه ، فإذا لاحظ بِنُـورِ تلك الشمس مَلِكَ العَـظَمَـةَ سَبىَ[3] قَلْبَـه حُبُّ اللّهِ ، وإذا

---

(١) جميع متقلبه : مختلف أحواله ومتباين ظروفه .

(٢) دأب العبد : شأنه .

(٣) سبى قلبه : أسره .

لاحظ ملكَ الجلال أحاطت به الخَشْيَةُ ، ولَـزِمَه الخـوفُ ، ووَقَفَه مكـانَ الهَيْبَة ؛ فعلى المحبة قرارُ القلب في الباطن ، والهيبةُ غِشَاءُ الحبِّ حتى لا يضـطرب القَلْبُ ، وتسكن هَشَـاشَـةُ[1] النفسِ في تلك الهيْبَـة . وتصـديق ما قُلْنَـا في شـأْنِ المَـدَد في قـول اللّه تعـالى[2] : ﴿ والَّـذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهم هُدىً ، وآتَاهُمْ تَقْوَاهُم ﴾ .

فكلما عَمِلَ العَبْدُ طاعةً فإنمـا يعملها من الاهتـداءِ ، فيزيـده اللّهُ هُـدَىً ؛ أي نـوراً يُـورثـه التَّقْـوَى ، ولا تكـون التقـوى إلا من الخـوف والخَشْيَة .

السلام للأمة من إبراهيم :

وقولُ إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِيَ به ، فَلَقِيَه في السماءِ السابعة ، فقال له : أَقْرِىءْ[3] أُمَّتَكَ مِنيَّ السلامَ ، وأَخْبِـرهم بأَنَّ الجنَّةَ قِيعان[4] طيبة التُّـرْبَة ، عَـذْبة المـاءِ ، وَأَنَّ غِرَاسهـا[5] سُبْحَانَ اللّهِ ، والحَمْدُ للّه ، ولا إلَهَ إلاَّ اللّه ، واللّهُ أكبر .

مثل رجل غرس غرساً

فَمَثَل ذلكَ كمثَل رجل غَرَس غَرْساً في بُسْتَانِـهِ ، وكانَ بـذْره ألوانـاً :

---

(١) هش : ارتاح واطمأن .
(٢) محمد (١٧/٤٧).
(٣) أقرىء أمتك مني السلام : أبلغهم إياه .
(٤) القاع : هو الأرض المطمئنة التي انفرجت عنها الآكام والجبال وجمع القاع قيعـان ، وقيعة وقيع ، وأقوع وأقواع راجع مختار الصحاح ص ٥٥٦ .
(٥) الغرس: المغروس من الزرع وجمعه أغراس وغراس. والغِراس بالكسر فسيل النخل.

من الـرياحين ألـواناً ، ومن الثِّمـار ألوانـاً ، فَنَبَتَ على هيئـة مـا بَـذَر ؛ فكـذلك بَـذْرُ التسبيح غَيْـرُ بَذْرِ الحمـد ؛ ولكلٍّ كلمـةٍ بـذر سِـوَى بَـذْر الأخرى ، فَمَنْبِتُهُ مِنْ بـذره . وكل بَـذر له جَـوْهَر وَطَعْم وريـح وثَمرة ؛ فكـذلك هـذه الكلمات : لكـلِّ كلمـةٍ جَـوْهـر وَطَعْم وَثَمـرَة ؛ فجـوهـر « سبحـان الله » الـطُّهْـر والنَّـزَاهـة ، وَطَعْمـه السَّعــة والغِنَى ، ورِيحُـهُ الرُّوح[1] ، وثمرتُهُ التَّقْوى .

وجَـوْهـرُ الحَمْـدِ الحب ، وطَعْمـه الحنين والشَـوْقُ والحـلَاوة ، وريحه الفَرَح ، وثمرته نَفاذُ مشيئته في الحكم والقسم .

وجَـوْهرُ التهليـل[2] الوَلَـه[3] بآلهيتـه ، وطَعْمُه الامتـلاءُ والغنىٰ ، ورِيحُه البَصر ، وثمرتُه الحريّة والخروج من الرقِّ والاعتزاز[4] بالله .

وجَوْهَر التكبير الكبر والاحْتِشَاءُ[5] ، وطَعْمُه السَّمَـاحَة والنـزاهة ، وثمـرتهُ القـوةُ في أَمْرِ الله تعـالىٰ ، فإذَا بَـذرَ نبت هناك على تُـراب وقد خـرج ذلك التـرابُ من الرضـوان ، فأَرْضُـه لَبِقة[6] ، والمـاءُ من الحياة والرحمة ، والبَـذر من الصفات ؛ فمـا ظَنُّك بنبـات أَصلُه من الرضـوان والحياة والصفات ؟ كيف تكونُ تلك الرَّيَاحين وتلك الثمار ؟ فكلٌّ يكون نَبْتُه وثمرتُه على قَدْرِ ما خرجَتْ منـه الكلمةُ يقينـاً ومَعْرِفـةً وعلماً ، وهـو

(١) الروح : الرحمة .
(٢) التهليل : قول لا إله إلا الله .
(٣) الوله : الحنين والشوق .
(٤) الإعتزاز بالله : الاستنصار بجواره .
(٥) الاحتشاء : الامتلاء .
(٦) أرض لبقة : لائقة .

قوله تعالىٰ[1] : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْناً ﴾[2] .

فحُسْنُ الكلمةِ من حُسْن الخروج منه ، وحسن الخروج منه على هذه المعادِنِ بحُسْن المَعْرِفَةِ والعِلْمِ واليَقين والعَقْل ، فعلى حسَبِ ذلك يُزَادُ لـه في الجنـة حُسْنُ المساكِن والأَزْواج ، والكسوة والثِّمار والبساتين ، والأَفراح والوُجوهِ والأَجساد والخدم ؛ فقَسَّمَ اللَّهُ تعالىٰ حُسْنَ الجنةِ في الدَّرَجَاتِ على قَدْرِ حُسْنِ أَعمالهم وعُبوديتهم ؛ فبِالْعِلْم والمعرفةِ والعَقْل تحسُنُ الأَشياءُ من الأَفعال والأَقوال ، وبالنَّفْسِ تطيبُ وتثبتُ وتَدُومُ .

مثل القلب والنفس

مثَل القَلْبِ والنَّفْس مثَلُ أَميرٍ وَلِيَ بَلْدةً ، ووَلي بَنْدَرتها آخَرُ ، فالأَميرُ يصلّي بالناس ، وتتحوَّلُ الناسُ بالمواعظ في الخطب ، ويُقيم الحدودَ ، ويُؤدِّبُ الرعيَّةَ ، ويُقيم أَوَدَهم[3] بالتعليم مرة وبالتَّعْزِير[4] والحَبْسِ مرةً ، ومرةً بالجوائزِ والخِلَع[5] والحُمْلَان[6] والطعامِ على موائده ،والبُنْدَار[7] يَجْمَعُ المالَ والخَرَاجَ والعُشور[8] والصَّدَقَات ، وهو

---

(١) الشورى (٤٢/ ٢٣) راجع القرطبي (١٦/ ٢٠).

(٢) يقترف : يكتسب .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) التعزير : هو التأديب بالزجر والضرب وغيره دون الحد .

(٥) الخلع : ما يخلع على الإنسان .

(٦) الحملان : ما يحمل على متنه من الدواب والأنعام .

(٧) البندار : مشتق من البنادرة وهم التجار يلزمون المعادن ، وهم أيضاً الذين يخزنون البضائع استثماراً لها وقت الغلاء .

(٨) عشرت المال : أخذت عشره .

مُوكَلٌ بأَرزاق الجُنْد ؛ فالسلطانُ للأمير ، وبيتُ المال لِلْبُنْدَار .

فالقَلْبُ أمير ، وله سلطانُ المعرفةِ بمطالعة الملَكوت ، ومقامه من الجَلَال والعظَمة وملك الهيبة ؛ فهو الذي يقِفُ في مقامه بين يـديّ اللهِ تعـالىٰ في المَلَكُـوت ؛ ويُقيم أَوَدَ[1] الجـوارح ويُؤَدِّبُهم ، ويسيـر بهم بسيـرةِ الطاعـة ، والنَّفْسُ بُنْدَار يَجْمَـعُ الأَموالَ كلَّهـا بباب الشكـر وباب الصَّبْـرِ ، وتقـوم بجميـع الفـرائض فتُؤَدِّيهـا إِلَىٰ الحقّ ، وتَمْنَـعُ عن أَدْنَاس[2] الآثام تَوَرُّعاً وتَقَدُّساً[3] ، وتَتَمَسْكَنُ[4] وتَتَخَشَّع[5] لربّهـا ؛ فما دام الأَمِيرُ محافظاً على إِمْرَتِـه ضابـطاً لها ، مُشْـرِفاً على أَدَبِ الـرَّعيةِ ، واقفاً بين يديّ الملك الأَجلِّ في مقامه ، يُرَاقِبُ أُمورَه وما يخـرج له من التـوقيع لـه بالبـاب ، وصائنـاً لسلطانـه ، وفي رَعِيَّتـه مَهِيباً[6] - فـأَمْـرُه مُسْتَـوٍ[7] ، وولايته عَـزِيزة ، ومـا دام البُنْدَار مُشْـرِفـاً على أُمـورِ ديـوانـه مُحصِّناً لأَبْوَاب الأموالِ ، مستَقْصِياً[8] في جَمْعِـه ، ضابـطاً له - فـأَمْرُه قَوِيّ ، وخزائنُه مَحْشُوَّة بـالأموال ، فمتىٰ دعـاهما[9] الملكُ فـوجدهمـا على هذه الصفةِ أَكرمهما وقرَّبَهُما ورَضِيَ عنهما ، وحَلَّا محـلَّ الخاصـةِ في جوَازِ الأَمْرِ ونفاذِ القَوْل .

---

(١) يقيم أود الجوارح : يقوم اعوجاجها واعتلالها .

(٢) أدناس : أرجاس وأدران وأوساخ .

(٣) تقدساً : تطهراً .

(٤) تتمسكن : تظهر المسكنة .

(٥) تتخشع : تظهر الخشوع .

(٦) مهيباً : موقراً .

(٧) مستوى (بالأصول) وهو تحريف والمعنى مستقيم .

(٨) مستقصياً : متحرياً .

(٩) يقصد بهما الأمير والبندار .

فَإِذَا ذَهَبَ البُنْدَار يَخْتَانُ[١] وَيَحْجِزُ من الأَموال لنفسه الذَّخَائِر ، وأَشْغَلَ نَفْسَه بالمَلَاهي وملَاذِّ النِّعم ، وترك الإِشراف على أمو، ، والاستقصاءَ في اقتضاءِ حقِّ بيتِ المال حتى ضاع كثيرٌ من المال ؛ وما صار بيده من ذَلك سَرقَ بعضاً فاحْتَجَنه[٢] لنفسه ؛ ثمَّ لم يُقْنِعْه هذا الذي فَعل حتى قصد لخَدْعِ[٣] الأَمِير [٦١] واستمالته إِلى نَفْسه ، ليشارِكه في أُموره ، وليأْمَن نَاحِيتَه ، وطَمعَ أَنْ يجعلَهُ عَوْناً لنفسه وتحت يَدِه حتى لا يكون لأَحدٍ في هذه البلدة سلطانٌ ولا أَمْرٌ ولا نَهْيٌ إِلَّا له ، فصَيَّر الأَمير تابعاً له في لَهْوِه ولعبه وفسادِه ، كبعض عَبيدِه ، حتى قَوِيَ عليه قوةً أخذ منه إِمْرته وولايته ، فمتى ما دعا بهما الملك وجدهما بهذه الصفة ما يقولُ لهذا الأَمير ؟ كيف يُعَاقِبهُ ؟ وماذا يقولُ للبُنْدَارِ ؟ وبأَيَّةِ عقوبة يُعاقبه ؟ فإِنَّ عقوبةَ الأَميرِ حيث انخدع للبُنْدَار أَعظَمُ ؛ فعقوبَةُ الأَمير أَنْ يَعْزِلَه ، ثمَّ يقتضيه الأَموال ، ويُخَافُ أَلَّا يُوَلِّيَه أَبداً ؛ وعقوبةُ البُنْدَار أَنْ يحبسه ، ثم يَقْتَضيه الأَموالَ ، ورَفْعَ الحساب مُحْكَماً ؛ فالبُنْدَار مسجون بالأَموال ، إِذَا جاءَ بها خَلَّى عنه . والأَمِيرُ معزول مطرودٌ مُهَانٌ[٤] مسلوبٌ ، مُشْرِفٌ على ضَرْبِ العُنُق[٥] . فكذلك النَّفْسُ ضيَّعَتِ الفرائضَ ، وَتَوَثَّبَتْ[٦] في المحارِم ، وخانت الأَمانةَ والوفاءَ بالعَهْدِ الذي رُفعَ إِلَيه يوم الميثاق ، فضيَّع البندكية[٧] ، وحَلَّ وِثَاقَ[٨]

---

(١) يختان : يخون . (٢) احتجنه : احتجزه .

(٣) خدعه : ختله وغدر به حيث أخذه على غرة .

(٤) مهان : مهين وكلاهما بمعنى واحد .

(٥) ضرب العنق : كناية عن القتل .

(٦) توثبت في المحارم : استدامت اجتراحها واستقرت عليها .

(٧) البنادك : هم المقيمون بالبلد .

(٨) وثاق الجوارح : القيد يقيدها ويكبح جماحها .

الجَوارح الـذي أوثق يـوم الميثـاق ، وأَخْلَى بَيْت المـال من الأمـوال ، وأَجاع الجُنْدَ وأَظْمَأَهُم وأَعْرَاهُم ، وسلكهم في البَوَادِي(١) بلا مـاءٍ حتى عطِشُوا . شَغَلَ جَوارِحه عن الطاعـات في ارتكاب الحـرامات ، وشَغَـل سَمْعَـه عن المواعظ بـاللَّغْوِ والأبـاطيل ، وَبَصَـرَه عن الاعتبار بـالملاهي واللَّذَّات والزِّينة ، وَنَسِيَ المقابرَ والبِلى ، وَلَهَـا عن ذِكْرِ المَعَـاد ، وسَهَا عن المَبْـدَإِ والمُنْتَهَى مِنْ أَين ؟ وإِلَىٰ أَين ؟ ثم لم يُقْنِعْهَـا ذلـك ، حتى استمالت القَلْبَ ، فلم تَزَلْ تُخَادِعُه ، حتى أَسَـرَتْهُ وَصَيَّـرَتْهُ تـابعاً لهـا ، وتحت يَـدِهَا مَقْهُـوراً ذَلِيـلاً ، تَقُـودُ بِخِـطَامِـهِ(٢) حيثُ شَـاءَتْ ؛ وَذَهَبَ سلطانُ المعرفةِ ، ووقعت الغـارةُ في كُنوزِ القَلْب ؛ فـإِذَا قدمَـا على الله طُـولِبَت النفسُ بـالفـرائضِ والغَـرامـات والجِنَـايـات ، ومـا ضيَّعَتْ من الأمانات ، واشتملت عليه من الظُّلم للعَبِيد ، وَسَجَنَتْ ؛ وطُولب القَلْبُ بـالعهـد واللِّوَاءِ(٣) ؛ فـإِذَا لم يُـوجـد معـه ضُـرِبت عُنُقُـه ، فصـار مـع الأعداءِ ، وخرج اسْمُه من الأولياءِ ، والعَهْـدُ في باطِن إيمـانه ، واللواءُ على طَرَف لسانه ؛ وهي الكلمةُ العُلْيا .

مثل من سار إلى الله حتى وصل إلى محل القربة

مَثَـلُ مَنْ سَـارَ بقلبـه إِلَىٰ اللَّهِ عـزَّ وجـلَّ حتى وصـل إلى محـل القُرْبة ، وأُعطي سراجاً يَمْشِي به في أُمـوره ، ليكونَ على بَصِيـرة ، مَثَلُ رَجُل سار في ليلة مُـظْلمة في طـريق ؛ فهو يَتَعَسَّفُـه(٤) ، فوجـد سِرَاجـاً

(١) البوادي : جمع مفرده بادية وهي خلاف الحضر .
(٢) الخطام : الزمام ، وهو ما يوضع على أنف البعير لاقتياده .
(٣) اللواء : العلم .
(٤) يتعسف الطريق : يحيد عنه ويميل عن جادته .

يستَضِيءُ بِهِ ، فإِنْ لم يكن معه ما يُكِنُّ[1] سِرَاجَه من الرِّيح ، فهاجتْ رِيحٌ لَمْ يَأْمَن من انطفائه ؛ فليس هذا بأَمْرٍ مُحْكَم ولا وَثِيق ؛ فكذلك مَنْ سارَ إلى اللَّهِ فَوَصَلَ إِلَىٰ مَحَلِّ القُرْبَة ، فأُعْطِيَ سِرَاجاً يَمْشِي به في أُموره ليكونَ على بَصيرة ، فهو على خَطَرٍ عظيم ، لأَنَّه إِذَا وَجَدَ السِّرَاج ونَفْسُه حَيَّة بعد ، والهوَى منه بِمَرْصَد مع العدو ، فطالعَ بذلك السراج سعةَ أُموره ، وعرَّفه بصفاته ، وأَشرق في صَدْرِه نورُ ذلك الجمال ، ونورُ البهاءِ ، ونورُ البهجةِ ؛ فامتلأَ صدْرُه فَرَجاً ، وطالع كرَمَه وجودَه ومَجْدَه ، فهاجت رياحُ الشهوات منه لعوارض الدنيا التي يُلَوِّح له [بها][2] العدوُّ ، ويَرْجُو بذلك سَقْطته ، فتحيَّرَت نَفْسُه وتشَجَّعت على الأُمور ، فرمَتْ به في أَوْدِية المَهَالك ؛ فَإِذَا كَاسَ[3] العبد ، واستعمل الكِيَاسَةَ تَجنُّب أَسباب الآفاتِ ، وأَبْقَىٰ على عطاياه التي أُعْطي في محل القربة إِبْقَاءَ رجل لبس ثَوْباً خَطِيراً[4] ذَا ثَمن ، فصانَه أَنْ يَلْبسه في وقتِ هَيَجَانِ الرِّياح ، واغبرار[5] الهواءِ اتقاءً على ذهابِ طراوته ، وحاسبَ نَفْسَه على الدَّقِيق والجَليل[6] ، وكبح بلجام النَّفْسِ على التَّجَرِّي والتَّجَشُّع ، ولزِم الدعاءَ والتضرّع ، وأَلحَّ في طلب الثبات ، ولم يدخل في أَمْرٍ من الأُمورِ إِلَّا بإِذن ، وأَودع الله نَفْسَه ودينَه وأَمانته ؛ فإذا كان هكذا رُفِعَ مِنْ هذه المرتبة إلى القبضة ، فإِذَا وَقَع في القَبْضَة وقع في الثبات والحِرْز ، والحِفْظِ والمَأْمن ، وصار به يسمعُ

---

(١) يكن سراجه : يستره . (٢) ساقطة من الأصول [حاشية المطبوعة] .
(٣) كاس العبد : صار ذا كياسة أي فطنة وفهم وظرف .
(٤) خطيراً : عظيم القدر والقيمة .
(٥) واغترار [ج] والوارد في [ب و ج].
(٦) الجليل : العظيم الخطر .

ويُبْصر ويَنْطق ؛ وبه يَعْقِل ويَبْطش ، وبه يَمْشِي ، فقد وقع سِرَاجُه في الكِنِّ ، ولا تقدر الريح أَن تطفئه .

مثل الذي يترك مجاهدة النفس

ومَثَلُ الذي يستولي عليه العَجْزُ حتى يترك مُجاهَدَة النفس ، وحتى يَدَعَ[1] الإخلاصَ في الأُمورِ وطلَبَ الصدق حتى يصير مُتَصنِّعاً مُرَائياً مُدَاهِناً[2] مِخلطاً[3] ، يخضَعُ للملوك ، ويتملَّق للأغنياءِ ، ويتصنَّع عند العامة ، كمثَلِ رَجُلٍ معدود اسْمه في الرّجال ، فلما عُرِّي وُجِد خُنْثى ، فاسْمُه اسْمُ الرجال ، وهيئتُه هيئةُ الرجالِ ، وفِعْله فِعْلُ الإناثِ ؛ فإِذَا كان هذا وَضيعاً من الخَلْق ، دَنِيّاً خَطراً شَخْصُه ، فكيف يكون غَداً هذا المتصنِّع المُرَائي ، المَلِق[4] للأَغنياءِ ، المُتَبْصِص[5] للمُلوك خضوعاً وطَمَعاً .

مثل من ترك المجاهدة في وقت طاعة النفس

وَمَثَلُ مَنْ تَرَكَ المُجَاهدةَ في وقت طاعةِ النفس كمثَل رجل خرج محارِباً بسلاحٍ تامّ ودَابَّة فارهة[6] ، وجميع ما يحتاج إِليه ؛ فلما صارَ

---

(١) يدع : يترك .
(٢) المداهنة : النفاق .
(٣) المخلط : المماذق الذي يخلط في الأمور .
(٤) الملق : اللطف والمودة .
(٥) بصص وبصبص الكلب : إذا حرك ذنبه .
(٦) الفارهة : القوية الطويلة .

إلى مَصَافِّ العَدُوِّ، ونشبت الحَرْبُ ذهب هذا فدفَنَ سِلاَحَه في التُّراب، وخلَّى[1] دابَّتَه كَيْ لا يُقال : تَقَدَّمْ إلَىٰ القتال ، فخَابَ عن الزحمة ؛ إذْ تَشَبَّهَ بالمُجَاهِدِين وليس منهم ، كما فعَلَ جَدُّ[2] بن قَيس السلمي يوم بَيْعةِ الرِّضْوَانِ ، وذلك يوم الحُدَيْبية ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مُحْرِمٌ ممنوع عن الْبَيْتِ والطَّوَاف به ، والهَدْيُ[3] محبوسٌ عن بلوغِ مَحلِّه ؛ ووُجِّهَ عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه رسولاً إلى أَهْل مَكَّة ، فلما أَبطأَ وقع الخَبَرُ في العسكر أَنَّ عثمانَ رضي اللَّهُ عنهُ قُتِلَ ، فارْتَجَّ العَسْكَرُ بما هاج ؛ وقعد رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تحت الشَّجَرة ، وبَايَعَهُ الناسُ على أَنْ يَدخُلُوا مكةَ ويُحارِبوا ، فبايَعُوه على الموتِ - يعني أَنْ يقاتِلُوا ولا يَفِرُّوا حتى يموتوا - وكانوا أَلفاً وثمانمائة ، فبايَعُوه كلهم إلاَّ جَدَّ بن قَيْس ، فإنَّه أَقَامَ بَعِيره ، واخْتَبَأَ تحت إبْطِ بعيره ، فأَنزل اللَّهُ تعالىٰ[4] : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عنِ المُؤْمِنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة ﴾ .

والخائب عن رحمة الله في سابق العلم خائب في كل وَقْت .

مثل من يقصر في الفرائض

مَثَلُ مَنْ يُقصِّرُ في الفَرَائِض مَثَلُ عَبْدٍ يُؤَدِّي ضَرِيبةَ مولاه شَهْرَاً

---

(١) خلّى الدابة : تركها .

(٢) راجع ترجمة قيس السلمي في الكامل لابن الأثير (٤/٥٣ ، ٩٥ ، ١٠٤)، ومروج الذهب للمسعودي (٥/١٩٥) ط . باريس وجمهرة الأنساب (٢٥٠) .

(٣) الهدي : ما يهدى إلى الحرم من النعم .

(٤) الفتح (٤٨/١٨) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/٢٧٤) ﴾وما بعدها .

شَهْراً ، فالعَبْدُ السُّوءُ يؤخِّر أَدَاءَه ، وَيُمَاطِـل[1] مَوْلَاه حتى يَـطْعَن[2] في الشَّهْر الثاني فيتوسّطه ، فإِذَا أَدَّاها خَلَطَ بها زُيُوفـاً[3] وبَهْرَجَـة[4] ، فهذا المَوْلَى في كرَمِه وسهولةِ أَمْرِه ومُعَامِلته يقْبَلُ ذلك من عبده ، ولكنه عنده [٦٢] في المنزلةِ في أَدْنَىٰ المراتب مستخِفّاً به وبأحواله .

مثل من يضيع حقوق الله

ومَثَـلُ مَنْ يضيِّع حقـوقَ اللَّهِ تعالىٰ مثـل عَبْد وَكله مَـوْلَاه بأَمـوالـه وعَبيده ، فطالع عَمَلَه ، فوجده إنَّما هِمَّتُه بَطْنُه وفَرْجُه ، فإِذَا شَبع وَقَضى نَهْمته[5] مِن فَرْجه واكْتَسَىٰ ، رَفَعَ البالَ عن عَمَلِ مـولاه وعبيده ، فهـذا عَبْدٌ ساقِطُ المنزلة .

مثل من قرأ القرآن بغير فهم

وَمَثَلُ مَنْ قرأَ القرآن بغيرِ فَهْمٍ مَثَلُ رَجُلٍ أُعْطِيَ جواهر بالعـراق ، فقيل له : انْقُلْها إلىٰ خراسان بكرَاءٍ[6] مائةِ درهم ، وعـامِلْ بهـا هناك ؛ فإِن عامَلْتَ بها هناك فلكَ ربْحُها ، ورِبْحُها مِلءُ البيوتات ذهباً وفضَّة .

---

(١) يماطل : يؤخر .

(٢) يطعن في الشهر : يدخل فيه .

(٣) خلط بها زيوفاً : رديئة .

(٤) بهرجة : باطل رديء وهذا في [ج] ووردت بتهرجة في [أ] وهذا تحريف خطير .

(٥) النهمة : الشهوة والحاجة والرغبة .

(٦) الكراء : الأجرة .

فلما وافى خُراسان اجتزأ[1] بالكِرَاءِ ، وترك المعاملة ، فأُعْطِيَ الكِرَاءَ مائةَ درهم على حَمْله ، وصُرِفَت[2] المعاملةُ إلى غيره .

فكذلك مَنْ قرأ الْقُرْآنَ ولم يُعامِلِ اللّهَ بتلك الجواهِر التي تعطى فيه ،لَهُ أَجْرُ تَعَبه وَعَنَائِهِ في قراءته ، وَفَاتَتْه المُعاملة وأَرْبَاحُ المعاملة .

مثل الواعظ الناصح

مَثَلُ الواعظ الناصح مَثَل عَبْد للملك ، وللملكِ عَبيدٌ آخَرُونَ سِوَاهُ مِنْ بين رَاع وحَرَّاث ، وصانع وتاجر ، وكلُّ واحدٍ منهم قد وُكل بعمَلٍ من الأعمال ، يُطَالَبُونَ بالقيام بذلك وَأَدَاءِ الغَلَّةِ[3] ، وَكُلُّ واحدٍ منهم يَدَّعِي أنه يحبُّ مَوْلاه ، وَيَنْصَحَهُ ويُطيعه في أمره ، مُقْبِلٌ على أمره الذي وكل به ، مُوفِياً لوظيفته التي وظِّفَتْ[4] عليه مِنَ العمل ؛ وكان هذا العَبْدُ الواحدَ من بينهم يُوفر على الملك وَظِيفته من العَمَل ، ومع ذلك يطوفُ على هؤلاءِ العبيدِ ، ويَحُثُّ كلَّ واحد منهم على القيام بعمل الملك وبتوفير ما وُظِّف عليه ، والإشفاقِ على أعماله ، ويُجِلُّ بصدورهم أعماله ، ويصِفُ لهم قَدْرَ الملك وغِنَاه ، وسعته وقوَّته ، ويُؤَمِّلهم كرمَه وجُودَه ، وحُسْنَ خلقه ، وجميلَ معاملته ، ومحاسنَ ما أتى إليهم وعَطَفَ عليهم ، ويحُثُّهم على النصيحَة لهذا في رَعْيِ أغنامه ، ولهذا في صناعته ، ولهذا في تجارته ، ويُعينهم على ذلك ؛

(١) اجتزأ : اكتفى .
(٢) صرفت : حولت .
(٣) الغلة : هي ما يحصل ويغل من ريع الأرض أو أجرتها .
(٤) وظفت عليه : قدرت .

لا يَحْمِلُهُ[1] على ذلك إلا حُبُّ الملك ، وتعظيمُ أمره ، وَتَوْقيـر شَأْنِـهِ ، وأَنْ تَقَـعَ الأمـورُ منــه مُسـارّة ، والملكُ مُـطَّلِعٌ على ذلـك منــه وعلى سـائر[2]هؤلاءِ العبيـد ، كُلُّ واحـد إنما بَـالُه . . .[3] وبَـالُ هذا الـواحِد بقُربه ؛ ومولاه قد صرف همَّتَه أجمع عن نَفْسه ، وَجَمَعَ همومَه أجمع ، فجعلها همّاً واحداً لربّه .

فهـذا عَبْـدٌ نـاصَـحَ اللّه فنصحـه اللّهُ ، وأحبَّ اللّهَ فَـأَحَبَّـه اللّهُ ، وتولّى اللّهَ فتولاَّه اللّهُ ، فهو وَلِيُّ اللّه ، واللّهُ وَلِيُّه .

فما ظَنُّكَ باللّهِ يَوْمَ يَدْعُو هؤُلاءِ العبيـد ، وَتَدْعُـوه ، فَيَجْزِيهم على أعمالهم على قَدْرِ عُقُولهم ؟ ماذا يكون جزاءُ العَبْد الناصح ؟ وإنما أَدرك النصيحة بفَضْلِ عَقْـلٍ فيه ؛ عَقَـلَ إلَهَهُ ، وَعَقَـلَ عنه تَـدْبيره وأُمـورَه ؛ ولـذلك قـال رسـولُ الله صلى الله عليـه وسلم : يَعْمَلُون ويعلّمـون النـاسَ الْخَيْرَ ، وَيُعْطُونَ أُجورَهم على قَدْرِ عُقُولِهم .

أَنْبَأَنَا صالح بن محمد رحمه اللّه بـإسناده قـال : أَوحى اللّه تعالى إلى مـوسى عليـه السـلام أَنْ يـا مـوسى إنمـا أُجْـزِي النـاسَ على قَـدْرِ عقولهم[4] .

وَرُوِيَ عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنـه قـال : العَقْـلُ ثـلاثـة

---

(١) يحمله على الشيء : يكرهه عليه ، ويدفعه إليه .

(٢) سائر القوم : الباقي منهم .

(٣) في الأصل كلمة غير مقروءة .

(٤) وعلى قدر العقل والفهم يكون التدبر في آلاء الله سبحانه وتعالى وآياته لقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

أجزاءٍ : حُسْنُ المعرفة للّه ، وحُسْنُ الطاعة للّه ، وحُسْنُ الصَّبْرِ للّه[1] .

وَرُوِيَ عن رســولِ اللّهِ صلى الله عليـه وسلم فيمــا يـروى عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال : ما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِمِثْـلِ أَدَاءِ فَـرَائِضِي ، وإنه لَيَتَقـرَّبُ إليّ بعد ذلـك بالنَّـوَافِلِ حتى أُحِبَّـه ؛ وما يَتَقَرَّبُ إليّ عَبْدٌ بِمِثْلِ النُّصْحِ ؛ فإِذَا أحببته كنْتُ سمعَـه وَبَصَرَه ، وَيَـدَه وَرِجْلَه ، وَفُؤَادَه ، فَبِي يـسمــع ، وبـي يُبْـصِـرُ ، وبي يَـمْشِـي ، وبي يَبْطِش ، وبي يَعْقِل .

وكانت مشيَةُ رَسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم تَكَفِّياً كما تَكَفَّى[2] السفينَةُ ؛ فإنما كان ذلك لامْتِلاَئِهِ من عَظَمَةِ اللّهِ تعالى ، وكان يَمِيلُ بـه جلالُ اللّهِ هكذا وهكذا ؛ لأنَّ الجلالَ لا يسكن .

ورُوِيَ عن رســول الله صلى الله عليـه وسلم عن اللّه تعــالى : أَحَبُّ ما تعبَّدَ لي به عَبْدِي النُّصْحُ لي .

وكَذَلِكَ ما رُوِيَ عن رسولِ الله صلّى الله عليـه وسلم أَنه قـال : إنَّ لِلّهِ مَـلاَئِكَةً مـوكَّلين بأَرزاق بني آدم ، قـال : أَيما[3] عَبْـد وجدتمـوه طلب ، فإِنْ تَحَرَّى العَـدْلَ فَطَيِّـبُوا وَيَسِّرُوا ، وإِنْ تَعَـدَّى إلى غير ذلـك فخلُّوا بينه وبين ذلك ، ثم لا ينالُ فَوْقَ الدرجةِ التي كتبتُها له .

فقد ذكر في هذا الحديث أَنَّ مَنْ جَمَعَ همومَهُ فجعلها همّـاً واحداً ضمن الخالقُ رزْقَه وكفى .

---

(١) والعقل هو المنوط به المعرفة والطاعة والصبر لأنه المعول عليه في التفرقة بين البدائل وهو الذي يقدر المعرفة ويعرف خطر الجهل ويعرف الطاعة وينتهي عن المعصية لأنه يدرك خطورتها ويدرك الجزاء على الصبر .

(٢) تكفى تكفيا : تمايل إلى الأمام .

(٣) كذا ورد في جميع النسخ الخطية والمطبوعة .

مثل من أُعطِيَ نور الهداية

مثَل مَنْ أُعْطِيَ نُورَ الهدايـة ، واستنار قَلْبُـهُ ، ثم أَضَاءَ صَـدْرُه من نُـورِ القَلْب ، مَثَلُ رجـل في بيتٍ مُظْلم لا يَهْتَـدِي لما فيـه ، وفي البيت جَـوَاهر وألـوان من النِّعمة نـاحية منـه ، وفي الناحيـة الأخـرى مَـزْبَلة[1] وَجَـرفٌ[2] يتـردَّى[3] فيهـا ، وعقـارب وَشَـوْك ؛ وهـو في تلك الـظُّلْمَـة سَكْرَانُ لا يُفيق بجوهر ونعمة ، ولا لقَذَارة مَزْبَلة وَتَرَدِّي جَرْف ، وَلَـدْغة عقرب ، وَوَخزَةِ شَوْكَة مِن سُكْـره ، فَأُعْـطِيَ سِرَاجـاً فَأَفَـاقَ من سُكْرِهِ ، فَأَضَاءَت له جُدْرَان البيت من ضَوْءِ ذلك السراج ، فمنْ قام خَلْفَـه فإنمـا يَعْلَمُ بحاله وهيئته وَنَعْته[4] مما يتراءَى[5] له من الظلِّ على ذلـك الجِدَار المُضِيء الذي هو أمامه ، فإذا كان ذا جُثَّةٍ عَرَف ذلك بما وقع من الظل على ذلك الجِدَار ، وَعَرَف صورَته بما وَقَعَ له النَّعْتُ بـذلك الـظلِّ على الجدار ، وإنْ أشَار بأصابعه مِنْ خَلْفه[6] وَقَعَ ظِلُّ إشارتِهِ على الجِدار ، فعلم عدَدَ الأصابـع وما يَنْقُصُ منهـا وما يَـزيد ، فصـارت له رؤيـةُ ذلك الظلِّ ، كأنك التفتَّ إليه فرأيتَه بعينـك ، فإذا أَثَـرْتَ في ذلك البيت من دُقَـاقِ[7] التراب حتى يَثُـور غُبَارُه فيمتلىء البيتُ ، أو أَحْـرَقْتَ تِبْناً حتى ارتفع وهاج دُخَانُهُ ، فامتلأ البيتُ ، حجبَ ذلك الغبارُ والـدخانُ عَيْنيـك

---

(١) المزبلة : بفتح الباء وضمها ، وهي موضع الزبل وهو السرجين .

(٢) الجرف : ما تجرفه السيول ونحتته من الأرض.

(٣) يتردى : يسقط من أعلى .

(٤) نعته : صفته .

(٥) يتراءى له : يبدو ويظهر له .

(٦) هذه الإشارات تكثر في نعوت الباطنية والصوفية فتأمل .

(٧) الدقاق : الفتات الدقيق من كل شيء .

عن رؤيَـةِ ما كُنْتَ تـراهُ على الجِدَار أمـامَك ، وغـاب ذلك الـظِّلُّ الذي كُنْتَ تَرَاه في ذلك الغُبَار والدُّخَان بغلبتهما عليه .

فكـذا الذي أَضَـاءَ صَدْرُه من نُـورِ قلبه ، كلمـا ذكر في شيء من أُمورِ الآخرة وشأْنِ القيامـةِ والدارين تصـوّرت صورةُ تلكَ الأشيـاءِ لعيني فُؤاده ؛ لأنَّ ذِكْرَ تلك الأشياءِ إذا تصورت صارت الصُّوَرُ ظِلاًّ في الصدر قُبالَة[1] عَيْنَي الفُؤادِ ؛ لأنَّ الضـوءَ من نُورِ اللّهِ في صـدره ؛ فإذا جـاءَت صُوَرُ الأشياءِ وقع للصُّوَر ظِلٌّ في ذلك الـطور ؛ لأنَّه عليـه النور ، ولكن حجبَت صُوَرُ الأشياءِ عيني الفؤاد عن رُؤْيَةِ النور بمقدار ما تصوّر .

أَلاَ تَـرَى أنه إذا انتقـل من فكر المخلوقين إلى فكـرة جَـلاَلِ اللّهِ وعـظمتِهِ ازْدَادَ الضـوءُ ، ولم تَقَعْ لتلك الفكـرةِ صُورةٌ ؛ لأنَّ ضـوءَ هـذه الفكـرة زيادةٌ في ذلـك الضَّـوْءِ ، لأنـه منه فكـر ، ومنـه [٦٣] حَـدَث الضَّوْءُ، ثم عاد إلى ما حدث منه ، ولم يكن له ظِلٌّ .

وإذا فَكَّرَ في أَمْرِ الجنة والنار والقيـامَةِ وكـلِّ شيءٍ مخلوق صارت تلكَ الصـورُ التي تُصوِّرت بـالفكـر حَجْبـاً لعَيْنَي الفؤادِ عن ذلـك النُّـور بمقدار الصُّوَرِ ؛ فلذلك سمَّيْنَاهُ ظِـلاًّ ؛ فإذا عَـايَنَ ذَلِكَ الـظلَّ على تلك الصُّـور صار كـأنه يشـاهِـدُ بعيني فؤاده مـا يُعَـايِن غـداً بعيني رأْسِـهِ في الآخـرة ، وإذا لحظ إلى عظمـةِ اللّهِ وجلالـه أُشرق الصَّـدْرُ ، وصـار ذا شُعَاع كله ؛ فهو في ذلك الوقتِ كأنه يشاهِدُ بعيني فؤاده مـا يشاهِـدُ من الـوقوف بين يـديه والنـظر إلى جَلاَلـه ، وإذا خلا من النَّفْس وشهـواتهـا ثار[2] دُخَانها إلى الصدر ؛ فامتلأ هـذا الصَّدرُ دُخَانـاً وغبـاراً ؛ الدخـانُ

---

(١) قبالة العين : حذوها وتجاهها .

(٢) فار[أ] والوارد هنا من [ب].

لحـريق الشهوات ، والغُبـارُ للتجبُّر الـذي في النفس من الكِبْر ، فغـاب ذلـك الظلُّ بتلك الصـور التي صـوَّرت لـه أُمـور الآخـرة ؛ لأنَّـه اختلط الضوءُ بالغُبَار والدخان ، وافتقدت(١) عينا الفؤاد تلك الصُّوَر .

فإذا ذهب يتفكَّر لم يَقْـدِرْ أَنْ يفكر ؛ لأَنَّ بَصَـرَه لا ينفُذُ في ذلـك الغُبَارِ والدخانِ إلى صُوَرِ تلك الأشياءِ ؛ وقد ذهبت الصُّورُ ؛ وتصير تلك الفكـر الآن حَوْلَهـا ؛ فهو يحـدِّثُ نَفْسَـه ، ويحسب أَنـه فكـرة ، وإنمـا الفكـرةُ توهُّم ، والتـوهُّمُ في الشيء المُضِيء لصُورِ الأشيـاءِ لـكَ ، وإذا دام ذلـك فهو فكـره ، ويقال للتـوهم بـالأعجميـة « انـديشـة » وللفكـرة « اسكـالسن » ، فـالتَّـوَهُّم أَصْـلٌ ، والفكـرة فَـرْع ممـدود ؛ فبـالتَّـوَهم يتصـوَّر ، ويتفرع مـا تصور ويمتـدُّ باستقبـال القَلْبِ ذلـك ، حتى يمتـدَّ ويثمـر ؛ فتلك فكرة ، وإنمـا صارت عـامةُ أعمـالِ العامـة فاسـدةً لهذا الـذي وَصَفْنَا ، لأنَّ الأعمـالَ تَصْدُرُ عن عَيني الفؤاد ، وأَنَّ تـدبير القَلْب مع العقل هناك يَتَرَاءَى لعيني الفُؤاد صور الأمور ، ويُزَيِّن العقلُ فيهـا ما حَسُنَ لعيني الفؤاد حتى يُدَبِّرَ الفؤاد ويُمضيهِ .

تسمية القلب قلباً :

والقَلْبُ والفؤادُ هو بَضْعَة(٢) في بَضْعَة ، فما بَطَنَ فالنُّـورُ فيه فهـو القَلْبُ ، سُمِّي قَلْباً لأنه بين إصبعين من أُصـابع الـرَّحْمٰن الخالق ، وإذا أراد اللّهُ أَن يَهْدِيَه بسـطه فاستقـام ، وإذا أراد أَنْ يُضِلَّه نَكَسَه(٣) ؛ فنُـورُ

---

(١) افتقدت الشيء : طلبته في غيبته فلم تجده .
(٢) البضعة : بتسكين الضاد ، القطعة من اللحم .
(٣) نكسه : قلبه .

القلب يَتَأَدَّى[1] إلى بَصَرِ الفُؤاد ، فيستنير ويُضيءُ منه الصَّدْرُ ؛ فَإِنْ شاءَ الرحمٰنُ قَلَّبَه كيف شَاءَ على ما مضى من الصَّـدْرِ ؛ فالفؤادُ هي البَضْعَـة الـظاهرة التي في جَـوْفِها هـذه ، وعلى الفؤاد عَيْنَـان ، فَسُمِّي كلُّه قَلْبـاً لاتصالهما ، ولأنَّ أحـدَهما في جَـوْف الآخر ، كـاللُّؤلؤة في الزُّجَـاجة ، وهو قول اللّه تعالى[2] : ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأَى ﴾ .

وقـال الله تعـالى في التقليب[3] : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِـدَتَهم وأَبْصَـارَهم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّة ﴾ .

فَقَلْبُ الكـافِرِ منكـوس ، وَبَصَـرُ فؤادِهِ من أسفـل . وقَلْبُ المؤمِن مَبْسُوط مُنْتَصب ، وَوَجهه إلى الله تعـالى . وذلكَ قـولُ اللّهِ تعالى[4] : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وهو مُحْسِن فَقَد اسْتَمْسَكَ بـالعُرْوَةِ الـوُثْقى وإلى اللّهِ عاقبةُ الأمور ﴾ .

ولمـا رُوِي عن عُبَـادَة بن الصـامت رَضِيَ اللهُ عنـه قـال : قـال رسولُ اللّهِ صلّى الله عليه وسلم : قَلْبُ المؤمن بين إصْبَعين من أَصَابعِ الـرَّحْمٰن ، وإذَا أرَاد اللّهُ أَنْ يَهْدِيـه بَسَـطَه فـاستقـام ، وإذا أرادَ اللّهُ أن يُضلَّه نَكَسَه[5] .

فَنُـورُ القلبِ يتـأَدَّى[6] إلى بَصَـر الفُؤَادِ ، فيستنيـر ويُضِيءُ منـه

---

(١) يتادى : ينتهي إليه ويصل إلى مراده منه .

(٢) النجم (٥٣/١١).

(٣) الأنعام (٦/ ١١٠) راجع القرطبي (٧/ ٦٥) ط. دار الكتب المصرية .

(٤) لقمـان (٣١/ ٢٢) يقول القـرطبي رحمـه الله : « لأن العبـادة من غيـر إحسـان ، ولا معرفة القلب لا تنفع » اهـ . الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٤) .

(٥) نكسه : قلبه .

(٦) يتأدى إلى الشيء : يصل إليه .

الصَّدْر ، وإذا غَشَّى الصَّدْرَ والفؤادَ دُخَانُ الشهواتِ صار كبيت فيه سِرَاجُ قد غاب ضَوْءُه في ذلك الدُّخَان ، وأيضاً صار دُخاناً ؛ لأنَّ الشهواتِ لها حَرِيق جاءَ من الشهواتِ المحفوفةِ ببابِ النار ؛ وإنما خُلِقت من النار ، وببابِ النار وُضِعَت ، وفي جَوْفِ كلِّ آدَمِيٍّ منها رِيحُ تلك النار ، ولها اهتدت في العُروق إذا هاجَتْ حتى تَأْخُذَ جميعَ الجوارِحِ [1] ؛ لأنَّ العروقَ قد التفَّتْ على الجَسَد كلِّه ؛ فلذلك إذا هاجت شهوةُ شيءٍ منك أخَذَتْ في تلك السرعةِ من القَرْن [2] إلى القَدَم ؛ لأنها هاجَتْ في العروق في سرعَةِ تلك الريح الجامِحة [3] ، فاشتملت على الجسد كلِّه .

وقول النبيِّ صلّى الله عليه وسلم [4] : أَتاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ أَلْيَن قلوباً وأرَقّ أفْئِدَة ؛ فإنما وَصَفَ القَلْبَ باللين ؛ لأنَّ القَلْبَ إنما يَلِينُ بالرحمة ؛ لأنه بالرحمةِ تَرْطبُ الأشياءُ ، فكلَّما كان القَلْبُ أوْفَرَ حَظّاً من الرحمة كان أَلْيَن ، ثم يُخَافُ عليه ـ من اللِّين ـ العجز عن أمْر اللّه ؛ لأنَّ اللِّينَ يُؤدِّي إلى كَسل النَّفْس ، فإذا وفر اللّهُ تعالى عليه الرَّحمةَ فَلَيَّنه ، ثم فَتَحَ عليه من نُورِ العظمة انْكَشَفَ ذلك النورُ من رُطُوبَةِ الرَّحْمَة ، فاستَدَرَّ الرَّحْمَة ، وعلاه نُورُ الجلال والهَيْبَة ، فَصَلُبَ القَلْبُ ؛

---

(١) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو من أعضاء الإنسان ، وهي الشلو أيضاً والجمع أشلاء .

(٢) القرن : يقصد بها الرأس .

(٣) جمح الفرس : غلب فارسه ، ويقال جمح جموحاً فهو جامح ، وجموح للمبالغة في الفعل .

(٤) الحديث رواه الشيخان ، والترمذي عن أبي هريرة ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/٦).

فَذَاكَ محبوبُ اللّهِ تعالى في قلوب العباد أَنْ يكـون رَحِيماً صُلْبـاً ؛ ففي وقت يستعملُ الرحمة ، وفي وَقْت يستعملُ الصَّلاَبَة .

ولذلك ما رُوِيَ عن رسول اللّهِ صلّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : ما رُزِقَ عَبْـدٌ شيئاً أَفضـل من إيمـانٍ صُلْب . رَوَاه أُبَيّ عن صـالـح بن محمد ، عن النَّضر بن شُمَيْل ، عن عَوْف عن أَبي السَّليل[1] .

أَلاَ تَرى أَنَّ قوماً رَقَّت قلوبُهُم عند إِقَامَةِ الحـدود ، فَنَزَلَ قـولُ اللّهِ تَعَالَى[2] : ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَـةٌ في دِيْن اللّهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بـاللّهِ واليَوْمِ الآخر وَلْيَشْهَدْ عذَابَهُمَا طَائِفَة من المؤمنين ﴾ .

صـلابة الايمـان :

فحقيقةُ الإِيمان البالغ أَنْ يعملَ نُور العظَمة في قلبك حتى يَصلُبَ القَلْبُ ؛ لأَنَّ هـذا الاسم اسم العَـظَمـة العـظمى ، فَتـوَلَّـهَ القلبُ إليـه بعلْمـك في هذه الآيـة أَنَّ إيمانَـك باللّه يصلِّبُ[3] قَلْبَـك في ذَاتـه حتى تَغيبَ الرَّأْفةُ في ذلك الوقت في تلك الصلابة مِنْ قَلبك .

وذلك مثلُ ما قال النبيُّ صلى اللّه عليـه وسلم حيث كُلِّم في تلك المخزومية القُـرَشيَّةِ حيث سـرقت ، فغَضبَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليـه وسلم وقـال : واللّهِ لو كـانت فاطمَـةُ بنتُ محمد صلَّى اللّهُ عليـه وسلم لقَطَعْتُها ، ثم نزل فقطَعَها ـ .

---

(١) هو ضريب بن نقير ، قال عنه ابن سعد « كان ثقة » اهـ .
راجع تهذيب التهذيب (٤/٤٥٨) وحاشية المطبوعة ص ١٤٠ .

(٢) النور (٢٤/٢) .

(٣) يصلب قلبك : يقويه ويجعله ذا صلابة .

رقـة الفـؤاد :

وَأَمَّـا رقَّةُ الفُؤاد التي وَصف بهـا رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليـه وسلم أَهْلَ اليمن فإِنَّ هذه البَضْعة[1] الظاهرة هي وعاءٌ لتلك البَضْعَة البـاطنة ؛ فإذا كانت رقيقـةً تأَدَّى ذلـك النورُ الـذي في القلب إلى الصَّدْر ، فنفـذ البضعة الظاهرة ؛ والقَلْبُ بمنزلة المِشْكَاة[2] التي في جَـوْف القَنْديـل ، والنـورُ في المشْكَـاة ، والفؤادُ هي الـزجـاجـة التي فيهـا المشْكَـاة ، والمشكاةُ وَسط الزجاجة ؛ فكلما كانت الزجاجة أَرقَّ وأَصْفَى كان ضَـوْءُ السِّراج أَنْفَذَ إلى الصدر ، وكلما كانت أَكْثَف وأَقلَّ صَفَاءً كان ضوءُه أَقَلَّ [٦٤] ؛ فإنما مَدَحهم النبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم بلين القَلْب لـوَفَارَةِ[3] حَظِّهم من الرحمة ؛ وبرقَّةِ الفؤاد لإِضاءَة الصدر منهم من أَجل الرقة .

فأَمَّا الَّذي وصَفْنَا بالصَّلاَبة فهو الكاملُ ؛ لمَـا رُوي عن رسول اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليـه وسلَّم أَنه قـال : إنَّ للَّهِ تَعَـالى أَواني[4] في الأَرض أَلاَ وهي القلوب ، وأَحَبُّها إلى اللَّهِ تَعَالَى أَرَقُّهـا وأَصْفَاهـا وأَصْلَبُها ؛ أَرَقُّهـا للإخوان ، وأَصفاها من الذُّنوب ، وأَصْلَبُها في ذات اللَّهِ تعالى .

مثل انقياد النفس

مثَـلُ انقيـاد النفس في أَعمـال البـرِّ مثـلُ رجُـلٍ قيـل لـه في ليلة

(١) البضعة : القطعة من اللحم .
(٢) المشكاة : كل كوة غير نافذة .
(٣) وفارة حظهم : كثرته ، ويقال وفرة حظهم أيضاً بنفس المعنى .
(٤) أواني : جمع آنية .

شاتيةٍ[1] مُظْلمة : احملْ هذه الحمولَةَ إلى مَوْضع كـذا ، فهالَـه[2] ذلك جدًّا ، وثَقُل عليه ، وهالَه شأْنُها ، وأَظْهَر العَجْزَ والضَّعْفَ والوَهَن[3] من نَفْسه .

فإن قيل لـه : احملْها ولـكَ أَلْفُ درهم أو دَنانيـر ، فثار فيـه فَرَحُ تلكَ الدنانير حتى أَخَذَ من قَرْنه[4] إلى قَدَمه بما رَجَا نَـوَالَه ، فـوجد من القوةِ من قلْبه ، فاحتملها مُسْرعاً في السير ، وأَظْهَر من نَفْسه قـوةً ، فإنَّما قـوَّاه على ذلك فَـرَحُ الدَّنـانيـر ؛ فهـذا مَثَـل عَبْـد حمـل رَجـاءَ الثَّـواب والنَّوَال .

ولو لم يَقُلْ له : لكَ دنانير ترجو نَوَالَها ، ولكن قـال له : احملْهـا وإلاَّ ضَـرَبْتُك بـالسيف ، فوجَـدَ من القوة مـا احتملها واستخفَّ بهـا منْ خَوْف السَّيْف ؛ فهذا عَبْدٌ عمل على خَوْف الوَعيد والعِقَاب .

ولو لم يكن هناك طَمَعٌ ولا خَوْف ، ولكن قيل له احملهـا ، فتلَكَّأَ وحَـرَنَ[5] ، وأَظَهر العَجْـزَ عنها ، فقيـل له : أَتَـدْري أَنَّ هذه الحمـولَـةَ لمَنْ ؟ قال : لا . فقيل : هي لفـلان . فذُكـر رجلٌ أَعـزّ الخَلْق عليه ، وأَحبّهم إليه ، فهاج من حُبِّه في قلبه ما نَسَّى الدَّنانير والسيفَ ، وأَخـذَتْه من الحُرْمَةِ[6] لذلك الرجلِ والحَيَـاءِ ما لا يَجـدُ مِنْ نَفْسه تَـرْكَ حمولتـه

(١) ليلة شاتية : ذات شتاء وقر وبرد .
(٢) هاله : أفزعه وروعه .
(٣) الوهن : الخور والضعف .
(٤) القرن : الرأس .
(٥) الدابة الحرون : إذا كثر أن حرنت أي استدر جريها فامتنعت .
(٦) الحرمة : المهابة .

على قارعةِ الطريق حتى تَضيعَ ؛ فاحتملها بقوَّةٍ أشدّ من الأوَّلَيْن ، ونشاط وسرور ما لم يَعْلَمْ أنَّه عليه شيءٌ من الحمولة ؛ فهذا عَبْدٌ عَمل على حُبِّ اللَّه تعالى[1] ، فَبحبِّه اللَّه أَحَبَّ صاحب الحمولةِ ، فلا يترك نُصْحاً في ذلك العمل إلا بَذَلَه ، وأَشْفَقَ إشفاقاً يَصُونُه عن الإنكسار وعن صدوم[2] الآفةِ ، لِحُبِّ صاحبها .

فالأَوَّلُ يحملُها طمَعاً لتلكَ الدَّنانير ، فلا يكون له شفقةٌ على تلكَ الحمولةِ أَنْ يبلُغَ بها الموضعَ الذي أُشير له إليه ؛ وكذا الذي خُوِّفَ بالسيف إنَّما بالُه أَنْ يَبلغَ بالحمولةِ المكانَ الذي أُمر ، ثمَّ إنْ أَصابها في الطريق عَثَائر من صَدْمَةٍ أو تَغَيُّر حال لا يُبالي ، إنَّما بَالَى بحَمْلها مخافةً من السيف .

فالأَوَّلُ إنما بالُه الوصولُ إلى ما طمعَ فيه من النَّوال[3] ، وهذا الذي عَرَفَ لِمَنْ هذه الحمولة أَخذَتْه الشفقةُ على تلك الحمولة . فالأخيرُ حملها محبَّةً لصاحبها حتى احتملها إلى أَنْ يتوَقَّاها[4] من الآفات ، وإبلاغها إلى الأَصل .

والثاني إنما بالُه إبلاغُها إلى الأَصْل للثواب والنَّجاة .

وكذا عُمَّالُ اللَّهِ تعالى : منهم من يعمَلُ على الكَسَل والعَجْز على

(١) عمل على حب اللَّه تعالى : أطاعه فيما أمر به وانتهى عما نهي عنه . قال صلى اللَّه عليه وسلم في الحديث القدسي : « وما تقرب إليَّ عبد بأحب مما افترضته عليه . . » قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون اللَّه فاتبعوني يحببكم اللَّه . . ﴾ الآية

(٢) صدوم الآفة : الإصابة بها .

(٣) النوال : العطية .

(٤) يتوقاها : يصونها ويحفظها.

التجويز و « الشايذبوذ »[1] ، فإذا انْتَبَه للوَعْد والنَّوال جدَّ واجتهد ؛ فعنْدَ الإنتباه إنما بالُه الوصولُ إلى ما أُطمع ، وليس له شَفَقَةٌ على المحمل[2] .

والثالث عَمل على الحُرْمَة والشفقة على حقوقه ؛ فوقَاه العَثَار[3] ، وصدمات النفس ، وعملَهُ على الهَشَاشَة[4] والسماحة والانطلاق .

حال المشفق :

قال له قائل : صفْ لنا حالَ المُشْفِقِ في أُمورِه ؛ قد عرَفْنَا الصنفين ؛ فمَنْ هذا الثالث ؟ قال : هذا عَبْدٌ محِبٌّ لِرَبِّه ، فهو يتَحرَّىٰ[5] مَسرَّاته في الأمر ، كما رُوِي عن اللَّه تعالى أنَّه قال : يا عيسى ، أنْزِلني مِنْ نَفْسك كَهَمِّكَ ، وتَحَرَّ مَسَرَّتي في الأُمور .

فالمحِبُّ لربِّه إنما بالُه من الأُمور طلَبُ مَسَرَّاته ؛ ماذا يحبُّ رَبِّي من هذا الأَمْرِ ؟ وماذا يَسُرُّه ؟

فرح اللَّه بتوبة العبد :

ألَا تَرَىٰ إلى ما جاءَ عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنَّه قال[6] : لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَةِ العَبْدِ مِنْ أَحدكم ضَلَّت رَاحِلتُه عليها زَادُه

---

(١) كذا ورد بالأصول والمطبوعة .

(٢) المحمل : الحمل .

(٣) العثار : التعثر .

(٤) الهشاشة : الارتياح .

(٥) يتحرى : يقصد .

(٦) لأن رحمته سبحانه وتعالى سبقت غضبه .

وطعـامُهُ وشـرابُه في فَـلَاةِ[1] من الأَرْض ، فضَرب[2] يَمِيناً وشمـالاً في طلَبهـا فلم يَجدْهـا ، فوطَّن[3] نَفْسَـه على الموت ، وقـال : أَذْهَبُ إلىٰ ذلـك المكانِ الـذي ضلت فيه راحلتي ، فـرجعَ إليهـا فوجـدهـا قـائمـةً هناك .

ومن السرور بعبادِه يُبَاهِي[4] بعَمَلِ الآدَمِيّ للملائكة ، ويَفْتَخِـرُ به فيهم ؛ فيقـول : يا مـلائكتي ، انظُرُوا إلى عَبْـدِي ؛ فهو لفَـرَحِهِ بتَـوْبَةِ العَبْدِ وبأَعماله يُبَاهي به الملائكة .

ومـا جاءَ أَنَّـه يُبَاهي بـأَهْل عَـرَفـات ، ويقـول : عِبَـادِي جـاؤوني شُعْثاً[5] غُبْراً[6] من كلِّ فَجٍّ[7] عَمِيق .

فحقٌّ على مَنْ عَقَـل هذا أَنْ يَـطْلُب في الأُمور بجهـده مَسرَّاتِـه ، فيـطلب زِينةَ الأُمـور ؛ فإنَّ لكـلِّ شيء زينةً وكسـوة . وقد يـرى الأَشياءَ العارفُ كيف يتضاعفُ حُسْنُها إذا كُسِيَتْ وَزُيِّنَت وطُيِّبَتْ. والمُحبُّ لربِّه لا يَـرْضَى أَنْ يعملَ لـه على خُبْثِ النفس[8] والكراهـة والعُسْر والتثـاقل والنُّكْـر[9] والعُبـوسِ ؛ بـل يَتَـوَخَّى[10] في كـل أَمْـرِ التســارع والخِفَّـة والسَّبْق ، والهَشَـاشَة[11] والسَّمَـاحة ، والانـطلاق واليُسْر ، فـإنْ لم يجِدْ هذا في وقْتٍ عَظُمت عليه المُصيبةُ في ذلـك الوقت وعَـدَّه نَقْصاً عـظِيماً

---

(١) الفلاة : المفازة لا ماء فيها .
(٢) ضرب : سار .
(٣) وطّن نفسه على الموت : مهدها إليه .
(٤) يباهي : يفاخر .
(٥) شعثاً : غبر الرؤوس .
(٦) الغبر : من الغبار .
(٧) الفج : الطريق المهيع الواسع .
(٨) خبث النفس : لـؤم وسوء الطوية .
(٩) النكر : المنكر .
(١٠) يتوخى : يقصد .
(١١) الهشاشة : الارتياح والاغتباط .

دخل عليه، فينظر مِنْ أين جاءَ هذا ، فيحتال أَنْ يُنَحيِّه[1] ويَنْفيه .

أَلَا تَرَىٰ إلى قول ابْن عباس رضي اللَّه عنهما حيث جاءَ المُؤَذِّن ، فقال : الصلاة ! فقال ابنُ عباس رضِيَ اللَّه عنهما : إنَّ لنا شِـوَاءً[2] في التَّنُور[3] ، فإنْ تَنْتَظر لنا وإلَّا فاذْهَبْ فَصَلِّ .

فهـذا عَيْنُ ما قُلْنـا ؛ كره ابْنُ عبـاسٍ رَضِيَ اللَّه عنهمـا ، وعَـظُم عليـه أَنْ يُجِيبَ المؤذِّنَ إلى الصَّلاة ومعـه شَهْـوَةُ الشِّـوَاءِ ، فيـدخـل في الصلاة ومَعَه شَهْوَةُ الشِّواءِ ، فتَخْبُث عليه نَفْسُه في حالِ القيام بين يدي اللَّهِ تعالى ، ومُنَاجاتِه ، والعَرْض عليه ، وتسليم النفس إليه ، والاعتذارِ إليه من التَّقصير والهَفَوات ؛ فعَظُم عنده أَنْ تكونَ نَفْسُه في ذلك الـوقتِ تُزَاحِمه في شَهَـواتها التي قـد أَحسَّت بَنَوالهـا ، وأَشرفت عليهـا ؛ فكان الأَمْـرُ عنده أَنْ يسكِّنَهـا بما استَشْـرَفَتْ[4] له من الأَكْـلِ حتى يقـومَ بين يدي اللَّهِ تعالى ، وليس هنـاك مُنَازِع ولا مُـدَّعَىً شغَلَهُ عن أَمره ؛ فهـذه صَدْمة النفس .

وكذلك رُوي لنـا عن علي بن أَبي طالب رضي اللَّه عنـه أنه كـان يتعشَّى في رَبَض[5] قبل المَغْرِب . فإنما حمله على ذلـك فيما نَـرى ما وصفنا لئلَّا يدخلَ الصلاة ونَفْسُه تُنَازِعُه إلى العَشَاءِ .

وكذلك الذي فعَل ابنُ عباس رضِيَ اللَّه عنهما حيث اشترى رِدَاءً

---

(١) ينحيه : يبعده .

(٢) شواء : هو اللحم المشوي .

(٣) التنور : هو الكانون يخبز فيه .

(٤) استشرفت : أنافت وتطلعت .

(٥) الربض : مأوى الغنم ووردت رمضان في [ب] وهو تحريف خطير .

بـألفِ دِرْهَمٍ ، فكان يُصَلِّي فيـه تَوَخِّيـاً[١] بذلـك [٦٥] أَنْ يخفَّ عليـه الولاءُ كي لا تَعْجزَ النَّفْسُ عن الحمل الثقيل على النَّفْسِ .

وكذلك قيل للزُّبَيْرِ رضِيَ اللَّهُ عنه : ما بـالُكُمْ يا أَصحـابَ محمد صلى اللَّه عـليـه وسلم أخـفَّ النـاسِ صـلاَةً ؟ قـال : إِنَّـا نُبَـادِرُ الوَسْوَاس[٢] ؛ كـان رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليـه وسلم مِنْ أَوْجَزِ النـاسِ صلاةً في تَمَامٍ . حدثنا بذلك صالح بن محمد ، أَخبرنا أَبو عَوَانَة ، عن قَتَادة ، عن أنس بن مالـك رَضِيَ اللَّهُ عنه ، عن رسـولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

فهذا شَأْنُ أعمـال المحبِّين للّهِ تعالى في كلِّ أَمْرٍ مع الزينة والبَهَاءِ[٣] يطلب فيه محابَّ اللَّهِ تعالى في كـل وَقْتٍ من ذلك الفعـل ؛ لأَنَّه[٤] في كلِّ أَمرٍ له حقوق كثيرة ، فهو إنما يُشْفِق على تلك الحقوق لئلا يستخفَّ بها ، فيَعْمَله على التعظيم له ، وعلى السماحةِ بنفسه ، وعلى الـسَّعَـةِ ، وعلى توقِّي دُخولِ الخَلَل ، وعلى الـوفارة[٥] ، وتلكىء الإتمـام ، ومع هذا كلِّه قَلْبُه إلى مُوافقته هـل وافق مسرَّتـه ؟ وهل رَضِيَ بـذلك ؟ ومـع ذلك يعلمُ إن وَافَق ورَضِيَ به أنـه مع التقصيـر جدًّا يَسْتَحِي منـه جدّاً ، وأَنه عاجز أَنْ يَبْلُغَ مَدَىٰ ما هو أَهْلُه مِنْ ذلـك ، ولا يلتفت إلى ثواب في ذلك أَبداً ، وربما فتح عليه بابَ محبتـه ، لا أَعْنِي محبَّةَ العبدِ ، ولكن

---

(١) توخياً : قاصداً .

(٢) الوسواس : الشيطان الرجيم .

(٣) البهاء : الحسن والرونق .

(٤) لأن في [ب وج] .

(٥) الوفارة : التمام ، والوفرة .

محبَّةَ اللَّهِ تعالى ؛ فإذا فتح لكَ ذلك الباب كان في ذلكَ العملِ كالسابح في البَحْر الذي قد تَراءَى له[1] الساحلُ ، وقَرَّتْ عَيْنُه ؛ فهو يسبَحُ في نشاط وسُرُور بالساحل ، وهو يَضْطَرِب في ذلك الماءِ الصافِي .

فهذا العَبْدُ إذا هاجت منه تلك المحبةُ التي فُتِحَ له بابُهَا صَارَ يتَّقِد كالنارِ جَوْفُه ، فصبَّ عليه الرحمةَ صبًّا ، فهو يتقلَّبُ في بَرْد الرحمة ، قد أَصابه رُوحُها ورطوبتها ولِينُها ، وهو يَسْبَحُ فيها وقد شمَّ رَياحِينَ الياسمين والبساتين التي على الساحل ؛ لأَنَّه يَسْبَحُ إليها فيتلقَّاها فيشمُّها .

مثل عمال اللَّه

مَثل عُمّال اللَّهِ تعالى مثلُ ملك قطع قَطِيعةً من الأَرض ، وأَمر الفَعَلَة أَنْ يَبْنُوا له قصراً ذا بُيُوتَات[2] ومَساكن ، ومجالس وبَساتين ومُتَنَزَّهاتٍ وَجَدَاول[3] ، يطَّرِدُ فيها الماءُ في تلك المجالس والمُتنزهات ، فمِنْ شأْنِ هَؤُلَاءِ أَن يكونَ لهم فيما بينهم مُدَبِّر لأَمْرِ هذا القصر ، ومُقَدِّر لكلِّ شيء منه ، فيرفَع فيها بيوتاتٍ للصيف ، ومساكنَ للشتاءِ ، ومجالسَ للربيع ، وبساتين للنُزْهَة ، والجداول المطَّردة في خلال هذه المجالس والنزَه . وهذا أُستاذهم ومِنْ بَعْدِهِ مَنْ يَهْتدي للبناءِ

(١) تراءى له الساحل : ظهر له .
(٢) بيوتات : جمع بيوت فهو جمع الجمع .
(٣) جداول : جمع جدول وهو النهر الصغير .

فَيَبْنِي . ومِنْ بَعْدِه تلامذة يَقْتَفُونَ[1] أَثَره ، ويعملون على إشاراته . ومِنْ بَعْدِه النَّقَلَةُ إليه مِنَ الطِّين واللَّبِن ، وما يحتاج إليه .

فإذا اسْتَوَىٰ خرج إلى المُدَبِّر آخِرَ يَوْمِهِ عشرون دِرْهماً ، وإلى الثاني الأُستاذ عشرةٌ ، وإلى التلامذة خمسة خمسة ، وإلى مَنْ يَنْقُل الطِّينَ على عاتِقِه دِرْهمان ، وإلى الآخرين درهماً درهماً .

فأَهلُ التَّعَب والنَّصَبِ[2] وشدةِ الأَعمال أَجْرُهم دِرهمان ونحوه ، والمُشِيرُ برأْسِه ويَدِه أَجْرُه عشرةُ دراهم ، والمُقَدِّر المَدَبِّر أَجْرُه عشرون درهماً ، ولولا المُدَبِّرُ لبطلَ العَمَلُ كلُّه ، ولولا الثاني الأُستاذ لنقص أَمْرُ المدَبِّر ؛ لأَنَّ هؤلاءِ الآخرين لا يتوجَّهُون للبناءِ وإن دُبِّرَ لهم[3] ، وقُدِّر لهم ؛ فهؤلاءِ أجورُهم أكثر وَأَوْفَر[4] ، وتعَبُهم أَقَلُّ .

بساط الربوبية وبساط العبودية :

وكذلك عُمَّالُ اللَّهِ ، بسط لهم من باب القُدْرَة بِساطَ الربوبية وبِساط العبودية[5] ؛ فأَعْلَمَهم بشأْن هذين البِسَاطين ، فأَكثَرُهم مطالعةً ومُلاحظة أعظَمُهم قَدْراً عند اللَّه تعالى ، وأَقْرَبُهم إلى اللَّه تعالى وسيلةً ، وأَعظمهم أَجْراً .

الأنبياء أعظم أجراً :

ولذلك صارت الأَنبياءُ عليهم الصلاةُ والسلام أَعظَمَ قَدْراً ، وأَوْفَر

---

(١) يقتفون أثره : يتبعون سبيله ومنهاجه .

(٢) النصب : التعب .

(٣) دبر لهم : تهيأ لهم .

(٤) أوفر : أكثر .

(٥) العبودة بالأصل وهما بنفس المعنى .

حظًّا وأَجْراً ، ثم الأَوْلِياءُ مِنْ بَعدهم[1] ، وكلُّ نَبيٍّ أَعلمُ بما ذكرنا ؛ فهو أَقرَبُ إليه وأَكرَمُ عليه ، وأَحبُّ إليه ، وأَعظم أَجْراً . وكذلك كلُّ وليِّ من بعده ، لأَنه بالعلم والعقل يَعْظُمُ أَمْرُه ، وَيَعْرِفُ أَقدارَ الأُمورِ ، ويعرف الأَوقات ؛ فإِنَّ اللَّهَ تعالى خَلَق هذا الآدَميَّ ، فأَحياه بالرُّوح ، وفَضَّله على هؤلاءِ المسخَّرِين له من الدوابِّ والبهائم والطيور والوُحوش بهذا الروح .

تفضيل الموحدين :

ثم فضَّلَ الموحّدين مِنْ بَيْنِهم بَمَنّهِ العظيم بنُورِ التوحيد ، فأَحْيا قُلُوبَهم بالحياة حتى عَرفوه وَوَجَدُوه ، فأَوْفَرُهم حظًّا من الحياة ، ومِنْ علم التوحيد أَعلَمُهم[2] بالعبوديّة ، وأَكْيَسهم[3] فيها ، وأَشدهم قِياماً على الساق ، وأَصغاهم أُذُناً إلى أَمْرِه ، وأَكثَرُهم ملاحظةً إلى تقديره وتَدْبيره ، وأَجْهلُهم به أَعْجَزُهم عن ذلك .

القلب يدعو إلى اللَّه والنفس تدعو إلى الشهوات :

فالقَلْبُ بما فيه من كُنوزِ المعرفة يَدْعُو إِلىٰ اللَّهِ وطلبِ رضْوانه ؛

---

(١) وهنا يقول الحكيم الترمذي : «ثم الأولياء من بعدهم » فهو لا يعطي الأولياء رتبة فوق الأنبياء كما قال أعداؤه وطاخوه بهذا المنكر وقذعوه بالكبائر ، إنما يعترف هنا بصريح النص بأن للأنبياء رتبة فوق رتبة الأولياء . رحمه اللَّه وأكرم مثواه .

(٢) لأن الحظ الأوفر والنصيب الأكبر لمن عبد عن علم ، فلا كرامة للعابد الجاهل لأن خطره أكثر وشره مستطير ، إذ أن الشيطان كثيراً ما يتلاعب بهواجسه ويصول ويجول في عقائده وهذا أخطر ما في القضية وفضل العالم وكرامته أعظم وأجل من العابد الجاهل وهذا مما لا يخفى على ذي فهم وحكمة .

(٣) أكيسهم : من الكياسة وهي الفطنة والذكاء .

والنفْسُ بما فيها من الهَوَى تدعو إلى الشهوات ولذاتِ الدنيا ، وهي الفانِية ، التي تُوجِبُ عليك غداً الحسابَ الثقيل ، والحَبْسَ الطَّويل ، والسؤالَ المَهِيل[1] ، فمَنْ قلَّت كُنُوزُه استولت النَّفْسُ على قَلْبِه ، ووهَّنت[2] إمْرَته ، وأخذت بعِنَانه فسبَتْهُ[3] ، فبينما هو أَميرٌ إذ هو أسير في يدي الخارجِيّ ؛ فعندها يعطَّلُ التدبير ، وخَرِبَتْ الكُورَة[4] ، وضاعت الرَّعِيَّة ، فبَانَ العِلْم .

وإن النفس محتاجة إذ كانت بهذه الحال ، والقَلْب قَلِيل الكنوز ؛ وإذا قلَّت الكنوزُ قلَّت الجنود ، وتفرَّقَ الحُرَّاس ، وضاعت السياسةُ ؛ فالنَّفْسُ محتاجةٌ إلى أن تشتغِلَ بالأعمال المُتْعِبةِ الشاغلة لها حتى لا تَصِلَ إلى الفساد .

فلو أنَّ هذا الأميرَ عرف أنَّ هذا الخارجيَّ ممن لا يُؤْمَنُ خروجُه عليه وهو في جوَاره وبَلْدَتهِ ، فأخذ الأَمْرَ بالحَزْمِ ، فعمد إلى كلِّ مَنْ يجالسه ويَثِقَ[5] به ، ويستظهر[6] به ، فحالَ بينه وبينه ، وعَمد[7] إلى أسلحته فأخذها منه ، وقلَّده أموراً أتْعَبه فيها ، وشَغَله عن الفِكْر في ذلك الأَمْرِ الذي يَتخوَّفُ منه ، فكذلك عامِل اللّه إذا لم يفتح له الباب فيُطالع ، فيكثر كنوزه ، ويَجِمُّ[8] عِلمُه باللّه ، وخاف نَفْسَه أَنْ تَخْرُجَ

---

(١) المهيل : من هال الشيء أي صبه .
(٢) وهَّنت إمرته : أضعفت شأنه .
(٣) سبته : أسرته .
(٤) الكورة : الصقع أو المدينة .
(٥) ويثقوا [ب وج] .
(٦) يستظهر به : يقوى به .
(٧) عمِد إلى الشيء : قصد إليه .
(٨) يجم : يكثر .

عليه . كما وصفنا من أَمْر الخارجيّ الذي يَشْتَهي الإِمْرَة .

فمن الحَزْم أَنْ يَقْطعَ عنه الشهواتِ ، وأَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ كل شَيْءٍ من أُمور الآخرة يحملُ عنه[1] الهوى أَنْ ينتقلَ عنه إِلَىٰ ضِدِّه مما ليس له فيه هَوىً ؛ لأَنَّ الطاعاتِ كثيرة ؛ فرُبَّ طاعة تَمْلِكُه حلاوَتُها ، فتصير هوىً ، فينتقل إلى ما يَتْعَبُ فيه ، وليس لَهُ فيه هَوىً ؛ وأَنْ يتعبه بالغُموم والهموم حتى يُنَغِّص عليه عَيْشَه الذي استطابَتْهُ نَفْسُه بلَهْوِها ولَعِبها وبطالتها ، فإِنْ فتح له صار مَلِكاً من الملوك الذين بالكنوز والهدايا والفوائد التي تأْتيه مِنْ رَبِّ العالمين ، وإِن لم يفتح له فأَجْرُ تَعبه عند المَليِّ[2] الوفيِّ الوَاجِد ؛ الواحد بعشرة ، والواحد بسبعمائة ، والواحد بالأَضعاف الكثيرة ، ونَفْسُه ذَليلةٌ مقهورة في ذلك التَّعَب والنَّصَب [٦٦] .

فبَنُوا إِسرائيل حظُوظُهم من الله تعالىٰ كثيرة ، وهذه الأُمَّةُ أَوْفَرُ حظّاً ؛ وذلك قوله تعالىٰ[3] : ﴿ قُلْ إِنَّ الهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكم عِنْدَ رَبِّكم ﴾ .

ورُوِيَ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : ما أُعطِيَتْ أُمَّةٌ من الأُمَمِ من اليقين ما أُعطِيَتْ أُمَّتِي[4] .

وكذلك عن عيسىٰ عليه السلام أَنَّه قال في هذه الأُمَّة ؛ فلذلك

---

(١) يحمل عليه الهوى في [أ] .

(٢) الملي : الغني المقتدر .

(٣) آل عمران (٣/٧٤) .

(٤) الحديث رواه الحكيم عن سعيد بن مسعود الكندي ، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٢/١٤٣) ط. العلمية .

صارت بنو إسرائيل في شدَّةٍ من الأعمال ، وتَعَبٍ من الأذكار ؛ فكانوا يلبسون المُسُوحَ[1] ويُجِيعونَ البُطُونَ ، ويلزق أَحدهم التَّرقوة فيَشدّها بسلسلة إلى سارِيةٍ[2] يَتَعَبَّدُ لِلّه ، وإذا أذنب أَحَدُهم أَصبح مكتوباً على بابه : عقوبةُ خَطيئتك أَنْ تَقْطَعَ أُذُنَك[3] ، أو عُضْواً من أَعضائك ، وإذا أَصاب أَحَدَهم بَوْلٌ أو نَجاسة لم يَطْهُرْ حتى يَقْرِضَه بالمِقْراض[4] ؛ وصدقتُهم تُقْبَلُ بنار القُرْبَان ، وعليهم من الآصار[5] والأَغْلَال والتحريم ما تَقْشَعِرُّ منه الذَّوَائب والشُّعور ، وقَتْلُ النفوس عند عبادة العِجْل .

وهذه الأُمَّةُ توفَّرت كُنُوزها ، وجَمّت[6] علومُها بالله تعالىٰ بفَضْلِ يَقينها ؛ فخُفِّفَ عنهم الآصَار ، وأُطلِقُوا من أَغْلالٍ كثيرة ؛ اكتُفي من العامة بالاستغفار ، وستر عليها الذُّنوب ، وجُعلت التوبةُ منهم إلى الله لا إلى عقوبةِ الأَجساد ، فقال لأُولئكَ[7] : تَوْبَتُكم إلى بارئكم مِنْ عبادة العِجْل أَنْ تَقْتُلُوا أَنْفُسكم ؛ وقال لهذه الأُمَّة[8] : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وقال للنَّصارى ، وهم من أُولئك الصنف حينَ قالوا : المَسِيحُ ابنُ الله والثالث[9] ثلاثة[10]: ﴿ أَفَلَا

---

(١) المسوح : بكسر الميم جمع مسح وهي ثوب من الشعر الغليظ .
مختار الصحاح ص ٦٢٤ وتاج العروس .

(٢) السارية : الاسطوانة .

(٣) وهذه من الأمور البدعية التي تحدث عنها الحكيم الترمذي (رحمه اللّه) في مقام التنديد .

(٤) المقراض : القاطع الذي يقطع به .

(٥) الآصار : جمع إصر وهو الذنب .

(٦) جمت : بتشديد الميم كثرت ، قال تعالى : ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أي كثيراً .

(٧) سورة البقرة (٢/٥٤) راجعها .

(٨) الأنفال (٨/٣٨) .

(٩) كذا وردت في [ب] و[ج] .

(١٠) سورة المائدة (٥/٧٤) .

يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرونَهُ ، واللَّهُ غَفُورٌ رحيم ﴾ .

فجعل تَوْبَتهم بـافترائهم عليـه الاستغفار ؛ لأنّـه في وَقْتِ نَبيٍّ اللهِ محمد صلّى الله عليه وسلّم وفي زَمانِه ، فلم يَقْبَلْ ذلك منهم في ذلـك الـوقت عندمـا عَبَدُوا العِجْـلَ إلّا قَتْـلَ النفس ، وقَبِـلَ في هـذا الـزَّمَـانِ الاستغفار منهم مِنْ عبادتهم عُزَيراً وعبـادة النصارى المسيـح ، لأنَّ هذا وقْتُ إقبال اللهِ على هذه الأُمَّة وتَفْضيلهم باليقين والعلم بالله .

وقـال رسولُ الله صلّى اللهُ عليـه وسلَّم لمُعَـاذ رَضِيَ الله عنـه : أَخْلص يَكْفِكَ القليلُ مِنَ العَمَلِ .

فإنَّما دَعَاهُ إلى الإخلاص لِلَّهِ قَلْباً وقَوْلًا وفِعْلًا ؛ فقليلُ العمـل مِنْ مثل هذا يَأْتي على جميع العُمّـال[1] مِنْ سِوَاهُ ؛ ولـذلك قـال صلّى الله عليـه وسلّم : يا حَبَّـذَا يوم الأَكْيـاسِ وفِطْرهـم ، كيف يَغْبنُـون[2] سَهَـر الحَمْقَىٰ وصِيَـامهم ، وَلَمِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ صـاحب تَقْوى ويَقين أَفْضَـلُ عِنْدَ اللّهِ من أَمثال الجِبال عبادةً من الآخَرين[3] .

عمل هذه الأمة :

فهذه الأُمَّةُ بالقلوب تَعْبُدُ رَبَّها[4] ، وَتَأْخُذُ أَجْرَها .

عن سفيـان ، عن وَكِيع ؛ قـال : أَخبرنـا عبد الـوهاب ، أَخبـرنـا جُنَادَةُ عن رسول اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم ، قال : مَثَلُكم ومَثَـلُ اليهود

---

(١) كذا بالأصل ولعلها الأعمال .
(٢) يعيبون [ج] وهو تحريف من الناسخ .
(٣) الآخرين يقصد بهم من ليس عندهم تقوى ولا يقين .
(٤) لأن القلوب هي مستقر النيات ، ولا ثواب إلا بالنيّة .

والنَّصارىٰ كمثَل رجُل استعمل عُمَّـالاً ، فقال : مَنْ يَعْمَـل لي مِنْ صَلَاة الصبْح إِلَىٰ نصْفِ النهار على قيراط قيراط ؟ أَلَا فعملت اليهود .

ثم قـال : مَنْ يعمل لي مِنْ نِصْف النهـار إلى صلاةِ العَصْـر على قيراط قيراط ؟ أَلَا فعملت النَّصارىٰ .

ثم قـال : مَنْ يَعْمَـلُ لي من صـلاة العِصْـرِ إِلَىٰ المغـرب على قيراطين ؟ أَلَا فأَنْتُم ! أَلَا فَأَنْتُم !

فغضبت اليهـودُ والنَّصـارىٰ ؛ فقـالت : نحن أَكْثَـرُ عَمـلاً وأَقـلُّ عطاءً .

فقـال : ظلمتكُم مِنْ حقِّكم شيئاً ؟ فقـالوا : لا . قـال : إِنَّما هُـوَ فَضْـلي أُوتيهِ من أَشَاءُ .

ورُوِي عن رسـولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّـه قال : وَفَّيْتُم[١] سَبعين أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُها وأَكْرَمُها عَلَىٰ اللهِ تعالىٰ .

ورَوى مُعَاذ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عنـه ، عن رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال ، وهو مُسْنِدٌ ظَهْرَه إِلَىٰ الكعبـة : فأُمَّتي تُـوَفَّى سبعين في أَجْرِها وخَيْرِها .

مثل الحمد للموحّدين

مَثَلُ الحَمْدِ للموحّدين مَثَلُ رجُلٍ يَأْخُذُ من حَرِيفِه[٢] من حـانُوتـه

---

(١) راجع سنن ابن ماجة (١٤٣٣) .

(٢) الحريف : المعامل ، جمعه حرفاء .

الشيءَ بعد الشيءِ ؛ فإذَا اجْتَمَعَ شيءٌ أَدَّى وأَخَذَ بعد ذلك حتى تَخِفَّ عنه أثقالُ الدَّيْن ، فإذا لم يُؤَدِّ ، واجتمع المَأْخوذُ ، وَتَرَاكَمَ عليه الدَّيْن واقْتُضِيَ فلم يُوجَد يُوشِكُ أَنْ يَقْطَع عنه ما كان يُعْطى ، ويقول صاحبُ الحانوت : أَدِّ ما اجتمع وخُذْ ما بَقِيَ ، فيردّه خائباً ، ويقطع عنه .

فأَسبغَ اللَّهُ تعالىٰ النِّعم ؛ فلو ذهبنا نَعُدُّ نِعَمه لم نُحْصِها ؛ ولذلك قال اللَّهُ تعالىٰ[1] : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوها ﴾ . ثم قال : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

فَأَهْلُ رَحْمَتِه هم الذين عصَمهم اللَّهُ من الاختلاف ، وقَصَدُوا بقلوبهم عِبَادَةَ خالِقِهِم وَرَبِّهم ، ولم يلتفتوا إلىٰ معبودٍ غيرِهِ ، قال الله تعالى[2] : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلَفين * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلكَ خَلَقَهم ﴾[3] .

قوله : خَلَقهم ؛ أي خلقهم للرَّحْمَةِ .

---

(١) النحل (١٦/١٨) .

(٢) هود (١١/١١٨ ، ١١٩) قال الطبري : « وأولى القول بالصواب قول من قال : وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، لأن اللّه ذكر صنفين من خلقه : أحدهما أهل اختلاف وباطل . والآخر أهل حق ، ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ فعم بقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ صفة الصنفين ، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميسر لما خلق له . . فمعنى اللام في قوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ بمعنى « على » كقولك للرجل : أكرمتك على برك بي ، وأكرمتك لبرك بي » .

تفسير الطبري (١٢/٨٤) بتصرف وزيادة .

(٣) ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ أي على أديان مختلفة شتى، إلَّا من أدركته رحمة اللّه سبحانه وتعالى بالهدى والإيمان والاستقامة، وقيل مختلفين في الرزق بين الفقر والغنى ، وبين الشره والقناعة ، فكم من غني يشعر النقص والاستزادة ، وكم فقير عزيز النفس يشعر بالعزّة ، وهذا كله من قدر اللّه سبحانه وتعالى ومحال أن يفلت إنسان أو مخلوق من قدر اللّه سبحانه وتعالى .

فلما خلقهم للرحمةِ أَعطاهم ثَمَنَ النعمة ، وهو الاعتراف بأنَّ النِّعَم كلَّها من اللَّه تعالى ؛ وذلك كلمةُ الحمد ؛ فصيَّر توحيده في كلمة (لا إلَه إلاَّ اللَّه) ، وتنزيهه في : (سبحان اللَّه) ، وتعظيمه في : (اللَّه أكبر) ، وشكر نِعَمه في (الحمد لله) .

حدَّثنا سُليمان بن العباس الهاشمي ، أَخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن قَتَادة ، عن عَبْد الله بن عَمرو ، قال : قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : رَأْسُ الشُّكْرِ الحَمْدُ للَّه ، وما شَكَرَ اللَّه عَبْده إلاَّ بحَمْدِهِ ؛ فالشكرُ أَصْلُه في القَلْبِ ومعرفةُ العَبْدِ بربه أَنَّه لا شريكَ له ، وفَرْعُه على اللِّسَانِ ، وهو كلمةُ : لا إلَه إلاَّ الله ، وتحقيقُه في الطاعات ؛ فمن أكثر قَوْل (لا إلَه إلاَّ الله) فإنَّه يحطُّ خَطَاياه ، ومَنْ أَكثَرَ من قول : (الحمد للَّه) ، فإنَّه يحطُّ عن نَفْسه أثقَالَ الشُّكر ؛ فعلَّمنا ربُّنا هذه الكلمة ، فنردِّدُها على الأَلْسِنَةِ حتى نكونَ في مثالِ ما مرَّ بنا من المُثُل ، فنكون بمنزلة مَنْ يأْخُذُ من حَرِيفِهِ الشيءَ بعد الشيء ، فإذَا اجتمع أَدَّى قَليلاً قَليلاً ، ثم يترك الأَدَاءَ بِغَفْلَة حتى يَرْكَبَه الدَّيْن ، وَيَثْقُلَ عليه ؛ فيَعْجزَ عن الأَداءِ ، كما كان هاهنا إذَا اجتمع عليه الحِسَابُ ، وَتَراكَمَ ، فلم يَقْضِ انقطع ولم يُعْطَ النِّعم ، فإذَا تراكمت ولم يُوَاتر[1] العَبْدُ بكلمة الحَمْد لم يَأْمَن انقطاعَ النِّعم ؛ فرحِمَ

(١) يواتر : يتابع ويولي ويقابل .
وقد قال تعالى عز من قائل : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ إبراهيم (١٤/٧) .
راجع تفسير الإمام الطبري (٩/ ٧٠) .
ولو تأملنا الآية الشريفة لوجدناه سبحانه وتعالى جعل الكفر مقابلاً لكنود النعمة وغمط فضل الخالق على مخلوقه ، لأن الاعتراف بالمنعم وبفضله في إسداء النعم =

اللَّهُ العبادَ ، فأعطاهم هذه الكلمةَ ليخفِّفُوا عن أنفسهم أَثقالَ النِّعم ؛ ثم وُضِعَت لهم هذه الكلمةُ في صَلاَتهم عند رَفْع الرُّؤُوس من الركوع ، فيقول : سمعَ اللَّهُ لمَنْ حمده ؛ فصارَ هذا دعاءً مِنْ قائل هذا القولِ لِنَفْسِه ولجميع الموحِّدين ؛ لأَنَّ كلَّ مُصَلٍّ من الموحِّدين يقول هذا في صلاتِه من المفروض وغير المفروض ؛ فليست هذه كلمةً يَخُصُّ بها نفسَه ؛ وإِنَّما هي [٦٧] لكل مَنْ حَمده .

فأَوَّل مَنْ نطق بهذا الرسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عن تعليم جبريل عليه السلام إِيَّاه .

وَرُوِيَ عن رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه إِذَا قال الإمام : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، فقولوا : اللَّهُمَّ رَبَّنا لكَ الحمد ؛ فإِنَّ اللَّهَ تعالىٰ قال ذلك على لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمْ .

وكان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إِذَا قال : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ قال : اللَّهُمَّ رَبَّنا لَكَ الحَمْد . كَيْ لَا يُخْلي نفسه من مَقالة الحَمْد حتى يدخلَ في ذلك الدعاءِ .

واعلم أَنَّ هذه الكلمة قولُ اللَّهِ تعالى ؛ فما ظَنُّ مَنْ عقل هذا أَنَّ اللَّهَ تباركَ اسمُه يَدْعُو لعَبْدِهِ ؟ أَيْنَ محلُّ هذا الدعاءِ ؟ وماذا يخرج للعَبْدِ من هذا الدعاءِ ؛ ودُعَاءُ الربِّ أَن يسأَلَ بنفسه من نَفْسه للعَبْد ؛ وهو كقوله : إِنَّ اللَّه تعالىٰ يُصَلِّي على العباد . وقال اللَّه تعالىٰ في

= يجب ان يشغل خاطر وقلب المتنعم ، فإذا ما كندها وكفر بها فإن كفاءه وجزاءه العذاب الشديد .

تنــزيله(١) : ﴿ هُــوَ الَّــذِي يُصَلِّي عليكم وَمَــلاَئِكَتُــهُ لِيُخْــرِجَكُمْ مِنَ الـظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُـورِ وكان بـالمُؤْمِنِينَ رَحيماً ﴾ ؛ فـإِذَا قال : سَمِـعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، ثم حَمَدَهُ العَبْدُ فقد سبقت دَعْوَتُه للعبد ، وسمع ذلك له ، فقد أَوجب(٢) للعَبْد .

فهذه كلمة دقيقـةٌ خرجَتْ من اللهِ تعـالىٰ للعباد ، ثم خـرجت من الرسولِ صلَّى اللهُ عليـه وسلَّم مقالتُـه للعباد ، ثم خـرجت من الجميع بَعْضٌ لبعض ، فـإذا قال العبـدُ الواحـد : الحمد للَّه ، ثم ذَكَـرَ في هذا وَجَدَ اللَّهَ قد قال له : سَمِعَ اللَّهُ لَهُ،وَوَجَدَ الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد قال : سَمِعَ الله،وَوَجَـدَ جَمِيعَ الموحِّدِين قد قالوا ، فعَظُم شأْنُ هـذه الكلمة .

مثل عبد دعاه مولاه فوكله بعمل له

مَثَلُ عَبْدٍ دَعَـاهُ مولاه فـوكله بكرْمٍ لـه أَنْ يحفَظَه عليـه ، ويَغرسـه وَيُسَرْقِنَه(٣) ، وَيَقْضب(٤) قُضْبَانه ، وفي وَقْت الثَّمَر يُورقـه ويَدْعَمـه(٥) ،

---

(١) الأحــزاب (٣٣/٤٣) ويصلي عليكم بمعنى يبــارك عليكم ويقــال : يغفــر لـكم ، وملائكته أي تستغفر لكم .

راجـع تأويـل المشكـل ص ٣٥٥ ، وتفسيـر غـريب القـرآن لابن قتيبـة ص ٣٥٠ بتحقيق السيـد أحمـد صقـر ط . العلميـة ، وتفسيـر القـرطبي (١٤/١٩٨) . ويقـول القرطبي رضي اللّه عنه : « الصلاة من اللّه على العبد هي رحمته له وبـركته لـديه ، وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين ، واستغفارهم لهم » ا هـ .

(٢) أوجب : أي عمل عملاً يوجب له الجنة أو أوجب له الجنة .

(٣) السرقين : الزبل .

(٤) قضبه : مثل قصبه أي قطعه وصرمه .

(٥) دعمه : مال فأقامه ، والدعامة هي ذلك الخشب الذي يعرش به .

وأعطاه كلَّ ما يحتاجُ إليه من القَوَائم والـدَّعَائم والْهَـرَاوَى[1] من البردِيِّ والأَبَـاءِ[2] والقَصَب والكَعْب[3] ، وأَداة العمـل ، وأَمْهَلَهُ في ذلـكَ مـا يُمْهَـل في مِثْلِه ؛ ثم طالـع أَمْرَه عنـد انقضاءِ المُهْلَة ، فـوجـد القُضْبَـان ساقطةً بـالأَرض ، والدَّعَـائم مسروقـة ، والقوائم مُنْجَـدِلة[4] ، والثِّمـار بعضُهـا محتـرقـة[5] من كثـرة الـوَرَق ، وبعضهـا عَفِنَـة من سقـوطهـا بـالأَرض ، وقد تـركَ الآلةَ والأَداة ، وأَمهـل نَـوْبَتَهـا[6] في السَّقْي حتى عطِشت ، وترك تَقْضيبها حتى ذهبت قُوَّتها ، فمولاه إذَا رأَى الكَرْم هكذا فمـاذا يَلْقَاه من الجنـايـة ؟ ومـاذا يتـوقَّـع من العقـوبـة التي أَوجب على نفسه .

فـالتعريشُ القِيـامُ بأَداءِ الفـرائِض والحِفْظِ عليها ؛ ، ليكـونَ ذلـك بوضوءٍ سابغ[7] وحِفْظِ الحدود والأَوقات ، وكذلك في الصـوم ِ في كفِّ السمع والبَصَر والجَوَارِح[8] السَّبْع .

والسَّرْقَنَةُ : سُنَنُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أثر الفرائض تقوية لها . والسَّعْيُ العلمُ الذي يَهْـديه الأَشْيَـاءَ . وتَقْضيبهُ رَمْيُ الفُضُـول من الكـلام والـطعـام والحُـطَام . وتـوريقـه تَـرْكُ الالتفـات إِلَىٰ الأَعمـال . وتَدْعيمُه كثرةُ الذِّكْر . وقوائِمهُ حسنُ النيّة والصِّدْقُ في المقاصد .

---

(١) الهراوة : جمعها الهراوى وهي العصا .
(٢) الأباء : البردية ، أو هي من الحلفاء ، والقصب .
(٣) الكعب : ما بين أنبوبتي القصب .
(٤) منجدلة : واقعة على الأرض .
(٥) كذا ورد بالأصول .
(٦) أمهل نوبتها : أخر دورها ، وأجل فرصتها .
(٧) سابغ : كامل تام مصتم .
(٨) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو وجمعه أعضاء .

مثل قوي القلب في الأعمال والأقوال وملكها

وَمَثَلُ قـويِّ القلب في الأعمـال والأقـوال وملكهـا كمثَـل هؤلاءِ الملوك ؛ فَمَلِكٌ لـه سلطانٌ على قَـرْيـة ؛ وعلى قَـدْرِ ذلـك كنـوزُه ، وجنودُه ، وعُدَّته ، ونَفَاذُ أمره ، وجوازُ قَوْلِه ، وَهَيْبته .

وَمَلِكٌ له سلطانٌ على خُرَاسَـان أجمع على قَـدْرِ كُنُوزه وجُنُـوده ، وهَيبَته ، وخَوف شاكِرِيَّته[1] وَرَعِيَّته منه .

وملك ملكَ المَشْـرِقَ والمغـرب ؛ فملوكُ الأرْضِ كـلُّهم تـحت يَدِهِ ، وعلى قَدْرِ مَمْلَكَتِهِ سلطانُه ، وكنوزُه ، وجنودُه ، وهيبَتُـهُ ، وخوفُ شاكِرِيَّته والناسِ منه ، فنلحظه تُضْرَب بأمره الأعناق ، وتُسْفَكُ دماءٌ .

فالقلبُ مَلِكٌ على الجوارح له كنوزٌ ، وجنودٌ ، وسلطان ، وَمَهَابَـةٌ ونفـاذ أمْرٍ ، فَـأَعظَمُهُم مملكـةً أهْيَبُهم ، وأحرزهم قـولاً ونفاذاً ، وإنمـا تملكُ القلوبُ نفـوسَهَا وهي دُنيـاها العـرِيضة ، فَـإذا ملك القَلْبُ بعضَ النَّفْسِ ولم يملكهـا كلَّها كـان صاحبَهـا مـع تخليط ؛ تَـزِلُّ قَـدَمٌ وتثبتُ أُخرى ، وإذا مَلَكَها كلَّها كان بمنـزلة مَنْ مَلَكَ الـدنيا شَـرْقَهَا وَغَـرْبَهَا ، وخضعت له الملوكُ ، وصاروا مِنْ تحت يَدِهِ ؛ فالقَلْبُ إذا كثُـرَتْ كنوزُه كثرت جنودُهُ ؛ فكنوزُهُ العلمُ باللّهِ ، والمعرفةُ للّهِ ؛ وجنـودُهُ الخوفُ من اللّهِ ، والخشيـةُ للّه ، والحياءُ من اللّه ، والتعـظيمُ للّه ، والتسليمُ لأمـر اللّه ، والانْقِيَادُ لحكم اللّه ، والثقةُ باللّه ، وحُسْن الظَّنِّ باللّه ، والتوكُّلُ على اللّهِ ،والـطمـأْنينـة إلى الله ، وحبُّ اللّهِ قـد استـولى على جميـع

---

(١) الشاكري : الأجير .

هذه الأشياءِ ؛ فهذه كلُّها جنودُ القَلْبِ اجتمعت على عَسْكَرِهِ في صَـدْرِهِ من العلم به ؛ فالمعرفةُ كَنْـزُ القلْبِ ، والنفْسُ سفينةُ الكَنْـزِ في بَحْرِ اللّهِ الأعـظم ؛ فَإِذَا أَثْنَى العَبْـدُ على رَبِّهِ ، أو مَـدَحَـه ، أو دَعَـاه بـاسْمٍ من أَسْمَائِه ، فإنما يُخْرِج كلمتَه مِنْ فِيْهِ على قَدْرِ سلطانِهِ من القَلْبِ ومملكة القلب .

وكذلك أعمال أَركانِهِ فإنما يصعَد ما يَخْرُج منـه إلى اللّه على قَدْرِ قُوَّته في مملكته وسلطانه .

مثل الهوى اذا ما زج العقل في أمر واحد

مَثَـل الهَـوَى إذا مَـازَجَ العَقْـلَ في أَمـر واحـدٍ كمثـل مـاءٍ صـاف كالطَّلِّ(١) في الصَّفَاءِ ، مَازَجه(٢) ماءٌ مِن مِيَـاهِ الأَنهار ؛ ففي ذلـك الماءِ تَرَى الأَشياءَ كُلَّها كالمِـرْآةِ إذا نَظَرْتَ فيهـا ؛ وفي ماءِ الأنهـار لا يرى إلا الخيـالُ ؛ أمير بسط عَـدْلَـه في رعيتـه ، ودَبَّـرَ سلطَانَـه ، فـأَعَـدَّ سِجْنَـاً وعُقُوبات لمن خَلَع يَدَهُ عن الطاعة ، وَفَرَّق أعمـالَهُ بين عُمَّـاله ، وَأَعَـدَّ حاجباً وخليفة وَمُرْتَزقة ، وأظهر كنوزَه وقُوَّته ، وأَمَر وَنَهَى ، وأعلم الرعيَّةَ أَنَّ من ائتمر بأَمْرِهِ فهو الوَجِيه(٣) عنده ، والخَطِير(٤) لَدَيْه ، المُثَاب على ذلك ، المقضيّ عنده حوائجه ، المتَّخذ لنفسه عنده قَدْراً ، حتى تـظهر عنده مرتبتُهُ . ومن لم يأْتمر بأَمْـرِهِ ، وَرَكِبَ هَوَاه خَلُق وَجْهُـهُ(٥) عنده ،

---

(١) الطل : الندى أو المطر الخفيف .

(٢) مازجه : خالطه .

(٣) وجيه : أي ذو حظ ووجاهة ورتبة .

(٤) الخطير : الذي له قدر وتكريم ومنزلة .

(٥) خلق وجهه وأخلق : بلي .

وبخس حظُّه ، وحُرِم ثوابه ، وحُطَّ قَدْره ، وبطلت رُتبتُه ؛ فظهر في رعيته إنجاز وَعْده ، ووصول وَعِيده إلى مَن استحقَّ ذلك ، وفي هذه الرعية طبقةٌ مُؤتمرون بأَمْرِهِ ، زائدون على مَا وَظَّف[1] عليهم من أمره ، ناصحون له ، قد شُغِفُوا به حبّاً ، وأعينُهُم مادَّةٌ إلى ما يأْمر ، وإلى ما يَقْضِي ، وإلى ما يُدَبِّر لهم ، حتى يتلقَّوْا تدبيره بالهَشَاشَةِ[2] ، ووُجُوهٍ مُتَطَلِّقة[3] ، وَأَفْعَالٍ سَمْحة ، ويتلقَّوْا أَمْره بالتعظيم ، ومع ذلك ينصحونَه في رَعِيَّته ، فينشرون محاسنَه وأَفْعَالَه وأخلاقَه ، وحُسْنَ معاملته بالرحمة ، ويُخْبِرون عن مُلْكِهِ وجنودِهِ وكُنُوزِهِ وَغِنَاهُ ، وَيَحُثُّون الرعيَّةَ على طاعته ، والحميَّة له ، والجدّ في أُمورِه ، والشفقة [٦٨] على أودّائه ؛ فهذه الطبقةُ أوجَهُهُم عند الأمير ، وأَعْظَمهُم قَدْراً لما أظهروا من النصيحة والحبّ له .

شأن الآدميين مع الله :

فكذلك شأْن الآدميين مع اللّهِ ؛ كان أَوْجَهِهم عند اللّه تعالى أشكرهم له ، وأكثرهم نَشْراً لمحاسِنِ أفْعاله وأخلاقه ، وأعلمهم بصفاته ، وأَغْزَرُهُم معرفةً به ، وَأَوْثَقُهم به ، وإنَّ اللّهَ تعالى أَظْهَرَ مُلْكَه ، وخلق في مُلْكه خَلْقَه ؛ ثم آتى كلَّ ذِي رُوح يتحرَّكُ في السموات ، وَيَدِبُّ في الأرْض ، على قَدْرِه مِنْ مُلْكِهِ بتلك الحياةِ التي جَعَلَ فيه ؛ فَمَنْ سار فيما أُوتِيَ من الملك بسيرته التي مثَّل له فقد تَوَاضَعَ لمُلْكِهِ ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ لمُلْكِهِ ، فَإذَا دُعِيَ يَوْمَ المَقْدَم عليه قَدم

---

(١) وظف عليهم من أمره : قدروه تقديراً .

(٢) الهشاشة : الغبطة والارتياح .

(٣) متطلقة : مبتهجة منشرحة .

عَلَى نُـزُل مُهَيَّأ[1] ، وَمِهَـادٍ كَرِيمٍ ، وتحيّـة ربّ العالمين ؛ وذلـك قولُ اللّه تعـالى[2] : ﴿ تَحِيَّتُهُم يَـوْمَ يَلْقَـونَـهُ سَـلَام ، وَأَعَـدَّ لهم أجْـراً كَرِيماً ﴾[3] .

من سار سيرة هواه :

وَمَنْ سـار فيما أُوتِيَ من المُلك بسيـرَةِ هَوَاه الـذي يَهْـوِي بـه في الشهـواتِ واللَّذَاتِ يميناً وشمـالاً فقـد تَكَبَّـر عَلَى مُلْكـه ؛ والتكبُّـرُ هـو المكابرة ، فما ظَنُّكَ بعَبْدٍ مَخْلوق مِنْ مَاءٍ مَهين في ظلمات الأَرْحَامِ بين اللحـوم والـدِّمـاءِ ، مَخْـرَجـه منهـا من طـريق الأحـداث والمَبَـالات ، والحَيْض والنِّفَـاس ، يكابِـرُ رَبَّه في كبـريائـه ، ويُعَـظِّم نَفْسَـه ، ويُهين حقَّه ، فإذا دُعِيَ يوم المَقْدَم قدم على نُزُل مُعَدٍّ قد أعَـدَّه مالـك ، ومهَّدَ الأمهاد فيه ؛ وَمَقَته رَبُّ العالمين .

العـاقـل والأحـمـق :

فالعاقِـلُ الذي أحْيَـا اللّهُ قَلْبَه نـظر ما أُوتِيَ من المُلْك على الـذي وضع بين يَدَيْهِ مِن الجَوَارِحِ السَّبْع ، ومِنْ دُنياه التي ملك عليها ، ومِنَ الأحوال ، فلم يستَعْمِله إلَّا فيما أُمر .

والأحمق الذي قد أَماتَتْ زِينَةُ الشهـوات وفِتْنَتُهَا قَلْبَـه نظر إلى مـا

---

(١) النزل : ما هيء للضيف من منزل أو نزل .

(٢) الأحزاب (٣٣/٤٤) راجع تفسير الطبري (٢٢/٣) .

(٣) تحيتهم يوم القيامة سلامٌ أي سلامة لنـا ولكم ، وتحيتهم يوم يلقـونه أي يلقـون ملك الموت ، فلا يقبض ملك الموت روح المؤمن حتى يسلم عليه .
راجع الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٩٩) بتصرف وزيادة .

قد أُوتِيَ من الملك ، فاستعمله في نَهْمَاته[1] فيما هوِيَتْ نَفْسُه ، فخاب عن وَعْدِهِ ، وَخَسر مُهْلَته وعُمْرَه الذي أُعطي .

فالكيِّس[2] مِنْ جُنْد الأمير يقول للأمير : أنا أَسْعَى خَلْفَكَ سَعْيَ العَبيد ، فَإِنْ أَعْطَاهُ حمولةً فقال : اركب معي هابَ ذلك ، وقال : ما لي وللرُّكوب ! يَنْبَغِي أَنْ أَسْعَى خَلْفَه .

فَإِن قال له : اركَبْ بِأَمْرِي ، وانظر أَلَّا تركض رَكباً تتقدَّمني ، فإِنْ فعل ذلك أَهانه الملكُ وأَنزله وَرَدَّهُ إلى السَّعْيِ عَلَى قَدَمَيه ، وإِنْ حَفِظَ وَصِيَّتَه وَرَكِبَ وكان في آخِرِ الناس فلم يزل يتخطَّى المراتبَ بأَدَبه وكِيَاسته وظرافته حتى وصل إلى قُرْب الأَمِير فِي المركب ، فقال له الأمير : الْزَمْ هذا المَكَانَ في المركب مِنِّي ، كُنْ عَلَى قَفَايَ على أَثَر مَرْكِبي ، فهذا رجُل وَجِيه ذُو مكانة عند الأمير حتى إذا أُعطي المكان في المركب .

فالكيِّسُ من عُمَّالِ اللّهِ تعالى مَنْ سَعَى في الطاعات سَعْيَ العَبِيدِ ، فَلَقِيَ تَعباً وَأَذىً كثيراً ، وَمُقَاسَاةً في جَنْب المَوْلى ، واستقلَّ ذَلِكَ له ، فَأَعطاه نُوراً حتى صار قَلْبُهُ فارساً من فُرْسَان اللّهِ تعالى ، وَمَرْكَبه ذلك النورُ العَطَائِي ، فلم يَزَلْ في مَزِيد من رَبِّهِ نُوراً على نور حتى لحق ؛ وهو وُصُولُ العَبْدِ إلى مَلك المُلك بين يديه باب القُدْرَة .

---

(١) النهمة : الشهوة والحاجة ، وجمعها نهمات .

(٢) الكيس : الفطن العاقل الظريف .

مثل اثبات الرزق في اللوح

مَثَل إثباتِ الرِّزْقِ في اللَّوْحِ مثل أمير أعطاكَ خطَّة بِصَكٍّ[1] صَكَّهُ على نَفْسِهِ في شَأْنِ أَرْزَاقِكَ ، فَرَكَنْتَ[2] إلى ذَلِكَ منه ، فَإِنْ كانت أَقْلامُ رَبِّ العالمين جَرَتْ على قَضِيَّتك في اللَّوْحِ بالكائن ، وبأَرْزَاقِـكَ على صِفَـاتِهَا التي تـظهَرُ لـك في دُنيـاك ، أَلَا كـان الأَحَقّ والأوْلَى أن يكـونَ ركوبُكَ إلى ما جرت به أقلامُ ربِّ العالمين !

مثل الراغب في الدنيا

مَثَـلُ الـراغِبِ في الـدنيـا ، المُنْكَمِش فيهـا ، المتنـاوِل من كـل تخليط وَغَثٍّ وَسَمِين مثـل البَقَرَةِ الجَـلَّالة[3] تَـرَكَتِ المَرَاعِي الـطَّيِّبـة ، وأَقْبَلت على الجِلَّة[4] في المزابِلِ ، فـإِذَا كان لبن تلك البَقَـرَة مكروهـاً على أَلْسِنة العلماءِ ومعافى[5] على أَلسن الشارِبين فما ظَنُّك ؟

مثل القلب والنفس

مَثَـلُ القَلْبِ والنَّفْسِ مَثَـل ثَـوْرَين في نِيـر[6] يجـرُّهمـا إليــك ،

(١) الصك : هو الكتاب المكتوب في المعاملات .

(٢) ركنت إلى ذلك : سكنت إليه .

(٣) الجلالة : هي البهيمة تأكل العذرة .

(٤) الجلة : البعرة .

(٥) معافى على ألسن الشاربين : عافته أو كرهته الألسن فلم تشربه .

(٦) النير : هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين .

وأحدهما له سَمَاحَةٌ في التَّخَطِّي وَنَـزْع[1] في المشي ، يُعْطِي من نفسـه القوةَ الوافـرة . والآخر لـه بلادة في التخـطِّي وانتكاصٌ[2] في المشي ، وتراجع القَهْقَرى ، لَا يُعْطِي مِنْ نَفْسِـهِ القوةَ التي فيـه ، فصاحِبُـهُ مُبْتَلىً بـه ؛ إذ هما شَـرِيكان في العَمَـل ؛ فإنمـا ثَقُـل الآخَـرُ وتبلَّد أنـه مُحِبٌّ للراحةِ والتَّخلية في المَرْعى ، فيثقل لمفارقة الشهوة واللّذة والوقـوع في التَّعَبِ والنَّصَبِ .

فَمَثَلُ هذه النفس كمَثَـلِ هذا الثَّـوْرِ البليد الثقيـل ، والقَلْب خال من الشهـوات ، والنَّفْسُ مَعْـدِنُ[3] الشهـواتِ واللذات ، والقَلْب يَـطْلبُ رَبَّه ، والنفسُ تطلبُ شَهَوَاتها ولذَّاتها ؛فَمَثَل النفس كسفينة مشحـونة في نَهْرٍ شَدِيد الجَرْية[4] ، والسفينة في صعود تُجَرُّ جَـرّاً ، فكلما أُوقِـرت[5] السفينة كان جَرُّها أصعَبُ وأثقل .

فَمن أَحَبَّ أَنْ يَخِفَّ عليـه جَرُّهـا فليُخْلِ سفينَتَـه من الأشْجَانِ[6] بكلِّ ما يَقْـدِرُ عليه حتى يتـركَها خـاليةً من الأشجـان والأثقال ، فعنـدها تخِفُّ على مَنْ جَرَّها مُصْعِدَةً .

---

(١) نزع في المشي : اشتاق إليه .

(٢) انتكاص : من النكوص وهو الإحجام عن الشيء .

(٣) معدن الشهوات : أصلها .

(٤) الرجل الشديد الجرية : الجري ، وجدول شديد الجرية متدفق التيار من سرعة وقـوة جريانه .

(٥) أوقرت السفينة : ثقل حملها ، ويقـال أوقر الـرجل بعيـره أي حمل عليـه ، وأكثر مـا يستعمل الوقـر في حمل البغـل والحمار ، والـوسق في حمل البعيـر ، ويقال أوقـرت النخلة إذا كثر حملها ؛ فيقال نخلة موقرة ، وموقر .
راجع مختار الصحاح ص ٧٣٢ بتصرف .

(٦) الأشجان جمع شجن وهو الهم والحزن وتجمع أيضاً على شجون .

فـالنفسُ تجـري في أَمْـرِ اللّهِ مـع القَلْب فيمـا تَهْـوَى[1] النفسُ ، وتشتهي وَتَلْتَذُّ ؛ فالسفينَةُ المشحونَـةُ مُنْحَدِرَة ، فَـإِذَا جاءَهَـا أَمْرٌ لم تَهْـوَ ولم تَشْتَـهِ[2] صارت كسفينـةٍ مُوقَـرة مشحونـة مُصْعدة ، فهي تُجَـرُّ جَـرّاً بالرجال مع الأَنين والأَعناق والأَيدي المَكْدُودة[3] حتى تبلغَ المصعد .

مثل الدنيا وانخداع الأحمق بها

مَثَلُ الدنيا وانخداع الأحْمق بها كَمَثَل الصبيّ في المَهْدِ ؛ تُرْضِعه أُمُّه ، وتُسْدِل عليه[4] ذلك الغِطَاءَ ، وَتُرَجِّحه[5] وتُنَغِّمه[6] بِأَنواع الكلامِ حتى يَـذْهَبَ به النَّـوْمُ ، فَكَذَلِـكَ الدنيـا تُـرْضِعُـهُ حـلاوَتَهَـا وَلَـذَّاتها ، وَتُـطْبِق[7] عليها الهَـوَى ، وَتُتَابِـعُ عليها الأَمَـانِي ، وتطول لـه في الأَمَل حتى يَنَامَ عن الآخِرة ، فكلما ازداد أَمَلُه طُولاً كان أَثْقَلَ نَوْماً ، ثم سَقَتْـهُ شَرْبَةً في نَـوْمِهِ من ذلـك السم الناقـع[8] ؛ وهو حبُّ الـدنيا وشغـوفُه[9] بها ، حتى يَسْكَرَ من حلاوَةِ ذلك الحُبِّ ، فعنـدها يَغْلِي حِـرْصُه ، فهـو هلاكُ دِينه ؛ كما تَسْقِي هذه المـرضعةُ وَلَـدَهَا من هـذا « الأَفيون » حتى يَثْقُلَ نَوْمُهُ ، ويكون كالسَّكْرَان ، فَإِذَا لم تَطْبُخه بالسمن ، وَتَمْزِجه بسائر

---

(١) تهوى النفس : تحب .

(٢) تشتهي [بالأصول] وهو تحريف .

(٣) المكدودة : المتعبة المنهوكة .

(٤) تسدل سدولها : ترخي أستارها ، أو ثيابها .

(٥) ترجحه : من الترجيح وهو التذبذب ، وترجحت به الأرجوحة إذا مالت .

(٦) تنغمه بأنواع الكلام : تغني له .

(٧) تطبق عليها : تغطي عليها .

(٨) السم الناقع : البالغ السمية .

(٩) شغوفه بها : كلفه بها وتقادعه عليها .

الأدوية ، يَقْتُلُ الصبي .

ولـذلك قـال رَسُولُ اللّهِ صلّى الله عليـه وسلم(١) : حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي وَيُصِمّ .

فمـا ظَنُّـكَ بِمَنْ أَعْمَـاهُ حبُّ الـدنيـا وأَصمَّـه عن اللّهِ تعـالى وعن مواعظه ؟

وَرُوِيَ عنِ رَسُولِ [٦٩] اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم أنَّه قال : ما ذِئْبَـانِ جائعـان أُرْسِلاَ في زِرَيبـة غَنَمٍ بأَفْسَـدَ لَها من حِـرْصِ المرءِ في المالِ والشَّرَفِ لدينه .

مثل من يخلط أعمال السوء بأعمال البر

مَثَـلُ مَنْ يَخْلِطُ أَعمالَ السـوءِ بـأعمـال البِرّ مَثَـلُ مَن أهـدى إلى الملك مـائـدةً عليهـا أَلـوانٌ من الأَطعمـة من الـطُّرف(٢) من المـأكـول

(١) الحـديث : قال في المقـاصد : رواه أبـو داود والعسكري عن أبي الـدرداء مـرفـوعـاً وموقوفاً ، والوقف أشبه ، وفي سنده ابن أبي مريم ضعيف، ورواه أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه ، والرفع أكثر ، ولم يصب الصنعاني حيث حكم عليه بالوضع .
وقال العراقي : « إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحدٌ بالوضع أو بالكذب ، إنما سرق له حلي فأنكر عقله ، وقال الحافظ ابن حجر تبعاً للعراقي : ويكفينا سكوت أبي داود عليه ، فليس بموضـوع ولا شديـد الضعف ، فهو حسن » اهـ . والحـديث رواه أبو الـدرداء الخرائـطي في اعتـلال القلوب عن أبي بـرزة ابن عسـاكـر عن عبـد اللّه بن أنيس ، وقد ذكره بلفظه وتخريجه الإمام السيـوطي في الجامـع الصغير وحسنـه (١/ ١٤٦) .

(٢) الطرف جمع مفرده طرفة ، وإذا أطرفت فلاناً إذا اختصصته بعطاء .

والملبوس ، وفي خِلَالِ ذلك عَظْم المَيْتَة ، وخِرَق المَزَابِل[1] ، وَرَجِيع[2] الدوابّ ونحوها ؛ فلما وصل إلى الملك رَفَعَ الحاجِبُ المِنْدِيل ، فرآها بهذه الصِّفَةِ ، فَحجبه عن الملك ، ووضعه في الخزانة حتى يَأْتِيَ الوقتُ الذي يَدْعُو بها الملكُ ليَخْزِنَهَا ، فَإِذَا الحاجبُ أَخرج وَتُوضَعُ بين يَدَي الملك ؛ فكم مِنْ حياءٍ يَستحي ؟ وكم من خَوْف يَخَاف ؟

وَمَثَله أيضاً مَنْ يُهْدِي للملك قِلَادَةً[3] فيها يَوَاقيت وجواهرُ ، وَذَهَب وَلآلِىء وَزَبَرْجَد ، وفي خِلَالَها بلّورة ، وعِظَام الميتة ، والزجاج ؛ أَليس أنه قد أَذْهَبَ بَهَاءَ[4] جَوَاهِرِهِ ولآلئه ؛ كذلك هذا .

مثل من يقوم بأمر اللّه مخلصاً ، أو غير مخلص

ومَثل مَنْ يقوم بأَمْرِ اللّه وحقوقِه في الظاهر على هَوَاه ، وباطنُه مُنْعَزِلٌ ، وَمَنْ يَقوم بأَمْرِ اللّه لأَمْرِ اللّه ، كمثل عَبْدَين دَعاهُمَا المَوْلَى ، فوجَّههما إلى كَرْمٍ له لِيَسْقِيَاه ويُصْلِحاه ويَقُومَا بمصلحة هذا الْكَرْم ، فذهَبَا لذلكَ الأَمْرِ مسرعَيْن[5] كالسَّهم ، وفَعَلا ذلك ، فمَنْ رآهما نظر إليهما بعَيْنِ الطاعة وصحَّةِ العُبُودَةِ[6] ، فأَراد المَوْلَى امتحانَهما لِيَبْلُو[7]

---

(١) المزابل : جمع مزبلة .
(٢) رجيع الدواب : روثها .
(٣) القلادة : هي التي في العنق .
(٤) البهاء : الحسن والجمال .
(٥) وردت (مسرعاً) بالأصول والأصح ما أوردناه .
(٦) العبودة والعبودية بمعنى الطاعة والتسليم والإخبات .
(٧) ليبلو باطنهما : ليختبر مدى حسن طويتهما .

باطِنَهما ، فحضر الكَرْمَ فوجدهما في ظلالٍ بين الثِّمارِ والأَعْنَاب ، والوَقْتُ وقتُ الظَّهيرة ، فبعثهما إلى الحَصَادِ والدِّياس(1) ، فمرَّ أَحَدُهُما من ساعته مُسرعاً مُمْتَثلاً أَمْرَه . والآخر أَخذَ في التلكُّؤ والتَّغافُل ، فعلم مِنْ رَأْيهما بَعْدَ الامتحان أَنَّ ذلك الأَولَ مِمَّن أَطاع مَوْلَاه على الصَفَاءِ والإخلاص ، والآخر على هَوَى نَفْسِه ؛ فلما استقبله خلافُ هَوَاه ترك طاعتَه ، وَتَأَنَّى بالكسل والتثاقل ؛ فهذا تابعٌ هَوَاه .

فكذلك العَبيدُ عِنْدَ اللَّه تعالى : مَنْ عَبدَ اللَّهَ تعالى لِلْهَوَى وللنفسِ فيه نَصِيب يمرُّ فيه ، وإذا أتاه أَمْرٌ يَثْقُلُ عليه هَرَب منه ، وضيَّع الحقَّ ؛ فإذا أَتاه محبوب سارَعَ إليه ؛ فلا يكون هذا من المُحِقِّين أَبَداً .

مثل موسرين ينفق أحدهما فيما يهوى وينفق الآخر في وجوه الخير

مَثَل المُوسِرَيْنِ(2) أَحَدُهما يُنْفِقُ مالَه في هَوَىٰ نَفْسِه ، والآخَرُ يُنْفِقُ مالَه في وجوهِ الخير ، من إطعامِ الطَّعَام ، وصِلَةِ الأَرحام ، ومَصَارِف الحقّ ، وأَشباه ذلك ، مَثَل رَجُلَيْن دَعاهما الملك ، فأَوْدَع كلَّ وَاحدٍ منهما خزانةً ، فقال : أَمْسِكَا وَاحْفَظَا ، فَمَنْ جَاءَكُما بِرُقْعَتي(3) فأَعطِيَاهُ ما في الرُّقْعَة مقدارها ؛ وها هنا عَسْكَرَان : عسكري ، وعَسْكر العدوّ ، فإِيَّاكما أَنْ تَصْرِفَا شيئاً من هذا المال إلى عسكر العدو .

---

(1) الدياس : الدراس .
(2) الموسرون : جمع موسر وهو الغني .
(3) الرقعة : هي تلك التي يكتب فيها .

فذهب أَحدهما واستَعْفَاه[١] من قَبوله ، فلم يُعْفِه منه ، فقَبِله على ضـرورة ، وهو ثَقيـل عليه ؛ فكـلُّ من أَتاه بِـرُقْعَتِه أَدَرَّ عليـه ما تَضَمَّنَتْـه الرُّقْعَةُ مُغْتَنِماً لحقِّه حتى صَـدَرُوا إلى[٢] الملكِ حامـدِين له ، شـاكرين بباب الملك ، مُثْنين عليه ، نـاشرين عنـه جَمِيلاً ، ثم عمـد إلى صُرَّتـه فأنفق على ما فيه قوةُ عسكـر الملك ، فإذا قـدم للحسابِ قَـرَّتْ[٣] عَيْنُه بأَدَاءِ الأَمانة والامتثال لأَمْره[٤] .

وأَمَّا الآخَرُ فإنه لَمَّا قَبِل الوَدِيعة ، ذَهَبَ يفتخِرُ بها ، ويتطاوَل على نُـظَرائه[٥] ، ويُبَـاهي[٦] بها أَشكـالَه[٧] ؛ ثم أَخـذ يصرفُهـا إلى مَلَاهيـه وهَـوَاه وقَبيح عمله ، وأَنْفَـذها إلى عَسْكـر العَدوِّ ؛ فكـلُّ مَنْ عقل أَمْـرَه تعجَّبَ منه ، وبُهِتَ[٨] في أَمره بغَفْلَته وبَلَاهته وقُبْح عمله ، فإذا جاءَتـه رُقْعَةُ الملك دَافَع وسَـوَّف[٩] حتى رجع أَصحـابُ الرِّقَـاعِ[١٠] إلى الملك بهـا ذَامِّين له مُتَـذَمِّرين لفِعْله ؛ ثم لمـا صرفهـا في الوجـوه عمِد[١١] إلىٰ أَسلحـةٍ ودَوّابّ ، فأَنفـذها إلى عسكـر العدوِّ ؛ فـإذا قدم إلى الحسـاب سأله : ما صنعْتَ في وَدِيعَتنا وأَمـوالنا ومـواثيقنا ؟ لم يكن لـه جوابٌ إلَّا

---

(١) استعفاه : طلب إعفاءه .
(٢) يقال صدروا إلى فلان : إذا رجعوا إليه .
(٣) قرت عينه : اطمأن خاطره وسكن بلباله .
(٤) الامتثال : الاذعان والتسليم والاستكانة .
(٥) نظراء : أتراب وأمثال .
(٦) يباهي : يفاخر .
(٧) أشكاله : نظراؤه وأمثاله .
(٨) بهت : يقال فلان مبهوت أي مدهوش متحير ، مكسور في ذرعه .
(٩) سوَّفَ : أخر وأجل .
(١٠) الرقاع : هي تلك التي يكتب فيها جمع رقعة .
(١١) عمد إلى كذا : بكسر الميم أي قصد إلى الشيء ، وتقرأ أيضاً بفتح الميم .

أنْ يقول : صرفتُ أصحابَ الرِّقاع بِحِرْمانٍ تسويفاً ومُدافعة ؛ وصرفْتُ المالَ في الأسلحة والدوابِ لعسكر عَدوِّك ، فما له من الحساب !

مثل من يعظ القلوب الخربة

مَثَل مَنْ يَعِظ القلوبَ الخَرِبة[1] مثلُ رجلٍ عمد إلى خَراب قد تلزَّق عليه الدُّخانُ والغُبارُ ، واسوَدَّ من كثرة ذلك ، فكلما طيَّنَه[2] لم يَلْزَقْ به الطينُ ، وتساقَط ؛ فهو بَيْنَ أَمرين : إما أنْ يَحُكَّه أو يغسله حتى زال عنه ذلكَ الغُبار والدُّخَان حتى يَلْزَقَ به الطينُ ، فإنْ عجَزَ عن ذَلك وإلاَّ تَابَعَ الطِّينَ عليه ، فكلما تساقط ضَرَبه بآخر مرةً بعد أُخرى ، إلى أَنْ يَلْزَق ؛ فلا يزال يردِّدُ عليه ذلك حتى يزيلَ جميعَ ما كانَ عليه من الدُّخان بتَتَابُع الطِّين مرةً بعد مرة .

فكذلك القلوبُ التي قد رَانَتْ[3] من كثرة الذنوب ، إذا لاقت الموعظةَ تهافتت[4] عنها بمنزلة الجِدَارِ الذي مثَّلناه ؛ فإذا تاب العَبْدُ ، وفزِعَ من المعاصِي ، واستغفر فلاَقَتْهُ المَوْعِظةُ قَبِلَ القَلْبُ ذلك ، وأَقبل عَلَىٰ الطاعةِ ، ثم أَقبل بَعْدَ ذلك على حُسْن الطاعة ، فعَبَدَ اللَّهَ كأَنَّه يَرَاه ، فذلك منه الإِحسان الذي وصفه رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لجبريل صلوات اللَّه عليه حيث سأله عن الإِيمان والإِسلام والإِحسان ،

(١) القلوب الخربة : الفارغة ، وهي التي خوت وخلت من ذكر اللَّه لغلبة الغفلة عليها ، وطحن شهوات الدنيا لها .
(٢) طيَّنه : لطخه بالطين .
(٣) رانت : خيم عليها الرين وهو الطبع والدنس ، يقال : ران ذنبه على قلبه من باب باع ، وريونا أيضاً أي غلب .
(٤) التهافت والتقادع بمعنى أي تطايرت وابتعدت .

فقال : الإحسان أَنْ تَعْبُدَ اللّه كأَنَّكَ تراه .

فهذا القلبُ كجِدَارٍ غُسِل وطُيِّن ثم جُصِّص[1] ، فصار أبيض ، ثم يُنْقَش ويُطيَّب ، فصار مُطيَّباً منقوشاً .

فالقَلْبُ الْتَزَق عليه دُخَانُ الذنوبِ وغُبارها ؛ لقوله سبحانه وتعالى[2] : ﴿ كَلَّا ، بل رَانَ على قُلوبهم ما كانُوا يكسبون ﴾ .

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم[3] : إذا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْباً نُكِتَتْ في قَلْبِه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فإذا عاد نُكِتَتْ أُخرى ؛ فلا يَزَالُ كذلك حتى يسوَدَّ القَلْبُ ؛ ثم قرأ قولَه تعالى[2] : ﴿ كَلَّا ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلوبِهم ما كانُوا يَكْسِبُون ﴾ . فإذا تاب صُقِل القَلْبُ وأَضاءَ ، فإذا لاقَتْه الموعظة لاقت قَلْباً مصقولاً ، فصارت المَوَاعِظُ له عياناً كأنه يشاهِدُهَا بعيني الفُؤَاد ؛ مَا يُوصَفُ له ، فصار كالمِرآة إذا رِيْنَت[4] ؛ فما رآه فيها أَبصره كالخَيَالِ ، فإذا صُقِلتْ أَبْصَرَ فيها كلّ ما قابلها من شيءٍ خَلْفَ ظَهْره وبينَ يَدَيْه ، وأَبصر مِثالَ وَجْهه فيها ؛ فإذا قابلها بعَيْنِ الشَّمْسِ وقعَ ضوءُ الشمسِ في البيت الذي ليس للشمس فيه مَوْضِعُ إشراق ؛ وذلك لأَن النورَيْن إذا اجتمعا والْتَقَيا : نورُ الشمس ، ونورُ المرآة ، تولد من [٧٠] بينهما نُور ، فوقع في البيت المُظْلم ، فأَضاءَ .

---

(١) الجص : هو الذي يطلى به ، ومجصص أي مطليٌّ به .

(٢) المطففين (١٤/٨٣) قال الفراء : « كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بهم وحاصرت قلوبهم ، فذلك الرين عليها ، ويقال ران على قلبه ذنبه ، أي غلب » . راجع أيضاً مختصر ابن كثير (٦١٤/٣) .

(٣) راجع الجامع لأحكام القرآن (٢٥٩/١٩) .

(٤) رينت : غشيها الرين ، وران عليها .

فكـذلكَ القَلْبُ الـذي عليه رَيْنُ الـذُّنوبِ بمنـزلة المـرآةِ التي قـد صَدِئت ، فإذا فكَّرْتَ شيئاً من أُمور الآخرةِ لم يَتَراءَ[1] لك ؛ فـإذا صُقِل قلبُـك بالتـوبة والاستغفـار صار كـالمِرْآةِ المُجَـلَّاةِ[2] ؛ فـإذا فكـرت في سالف الذُّنوب ، وتراءَى لكَ قُبْحها ، فـاشتَدَّ عليـك ، وإذا فكرت فيمـا أَعَدَّهُ اللَّهُ لأَهِلِ المعاصي ذَكَّرَتْـكَ ، وأَرعَبتْ[3] قَلْبَك بتعـظيم ما تَمَثَّـلَ لَكَ مِنْ عقابه .

وإذا فكرت في دار المُطِيعين بَرِمْتَ[4] بالحياة شَوْقاً إلى تعظيم ما تمثَّل لكَ من كراماته لعبده .

وإذا فكَّرْتَ في العَرْض الأَكبـر هالـكَ[5] شأْنُـه ، وأَخذَكَ القَلَقُ ، وعمل فيك الحياءُ مِنْ رَبِّك .

وإذا فكرت في أَمْرِ الملكـوت عَظُمَ شـأْن العبودة[6] عنـدك ، فإذا لاحظتَ جلالَه وعظمَتـه صار صَـدْرُك بمنزلـة البيتِ الذي وَقَـع فيه نـورُ الشمس حيث قابَلْتَها بتلك المِرْآة ؛ فصار الصَّدْرُ منكَ ممتلئاً نُوراً ، قـد غابَ عنك في ذلك النورِ جميعُ ما تراءَى لكَ قَبْلَ ذلك في وقتِ فكرتك في أَمْرِ الجنة والنارِ ، وأَمْرِ الـذنوبِ ، وكـل شيءٍ سِوَاه ، وَلَهَـا[7] قلبُك

---

(١) لم يتراء لك : لم يتصد لناظريك لتراه .

(٢) المتجلاة [أ] .

(٣) أرعب : خوَّف .

(٤) برمت بالحياة : ضجرت منها واغتممت بها .

(٥) ما يهولك شأنه : ما يفزعك .

(٦) العبودة والعبودية بمعنى الطاعة .

(٧) لها : من اللهو أي سها .

عن ذلك كلِّه ، ووقع قَلْبُكَ في بِحَارِ العظمة ، فتقع في الوَلَهِ إلى اللَّهِ ، فإذا صار هذا القلبُ كجِدَارٍ غُسِلَ وَطُيِّن ثم جُصِّص ، فصار أبيض ؛ ثم نُقِش وطُيِّب فصار مطيَّباً منقوشاً ، فحينئذ أَقْبَل إلى الإحسان وعلى حُسْن الطاعة بأن يَعْبُدَ اللَّهَ كأنه يَرَاه ؛ فذاك منه الإحسانُ الذي وصفه رسولُ اللَّه صلى اللَّهُ عليه وسلم حين سأله جبريلُ عليه السلام .

مثل الدنيا مثل بحر عميق

مَثَل الدُّنيا مثل بَحْرٍ عميق كلُّ مَنْ دخله غَرِق فيه ، لأنه لاَ يَرَى ساحِلَه ، فإلى كم يَسبح ؟ فهو في السباحةِ حتى يَعْيَا[١] ، فيُلْقِي نفسه في التَّهْلِكَة[٢] ؛ ورُبّما هاج المَوْجُ فيغرق في تلك الأمواج .

فالكَيِّسُ[٣] مَنْ يُجَانِبُ البحر فهو في سلامة ومَأْمَن من الآفات إذا لزم السواحلَ والفُرْضَة[٤] . ومَنْ لَهُ حُمْقٌ دخلها من قلَّةِ المُبَالاة ، وترك السواحل ؛ فإذا هو هالك .

ومن كان قَوِيًّا في ذاتِ يَدِه ، هنيئاً مريئاً بآلاَتِه وأَدَواتِهِ ورِجاله وشُرُعه[٥] ودَيْدَبَانِه[٦] ، وهيَّأ السفينةَ[٧] فركب البَحْرَ في مركب لم

---

(١) يعيا : يعجز .
(٢) التهلكة : الهلاك والحتف .
(٣) الكيس : الفطن العاقل الظريف .
(٤) الفرضة : هي ثلمة في النهر يستقى منها ، وتقال لمحط السفن التي ترسو فيه .
(٥) الشرع : بالضم جمع شراع .
(٦) الديدبان : الحارس والرقيب .
(٧) هيَّأ السفينة : أعدَّها وجهزها.

يَضُره ؛ لأنَّ سفينته بعرض البحر وطوله قد طَبَّقت البَحْرَ ، فإنْ سكنَت الريحُ أرْسَاها ، وإن هاجت أجْرَاها ؛ فالآدَمِيُّ بَحْرُه حِرْصُه الذي في جَوْفه ، فليس لحِرْصِهِ نهاية ؛ كالبَحْر الذي لا يُرَى أطرافه ، وهو قولُ[1] رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم : لو كان لابْنِ آدَمَ وادِيَان من ذَهب لابْتَغى[2] إليه ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جوفَ ابْنِ آدم إلا الترابُ .

أخبر أن صاحب هذا كلما ازدادَ تَنَاوُلاً من الدنيا لم يَدَعْه[3] ما في جوفه حتى يطلُبَ مَزِيداً ، وذلك حِرْصه الذي غرق فيه قَلْبُه ، فأهلكه .

ثم قال في آخره[4] : ويَتُوب اللَّهُ على مَنْ تاب . فالتَّوْبَةُ من العبد إقبالُه إلى اللَّهِ بِقَلبه ، والتوبةُ من اللَّهِ على العبد إقبالُه على العَبْد بوَجْهِهِ الكريم ؛ فتلكَ سفينتُه ؛ وكما أنَّ السفينةَ بلا أداةٍ وآلة ورِجالٍ لا تُغْنِي عنه شيئاً فكذا التوبةُ لها شُعب[5] حتى تأْتِيَ بالشُّعَب كلها ؛ وهو أن يُعْرِض بقلبه عن جميع الشهوات والهَوَى ، فذاك الإقبال كلّ

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ (من مال) وروي أيضاً (لا تبغي إليه) رواه الشيخان والترمذي وأبو عوانة وغيرهم بألفاظ متقاربة عن أنس مرفوعاً ، واتفقا عليه عن ابن عباس ، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٢٨) كذلك رواه أحمد في مسنده عن أنس ، عن ابن عباس وصححه السيوطي (٢/١٣١) ط. دار الكتب العلمية .

(٢) ابتغى : طلب .

(٣) لم يدعه : لم يتركه .

(٤) يقصد آخر الحديث السابق .

(٥) يقصد أن التوبة النصوح تقتضي أن يقبل العبد على ربه تائباً نائباً قد تجرد من المعاصي وآلى على نفسه ألا يقربها ، وأن يطيع اللّه ربه في كل ما أمر به ، وأن يعمر قلبه بذكر اللّه وأداء ما افترض من الواجبات والإنتهاء عما نهى عنه من المحرمات والمحظورات ، ولا تنفع التوبة من غير خشوع وإخبات ويقين باللّه ، كذلك لا جدوى من توبة لا تردع عن المحرمات ولا تكف عن الشهوات المحرمة .

الإقبال . فقد أَمِنَ الغرق ؛ لأَنه قد وقَع قَلْبُه في بِحَار العـظَمة ، فـامتلأ قَلْبُه وصَدْرُه حتى شَبِـع وَرَوِي ، وغاب الحِـرْصُ عن صَدْرِه ، ودانَتْ[1] نفْسُه ، فصارت كسفينة قد طبقت عُرْض البحر ؛ فإذا هاج البَحْرُ فإنهما هو بَحْرُ العَظَمةِ جـرت سفينتُه بـريح طيِّب ، وشِـراعُها حُبُّ اللَّه تعـالى وذِكْرُه ، ورِيحُها شَوْقُ العبد ؛ فلو أَخَـذَ الدنيـا كلَّها بكفِّـه لقَوِيَ عليهـا ولم يَضُـرّه ؛ لأَنَّ الحِـرْصَ مفقـود ؛ وإنَّمـا أَخـذهـا للَّه ، ثم ردَّهـا إلى اللَّه ؛ فهـو كالخـازن يَأْخُـذُهـا بحق ، ويُمْسِكُهـا بحق ، ويصـرِفُهـا في حق ، ليست له في ذلك شَهْوةٌ ولا نَهْمَة[2] .

مثل الشهوات وترددها في الصدور

مَثَـل الشهواتِ وتـردُّدها في الصَّـدْرِ بين عَيْني الفؤادِ مثل ذِبّـان[3] تطير بين عَيْني الرَّأْس ؛ وإنما يجتمـع الذِّبّـان حيث يكون الشيءُ الحُلْوُ من الأَشـربة والأَطعمـة ، وكذا إذا اجتمعت الشهـواتُ في صَدْر المؤمنِ وحلاوة الدنيا ولذَّاتهـا ، فلقِيَتْهُ مُسْتَقـرًّا[4] لها بتَـردُّدهن ، فما دام الحَـرُّ كائناً[5] فذلك شأْنُهنَّ ، فإذا جاءَ البَرْد لم يكن لها بقاءٌ .

فكـذا صاحبُ الشهـوات إذا جاءَتـه من اللَّه رَحْمـةٌ بَـرَد قلبُـه عن الشهوات ؛ فإنَّ نُورَ الرحمةِ يُبَرِّدُ الأشيـاءَ ويُخْمدهـا ؛ فإنَّ بَـرْدَ الرَّحمـةِ

---

(١) دانت نفسه : أطاعت .

(٢) النهمة : الحاجة والشهوة .

(٣) الذبان : جمع (الذباب) .

(٤) في [أ] مستقراً لها ، وفي هامشه أمامـها مستقبلة .
ووردت مستقبلة ، وفي هامشه أمامها مستقراً لها في [ب] .

(٥) كائن في [أ ،ب] وهو تحـريف خطيـر لأنها منصـوبة ـ كمـا ورد ـ حيث أنها خبـر ما دام .

يُطْفِيءُ حَرَّ النارِ عن المؤمن عند الجَوَاز على الصراط .

وكـذا ها هنـا مَنْ نالَ رحمـةً من اللَّهِ تعالى بَـرَدَ قَلْبُـه عن جميـع الشهوات ؛ ثم بَعْدَ ذلك جاءَت أَنْوَارٌ على القَلْب ، واشتعلت نيرانُها في القَلْبِ ، حتى صار سَعْيُه كلُّه له بَعْدَ أَنْ كانت حرارةُ الشهـوات موجـودةً في صَدْره ، وكان سَعْيه لها .

وقـد قـال اللَّهُ تعـالى في وَصْفِ الشهـوات وشَـأْنهـا[1] : ﴿ زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِن الـذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ[2] والأَنعامِ والحَرْثِ ، ذلكَ مَتَاعُ الحياةِ الدُّنْيَا واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾ .

فقـد اجتمع في الآدَمِيّ ثـلاثةُ أَشيـاء : زينة ، وحب ، وشَهْـوة ، لهذه الأَشياءِ التي عَدَّ في هذه الآية .

---

(١) آل عمـران (١٤/٣) راجـع الـدر المنثـور (٢/ ١٠ ، ١١) وجـامـع البيـان للطبـري (٦/٢٤٤ ـ ٢٤٩) .

يقـول القرطبي رحمـه اللَّه : « قال العلمـاء : ذكر اللَّه تعـالى أربعـة أصنـاف من المال ، كل نوع من المال يتمول به صنف من النـاس ، أما الـذهب والفضة فيتمـول بها التجار ، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك ، وأمـا الأنعام فيتمـول بها أهـل البوادي ، وأما الحـرث فيتمول بـه أهل القـرى والسواد . فـأما النسـاء والبنون ففتنـة للجميـع ، قال : ومعنى الآيـة تقليل شـأن الدنيـا وتحقيـرهـا ، والتـرغيب في حسن المرجع إلى اللَّه تعالى في الآخـرة » .

راجع (٣٦/٤) ط. دار الكتب .

ويقـول القرطبي أيضـاً (٣١/٤) : « وقال أبـو حمزة الثمـالي : القنطار بـإفـريقيـا والأندلس : ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة » اهـ .

وأرجو أيضاً مراجعة تفسير الطبري (٦/٢٥٢) .

(٢) الخيل المسومة : الراعية في المروج .

والشهوةُ خُلِقت من النار ، وهي محفوفةٌ بها ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم[1] : حُفَّت النارُ بالشهواتِ . فتلك زِينةٌ ونَعيم وأفراح خُلِقت من النارِ ، والنارُ خُلقت لها ؛ ففي جَوْفِ كلّ نَفس موضوعٌ فيها بقدره ، وحريقها مَوْجُودٌ عند هَيَجانه .

وللحبّ حَرَارَةٌ ، وللزينة فَرَح ، وللفرح حَرَارة ؛ فكلَّما ازداد العَبْدُ من هذا الفرح تباعدَتْ عنه الرحمةُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تعالى لا يُحِبُّ الفَرِحِين[2] .

فإذا توقَّى عن هذه الأَفراح فمثَلَه كمثَلِ رجُلٍ دَخَل بيتاً فيه ذِبَّان[3] كثيرة فسدَّ الكُوَّةَ[4] ، وذبَّ[5] الذِّبَّان إلى الباب ليخرج[6] ، فسدَّ الباب حتى أظلم البيتُ ، فذهبَتْ قُوَّةُ طيران ما بقي في البيت ، فبَقِيَ[7] في ناحية من البيت ، وراح[8] مَنْ في البَيْتِ .

---

(١) ومعنى هذا أن أحداً لن ينجو من النار إلا ذوي النفوس المفطومة عن الشهوات المحرمة ، والذوات التي تبرأ من اجتراح السيئات .
راجع القرطبي بتصرف (٤/٢٨) .

(٢) القصص (٢٨/٧٦) .
راجع تفسير الطبري (٢٠/٢٦٩ ، ٢٧٠) والبحر المحيط (٧/١٣٢) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/٣١٢) .

(٣) الذبان : الذباب .

(٤) الكوة : كل فتحة في الحائط غير نافذة فهي كوة .

(٥) ذبَّ الذبان : دفعه .

(٦) ليخرجوا [في الأصول] وهو تحريف .

(٧) فبقوا [في الأصول] .

(٨) راح للأمر : فرح وأشرف له .

فمَنْ لم يَنَلْ تلك الرحمةَ التي تُبَرِّدُ قَلْبَه عن الشهوات ، وتُخْمِد نَفْسَه فيها فالحيلةُ فيه أنْ يختارَ لنفسه العُزْلَة ويسدَّ أبواب الشهواتِ على نفسه .

قال قائل : مثلُ ماذا ؟

قال : مثل رجل أراد أنْ يسدَّ بابَ فُضُولِ الكلام حتى تنقطِعَ عنه شهوةُ فُضُولِ الكلام ويبرد على [٧١] قلبه ذلكَ .

١ ـ اجتناب أبواب الكلام :

فعليه أنْ يَجتَنِبَ أبوابَ الكلام على كانُونه[١] مع عِيَاله ، وعلى بابه عند مَجْمَعِ الجِيران في الحارة ، وعند مَجَامِعِ الطُّرق والأسواق ؛ فهذه كلُّها أبوابُ الكلام ؛ فإذا عرفَها تجنَّبها ، فإذا هو قد سدَّ على نَفْسِه وحَسم[٢] البابَ ؛ فإذا تعشَّى قام إلى مُصلَّاه ، وإذا رأى مجْمَعَ الجيران سلَّم ومرَّ ؛ فكلُّ مَجَامِعَ فيها فُضولٌ[٣] من الكلام جانب عنها ، كما فعل أبو مُسْلِم[٤] الخَوْلاَني رَحِمه اللَّه حيث رأى جماعةً في المسجد ، فمالَ إليهم لَيْجَلِسَ معهم ، وظنَّ أنهم في ذِكْرِ اللَّه تعالى ، فوجدهم في ذِكْرِ الدُّنيا ، فقال : أَنتم في سُوق الدنيا ، وحَسِبْتُ أَنكم في سُوقِ الآخرة ، وأَعْرَضَ عنهم[٥] .

(١) الكانون : الموقد بالحطب .
(٢) حسم الشيء : صرمه وقطعه .
(٣) فضول الكلام : الزيادة فيه .
(٤) أبو مسلم الخولاني ، تابعي من عباد الشام ، وقد روى عن الصحابة وتوفي في زمن معاوية بن أبي سفيان .
(٥) أعرض عنهم : نبا عنهم وانصرف عنهم .

فمَنْ كان لسانُه منه على بال ، ورَدَّ شهوةَ الكلامِ عن نفسه ، فقد نجا من أمرٍ عظيم .

وكذا في سائر الجوارح[١] يَسدُّ على كلِّ جارحة أبوابَ فُضُولِها ، حتى تَهْدَأ جَوارِحُه ، فصار كمَنْ سَدَّ الكُوَّةَ ، وردَّ الباب ، فسكنت الذِّبَّانُ[٢] ، عنه ، فكلما فَتَح الكوَّة والبابَ عُدْنَ إلى الطيران ؛ فهذا دَأْبُه[٣] إلى يوم الموت .

فهذا شَأْنُ أَهْلِ العُزْلة حَسَمُوا[٤] أبوابَ الشهوات بالعُزْلة عن الخَلْقِ ، حتى هدأت الجوارِحُ ، وبقوا في الزَّوَايا ، فمَنْ مَنَّ اللَّهُ عليه بالنعمةِ العظمى ، وبالحرمة التي إذا وَرد على القَلْب نُورُها خَمدتْ جميعُ حرارةِ الشهواتِ ، وَذَبُلَتْ وتهافتَتْ[٥] بمنزلة البرد الذي هجَم على مكان الذُّبَاب فتَهَافَتَتْ ، فإذا بَرَدَ القلبُ بخُمودِ النَّفْس ، وخَلاَ الصَّدْرُ مِنْ حَرَارَة الشهواتِ ، وصَوَّرهن[٦] على عَيْني الفؤاد في صَدْرِه ، صار الصَّدْرُ كمفازةٍ[٧] جَرْدَاءَ ، وطَهُرَ من أدناسِ الشهواتِ ، فعندها جلبَتْ عليه الرحمةَ تلك الأنوارُ المَلَكُوتية ، فاشتعل في قَلْبه حرِيقُها ، فاستنار الصَّدْرُ بها حتى حَمِي الصَّدْر ، وصار بمنزلة التَّنُّور الخَالِي من

(١) الجوارح : الأعضاء ، جمع جارحة .
(٢) جمع الذباب .
(٣) دأبه : شأنه وعادته .
(٤) حسموا : قطعوا .
(٥) تهافتت : تساقطت .
(٦) صورتهن [ب] ولعله تصحيف .
(٧) المفازة : الصحراء التي لا ماء فيها ولا حياة عليها .

النار ، بارد[1] ، فكلما أُلزِق به رَغيفاً تهافَتَ ، ولم يلزق ، فإذا سُجِر[2] الْتَزَقَ الخُبْزُ به .

فكذا القَلْبُ إذا حَمِي بتلك الأنوار ، فكُلَّما لاقَتْهُ موعظةٌ التزق الوَعْظُ به ، ونَجع[3] فيه ، واتَّعظَ به ، وإلاَّ تَهافَتَ كالخُبْزِ من التَّنُّورِ[4] البارد .

مثل رياضة النفس

مثلُ رياضةِ النَّفسِ مثل دَابَّةٍ سالمة لم تُرْبَط إلَىٰ آريّ[5] ، فكانت تَرْتَع[6] في البَرَارِي[7] ، تَذْهَبُ حيث شاءَت إلَىٰ نَهماتِها[8] ، لا تعرفُ مالِكَها ، ولا تَعْلَمُ سَيْرَها ؛ فإذَا أرادَ أن يَجْعَلَها مركباً أَخَذَها الرابِضُ بالوَهَقِ[9] والحَبْل ، ثم قَيَّدَها حتى أَمكَنَتْهُ من اللِّجَام والسَّرْج ، ثم ركبها فاضطربَتْ بنفسها إلَىٰ الأَرْضِ ، فلا تزالُ هكذا حتى انقادت

---

(١) الأصح أن يقول (بارداً) فلعله تحريف من الناسخ .
(٢) سجر : أوقد .
(٣) نجع فيه : ظهر أثره عليه .
(٤) التنور : هو الكانون يخبز فيه .
(٥) الآري : الأخية وهي عود في الحائط أو حبل يدفن طرفاه في الأرض ويبرز طرفه مثل الحلقة تشد فيها الدابة .
(٦) ترتع : ترعى كيف تشاء .
(٧) البراري : جمع برية ، وهي الصحراء .
(٨) نهماتها : شهواتها ، جمع نهمة .
(٩) الوهق : حبل يلقى في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق ، لكنه عادة ما يستعمل للدواب .

للرُّكـوبِ عليها ، واعتـادت اللِّجَامَ والسَّـرْج ، فاسْتَغْنَىٰ عن القَيْـدِ ، ثم كـانت تسير ولا تعلم السَّيْـر ، فلم تَـزَلْ تُؤَدَّب لتعلم السيـر ، وتَتْـرك مُرَادَها ؛ فردَّها مِن مُرَادها ومِن نَهْمَتِها وسَيْرهـا إلى مُرَادِ نفسـه ؛ ثمَّ لما صارت إلى الأنهار والحفائر وَثَبَ بهـا لتَعْتَادَ العُبـورَ عليها ، ولم يُجْـرِها على القَنْـطَرة فتعتاد الجَـرْيَ على القنطرة ، فليس على كـلِّ نَهْرٍ تُـوجـد قَنْـطرة ؛ ثم سـار بهـا في جَلَبِ[1] الأسـواق في النَّجَّـارِين والحـدَّادين ونحوهما ، ليُعَـوِّدَها الجَلَبـة كي لا تَنْفِرَ ولا تَتْـرُك سيرهـا عند كـل جَلَبة تستقبِلُها ، فلا يـزال يَرِدُ بهـا هكذا حتى يَـأْخُذَ بمجـامع قَلْبِهـا ، وتترك أُذُنَيهـا مُصْغِيةً إلى هـذه الريـاضة ، فهي تَسيـرُ بهذا اللِّجـام ؛ فـإنْ مُـدَّ عِنَانُها[2] بإصبع وقفت ، وإنْ عُطِفت[3] بإصبـع انعطفت ، وإن تحـامل بركَابَيْها[4] ، وأَرْخَىٰ عِنَانَها طارت ، وإن كَبَح لِجَامهـا في ذلك الـطَّيَران بـإصبع هـدأَتْ وسكنَتْ وإنْ نزلَ عنهـا ووقفها امتنعت من أَنْ تَـروثَ[5] وتَبُـول حتى تصيـرَ إلى مَـوْضعهـا ، وإن استقبلتهـا جَلَبَـةٌ لم تلتفِتْ إلى ذلك ، ودأَبت[6] في سَيْرهـا ، وإن استقبلها نَهْـرٌ لم تلتفت إلى قَنْطَرة ، ووثَبَتْ وَثْبَة منْ رَفع البال عن نفسها .

فهـذه دَابَّةٌ قـد صلحت لِلْمَلِك ، فعُرِضَت عليـه ، فاستَحْـلاَها ، واتَّخـذَهـا لنفسـه مَـرْكبـاً ، فـرُبِـطت إِلَىٰ آرِيّـة ، وأُعْلِفَتْ من أَطَـايِبِ

---

(١) جلب الأسواق : صوتها وصخبها .

(٢) العنان : هو سير اللجام حيث تمسك به الدابة .

(٣) عطفت : ثنيت .

(٤) الركاب : ما يضع الراكب رجله فيه من السرج ، وهو مصنوع من الجلد .

(٥) تروث : تخرج روثها .

(٦) دأبت : جدت وتعبت .

الأعلاف وغَلاَ في ثمنها ، وجُللت[1] وبُـرْقِعَتْ[2] وأُرِيحت ؛ فمن بين الأيام يَنْشطُ الملكُ مرةً للركوب عليها .

فكذا النَّفْسُ أَوَّلاً تُرَاضُ بحفْظِ الحدود ؛ فهذا سَرْجُها ولِجَـامها ، والـركوب هـو الفَرَائض ، ولِجَـامُها الحـدودُ التي حرَّم الله تعـالى ؛ ثم تُرَاضُ[3] فتُؤْخَذ بالصِّدْقِ والإخـلاص في الأَعمال ، وحُسْنِ الأَخـلاق ، كما أُمِرت الدابةُ بحُسْنِ السير ، وبالعَطْفِ في المعاطف ، والطيران عند التَّحَـامُل عليهـا ؛ وذلك السبق بـالأَعْمَـال من العَبْـد ، والمسـارعـةُ في الخيرات ؛ ثم يُؤْخَذ عليه بِقولِ الحقِّ وألاَّ يخـاف في اللَّهِ لَوْمَـةَ لائم ؛ ذلكَ فضلُ اللَّهِ يُؤتِيه من يشاءُ .

والأَمْرُ بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، كما أُخِذت الـدابَّة بـالوَثْب حيث لا قَنْطرة ولا مَجازَ للماءِ ، ثم يُؤْخَذ عليـه بالمعـاداة لأَهْل المُنْكَـر والمَعَـاصي ، والحُبِّ للَّه ، والبُغْضِ في الله ، كما أُخِـذَ على الـدابـة تَقَلُّبها في العبور والأَسواق .

فهـذا بَـذَلَ النَّفْس للَّه ؛ فـإذاً قـد استكمـل الأَدب ، وأَخَـذَ اللَّهُ بقَلْبِه ، فصار صَغْوُ[4] أُذُنَيْ فؤادِه إِلَىٰ اللهِ تعالى ، وشخصت عَيْنَـا فؤادِه تَنْظُرَانِ إِلَىٰ الله تعالى ، وإِلَىٰ تَدْبير اللهِ جلَّ وعَلاَ في خَلْقِه ؛ فهذا وليُّ الله قد أَدَّبه واصْطَفَاهُ[5] لنفسه ، واتَّخَذَه حَبِيباً .

---

(١) جللت : ما يوضع على الدابة ليقيها البرد مثل الثوب للإنسـان . وتجمع على جـلال وأجلال .

(٢) البرقع : تجمع على براقع وهو ما تستر به النساء وجهها .

(٣) تراض : تسير وتذلل .

(٤) صَغْوُ أذني : ميلها واستماعها .

(٥) اصطفاه لنفسه : اختاره .

مثل الإيمان والأعمال الصالحة

مثـلُ الإيمانِ والأعمـال الصالحـة مثلُ بَيْتٍ وُضِـعَ فيـه غُصْنٌ من الوَرْد والياسمين والسَّوْسَنِ مما يَفُوحُ رِيحُه ، فيـطيب البيت ما دام البيت مَرْشوشاً ذَا روح ، والغُصْن طرِيٌّ بمائه ، فَرِيحُه فائح ؛ فإذا هبَّ الرّوح من البَيْت ، وتمكَّنَ فيـه الحَرُّ ذَبُـل الغُصْنُ ، وذهبت طَـرَاوَتُـه ، وافتُقِـد طيبُه .

فكذا الإيمان في قَلْبه طريٌّ نَزِهٌ[1] بنزاهة القلب ، فإذا نالته حرارةُ شَهـواتِ النفس ، وفَـوَران الهَـوى ، وحِـدَّة حـرارة الحِـرْص ، وطلب العُلُوِّ ، وحبّ العزّ والرِّيَاسة ، فأَحاطت هذه الأَشياءُ بالقلب ذَبلت شجرةُ الإيمان ، وذهبت طَرَاوَتُها ونَزَاهَتُها .

مثل طيب الإيمان على القلب

مثلُ طيب الإيمانِ على القَلْب مثل عُودٍ أَلقَيْتَـه على جَمْرَةٍ ليتـوقَّد ويتبخَّر به المسجد ، فإذا كانت الجَمْرَةُ ذاتَ توقُّد فاح[2] رِيحُ البخور ، وانتفع القومُ به ، وإذَا كانت الجَمْرَة مُنْطَفئة قد علاَها الـرَّماد بَقِي العـودُ مكانَه ، ولم يكن له بخُور .

---

(١) نزه ومتنزه : بعيد عن المكروه ، والرجل النزيه النفس هو العفوف .

(٢) فاح : تضوع وانتشر .

مثل الإيمان في القلب

مثـلُ الإيمانِ في القلب مثـلُ غـراسـة غـرسْتَهـا في الأَرض عـوداً كالسِّوَاكِ ، فالتفَّتْ عليها الأَرض ، فإِنْ أَنْتَ سقَيْتَها وأَمْدَدْتَها بـالتُّرَاب ، وأَضْحيتها[1] للشمس ، فعَنْ قَريبٍ تصير شجرةً بـاسقةً[2] في السمـاءِ ؛ غلظَ ساقها ، وكَثُر فروعهـا ، وتمكنت[3] من الأَرض [٧٢] عُروقُهـا ، وزَكَتْ[4] ثمرتُها .

فإِن قصَّرتَ في السَّقْيِ والتراب ، وسطَّحْتَ[5] فَوْقَها فلم تُـدْركها الشمس تكـون عُوَيْـدة[6] كما غـرستَهـا ، ثم عن قَـريب تَيْبس[7] وتُقْلَع ويُرْمَىٰ بها في النار .

فكـذا نُورُ الإِيمـان إِذَا دخـل القَلْبَ فسَقْيُـه العلمُ بـالله ، فكلمـا ازدَدْتَ بـالله عِلْماً ازداد القَلْبُ بـالله حياةً ، وازداد كَشْفـاً[8] ووُضـوحـاً برُبُوبيته .

ومَـدَدُه أَعمـالُ البِـر ؛ وهي أَداءُ الفـرائض واجتنـابُ المحـارم ؛ فكلما عمِلْتَ بِرّاً كان نُورُ ذَلِكَ العَملِ راجعاً إِلى نُورِ المعـرفة ، فيـزداد

---

(١) أضحيتها للشمس : أظهرتها لها .
(٢) باسقة : عالية مرتفعة طويلة .
(٣) تمكنت من الأرض : رسخت فيها وثبتت عليها .
(٤) زكت الثمرة : زادت ونمت .
(٥) سطحت فوقها : بسطت .
(٦) عويدة : تصغير (عود) .
(٧) تيبس : تجف وتتصلب .
(٨) ربما يقصد به (الكشف الصوفي) أو المكاشفة وهذا أغلب ظني .

قـوةً بنُورِ المعـرفة ؛ لأنـه إِذَا رُفِع عَمَلُه إِلَى الله تعـالى نظر اللهُ إليـه ، فاشتغل بذلكَ ؛ فذلك العمـلُ النور ، وأَصلُه في القلب ، وفَـرْعُه عنـد الله تعالى ؛ فإذا اشتعل الفَرْعُ نـوراً بِنَظَرِ اللهِ تعـالى إليه تـأَدَّى[1] ذلك النورُ إلى الأَصل ، فاختلط بِنُورِ المعرفة فتزَكَّى[2] ، وإِضْحَاؤُها للشمس رَفْعُ العلائق ؛ وهـو ركوبُ الهـوى في الشَّهوات ، فـإِذا زالَ الهَوَى عن القلب كان بمنزلة بَيْتٍ رُفِعَ سَقْفُه حتى خلص إلى الشَّجَر حَرُّ الشمس ، فعندها يَغْلُظ ساقه ، وتكثر فروعه ، وتزْكُو[3] ثمرتُـه ؛ كعُودِ غـرسْتَه في وِعَـاءٍ مثل الحُبِّ وفي أَصـل الحُبِّ ترابٌ ، فلم يـزل هـذا العـودُ يَنْمُـو بسَقْيِ الماءِ وإِشْرَاقِ الشمس ، حتى صار ذا سَاقٍ[4] غَليظٍ ، امتـلأ من غلظه هذا الحُبُّ حتى لم يَبْقَ فيه مَوْضع ظُفْر ؛ فإذا امتلأ لم يكن لشيء غيره مَساغٌ فيه أَنْ يَدْخُلَه .

فكـذلك المعـرفةُ إذا تمكَّنَتْ في القلب عُـروقُها لا يـزال يَرْبُـو[5] على ازدياد العِلْم بالله وبأسمائه وبِرُبُوبِيَّتِهِ وتدبيره ، وعلى أَعمـال البِرِّ ، وقَـطْع العلائق ، حتى يَمْتَلِىء القَلْبُ منـه ، فكان بَـدْؤه نورَ المعـرفة ، فلحقت به هذه الأَنـوارُ : نور المعـرفة ، وأَنـوار العمل ، فـامتلأَ القَلْبُ نوراً حتى لم يَبْقَ في القلب موضعُ رأْسِ إِبرةٍ خـالياً عن النُّـور ، فكيف تَدْخله ظلمةُ الهَوَى والنفس ، فإذا لم[6] يُـرَبِّـه بهـذه الأَنْوار بَقِيَ القَلْبُ

---

(١) تأَدَّى : وصل .

(٢) تزكَّى : تطهَّر .

(٣) تزكو ثمرته : تنمو وتكثر .

(٤) ساق الشجرة : جذعها .

(٥) يربو : يزيد .

(٦) يربيه [في الأصول] وربما تكون يزينه .

خالياً إلَّا بمقدار ذلك النور الذي حَلَّ به من نُورِ المعرفة وما حَوْلَه من القلب خال ، فتدخل عليه ظلماتُ الهَوَى ، فتختلط به[1] ، ويُجَاوِرُه بجوارِ السوءِ حتى يذوبَ ذلك النُّور ، ويَنْتَقص ؛ فيُوشِك صاحب هذا أَن يُسلَبَ حتى لا يبقى معه شيء . نعوذُ بالله من تلك الحال .

وحُكي أَنَّ إبراهيم بن جُنَيد رَحِمهما الله قال : كان يُقال : هِمَّةُ الزُّهّاد والعُبَّاد مخالفةُ الأَهواءِ عن الشهوات ، وهِمَّةُ العقلاءِ والأَولياءِ تَرْكُ الذنوبِ وإصلاحُ القُلوب .

مثل الإيمان

مثلُ الإيمانِ مثلُ الضيفِ الكريم بَعَثَهُ[2] الملكُ إليكَ ضيفاً ، وأَمَرَكَ بالإحسان إليه ؛ فإنْ تركَكَ على ذلك وقعْتَ في الجَهْد[3] والمعالجة والاستدانة والحَوْر[4] ؛ تُنفِقُ عليه وتُحْسِن[5] ؛ فإن أَعطاكَ الملكُ بَدْرةً[6] من الدنانير وقال : أَنفِقْ على هذا الضيف ، ولا تُقَتِّر[7] ، وأَحْسِنْ إليه ، ولا تُقَصِّر ، فقد استرَحْتَ . فإنْ كنْتَ تركتَ الضَّيفَ ضائعاً ، وتنفق الدنانيرَ على أَهلك وولَدك فقد خُنْتَ وخَسِرْتَ .

---

(١) تختلط به : تمتزج به .

(٢) بعث [أ] وهو تحريف من الناسخ .

(٣) الجهد : التعب والمشقّة .

(٤) الجور [ب] وهو تصحيف ، والحور : هو النقصان .

(٥) وتحسبه [ب] .

(٦) البدرة : هي كيس فيه ألف ، أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف درهم .

(٧) التقتير : التضييق ، يقال قتر على عياله ، إذا ضيق عليهم في النفقة . وبابه ضرب ودخل (راجع مختار الصحاح) .

فالمؤمنُ أُعطِيَ المعرفة وقيـل له : تبحّـرْ في علم هذه المعـرفة ، وانظر إلى ما ظهـرَ لكَ من عـظمتِهِ وقُـدرتِهِ وجـلالِهِ ومُلْكـه ؛ وانْظُرْ إِلَىٰ تدبيره وحِكْمته وصنَائِعه[1] ، وانظر إلى مَجْدِه وإِحسانـه ، فذهبَ بهـذا النظَر ، بما أَعطى من النور ، إلى أَشغال النَّفس وأُمورِ الـدنيا ، فخـاب وخَسِر .

وإِنْ ذهب بهذا النَظَر إِلَىٰ ما ذكَرْنَا بما أَظهر رَبُّنا تبـارَكَ وتعالىٰ مِنْ أُمورِه ازْدَاد يقيناً وخَشْيةً وخَوْفاً وحيَاءً ، وازْدَادَ حُسْنَ الظَنِّ بالله تعالىٰ ، واستغنىٰ بـه عن جميع خَلْقِـه ؛ ولذلـك قال رسـولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : إِنَّ يوماً لا أَزْدَادُ فيه عِلْماً بقُرْبِي إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ لا بُـورِكَ لي في طلوع شَمْسِ ذَلكَ اليوم .

ورُوِيَ لنـا أَنَّ رجلًا جـاءَ إلى رسـولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليـه وسلَّم فقـال : يا رسـولَ الله ، علِّمْني غرائبَ الْعِلْمِ . قـال : مـا صنعتَ في رَأْسِ العِلْم ؟ فقال[2] له : هل عَرَفْتَ رَبَّـك ؟ قال : نعم ؟ فقـال : ما صنعتَ في حَقِّـه ؟ قال : مـا شـاءَ اللَّهُ . قـال : هـل عـرفْتَ المـوتَ ؟ قال : نعم . قال : فما أَعْدَدْتَ له ؟ قال : ما شاءَ الله . قـال : فاذهَبْ فتعلَّم رَأْسَ العلم . ثم تعالَ حتى أُعَلِّمك غرائبَ العلم .

فـإِنَّما دَلَّـهُ رسولُ اللهَ صلَّى اللهُ عليـه وسلَّم على العِلْمِ بـالله ، ليقومَ بحقّه .

أَلَا تَـرَىٰ أَنَّهُ سـأَله عن حقّـه ؛ ليعلمَ أَنَّ مَنْ ضَيَّع حقَّـه ، وجَهِـل

---

(١) الصنائع : جمع صنيعة وهي الإحسان ، وكل ما اصطنعته من خير .
(٢) كذا في [أ، ب] .

حقَّه ، ثم ادَّعى عِلْماً به فهو كـاذبٌ في مَقالَتـه ؛ فإنَّمـا ذاكَ عِلْمٌ سمِعَه بأُذُنه ؛ وَأَوْدَعَهُ حِفْظَه ، وليس في قَلْبِه منه إلَّا الإيمان به .

فهذه البَذْرَة التي أَعـطاكَ الملكُ لتُنْفِقَ منها ، وأَعـطَاكَ ربُّك جـلَّ جلالُه هـذا الذِّهْنَ والعَقْـل ؛ فمن استعمل عَقْلَه في التفكُّـر في أَمْرِ اللهِ فقـد وضع النفقـةَ مـوضِعَهـا ، وقـد أنفق على الضيف ؛ لأَن المعـرفـةَ موضِعُها القَلْب ، وحَوْلَها بحورُ العلم بالله ؛ فـذلك كلُّه ثبـاتُ المعرفـة واستقـامتُها ، لئـلاَّ تَصيرَ المعـرفةُ نكـرةً بينما أَنـك تعرِفُ ربَّـك بالجـودِ والكـرم والوَفـاءِ ، ثم تصير معـرفتُـك نكـرةً فتتملَّق[1] إلى عَبيـدِه[2] في النَّـوائب[3] ، وتتعلَّق بهم ، وتتخذهم من دُونـه وَكيـلاً ووَليّـاً ؛ فتعـرف ربَّك بالكِفَاية ، وتستظهر[4] بمن دُونـه ، حتى تقعَ في آبـارِ المهالـك ، وتصيـر مُدَاهِنـاً[5] ومُتَصَنِّعاً[6] ومُـرَائياً ، تتـزَيَّنُ لخَلْقِه ، وتَتـرضَّـاهم[7] بالقَبائح والمَشَاين[8] فيما بينكَ وبين ربِّكَ . ونعوذُ باللهِ مِنْ ذلك .

مثل الإيمان وصحته وسقمه

مثلُ الإيمانِ وصحَّتـه وسَقَمه مثـلُ رجُلٍ يـريد أَنْ يَشْتَـرِي عَبْدَاً ،

---

(١) التملّق : الملاطفة والتودّد .
(٢) عبيده وعباده بمعنى .
(٣) النوائب : النوازل جمع نائبة .
(٤) تستظهر : تستعين وتستنصر .
(٥) المداهن : المنافق ، وإظهار خلاف المضمر .
(٦) المتصنّع : المبدي غير ما يستكنُّ في طويته .
(٧) تترضاهم : تتطلب رضاهم .
(٨) المشاين : المقابح والمثالب والمعاير .

فيتخيَّر مِنْ بين العَبيد مَنْ له زيادةُ بَسْطَةٍ[١] في الجسم ، غليظ الرقبة ، يقدَّر بالأحمال الثقيلةِ على رقَبته ، وسبق على العبيدِ بالشَّخْصِ والبَطْشِ ، فاشتراهُ بالثَّمَنِ الغالي ، وأقامه بالخِدْمَةِ بين يديه ، وصَيَّر[٢] له مَقاماً معلوماً ، فإذا يكون قد سَقِمَ[٣] فما زال السَّقَمُ حتى أَثَّر في بَدَنِهِ ؛ فزالَ عنه قُوَّةُ البطش والحَمْل ، ورَقَّ عَظْمُه ، وصارت قَدَمَاه من الرِّعْشَةِ والرَّجْفَةِ[٤] حتى عجز عن القيام بين يدي سيِّده ، وعجز عن الخِدْمة ؛ فتراجعت قيمتُه ، وصار أَمْرُه على خَطَر الموت .

فالمؤمنُ لَمَّا جاءَه نورُ الهدايةِ استقام[٥] قَلْبُه للهِ عُبُودةً ، مُؤْمِناً بقَلْبه ، مُسلماً بأَركانه ، فقد استقرَّت قَدَمَا قَلْبِه بين يَدَيِ اللهِ تَعالىٰ للخدمة ، فإذَا جَاءَتْهُ الشهواتُ مع هبوب رِيحها ، فرجَفَت بقلبه ، ومازَجَت حلاوةُ الشهواتِ ولذاتُ الهوى حلاوةَ الحبِّ الذي في إيمانه ، وضَعُفَ قَلْبُه ، وصارت تلك الحلاوةُ واللذةُ التي جاءَت من قِبلِ الشهوةِ مَرَضاً للقَلْب ؛ فضَعُفَ القلبُ ؛ لأَنَّ قوتَه كانت مِنْ حرارة ذلك الحبِّ وحلاوتِه ، وقوةِ [٧٣] الفَرَح الذي في ذلك الحُبِّ ، فرجفت[٦] قَدَماه وارتعشت ، فإذا جاءَته المكروهاتُ ضعفَ قَدَمُه عن احتمالها ، وَدَقَّت رَقَبَتُه ، وذهبت قوةُ بَطْشِهِ بقلبه ، وعَجَزَ عن القيام بين يدي اللهِ تعالى ؛ لأَنَّ هَوَاه وشهواته تَرُدَّانِه إلى المُنَىٰ .

---

(١) البسطة : الطول والقوة والكمال .

(٢) صيَّر له مقاماً : جعل له مقاماً لم يكن من قبل .

(٣) سقم : مرض ، وطال مرضه .

(٤) رجفة القدمين : من الكبر أو المرض .

(٥) استقام قلبه على العبود : ثبت على الطاعة .

(٦) فرجت [ب] ورجفت : ارتعشت واضطربت .

فـالإيمـانُ هـو استِقْـرَارُ القَلْبِ بين يـديّ الله تعـالىٰ ، وطُمَـأْنينـةُ النفس بين يـديّ اللهِ تعـالىٰ بـالعُبُـودَةِ ؛ فـإنَّمـا دخـل عليـه السَّقَم من مُخَالطةِ حلاوةِ الشهوات ولذَّةِ الهوى ، فذهبت قوتُه ، فلذلك قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : الإيمانُ حُلْوٌ نَزِه[١] فنزِّهُوه .

فحلاوَتُه من الحُبِّ الذي تضمَّنه ، ونَزاهَتُه من نُورِ التوحيد . فإذا مازجته[٢] حلاوةُ الشهواتِ مَرَّرَته[٣] ، وإذَا خالطَته أَسبابُ الهَـوَى ذهبت نَـزَاهَتُـه ؛ فتكـدَّرَ الإيمـانُ وتـدنَّس[٤] ، ومن كُـدُورتـه[٥] ودَنَسـه سَقم القَلْبُ .

قال له قائل : وكيف يتدنَّسُ الإيمانُ ويتكدَّرُ ؟

قال : إنَّ الإيمانَ عَطَاءُ اللهِ تعالى ، وهو استقرارُ قَلْبِ العَبْدِ به ؛ فإذَا استقرَّ قَلْبُه بربِّه صَارَ عَـارِفاً لـه مطمئنـاً إليه ؛ فـذاكَ منه إيمـانٌ بالله تعالى ، وهو عطاؤه للعَبْد ، يقال : آمَن يُؤمن إيماناً .

وأمَّا النورُ الذي منه استقرارُ القلب فهو نُـورُ الإيمانِ ، فيجـوز أَنْ يُسَمَّى إيمـانـاً في اللغــة ، كمـا نَسبْتَ البيتَ إلى الــدار ، والـدارَ إلى البيت ، فـالدَّارُ تُسمَّى داراً لِتَـدْوِيرِ الخِـطَّةِ[٦] ، والبيتُ يُسَمَّى بيتاً لأَنَّـهُ نَبِيتُ فيه .

---

(١) نزه : طاهر طيب بعيد عن الرجس والقبح .
(٢) مازجته : ماذقته وخالطته .
(٣) مررته : جعلته مراً .
(٤) تدنّس : توسّخ .
(٥) كدورته : كدره .
(٦) الخطة : الأرض التي تنزل بها ما سبق إليها أحد قبلك .

مثل الإيمان

مثـلُ الإيمانِ مثـلُ الضَّيف : بعث الملكُ إليـك ضيفـاً ، وقـال : أَحْسِنْ إليه ، فإنَّه ضَيْفٌ كريم ، وهو من خاصَّتي ، وصُنْهُ صيانَة مِثْله ؛ فلو تـركـكَ على ذلـكَ وقعْتَ في جَهْـد[1] عـظيم واستـدانـة ومؤونـة[2] عظيمة ؛ لتُنْفِقَ عليـه ، وتُحسنَ إليه في العـاقبة ، ومـع ذلك تعجـز عن الصِّيانة والإحسان إليه لفَقْـرِك وخِفَّة ذاتِ يَـدِك[3] ؛ فإنْ أَعـطاك بَدْرَةً[4] من الدراهم لتُنْفِقَ عليه فقـد أَقْدَرَكَ على الإحسـان إليه ، وكنْتَ واصـلاً إلى إحسانه على السَّعَة والبَسْطَة ؛ لسعةِ المال الذي نِلْتَه .

والأَوَّلُ نَـالَـهُ التَّعَب لضيقِ النَّفَقَـةِ ، وَلَكِنْ أَنْتَ بَعْـدُ في تَعَب من ذلك ؛ لأَنَّكَ تحتاجُ إلى التقدير في كل شيء ، والتقـديرُ تَعَبٌ ؛ لأنـك تحتاج إلى محافظةِ المقادير ، فإذا جاءَت المحافـظةُ على التقديـر ضاعَ بعضُ الإحسان لقلَّة العُدَّة ، فإذا بعث إليك بَـدْرةً أُخرى مكـانَ الدراهم من الدنانير ، وقال : أَنْفِق عليه ، اتَّسَعَ[5] في النفقـة ، وخرج عن تَعَب التقدير ومُحَافظته ، فَوصل إلى الإحسان كلِّه ، ومـع ذلك بَقي شيءٌ من الإحسان لم يَصِلْ إليه .

قال له قائل : وما تلك البَقِيَّة ؟

---

(١) الجهد العظيم : البلاء الشديد .

(٢) المؤونة : الثقل .

(٣) خفة ذات اليد : كناية عن الفاقة .

(٤) البدرة : كيس يحتوي على سبعة آلاف دينار ، أو ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٥) واتسع [ب] .

قال : بَهَاءُ[1] الإحسان وزِينته .

قال : وبماذا يصلُ إلى ذلك ؟

قال : بأَن بعث إليه بَدْرةً أُخرى مكان الدنانير من الجَوَاهر ، قيمةُ كلِّ جوهر منها بُيوتٌ[2] من الدنانير ؛ قد اتسع الآنَ في النفقة اتساعاً ، فحينئذ يَصِلُ إلى بهاءِ الإحسان وزِينته .

قال له قائل : ضربتَ المثلَ ، فقابِل الشيءَ بالشيء حتى نفهمه .

قال : نعم ، الملكُ رَبُّكَ الأعلى ، والضَّيف الكريم وخاصَّتُهُ المعرفة ، الذي آمنْتَ به ، فأوصاكَ بالإحسان إليه وصِيانته بقوله تعالى[3] : ﴿ وَاتَّقُوا اللّهَ ، واعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ . وقال أيضاً جَلَّ ذِكْره[4] : ﴿ وَأَنْفِقُوا في سَبِيلِ اللّهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾[5] .

قال له قائل : هذه الآيةُ نزلت في الجِهاد وفي النَّفَقَةِ فيه .

فقال : هذا الذي تَحْكيه تَفْسِيرُ العَجَمِ من الكُتُبِ الموضوعة لهم على (الشايذبوذ) ، أَفَترى ما أنزل اللّهُ في شأْن قومٍ لم يَعُمَّ الخَلْقَ

(١) البهاء : الحسن والجمال والرونق .

(٢) بيوتاً في [أ، ب] وهو تحريف .

(٣) البقرة (٢/ ١٩٤) راجع تفسير الإمام الطبري (٥٧٦/٣) وما بعدها .

(٤) البقرة (١٩٥/٢) .

(٥) ويقول القرطبي رحمه الله : « الإلقاء باليد إلى التهلكة هو بترك الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ ، والإقامة على الأحوال وإصلاحها وترك الغزو ، وقيل معناه : لا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا » . راجعه للتفصيل (٢/ ٣٦١) .

ذلك ؟ فقد نَزَلَتْ آيَةُ الخمْرِ[1] وآية الـرِّبَا[2] في شـأْن قوم فعمَّت الخَلْق كلَّهم ، ولم يَقُـلْ أَحَدُ من المؤمنين إنمـا نزلت هـذه في شأْن كـذا وفي قَوم كَذَا ، فهذا لهم دُوننا ؛ فإذا قال الله تعـالى : ﴿ اتَّقُوا اللّهَ ﴾ فقـد عَمَّ الخَلْقَ كلَّهم أَن يَتَّقُوه ، وَعَمَّ المواضعَ كلَّها ، فإذا قال : ﴿ واعلموا أنَّ اللّهَ مَعَ المتقين ﴾ فقد اقْتَضَاهم كلَّهم أَنْ يعلموا ذلك .

وقولـه :﴿وَأَنْفِقُوافي سبيل الله ولا تلقوا بأيـديكم إلى التَّهْلُكَة . . . ﴾ الآية . فَسَبِيلُ القلوبِ إلى العرش إلى مَظْهَرِهِ الذي ظَهَرَ للعباد ، وهناك سبيلُ الأَركان والجَوَارح إلى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، فالإِنفاقُ في سبيل القلوبِ من هـذه البَذْرَةِ التي كَنْـزُهـا في الصـدور ، والإِنفـاقُ في قلوب المؤمنين ، فالكَنْزُ في القَلْبِ ، وَمَوْضِعُ الإِنفاقِ على الضيف في الصدر ، والإِنفـاقُ في سبيل الأركانِ والجَوَارِحِ من الأمْرِ والنَّهْيِ الذي رَسَمه في التنزيل ، فَيَأْتَمِرُ بأَمْره ، وَيَنْتَهِي عن نَهْيِهِ ؛ فكلاهما في سبيل الله تعـالى ، إلَّا أَنَّ أحدَ السبِيلين[3] للقلب إلى العَرْشِ ، وسبيل آخر للنفس إلى طاعةِ الله تعالى ، ثم إلى الجنة .

وإنما يستكملُ في سبيل الطاعةِ بالسبيل إلى العَرْشِ ، ثم قال : ﴿ ولا تُلْقُـوا بأَيْـدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَة ﴾ ؛ فَيَـدْعُـو مجـاهـدَةَ النفس ، وردّ الهَوَى من حيث جاءَ وبما جاءَ من باب النار ، ثم قـال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المحسنين ﴾ ؛ أي أَحْسِنُوا مجاورةَ مَعْرِفَتِي في قلوبكم ، فإِنَّ

(١) وهي قـولـه تعـالى : ﴿ إِنَّمـا الخمـرُ والميسـر والأنصـاب رجس مـن عمـلِ الشَّيْطَانِ ﴾ . . . الآية ٩٠ من المائدة .

(٢) وهي قوله تعالىٰ : ﴿ يـٰأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَـا أَضعافاً مضاعفـةً ﴾ . . . الآية ١٣٠ من آل عمران .

(٣) السبيل : الطريق .

معرفتي وعِلْمِي وَتَكَلُّمي أنوارٌ لا تحتمِلُ الأدناس[1] ، ومجاورةَ الأَنْتَان والمَزَابِل ؛ وقد عَلِمْتُم أَنَّ الغِلَّ والغِشَّ ، والمَكْرَ والحَسَدَ ، وحُبَّ الدنيا ، واتِّبَاعَ الهوى ، كلُّها أَنْتَانٌ وَمَزَابل ، وظُلْمة وأَدْنَاس ، وأَنْجَاس وأَرْجَاس ؟

فَإذا وجدتُم في صدوركم سلطانَ هذه الأشياءِ عاملاً[2] فيها فكيف يكونُ حالُ هذا الضيف عندكم ؟ وأَيْنَ إكرامُكُم إيّاي ، وَوَصِيّتِي إياكم بالإحسان إليه .

ثم قال : فيما رُوِيَ عنه في بعض الكتب : إني أُكْرِمُ مَنْ أكرمني ، وأُهِينُ مَنْ هان عليه أَمْرِي .

فإكرامُ الله تعالى أَنْ تُكْرِمَ معرفتَه التي وضَعَها فيكَ ، وتصونَها من الأَدْنَاس والأَنْتَان والمَزَابِلِ التي ذكرناها .

وقد قال عليه السلام : الإيمان حُلْوٌ نَزِهٌ فَنَزِّهوه . فحلاوَةُ الإيمان الحبُّ الذي وضع فيه ، وَنَزَاهَتُهُ أَنْ تُنَزِّهَه عن هذه الأشياءِ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المحسنين ﴾ ؛ أي أَحسنوا إلى هذا الضيف ، وأحسنوا مُجَاوَرَتَه ؛ فإذا قال : أَحسنوا ، فإنما يَقَعُ الإحسانُ على كل شيءٍ ، كما قال عليه السلام[3] : إن اللهَ كتب الإحسانَ على كل شيءٍ ، فإذا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتْلة[4] ، وَلْيُحِدَّ[5]

---

(١) الأدناس : الأدران والأوساخ .

(٢) عامل [في الأصول] وهو تحريف .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٥٤٨) .

(٤) القتلة : هي الحالة والهيئة .

(٥) يُقال أحد السكين وحددها واستحدها : شحذها .

أَحَدُكُم شَفْرَتَه ، وَلْيُرِح ذبيحته[1] .

وقال جلَّ ذكره[2] : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحساناً ﴾ . وقال جَلَّ ذكْرُه[3] : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ ﴾ . وقال اللّهُ عَزَّ وجل[4] : ﴿ إن اللّهَ مع الذين اتَّقَوْا والذين هُم مُحْسِنُونَ ﴾ .

فَأَحْسن إلى من أحسن إليه ، وأَعْظَم شأْنه ، وَأَكْرم مُجَاوَرته ، وَطَهِّر مكانه [٧٤] ، وهو نورُ اللّهِ تعالى في قَلْبِ المؤمن .

وجه تشبيه القلب بالكعبة :

وقد عَظَّمَ اللّهُ تعالى شَأْنَ الكعبة وَطَهَّرها وَسَمَّاها بَيْتَه ، ولم يملِّكها أحداً من خَلْقِه ، وجعل حولها حَرَماً آمناً يلوذُ به[5] الخائفون ويمتنعون به من الآفات ، ويَتَطَهَّرُونَ بالطَّوَاف بهذا البيت مِنْ أَدناس[6] الذنوب ، ويرجعون في وَقْتِ الصُّدُور[7] عنه مغفورين ؛ فَنُورُ اللّهِ أَعْظَمُ شَأْناً وحرمةً من الكعبة .

وَقَلْبُ المؤمن خِزَانَةُ اللّهِ تعالى ، فيه كنوزُ المعرفة ، وكنوزُ العلمِ بـآلائه[8] ، ولم يملِّكُه أحداً ، ولم يُطْلع عليه أحداً ، ولم يَكِلْه إلى

---

(١) وإحسان القتلة يكون بإراحة الذبيحة بإحداد السكين وتعجيل إمرارها .

(٢) الإسراء (١٧/ ٢٣) .

(٣) القصص (٢٨/ ٧٧) .

(٤) النحل (١٦/ ١٢٨) .

(٥) يلوذ به الخائفون : يلجأون إليه ويحتمون به .

(٦) الأدناس : الأوساخ .

(٧) الصدور عنه : الرجوع عنه .

(٨) آلائه : نعمه .

أحـد ؛ فهـو في قبضتـه وبين إصبعين من أصـابـع الـرحمٰن يُقَلِّبُـهُ كيف يشاءُ .

كذا رُوي لنا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسمي بهـذا الاسم : يا مُقَلِّبَ القلوبِ والأبصار ؛ ثَبِّتْ قلبي على طاعتك(١) .

وكـان هذا الاسم هِجِّيري(٢) رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وكـان عَامَّـةُ دعائـه بهذا الاسم ، وعـامةُ حـاجته في الثبـات ؛ قالت(٣) عائشةُ رَضِيَ الله عنها : قلت : يا رسولَ اللّهِ ، إنك لتُكثِرُ هذا الدُّعاءَ : يا مقلِّب القلوبِ والأبصارِ ، ثَبِّتْ قَلْبِي على طاعتك(٤) . فقـال لي : يا عائشة ، إنَّ القلوبَ بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يُقَلِّبُها كيف يشاءَ . ثم قرأ قـولَ اللّهِ سبحانه(٥) : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَـا بَعْدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحمةً إنك أَنْتَ الوَهَّاب ﴾(٦) .

الرواياتُ لهذا الحديثِ من غَيْرِ وَجْهٍ واحد ولا اثنين ولا أربعة ولا

---

(١) والشاهد على ذلك أن الرجل يعمل الدهر الطويل عمل أهل الجنـة لكنه لا يبقى بينـه وبينهـا قدر ذراع فيعمـل عمـل أهـل النـار فيحق عليـه القـول فيصبـح من الهـالكين والعكس فقد يعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينـه وبينها قـدر ذراع فيعمـل بعمل أهـل الجنة فيحق عليـه القول فيـدخل الجنـة وينجو وهـذا من رحمتـه سبحانه وتعالىٰ به ولطفه ، وقـد قال صلَّى الله عليـه وسلَّم : « إذا أحبَّ الله امـرؤاً استعمله ، قيـل وكيف يستعمله يـا رسـول الله ؟ قـال : يهيِّئـه لعمـل صـالـح قبـل موته . . . فتأمل. اللهم اجعل خواتيم أعمالنا للخير وفي طاعتك ، واجعل خير أعمالنا ما قارب آجالنا . . . آمين » .

(٢) هجيري رسول الله : شأنه ودأبه .

(٣) أرجو مراجعة الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠) .

(٤) على دينك [القرطبي] .

(٥) آل عمران (٣/ ٨) .

(٦) لا تزغ قلوبنا : لا تدعها تنصرف وتميل عن الدين .

خمسة ، كلُّهم يَرْوُون هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل اللّهُ قَلْبَ المُؤْمِنِ خزانته ، وفيها كنوزُهُ ، وهو مُمْسِكُه ، وجعل صَدْرَه حَرَماً .

فإذا كان الحَرَمُ له من الحُرْمَةِ أنه لَا يُصاد صَيْدُه ، ولا يُقْطَع شَجَرُهُ ، وَلَا تُلْتَقط لُقَطتُه[١] ، ولا يَخَافُ مَنْ دَخَلَهُ ، وَصَيَّرَهُ[٢] مَأْمَناً ، وَمَهْبِطَ رَحْمَتِهِ[٣]، وموضِعَ نَظَرِهِ مِنْ بين جميع الأرض، فَقَلْبُ المُؤْمِن أَعْظَمُ شَأْناً من الحَرَمِ ، وما فيه أعظَمُ من الكعبة ؛ فإن كانت الكعبةُ بَيْتَه ؛ فهذا نورُهُ في خزانته ، وإنْ كانت الكعبةُ لا يَمْلِكها غَيْرُه ، فهذا القَلْبُ أيضاً في قَبْضَته لا يَمْلِكُهُ غيره ، وإن كان مَا حَوْلَه حَرَماً ؛ فالصَّدْرُ حَوْلَ القلبِ حَرَمٌ لهذه الخزانة ولِمَا فيها ، فكما قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَحدثَ في الحَرَمِ حَدَثاً أو آوَى[٤] مُحْدِثاً[٥] فعليه لَعْنَةُ اللّهِ والملائكة والناسِ أجمعين ، لا يُقْبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ[٦] .

فهذا المُحْدِث هو خارجيّ يخرج بالجَوْرِ والباطل على إمام عَدْلٍ مُحِقّ ، فهو المحدِثُ وَمَنْ أعانه أو آوَاهُ فقد استوجب اللّعْنَةَ . فكذلك مَنْ أَحدَثَ في هذا الصَّدْرِ حَدَثاً من هَوَىً أو بِدْعَةٍ استوجب اللّعْنَة ولم

---

(١) اللقطة : اسم الشيء الذي يوجد ملقياً .
(٢) صيَّره مأمناً : أحاله مأمناً .
(٣) مهبط رحمته : منزل رحمته .
(٤) آوى : ضمَّ إليه وألجأ .
(٥) المحدث : الجاني .
(٦) قيل الصرف : التوبة ، أما العدل : فهو الفريضة .

يُقْبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ ولا تَوْبَة ؛ لأنه خَرَّبَ الدِّين ، ورَام[1] أَنْ يَأْخُذَ ولايَةَ القلب بالتوحيد ؛ فَإِنَّ القَلْبَ أَمِير على النفس ، والإِمْرَة بالكنوزِ والجنود حتى يَمْضِي سلطانُهُ على الجَوَارِح في الأَمْر والنهي ، وقوة كنوزِ المعرفة ، وعلم التوحيد ؛ فهؤلاء الجَبْرَيَّة[2] والقَدَرِيَّة[3] والمُرْجِئة[4] والمُجَسّمة والمُعَطّلة عليهم لعائِنُ[5] اللّهِ تَتْرَى[6] قد أَحْدَثُوا في الحَرَمِ على خزانةِ اللّهِ أكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّنْ أَحدث في الحَرَم على بيتِ اللّهِ .

وكما لا يُصاد صَيْدُ الحَرَم فكذلك ما تَطَايَر في الصَّدْرِ من الخَوَاطِرِ مِنْ صفاتِ اللّهِ تعالى ؛ فليس تُصَادُ تلك الخواطر ، فَيُدْخِلُ قَلْبَه مداخل الفكر لكيْفيته ؛ فإنه ليس لتلك الصفات كيفيةٌ ولا مُنْتَهى ولا مُلَاحظة ، فاستغفر اللّه كما تكْفُر[7] أولَ صَيْد تَأْخُذُهُ .

---

(١) يروم : يطلب والمرام : المطلب .

(٢) الجبرية : هم قوم قالوا بالجبر أي أن الله سبحانه وتعالىٰ أجبر العباد على المعاصي وحملهم عليها ومعاذ الله أن يكون ذلك ، لأنه لا يعقل أن يحمل الحق سبحانه جلّ شأنه عباده على معصية ، أو على أمر ثم يحاسبهم عليه ، تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً .

(٣) القدرية : هم مكذبون بما قدّر الله من الأشياء فهم يجحدون القدر . راجع الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٠٥ .

(٤) المرجئة : وهم قوم مسلمون قدموا القول وأرجئوا العمل وأخّروه ، ويقولون إن الإيمان بغير عمل يكفي للنجاة من عذاب الله ، ويقولون (لا يضر مع الإيمان معصية) راجع أصناف المرجئة في الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٥ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط . دار المعرفة ـ بيروت .

(٥) لعائن : لعنات ، جمع لعنة .

(٦) تترى : تتتابع وتتوالى .

(٧) تكفر : تستر .

ثم قال اللّهُ تعالى(١) : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللّهُ منه ﴾ ؛ أي يعاقبه .

وحذَّرك الكُفْرَ ، فإنه ينتقمُ منكَ إذا اتَّبعْتَ الخواطرَ ففَكَّرْتَ .

وقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم : تَفَكَّروا في خَلْقه ، ولا تَفَكَّرُوا فيه .

وكما لا تُقْطَع أَشجارُ الحَرَم فتذهب نُزْهَته وخُضْرَتُهُ لا تسقط حرمةُ أَشْجَاره أيضاً لأنها في المَأْمَن .

وروي عن رسولِ الله صلى اللّهُ عليه وسلم أَنه قال : ما صِيد مِنْ مَصِيد ، ولا قُطِعَتْ شَجَرَة إلَّا لِغَفْلَة عن التسبيح .

وَرُوِيَ عن أَبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه أَنه أَتى بغُراب(٢) وافِر الجناحين ، فمسحه بيَده ، وقال : الحمدُ للّه ربِّ العالمين ؛ سمعتُ رسولَ اللّهِ صلَّى الله عليه وسلم يقول : ما صِيد من مَصِيد ولا قُطعت شجرةٌ إلا لغَفْلَة عن الصلاة والتسبيح .

فَإذا كانت الأشجارُ إنما يُسَلَّطُ الآدَمِيُّ عليها في وقت غَفْلَتها(٣)

---

(١) المائدة (٣/ ٩٥) .

(٢) وافر الجناحين : طويل الجناحين .

(٣) والسهو والغفلة عن التسبيح من ظلم الذوات لنفسها وحيفها وهو أشد ألوان الظلم للنفس لأن فيه حرماناً من فيض الرحمات الإلهية ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وقال عزَّ من قائل : ﴿ ومن أعرضَ عن ذِكْري فإنَّ له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ، قال : ربِّ لم حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيرا ، قال : كذلكَ أتتكَ آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنسىٰ ﴾ .

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم : «اللّهمَّ أعِنَّا على ذكركَ وشُكركَ وحُسْنِ عِبادتِك » .

عن التسبيح ؛ لِأَنَّها على قَطْعِهَا صارت مُعَاقَبةً بتَرْكِ التسبيح ، وجُعلت شجرة للآدميين ، فيكون تسبيحُها مكانَ تسبيحِ المُمْتَنعين عن التسبيحِ بِشِرْكِهِم وَكُفْرِهِم ، لتتماسكَ الأَرْضُ بتسبيح المسبِّحين الموَحِّدين ، وَمَنْ لَحِقَ تسبيحَهُم من الجِبَالِ والأَشجار ، والخَلْق والخليقة ؛ فإنما يُسلَّط على قطعها بِتَرْكِهَا التسبيح وَغَفْلتها ، فإذا كانت الشجرةُ في الحَرَم فهي في المَأْمن مَأْمن بيت اللّهِ تعالى .

وقال اللّهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً للناسِ وَأَمْناً ﴾[2] .

وإِنْ غَفَلَتْ عن التسبيح لم تَصِلْ إليها عقوبةُ القَطْع ، فَمُنِعَ الخلقُ عن قَطْعِها ، فَإِنْ قَطَعَهَا قاطعٌ فتلك جِنَايَةٌ . فَإِنْ غرم في الدنيا كان قد افتدى نَفْسَه بتلك الغَرَامَةِ والصَّدَقَةِ على المساكين بقيمتها ، وأَدَّى إلى الحَرَمِ حَقَّه ، وخرج من جنَايته على شجرِ الحَرَمِ ، وإن لم يغرَمْ في الدنيا مُوَحِّد كان أو مشرك فلا فَوت على اللّهِ مِنْ أَخْذِ حقِّه لحقِّه وَحَقِّ حَرَمه ؛ فإذا كان هذا شَأْنَ أَشْجَارِ الحرم فما ظَنُّكَ بمَنْ قطع أَشْجَارَ حَرَمِ القلبِ التي في الصَّدْر ؟

قال : تدبير اللّهِ تعالى في إبراز أَسمائه ، وعِلْمِ أَسمائه ، وما خرج من أَسمائه إلى الخَلْق ؛ فخرج باسْمِ العَرْش ، وبِاسْمِ الكُرْسيّ ، وباسم الجنَّة ، وباسم النارِ ، وباسم الملائكة ، وباسم آدَمَ

---

(١) البقرة (٢/ ١٢٥) راجع تفسير غريب القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد أحمد صقر ص ٦٣ ط . دار الكتب العلمية .

(٢) جعلنا : صيَّرنا ، والبيت هو الكعبة ، والمثاب : المرجع ، وقد يكون موضع الثواب .

عليه السلام والآدَمِيين ، وباسم المسَخَّرِين(1) ، وباسْمِ الليل والنهار ، وباسم الذي خَتَمَ الأسماءَ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه الأسماءُ كلُّها تدبيرُهُ . وهذا الخَلْق الذي منه خرج تَدْبِيرُهُ ؛ فهذه أَشجارٌ ؛ فمن اعترضَ تَدْبِيرَه ، فعارضَ اسْماً باستخفاف(2) أو جَهالة فقد قطع شجرةً ، ومن اعترض تَدْبِيرَه فعارضَ حقّاً من حقوقه في خَلْقِهِ فقد قطع أَغصانَ الشجرة ، وأَصْلُ الشجرةِ باق ؛ فإِنْ تاب وأَرْضَى الخَلْقَ عادت الأَغْصَانُ اليابسةُ رَطبة .

فَإِذَا كانت أَشْجَارُ الحَرَمِ حرمِ الكعبة هذا محلُّ صاحبها وهذا شَأْنُهَا فكيف بأَشْجَارِ حَرَمِ الصَّدْرِ ؟ ما ظَنُّكَ بِمَنْ عَارَضَ تَدْبِيرَ اللّهِ تعالى ؟ أَليس هو مُنَاصِبٌ(3) لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حيثُ لاَ يَعْلَم استبداداً وتورّعاً(4) عن أَشياء [٧٥] على المُرَاءَاة(5) ، وَتَمَاوُتاً(6) عند الخَلْق ، وتخشُّعاً بخشوعِ النِّفَاق ، وَجَوْفُهُ مُمْتَلِيءُ من الحَسَدِ والحِقْدِ ، والرغبةِ والشُّحِّ والبُخْلِ ، والأَمَل وسُوءِ الظن ، والغِلِّ والغِشّ والمَكْر ، وأَنواع الخِيَانَات ، والاستخفاف(7) بأَهْلِ مِلّته ، وقلّة الرحمة والعَطْف ، وقطيعَةِ الرَّحِم ، والتَعَزُّزِ(8) والتكبُّر ، والتجبُّرِ(9) والمُراءَاةِ والتنزُّين

(1) المسخرين : المستعملين مجاناً مذللين .
(2) استخفاف : استهانة .
(3) ناصب فلاناً العداء : كاشفه وظاهره وجاهره به .
(4) الاستبداد بالأمر : الانفراد به ، والتورع : الكف .
(5) المراءاة : إظهار نقيض المطوى عليه .
(6) التماوت : مراءاة الناسك .
(7) الاستخفاف : الاستهانة وهي من جعل الشيء خفيفاً .
(8) التعزز : الصيرورة إلى العزة .
(9) التكبر والتجبر واحد .

والتصنُّع ، والمُدَاهَنة[١] وتعظيم الدنيا ، والعَوْن في غير ذاتِ اللّهِ تعالى على الضرِّ والنَّفْع ، والبَطَر[٢] بأَنْعُم اللّهِ تعالى ، والكبرياءِ على عِبَادِ اللّهِ تعالى ، والفَخْرِ في عطيَّةِ اللّهِ تعالى ، وَخَوْفِ الفقْرِ ، والفَرَح بالدنيا وبأَحوال النفس ، والحُزْنِ على فَوْتِها ، والتملُّك في أَمْرِ اللّهِ ، والاقتدارِ والسُّخط للمقدور ، وقلةِ الأَمْنِ للرزْق ، والاستبدادِ في أَمْرِ الله تعالى ، والتَّهاوُن بالمؤمن ، فقد حشا جَوْفَه وَزَوَايَا بَيْتِهِ من هذه الأَشياءِ ، وَمَلأَ صَدْرَه من دُخَانِها وَظُلْمَتها وَأَنْتَانِها[٣] وَأَدْنَاسها ؛ لأَنَّ هذا كلَّه من أَغصانِ الكُفْر والشِّرْك ، والخروجِ على الله ، والمُضاهَاة[٤] بطلب عِزِّه وكِبره في أَرْضه بدُنيا دَنِيَّة ، وَشَهْوَة رَدِية ، وَيَتَجَبَّرُ في حقوقه ، ويتزيَّنُ لِعَبيدِهِ ، كمن لا يُؤْمِنُ باللّهِ ، ويُدَاهِنُ في أَمره ، كمن لا يَعْرِفُ رَبَّه ، ويُعَظِّمُ دُنْيَاهُ التي حَقَّرها ، كمن يُنَاصِبُ رَبَّه ، ويُعِينُ في غير ذاته ، كَمَنْ يُرِيدُ خرابَ ما عمره اللّهُ تعالى ، وَيَبْطَر بأَنعمه ، كمن لا يُبَالي بها ، ولا يستَحْيِ من المُنْعِم ، وَيَسْخَط في مقدوره ، وَيَتَجَبَّرُ في أُمورِه ، كأنه هو المُدَبِّر للأُمور ، فَأَيَّةُ حُرْمَةٍ بَقِيَتْ لهذا الحَرَم ؛ وَأَيَّةُ معرفةٍ بقيت لصاحب هذا ، وقد أغار العدوُّ على كُنُوزِهِ ، فبدَّدها[٥] وَطَمَسَها[٦] بما جَاءَ به من هذه الأشياءِ ، وهزم العَقْلَ حتى انكمن[٧] في رَأْسِهِ وحتى ذهب عِلْمُهُ وإشراقُهُ في الصَّدْرِ .

---

(١) المداهنة : المساهاة وإظهار ما هو خلاف الباطن .

(٢) البطر : كنود النعمة وعدم الشكر عليها .

(٣) الأنتان : الجيف والأوساخ .

(٤) المضاهاة : المعارضة والمشاكلة .

(٥) بددها : فرقها .

(٦) طمس الشيء : محاه .

(٧) انكمن : توارى واختفى .

قال له قائل : قد ذكرتَ أنه لا تلتقط لُقَطَتُهُ فايش[1] لُقَطته ؟

قال : سِرُّ القَدَر ، والعلوم التي حُجِب الخَلْقُ عن إدراكها ، فذاك لُقَطته ، لا يُعْرَفُ بَيْتُها ولا وَلِيُّها ، ولا يملِكُها أَحدٌ سواه ؛ وهي موضوعةٌ في طريق التوحيد ، ومَدْرَجة[2] العقول إلى التوحيد بَلْوَى[3] لِلْعِبَاد ؛ فأَهْلُ الزَّيْغ[4] طالبون لها ، وباحثون عنها ، ويفتِّشون لها ، ولن يَزْدَادُوا بذلك التفتيش إلَّا غَمًّا وحَيْرة ؛ لأنه عِلْمٌ لَا يُدْرَكُ مُنْتَهاه ؛ بمنزلةِ بَحْرٍ عَمِيق مُظْلِم لا يُدْرَكُ حَدُّه ولا نهايتُه ؛ فالسابحُ فيه كمنْ سبَح في البَحْر ؛ فلا بُدَّ له من الغرَق والهَلْك .

فهذه اللُّقَطَةُ في الصَّدْرِ حَرَمُ القلبِ ، فلا تُلْتَقط لحُرْمَةِ التوحيد ؛ لأَنَّ مِنْ شرط التوحيد أَلَّا تطمعَ للعباد[5] فيما توحَّد اللَّهُ تعالى به وتفرَّد .

ويحقُّ على العاقل أَنْ يَعْقِلَ ، فيقول : إذا قلت : اللَّهُ وَاحد أَحَدٌ فَرْد ، فأَيُّ عِلْمٍ في الأَحدِية والفَرْدِية ؟ إنَّما العلمُ في الصفات صفاتِ القُدْرَةِ ، فإذا انتهيت إلى أَحدِيَّته وفَرْديته ، فأَيُّ عِلْم هناك تطمَعُ في معرفته ، وقد انقطعت الصفاتُ ؟ وكيف تصفُ عِلْماً ولا صفَة له ؟

وقوله : لا يخافُ آمِنُها ، فالحقُّ إذا وَجَد في القَلْبِ والنفس مَأْمَناً فقد اعتزل الخيانةَ ، وظهر مكانَه الأَمْنُ ؛ فصار صاحبُه مُحقًّا ، فعندها

---

(١) أيش لقطته ؟ : ما تكون لقطته .

(٢) المدرجة : الطريق أو الطريق المنعطف .

(٣) بلوى وابتلاء بمعنىٰ الاختبار .

(٤) الزيغ : الانحراف عن طريق الاستقامة .

(٥) ربما يقصد المؤلف بالذات الشرك الأصغر ، أو الخفي .

يكونُ الحقُّ مُسْتَعْمَلَه(1) . وإذا لم يَجِدْ في الصَّدر مَأْمَناً فقد نَفَر ؛ فلم يأْمَن خيانَة النَّفْسِ ، وَمَيْلَ القَلْبِ ؛ فصاحِبُهُ في طلبِه وهو ماضٍ عنه .

وقولنا : مَهْبِطَ رَحْمته ومَوْضع نظَره فهي معروفة ؛ فإذا كانت الكعبةُ مَهْبطَ الرَّحْمةِ فكذلك قَلْبُ المُؤْمِنِ مَهْبط حُبِّ اللَّهِ تعالى وَرَأْفتِه ، ومَهبط جُودِه وكرَمِهِ ، وعَيْنُ اللَّهِ تَرْعَاه ، وَمَوْضِع نَظَرِه أيضاً .

الخبر : إنَّ(2) اللَّهَ تعالى لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكم ولا إلى أَعمالكم(3) ولكن ينظرُ إلى قُلوبكم ونِيَّاتكمْ ، فمن كان له قَلْبٌ صالح تحنَّنَ اللَّهُ تعالى عليه ، فإذا تَحَنَّنَ(4) عَلَيه رَعَاه وصيَّره في قَبْضَتِه .

الخبر الذي قال : كنْتُ سَمْعَه . وقال رسولُ اللَّهِ صلّى اللَّه عليه وسلّم(5) : ألَا إنَّ التَّقْوَى ها هنا - ثلاثاً - وأَشار إلى الصَّدْر في كل مَرَّة .

وأَعظَمُ التقوى ما اتّقى في الحَرَمِ ، فإذا اتَّقَى فإنما يتَّقِي على الصَّيْدِ والشَّجَر واللقَطَة ، فإذا كان ذلك كذلك فالتَّقْوَى الذي أشار إليها صاحبُ الشَّرْع ؛ فهي على كُنُوزِ المعرفةِ وعلى أشجارها في الصَّدر وعلى لقَطَتها ، وعلى مَن الْتَجأَ إليه مَأْمَناً ؛ فأَوْفَرُ الناس حظًّا في الكعبة

---

(1) مستعمله : عمله .

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٩٢٧) .

(3) حاشية أ، ب ورد فيها : - « لا ينظر إلى صدوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، كذا هو في الصحيح ، وفي صحيح مسلم : ولا إلى أموالكم . وتمامه فيه : ولكن ينظر إلى قلوبكم - وأشار بإصبعه إلى صدره .

(4) يتحنن عليه : يشفق عليه ويرأف به .

(5) راجع صحيح مسلم (١٩٧٦) .

مَنْ عَظَّم شَأْنَها ، واتَّقى على حَرَمها ، وأَكثَر الطَّوَاف بها ، وإِنَّما يفعلُ ذلك من شَمَّ رائحةَ الكَعْبَة ، ونَظَر إِليها بعَيْنِ الصِّحَّةِ لا بِعَيْن السَّقَم[1] ؛ مِنْ قَلبٍ لا سَقَم فيه مِنْ شهواتِ النَّفْسِ وإِرادات الهَوَى ؛ فنظَرَ بعَينِ ذلك القَلْبِ إِلى بَهَاءِ[2] الكعبةِ ، وإِلى ذلك الشيء الذي به صارت الكعبةُ كَعْبَةً ، لا إِلى تلك الأَحجار ؛ لأَنها قد كانت كعبةً ولا أَحجار ؛ وكانت الملائكةُ والأنبياءُ صلواتُ اللَّه عليهم أَجمعين تَحُجُّها فيما بين نُوح وإِبراهيم عليهما السلام ولا أَحجار ثَمَّة[3] .

فأَوْفَرُ الناسِ حظًّا من خزانة اللَّه التي في قَلْبِ المُؤْمِن مَنْ عظَّم شأْنها ، واتَّقَى على صَدْرِه ، وأَكْثَرَ الطَّوَافَ حَوْل الخزَانة ، حتى يُدِرَّ عليه وَلِيُّ الخزانةِ من الكنُوز ، كما يُدِرُّ الضَّرْعُ على حالِبه من اللَّبَن ؛ فإِنَّ البقرةَ والشاةَ تَدرّ مِنْ ضَرْعِها على وَلدهما لترضِعَهما بالرأْفة والرحمة التي وُضِعت فيها ، ولولا تلك الرحمةُ لوَلَدها ما دَرَّ لَبَنُها .

أَلَا ترى أَنَّ الحالبَ يُقَدِّمُ عند الحَلْب وَلَدَها إِليها أَوَّلًا حتى تُرْسِلَ اللَّبَنَ ، ثم يَفْطِم وَلَدَها عنها وَيَحْلبها ، ولو مات ولدُها مثَّل لها مثالَ وَلَدها بأَنْ يُحْشَى جِلدُ وَلِدها تِبْناً ، ويُوضَع بين يديها لَتَنْخَدِع بذلك ، فتدرّ لبنَها .

فأراك هَذَا ربُّ البقرةِ من خَلْقِه ، وعرَّفكَ أَنَّ الذي تُصِيبُ مِنْ عندي فتدرّ عليك رحمتي .

---

(١) السقم : المرض .

(٢) البهاء : الحسن والرونق والجمال .

(٣) ثمَّة : هناك .

قال له قائل : وما يُدرّ عليه من الخزانة من تلك الكنُوز ؟

قـال : يدرُّ بـالرَّحْمَـةِ ـ كما وَصْفْتُ من شَـأْن الضَّرْع والـدَّرِّ ـ من الكنوز وعِلم المعرفة .

علـم المعــرفـة :

قال له القائلُ : وما عِلْمُ المعرفة ؟

قـال : عرفتَ الـرَّب ؟ قال : نعم . قـال : بـأَيِّ شيء عـرفْتَـه ؟ فانْقَطع[1] . قال: عرفَني نفْسَه من الصفات . قال : فما احْتَظَيْتَ[2] من هـذه الصفاتِ ؟ قـال : الإيمان بـه . فكان ذلـكَ حظَّك مِنْهـا ؟ أَم علم مشـرق مستنير ؟ أَمْ مـطالعة بِبَصَـائر الهُـدَى ؛ فإنَّ علْمَ المعـرفة للعـامة الإيمـانُ بـه، وهـو الـظالمُ لنفسـه ، مـا زَال يـظلِمُ نَفْسَـه بـاتِّبَـاع الهَوَى والشهوات ، حتى احْتَجَبَت المعرفةُ عنه ؛ فصـاحبُه عـالمٌ جاهـل مؤمنٌ بـه ، يَعْثُر مـرّةً في طريقـه ، ويقوم أُخـرى ، ويَزِلُّ[3] مـرّة ، ويُنْعَش[4] أُخرى ؛ فهو بين طاعة ومَعْصية ، حتى يَقْدَم على رَبِّه بهذه الحالة .

وعلم المعرفة للصـادقين مُشْرِقٌ نَيِّـر وَاضح ، وهـو المقتَصِدُ[5] ؛ يُشِيرُ إلى اللّه تعالى على مَدْرَجة[6] الصِّـدْق في الفعل[7] جَهْـداً وحَذَراً وحراسةً [٧٦] ، بـاكياً على نفسـه ، يَقْتَضِي منها الصـدقَ في الفعل[7]

---

(١) انقطع : سكت .

(٢) احتظيت : كان لك حظوة .

(٣) يزل : يكبو ويسقط .

(٤) ينعش : يرتفع ، ويقوم .

(٥) المقتصد : الذي يعطي كلاً من الدنيا والآخرة حقها .

(٦) المدرجة : الطريق .

(٧) العقل [ب] وهو تحريف .

جهداً في كلِّ حركةٍ وفعلٍ وقَوْلٍ .

وعلمُ المعْرفةِ للصدّيقين مطالعةُ البراذين[1] ، ومشاهدة المعادن ، وذلك باليَقين ، وهو علمُ السابقين المُقَرَّبين ، قال اللّه جلّ ذكره[2] : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِين . لتَرَوُنَّ الجَحِيم ﴾ .

فبِعِلْمِ اليقين ، وبقوةِ نُورِهِ ، يَرَى عَيْن اليَقِينِ[3] بالبَرَاذِين[1] والمَعَادِن التي تَظْهَرُ منها الصفاتُ ورُبوبية الرَّبِّ .

فذلك العِلْمُ النافِذ ببَصَرِ قَلْبه إلى نُورِ رُوحِهِ[4] ، المتوقِّد في عَيْنه الظاهرةِ التي في رَأْسه ؛ فإذا نظر إلى الأشياءِ أبصر آيةَ القُدْرَةِ في الأَشياءِ كلِّها ، وآثارَ الربُوبية ، فلا تَقْدِر زِينةُ الأَشياءِ وبَهْجَتُها وحلاوَتُها أنْ تَغُرَّه عن اللّه حتى يتعلَّق قَلْبُه بشيءٍ دونَ اللّهِ تعالى ، فيحجبه عن اللّهِ تعالى ، فيصير فِتنةً عليه ، فيَعْمى بَصَرُ قَلْبه ، ويَبْقى في ظلماتِ النفسِ ، وحُبِّ الشهوات ؛ ويتكدَّر روحُهُ ، ويُسْلَبُ قَلْبُه الإِمْرَة ، ويَغْلب الخارجي .

فإذا لم يَكُنْ له هذا العلمُ في صَدْرِه على صفةِ السابق[5] المقرَّب ، وإنَّما كان عِلْمُه على صفةِ المُقْتَصد فهو مشغولٌ يَقينه بوهَج

---

(١) البراذين : الدواب ، جمع برذون .

(٢) التكاثر (١٠٢/ ٥،٦) قال صلَّى الله عليه وسلَّم : « لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » . راجع القرطبي (٢٠/ ١٧٢) راجع أيضاً التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢١٦) .

(٣) عين اليقين : بالمشاهدة .

(٤) إن المتأمل في سياق الأسلوب يرى أن المؤلف رجل روحاني ، في أسلوبه واستعماله ألفاظ الصوفية التي كثيراً ما ترد على ألسنتهم .

(٥) السابق المقرب : من السلف الصالح .

الحـروب ومحاربـة الأَبـطال حيث الْتَقَيـا ؛ فَمَـرَّةً منصـور، ومـرة مَخْذُول(1) ؛ فمتى يقدر أَنْ يُلاحِظَ آثارَ القُدْرَةِ والرُّبُوبيّة ، وليس لبَصَـره نُورٌ أَنْ يَنْفُذَ إلى رؤية ذلكَ ، وهو بَعِيدٌ مِنْهُ ؟

ومَنْ كان عِلْمُه عِلْمَ الظالِم لنَفْسِه فـذلكَ عِلْمُ اللِّسـان ، قد تلقَّنَـهُ من أَفواهِ الرجال سَمْعاً ، ومِنَ الكتُبِ نَـظَراً ، فأَوْدَعَـه حفْظَه حتى يُبْـرِزَه الحِفْظُ من صَدرِه في وقْتِ الحاجـة ، وليس له قـوةُ ما يُجَـاهِدُ بـه نَفْسَه فيحاربَها ويَهْزِمَها(2) .

وتلك حجةُ اللَّهِ تعالى عليه ، يقول ويهدي الناس إليه ؛ فإذا صار إلى إقامتِه بنفسه صارَ أَضَـلَّ من الأَنعام ؛ يَغْلِبُـه الهَوَىٰ في الشَّهَـوات . قـالَ اللَّهُ جَلَّ ذكـره(3) : ﴿ قُلْ يَـا أَهْـلَ الكتـابِ لَسْتُمْ على شَيء حتى تُقِيمُـوا التَّـوْرَاةَ والإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبِّكم ﴾ ؛ أَي في وقْتِ محمدٍ صلّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

العـلم علمـان :

قـال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليـه وسلم : العِلْمُ علمان : عِلْمٌ في القلب ، فذاكَ العِلْمُ النافع ، وعِلْمٌ في اللسان ، فذَاكَ حجةُ اللَّهِ تعالى على ابْنِ آدم .

---

(1) المخذول : المهزوم المتقاعس ، المدبر .

(2) لأن النفس هي سبب الهـلاك والضياع الـذي يودي بـالإنسان لأنهـا كلفة بـالشهـوات والمعاصي .

(3) المائدة (5/68) راجع جامع البيان للطبري (10/474) والجامـع لأحكام القـرآن للقرطبي (6/245) .

فالعِلْمُ النافع هو علمُ السابِق وعلم الحُجَّة الذي يخنقُ صاحبَه في الْبَرْزَخ[1] وفي المَحْشَر ، هو عِلْمُ الظالِم لنفسه[2] ؛ أَعاذَنا اللَّهُ وإياكم برحمته .

قال له قائلٌ : فهذا المَلك الذي بَعَثَ الضَّيْف ومعه نَفَقَةٌ ، وقد تفاوَتَتِ النَّفقاتُ[3] ؛ فنفقةٌ هي دَرَاهم ، ونفقةٌ هي دَنَانير ، ونفقةٌ هي جَوَاهر ، ما هَذَا ؟

قال : فالذي ذكَرْنَا من النفقات الثلاث من الأَصناف هي العلوم ، وهو عِلْمٌ واحدٌ صارت علوماً ، والعلم لا يُدْرِكُهُ القلْبُ إلَّا بالحياةِ ؛ لأَنَّ هذا كلَّه علمُ الغيب ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّفْس إذا نامت أَو ماتَتْ ذهبت حَيَاتُها ، وذهب عِلْمُ القَلْب ؛ فهو ميِّتٌ لا يَدْرِي ، وَحيٌّ نائم لا يَدْري شيئاً . .

فقد بانَ لكَ من أَنَّ علْمَ الظاهر قد غابَ عنه بالنَّوْم والموت لزَوَالِ الحياة فيهما ، فكذا إذا ذهبت حَيَاةُ القَلْب باللَّه فقد غاب عنه عِلْمُ الغُيوب ؛ فإذا أُعطي القلبُ حياةَ العلمِ باللَّه عرفَ ربَّه وعلمه .

---

(١) البرزخ : هو الفاصل والحاجز بين شيئين ، وهو الوقت ما بعد الموت وحتى البعث يوم القيامة ويسمى البرزخ أو الحياة البرزخية .

(٢) الظالم لنفسه : هو الكافر والمشرك ، لقوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الشرك لظلم عظيم ﴾ لقمان (٣١/ ١٣) .

يقول الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير (٢١/ ١٠٨٧) : « أي أن الشرك لقبيح ، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء في غير موضعه » اهـ . راجع أيضاً القرطبي (١٤/ ٥٩) .

(٣) تفاوت النفقات : اختلافها .

وقد قال جل ذكره[1] : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجعَلْنَا له نُوراً يَمْشِي بِهِ في الناس كَمَنْ مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

فهذا كان قلباً ميتاً عن اللَّه تعالى أعطاهُ نورَ العَقْلِ والعِلْمِ ، فعرف ربَّه ، وإنَّما عقَلَ العِلْمَ بنُور الحياة ، فلما عَرفه اطمَأَنَّ إليه ، وأَسْلَمَ نَفْسه إليه عُبُودة ، فلزِمَه الاسْمَان : مؤمن ، ومسلم ، الإيمان مِنْ جهةِ استقرارِ القَلْبِ[2] ، والإسلام من جهة تسليم النَّفْسِ إليه عُبودةً بالأَمْر والنَّهْيِ ؛ فهما في عقد واحد ؛ عرف ربًّا فاطمأَنَّ إليه ، وعرف نَفْسَه عنده ، فسلَّم إليه نَفْسَه ؛ فهذه معرفةٌ واحدة ؛ إذا لحظَ إلى ربِّه عرفه رَبًّا ، وإذا لحظ إلى نفسه عرفه عَبْداً ؛ وإنَّما يُعْرَفُ هذا بحياةِ القَلْبِ ؛ أَدْرَكَ بها هذه المعرفة ، ثم دعاهُ إلى العُبُودَةِ الأَمْرُ والنَّهْيُ ، فجاءَته الشهواتُ الموضوعةُ في نفسه ، فثقَّلَتْه وجَمَحَتْ به في نَهْيِه ؛ فإذا جاهد في ذات اللَّهِ حقَّ جِهَادِهِ شكرَ اللَّهُ له ذلك ، وزَادَهُ في الحياة ، ليخفِّفَ أَوَامِرَه ، ويَكْبَح بلجامه في وَقْتِ جمُوحِهِ في المناهي ؛ وذلك قوله تعالى[3] : ﴿ يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم ﴾ .

فأَعَلمه بعد حَيَاةِ الإيمانِ أَنْ يُحْيِيَه بالطاعات ؛ فإذا أَطاع اللَّهَ في

---

(١) الأنعام (٦/ ١٢٢) كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم . راجع حاشية المطبوعة (ص ٢١٨) أو كان كافراً فهديناه . تفسير غريب القرآن ص ١٥٩ .

(٢) يقصد به اليقين القلبي .

(٣) الأنفال (٨/ ٢٤) « قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة » اهـ . راجع الطبري (١٣/ ٤٦٨) .

الأَمْر والنهي شَكَرَ لَهُ ذلك ؛ فزاده حياةً ، ليقطعَ قَلْبه عن العلائق وهَوَىٰ النفس شُكْراً له ؛ وهو قولُ اللَّهِ عَزّ وجلّ[1] : ﴿ واللَّهُ شُكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقد قال مالكُ[2] بن دِينار رَحِمه اللَّه : وجَدْتُ في بعض الكتب : إنْ سَرَّكَ أَنْ تَحْيَا وَتَبْلُغَ اليقين فاحْتَلْ في كل خير أَنْ تَغْلِبَ شهواتِ الدنيا ، فإِنَّه من يَغْلِب شَهَوَاتِ الدنيا يَفْرَق[3] الشيطانُ من ظِلِّه .

فإذا حَيِيَ القَلْبُ حياةً تبلغُ عِلْمَ اليقين صار مِنَ السابقين المُقَرَّبين ؛ فهناك يَحْيَا باللَّه ؛ فَعَايَنَ ببصرِ قَلْبه آثَارَ القُدْرة ، وآثارَ الرُّبوبيّة ، وبهاءَ الدين ، وزينةَ العبودية ، وبَهْجَةَ المِنَّة[4] ، وتَرْبط بلحظه إلى مَجَالِس النَّجْوَىٰ وبهجةِ المَرْعيّ بين يَدَيْه ؛ فحياةُ الأَوّلِ حياةُ الفضة ، وحياة الثاني حياةُ الذَّهب ، وحياةُ الثالث حياةُ الجوهر .

والفضةُ إِنَّما بَرِيقُها مِنْ حياتها ، وبَرِيقُ الذهب من حياته أَقْوَىٰ من الفضة وأَشَدُّ بَرِيقاً ؛ وبَرِيقُ الجوهر من حياته ، وهي أَقْوَىٰ من الذهب ؛ فكلُّ واحدٍ من هذه الأَشياءِ قد احْتَظَىٰ[5] من الحياة ؛ ولكن كل واحد أَقوى من الآخر .

---

(١) التغابن (٦٤/ ١٧) .
(٢) هو مالك بن دينار البصري ، أبو يحيىٰ ، من رواة الأحاديث ، كان تقياً ورعاً مشهوراً بالحلم ، يأكل من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة . وقد توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ . راجع وفيات الأعيان لابن خلّكان (١/ ٤٤٠) وحلية الأولياء (٢/ ٣٥٧) وهناك خلاف في تاريخ وفاته حيث قيل إنّه ربما يكون توفي سنة ١٢٧ هـ . راجع تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤، ١٥) .
(٣) يفرق الشيطان : يخاف .
(٤) المنّة : العطاء والنعمة .
(٥) احتظى : ذو حظوة وهي بمعنىٰ حظىٰ .

فالجوهرُ يُضِيءُ البيت من نوره ، والذهبُ والفضةُ ليس لهما ذَلك ؛ فمَنْ كانت نَفَقَتُه في ضيافة المعرفة من الدَّرَاهم فصِيَانَتُها والإحسانُ إليها لاَ تَخْلُو من الدَّنَسِ والأَوْساخ والتَّضْيِيع والتَّفْرِيط.

ومَنْ كانت نَفْسُه في ضيافةِ المعرفة من الدَّنانير[1] يسلمُ من الأوساخ والأَدْنَاس ، ولكن لا يَخْلُو من الغُبَار .

ومَنْ كانت نفقَتُه في ضيافة المعرفة من الجَوْهَر سلِمَ من الغُبَار وجميعِ ما يُتَّقَى منه ويُصَان عنه ، ولم يزل طَرِيًّا نَقِيًّا ؛ لأَنَّ قَلْبَه حَيِيَ باللَّه بحياةِ الجوهر ؛ فذلك قولُ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم : الإيمانُ حُلْوٌ نَزِه ، فَنزِّهُوه .

أَحب القلوب إلى اللَّه :

وعنه صلَّى اللَّهُ عليه وسلم : إنَّ للَّهِ تعالى أَوَاني في الأَرض ، أَلَا وهِيَ القُلوب ، وأَحَبُّ القلوبِ إلى اللَّه تعالى أَصْفَاها وأَرَقُّها وأَصْلَبُها .

فأَصْفَاهَا لِلَّه تعالى ، وأَصلبُها في ذاتِ اللَّه تعالى [٧٧] ، وأَرَقُّها للإِخوان .

وقال فيما يَحْكِي عن ربِّه تبارَكَ وتَعالى : ولسْتُ أَسكُنُ البيوتَ ، وأَيُّ بيتٍ يَسَعُني ، والسموات حشْوُ كرسي ، وإني في قَلْب الوَادع الضعيف لَيِّن القلب .

فحيَاةُ القلبِ مِنْ هذا الذي ذكره : إني في ذلك القلب .

---

(١) لأنه لا يجتمع الإثنان في نفس واحدة .

مثل التقوى

مَثَلُ التَّقْوىٰ مَثَل رجل أَصاب جوهرةً نفيسةً قيمتُها بيوت من الدنانير ؛ أَو ثوباً قيمتُه أَلْفُ دينار ، أَو جاريةً لها ثمنٌ غال ، شَخَصَتْ إليها الأَبصارُ مَنْظَراً ومَخْبراً ؛ أَو صُرّةَ مِسْك ذَكِيّ[1] الرِّيح ؛ أَو بَازِيّ[2] طيرٍ أَبْيَض تامّ الجثَّة مقدار الدرهم التامّ أَهداه إليه ملك عال .

فأَنْتَ تُبْقِي على الجَوْهَرة مخَافَةَ السُّرَّاق[3] ، ولا تعرِضها إلَّا على مَنْ عنده مِنْ فنونِ الأَموال ، مخافةَ أَنْ يُدَلِّسَهَا[4] فَيَقْبض منه الجوهرة ، ويُبَدِّلها بالزجاج شبهة ؛ ولا يعرف هو الجوهرَ من الزجاج ؛ فهي عندكَ مكنونةٌ في اللَّفائِف والحُقَّة[5] والدُّرْج[6] ، وتَقِيها من الغُبَار ومِنْ كل آفَةٍ ونحوها .

وكذا تَتَّقِي على الثوب اتِّقَاءَ مِثْله من اللَّفِّ والطَّيّ ، وَوَضْعِه في الصندوق ، وربْطِه فيما بين اللَّوحين .

وتَتَّقي على صُرَّة المِسْك فلا تَفْتَحها لئلا يذهبَ رِيحُها ، ولا يَصِل إليها غدّار[7] ، فتُعوِّض من كبد الضأْن وغيره .

(١) المسك الذكي : الفواح الرائحة .
(٢) البازي : نوع من الصقور .
(٣) السراق : جمع مفرده سارق .
(٤) بدلاً منها كلمة غير واضحة في [ب] .
(٥) الحقة : هي وعاء من خشب .
(٦) الدُّرْج : ما يُحفظ فيه الأشياء .
(٧) غدار : خائن ، كثير الغدر .

وتَتَّقِي على الجارية ، فتحبسها ، وتصونُها ، وتُلْبِسها لباس مِثْلها ، وتُطْعِمها طعامَ مِثْلها ، وتمنعها عن الخروج والبُروزِ[1] لئلا يطَّلِعَ عليها أَحَدٌ ، أو يحبّها ظالم ؛ فيخرجها من يَدِك ، ويَبْقَى قَلْبُكَ مُعَلَّقاً بها مع الصُّراخ والعَوِيل .

وتَتَّقي على البازِيّ[2] مِنْ كل آفَةٍ لئلا يَنْكسِرَ جَنَاحُهُ ، فيعجز عن الطيران ، وإِنْ قَصَّرْتَ في بعض تَرْبِيَته ومُدَارَاته لا يَأْلَف ، وترك الإِلْفَ ، ويَطير ويتْرُكك خَالياً ، فلا تراه أَبداً .

فانظر كيف تَتَّقي على الأَشياءِ ، وكيف حذَرُك وحِرَاستك لهذه الأَشياءِ ، وتلطفك بها ، وصِيَانتُك لما تخوّف عليهم من الآفات ، وضَيَّعْتَ حراسةَ أَعظمِ الأشياءِ قَدْراً ، وأَنْفَسها خَطَراً[3] ، وهو مُخُّ التَّقْوَى[4] ، فقد عظُمَت حجةُ اللهِ عَليكَ ؛ لأَنَّ هذا القلبَ خزانَةُ اللهِ تعالىٰ وضعَ فيها جوهراً نفيساً لا يُحَاطُ بمبلغ ثمنِه ، وهي المعرفةُ .

فإِنْ نظرتَ إِلى نَفَاستها وقَدْرِها لم تَقْدِرْ أَنْ تُحِيط بثمنها عِلْماً ، ولا ائْتَمَنْتَ عليها أَحَداً[5] .

وإن نظَرْتَ إِلَىٰ بَهَائها[6] ونُورها اتَّقَيْتَ عليها من كل دُخَان من الشهوات لئلاَّ يَلِجَ[7] الخزانةَ فيدنِّسها .

---

(١) البروز : الظهور .
(٢) البازي : نوع من الجوارح [الصقور] .
(٣) أنفسها خطراً ، أغلاها قدراً .
(٤) المخ : الصريح من كل شيء ، وخالصه .
(٥) ائتمنت عليها أحداً : جعلته أميناً عليها .
(٦) البهاء : الجمال .
(٧) الولوج : الدخول .

وإنْ نظرت إلى رِقَّتِها اتَّقَيْتَ عليها من كلِّ صـدْمَة مِن قِبَـل النفس أَنْ تَصْدِمها .

وإنْ نـظَرْتَ إلى طِيبِ رِيحهـا اتَّقيتَ عليهـا من كـل شيءٍ من المَعَاصي .

وإنْ نظرْتَ إلى اصطبـارها الـطاعات فَتَشْتَى ء[1] قلوبهم بـالدعـاءِ إلَىٰ الله تعالى اتقَيْت عليها من كلِّ تَضْيِيع ؛ تربّيها وتعاهدها بما يتعاهد مِثْلهـا تربيـة مِثْلها ، لئـلاَّ تَطِيـر عنكَ ؛ فـلا يَبْقَى معـك سِـوى معـرفـةِ الفِطْرة ، معرفة الكُفَّار .

فمنَّ اللهُ تعـالى على الموحِّـدين بمنَّةٍ[2] عـظيمة أَنْ أَعـطاهم نورَ الهدايةِ حتى وجدوه ، ونَطقُوا بكلمة الشهادةِ ، وأَمرهم بأَنْ يَتَّقُوه على ما أَعْـطَاهم ؛ وهـو النـورُ الـذي أَشـرقَ في قلوبهم ، ثم مِنْ قُلوبهم إلى صُدورِهم ، فيَجْعَلونه في وقـايةِ الحـراسة ، لئـلاَّ يَصِلَ إليـه ما ليس لـه بـأَهلٍ ؛ فـإنَّ المعرفـةَ قد أُيِّـدت بـالعَقْـل والعلم ، والفَهْم والفِـطْنَـة ، والحِفْظ والذِّكْرِ والذِّهن . .

فهذه الأَشْياءُ حولَها ، قطعَ اللهُ بذلك أَلسنةَ الآدميين عن نَفْسـه ، لئلَّا يكونَ لأَحـدٍ عليه حجَّةٌ لِإتيان معاصيه أَو سوءِ ما يَـأْتيه ؛ فبِقُـوَّةِ هذه الأَشياءِ يحرسُ معـرفتَه ، وَيَـذُبُّ[3] عنها مكْـرَ النَّفْسِ ودَوَاهيها ، وكَيْـدَ العدوِّ حتى تصير المعرفةُ في وقَايةٍ منها .

---

(١) اشتأى : سبق ، ويقال شاء أقرانهم إذا سبقهم .

(٢) المنة : النعمة والعطاء .

(٣) يذب : يدفع .

وأمر بالتقوى لقوله سبحانه وتعالى[1] : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُوْا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ .

التقوى على سبع جوارح :

ففَهِمُـوا بهذه الأَشيـاءِ أَنَّ التَّقْوَى على سبـع جَـوَارِح : العينـانِ ، والأذنـان ، واليَـدُ ، واللسـان ، والـرِّجْـل ، والبـطن ، والفَـرْج ؛ فـلا يستعمل واحداً منهم[2] إلاَّ بما أُطلق له ، وأُذِنَ له فيه .

فـأَقْبَلُوا إلى حفْظِهـا ، فوجـدوا أنفُسَهم بين أمرين : بين أَمـرٍ هـو طاعةٌ ، وبين أَمْـرٍ هو معصيـةٌ ، وفيه عَيْب ؛ لأنـه عمل على غَفْلَة فيمـا لـم يُؤْذَنْ له فيه ، فله فيه عُقوبةٌ . ولو أتى بمَـا أُذِنَ له ولكن على غَفْلة بلا حِسْبَة ولا نِيَّة رُمِيَ بها على وَجْهِه ، وخاب عن ثَوابه وجَزَائِه .

وقد أَمَرَ بأَن يُتَّقَى حقَّ تُقَاته ؛ قال الله تعالىٰ[3] : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّـذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته ﴾ ، ففَهِمَ العِبادُ عنه أَنَّ حقَّ تُقَاتِه أَنْ يُطِيعَ اللهَ فلا يعصي ، ويَتَّقي عن المعاصي ، وعن كل عمل على غَفْلَة بلا حِسْبَةٍ ولا نِيَّـةٍ ؛ فصـار[4] التَّقْـوَى على ضَـرْبين : ضــرب منهـا التقــوى عن المعـاصي ، وضَرْب منهـا التقوى عن عَمَـلٍ على غَفْلَة بـلا حِسْبَـةٍ ولا نيّة ؛ فذَا تقوى الظاهر ، وذِي تقوى الباطن ؛ فالعبادُ أَكثرَهُم أَقْبَلُوا على

---

(١) آل عمـران (٣/ ١٠٢) ومعنىٰ الآية : أي اتَّقـوا الله حقَّ تقواه ، قـال ابن مسعـود : « هو أن يُطَاع فلا يُعصىٰ ، وأن يذكر فلا يُنسىٰ ، وأن يشكر فلا يكفـر » اهـ . راجع مختصر ابن كثير (١/ ٣٠٤) وحاشية المطبوعة ص ٢٢٤ .

(٢) كذا ورد بالأصل .

(٣) آل عمران (٣/ ١٠٢) .

(٤) لعلَّ الأنسب (فصارت) ولعلَّه تحريف من الناسخ .

تَقْـوَى الظاهِـر حتى أَحْكَمُوه ، وكَفُّـوا جَوَارِحَهم[1] عن المنـاهي ، فلما صارُوا إِلَى تَقْوَى البـاطن ـ وهو أَلَّا يعملوا شيئـاً ـ مِمَّا أُذن لهم فيـه على غَفْلة حتى يكونَ لهم نِيّة وحِسْبة اشتدَّ عليهم ذلك وعَجَزُوا عنه ؛ لأَنَّهم في غطَاءٍ عن ذلك .

وقـد قال اللهُ تعـالى[2] : ﴿ فَاتَّقُـوا اللهَ ما اسْتَـطَعْتُم ، واسْمَعُـوا وأَطِيعُوْا ، وأَنْفِقُوا خَيْـراً لأَنْفُسِكم ﴾ . أَي في الفرائض ، فبَقِيت العـامَّةُ على هذا التقوى الـظاهر ؛وهو حفْظُ الجَوَارح السبع ، وعَمَلُه الذي أُذِنَ لـه فيه في غفلة ؛ ففي كـلِّ عَمَـلٍ عُيـوبٌ مـوجـودة ، وزِينـةُ الأَعمـال

(١) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو ، ولو تأملنا حديث المؤلف عن الظاهـر والباطن نراه متأثر بمذهب الصوفية في تقسيمهم الأشياء جميعاً إلى ظـاهرة وبـاطنة ، ولـذلك فهم يجعلون للكلمة في القرآن معنيين الأول ظاهر يـدل عليه صـريح اللفظ المتبـادر إلى الذهن ، والآخر باطن خفي لا يعرفه إلَّا أهل التصـوف ، وأهل الكشف ، فهـذا من خصوصياتهم وحدهم .

ومن جرّاء ذلك نشب صراع مرير عنيف بين الفقهاء وبين الصـوفية وصـل إلى حد أن رمى الفقهاء أقطاب الصوفية بالزندقة والمروق من الدين بتأويلاتهم وشـطحاتهم ، كما رمى الصوفية الفقهاء بأنهم أرباب الظاهر وليسوا باليقين الإيماني للصوفيـة ، وقد امتد هذا الصراع الرهيب منذ القديم إلى رقعة زمنية واسعة لا تزال حتى الآن ، فـإذا مـا أنكر سني سلفي مـا يخوض فيـه الصوفيـة وما يـأتونـه من المبتدعـات ويلصقونـه بكرامات الأولياء قالوا : إن الذي ينكر الكرامـات إنَّما يقيـد قدرة الله الـلامحدودة ، ولكن الأصح هو تقييـد هذه الكـرامات وتخصيصهـا فليست على الإطلاق وإلَّا لكـان كثيرٌ من لاعبي الأكروبات أولياءً .

(٢) التغابن (٦٤/ ١٦) يقول السيوطي في أسباب النـزول ص ٢٧٧ : « وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ اتَّقـوا الله حق تقاتـه ﴾ اشتدَّ على القـوم العمـل ، فقامـوا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقـرحت جبـاههم ، فـأنـزل الله سبحـانـه وتعالىٰ تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فاتَّقوا الله ما استطعتم ﴾ الآية » أ هـ .

راجـع أيضـاً القـرطبي (١٨/١٤٥) والشـوكـاني (٥/١٩٦) والـطبـري (٢٨/ ٢٩) .

مفقودةٌ ، ومع فَقْدِ الزِّينة العيوبُ موجودة . ووجِدت[1] طائفةٌ من العامة وَجْداً شَدِيداً أَنْ رأَوْا عامَّةَ أعمارِهم من الأَكْلِ والشرب واللّبس ، والكلام ، والسكوت ، والمَشْي والذهاب ، والنظر والاستماع ، بلا نِيَّة ولا حِسْبَة ، فلا يجدون غَداً في ميزان الحقِّ منه شيئاً فيُثَابون عليه ؛ ولذلك قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[2] : الأَعمالُ بالنِّيَّات .

وقال أيضاً : لا عَمَلَ لمن لا نِيَّةَ له ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لا حِسْبَةَ له ؛ فحزِن المؤمنون على تعطيل العُمْرِ على هذا الوَجْه ، فرَحِمَهم اللهُ على ذلك ، فقال جَلَّ ذِكْرُه[3] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً[4] ويُكَفِّرْ عنكم سيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لكم ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العظيم ﴾ .

فقال أَهلُ التفسير : أَي مَخْرَجاً ، ولكن هذه كلمةٌ مُبْهَمَةَ ، ولم

---

(١) وجدت موجدة ووجداً : حزنت حزناً شديداً .

(٢) الحديث : رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب ، وكذا رواه غيرهما من أصحاب الكتب المعتمدة ، حتى مالك لكن في غير الموطأ ، على العكس مما ذكر بعض الأئمَّة الحفاظ من أنه مروي في الموطأ .

وقد رواه البخاري في صحيحه عن عمر في سبعة مواضع بألفاظ مختلفة ، وهو مجمع على صحته ، وهو أحد الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الدين ، وقد نظمها طاهر بن مفوز الأشبيلي ، وقيل بل الإمام الشافعي بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات ... أربع من كلام خير البريّة
اتَّق الشبهات، وازهد، ودع ما ... ليس يعنيك واعملن بنية

راجع كشف الخفا للعجلوني بتصرف (١/ ١٠، ١١) وقال فيه الشافعي وغيره « إن هذا الحديث ثلث الإسلام » أ هـ .

(٣) الأنفال (٨/ ٢٩) .

(٤) الفرقان : الفرق والفصل بين الحق والباطل .

يُفَسِّروا ما المَخْرج ؟ مِنْ أين ؟ وإلى أين ؟ وإنَّما المَخْرَج من ظُلْمَةِ ودُخان الشهوات بالأنوار التي يُعْطىٰ .

وقال جَلَّ ذِكْرُه في مَوْضِعٍ آخر[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً . وسَبِّحُوه بُكْرَةً وأَصِيلاً ، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلَائِكَتُهُ [٧٨] لِيُخْرِجَكُم مِنْ الظُّلماتِ إِلَىٰ النُّور وكان بالمُؤْمِنين رَحِيماً ﴾ .

ولَمَّا أَقْبَلوا على التَّقْوَى الظاهر ، وهو حِفْظُ الجوارح[2] عن المَنَاهي ، وأَحْكَمُوا هذه التَّقْوى ، ثم ذكروا ذِكْراً كثيراً عند كل نِعْمة وبُؤْس ، وسَبَّحُوه بُكْرَةً وأَصِيلاً ، لِيَعْمُروا ما خرب منهم ، ولِيَتَدارَكُوا بذلكَ التسبيح أَدْنَاسَ العُيوبِ ، ويَتَطَهَّرُوا ، وصَلَّتْ عليهم الملائكةُ ؛ وصلاةُ الملائكة أَنْ تَسْتَغْفِرَ لهم من العيوب ، وصَلَّى عليهم الربُّ جَلَّ وعَلاَ ، وجَعَلَ لهم مَخْرجاً .

فأَمَّا صلاةُ الربِّ جَلَّ جلاله فأَن يسأَلَ لهم بنفْسه من نَفْسه نُورَ الفُرْقَان حتى أَوْجَبَ لهم ذلك ، وهو نورُ الفُرْقَان ؛ فعندها أَخْرجهم من ظُلُماتِ النَّفْسِ إلى نُورِ اللهِ تعالى ؛ وإنَّما سُمِّي نُور الفُرْقَان بهذا ، لأَنَّهُ نورٌ يَفْرِقُ بين الحقِّ والباطل ، وقد ذهبت الغَفْلة[3] ، وإنَّما الغَفْلَةُ حِجَابٌ أَصْلُهُ من شهواتِ النفس ، وهي كالدُّخَانِ في الصَّدرِ ؛ فهي ظُلُمات تَحْجُبُ عَيْنَيْ الفؤاد عن مُعَايَنَةِ الحقِّ ، حتى يَنْفِيَ الباطلَ الذي

---

(١) الأحزاب : (٣٣/ ٤١ ـ ٤٣) راجع تأويل مشكل القرآن ص ٣٥٥ وأرجو أيضاً مراجعة تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٨) ط. دار الكتب .

(٢) الجوارح : الأعضاء .

(٣) ذهبت الغفلة : انجلت غمرتها .

يَجِيءُ من النفس إلى الصَّدر ، فيتراءَى لعينيّ الفؤاد ، يُريد أَنْ يُمِدَّه بذلكَ إلى نَفْسه ، فإِذَا هو باطلٌ لا يُثَابُ عليه غداً ، فإِذَا أخرجه اللهُ تعالى من هذه الظلمات بِصَلاته عليه وإِيجابِه له هذا النُّور ، واستغفرت له الملائكةُ لتلكَ العيوب ، حتى إِذَا وَلج[1] هذا النُّور ، فوجد مكاناً طاهراً مُقَدَّساً ، فأَشرقَ النورُ ، واستقرَّ في الصدر ، فعندها اسْتَوَى له الأَمْرَان ، ونال كِلَا التَّقْوَيَيْن : الظاهِرِ ، والباطِنِ ؛ فلا يَعْمَلُ شيئاً إلَّا على ذِكْر ونِيَّة وحِسْبَةٍ ، دقَّ ذلك الشيءُ أَو جَلّ[2] ؛ فأَدرك ذلك النورُ القَلْبَ من الصدر في أَسْرَعَ من اللحظة ، لِعظَمِ ذلك النورِ ، حتى يَرْتَقِيَ من القلب إلى مَحلِّهِ مِنَ العَلْياءِ ، حتى تَصير الأَشياءُ كلُّها له وبه ، وهم أَصحابُ القَبْضَةِ ، فبه يَنْطِق ، وبه يُبْصِر ، وبه يَسْمَع ، وبه يَبْطِش ، وبه يَعْقِل ، وهو قولُ اللهِ جَلَّ ذِكْره[3] : ﴿ أَلَا إِنَّ أَولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ .

ثم وصفهم مَنْ هم ، وما عَملوا ؛ فقال[4] : ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وكانُوْا يَتَّقُون ﴾ .

فهٰؤُلاءِ طَبَقَةٌ آمَنُوا به حقّاً ، فاطمأَنَّتْ قلوبُهم بأَحكامِه عليهم من المحبوب والمكروه ؛ رَضُوا به ربّاً ، ورَضُوْا بأَحكامه عليهم حُكْماً ، وذَلُّوا لِرُبُوبِيَّتِهِ خُشَّعاً ، وآثروهُ[5] على أَنفسهم حَيَاءً ، وبَذَلُوا لَهُ نفوسَهم

---

(١) ولج : دخل من الولوج وهو الدخول .
(٢) دق أو جل : قل أو كثر .
(٣) يونس (١٠/ ٦٢) .
راجع تفسير الطبري (١١/ ١٣٢) والشيخ الصابوني (١١/ ٥٨٩) .
(٤) يونس (١٠/ ٦٣) ومعنىٰ يتقون أي يتقون الشرك والمعاصي .
(٥) آثروه : فضلوه .

جوداً وسَمْحاً[1] ، وكان تَقْوَاهم على المَشَاهد كما ذكَرَ في أَوَّل الآية من قوله عزَّ وجلّ[2] : ﴿ وَمَا تَكُون في شَأْن وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآن ولا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهُوداً ؛ إذ تُفِيضونَ فيه ﴾ ؛ فصارت شهادَتُه عند كلِّ عَمَل يُفِيضون فيه مُعَاينة القَلْبِ ، فهابُوا اللهَ هيبةً ماتَتْ لها نفوسُهم مَوْتاً ، وأَحَبُّوا اللهَ حُبّاً حَيِيَتْ قلوبهم به حياةً وعُبُودةً في كلِّ لحظة ؛ فصارت أَنْفَاسُهم ولحظاتُهم عبادةً ، وكل حركة منهم طاعةً ، ووَجَدُوها غداً في ميزان الحقِّ ، فهذا تَقْوَى الباطن تَقْوَى الأَوْلِياءِ .

مثل عمال الله

مَثَلُ عُمَّالِ اللهِ تعالىٰ مثلُ مَلِكٍ دَعَا خيّاطاً فقال له : اقْطَعْ هذا الثوبَ وخِطْهُ بين يَدَيّ ، فلم يَأْلُ[3] هذا الخيّاطُ جُهْداً في إظهار حِذْقِه[4] وخِفَّةِ يده . فلما غاب عنه ترك خِفَّةَ اليَدِ ، وحُسن الابتداءِ ، ووَجَازة[5] الفِعْل ؛ ولكن أَحْكَمَ الخياطة وأَتْقَنها وزَيَّنها ، لأَنَّه ذاكرٌ للعَرْضِ عَلَيه .

والآخر رجل دَعَاهُ المَلِكُ فقال : اذْهَبْ بهذا الثَّوْبِ فاقْطَعْه وخِطْهُ ، وأَنْفِذْه إلى فلان الرَّاعي ؛ فإذا غاب عنه رَفَع عنه بَالَه ، فكيفما قطعه وخَاطَه جوَّزَه ؛ لأنه لم يشعر برُؤْيَة الملك ، ولا ذَكَرَ العَرْضَ

---

(١) سمحاً : كرماً وجوداً .
(٢) يونس (١٠/ ٦١) راجع أيضاً تفسير الطبري (٨/ ٣٦٦) ومجاز القرآن ص ١٢٧ .
(٣) لم يأل : لم يقصر .
(٤) الحذق : الماهر .
(٥) وجازة الفعل : سرعته .

عليه ، وإنَّما به ارتفاعُ العمل ؛ فيقول : قد عملت . وآخذ الأُجرة .

وإنَّما جرَّأَهُ على ذلك غَفْلَتُه[1] عن رُؤْيَةِ الملك وعن العَرْضِ عليه .

فكذا عُمّالُ اللهِ تعالى على ثلاث طبقات : فعامل يَعْمَلُ للهِ كأنَّه يَرَاهُ ، وعامِلٌ كأَنَّه يَراهُ اللهُ ، وهو قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين سأَله جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : الإحسانُ أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراه ، فإِنْ لم تكن تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ .

فقال جبريل صلواتُ الله عليه : فإِذَا فعلتُ هذا فأَنَا مُحْسنٌ ؟ قال : نعم . قال : صَدَقْتَ فهي دَرجة المحسنين .

فالأَوَّل يعمَلُ للهِ كأَنَّه يَرىٰ رَبَّه مشاهدةً ، والآخر يعْمَل كأَنَّه يراه ربُّه .

فالأَوَّل قد أَخذته رُؤيتُه ربَّه . والثاني قد أَخذته رُؤْية ربِّه إِيَّاه .

فالأَوَّل أَعلىٰ من الثاني ، لأَنَّه قد كُشِفَ له الغِطَاءُ ، ورُفِعَ الحجابُ فيما بينه وبين رَبِّه ؛ وهو قولُ ابن عمر رضِيَ الله عنه حين كلَّمه عُرْوَة بن الزُّبير رَضِيَ اللهُ عنهما في الطَّوافِ فلم يُجِبْهُ إِلَىٰ أَنْ قال ما قال . فلما خرج قال : إِنَّكَ قد كلَّمْتَنِي وإِنَّا كُنَّا نَتَخَايَلُ[2] اللهَ بَيْنَ أَعْيُنِنا .

وَرُوِي عن مالك بن دِينار رَحِمَه الله أَنَّه قال : مكتوب في

(١) غفلته عنه في رؤية الملك [ب] .
(٢) نتخايل : نتخيل .

التـوراة : يا ابْنَ آدَمَ لاَ تَعْجـزنَّ أَنْ تَقُومَ بين يـديّ في صلاتِـك باكيـاً ، فإنِّي أَنا اللهُ الذي اقتربتُ لقَلْبك ، وبالْغَيْبِ رأيت نُوري .

فهذا لمن رفع له الحجاب حتى رأىٰ نورَه وهو أَعْلَىٰ .

والثـاني رُفِعَ الحجـابُ له بقَـدْرِ ما رأىٰ أَنَّـه ينظُرُ إِليـه ويـراه ولم يَعْدُ .

وأَمَّا سِوَى الرُّؤْية وهـو قولُـه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : فـإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يـرَاك ؛ فهذا الثاني يَعْمَلُ وقَلْبُه إلَى العَرْضِ الأكبر ؛ وهـو قولُـه تعالى[1] : ﴿ يَوْمَئِـذٍ تُعْرَضُـون لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيـة ﴾ . فيجهد لهـذه وليس لـه زِينـةُ العَمَـل ؛ وإنَّمـا لـه إحكـامـه ؛ فهـذا صـادِقٌ ، والأَوَّلُ صِـدِّيق ؛ هذا محجـوب ، والأَوَّل من وراءِ الحجاب ، قـد انكشف لـه الغِطَاءُ فبه يعمل .

من يعمل على الغفلة :

وعامل ثالث يعمَلُ على الغَفْلَة ، ليس على قَلْبه ذِكْرُ المشـاهدةِ ، ولا ذِكر العَرْض ؛ إنَّما هي عادةُ النَّفْسِ تعملُ بأعمـالِ البرِّ على العـادة والجُزَاف[2] ، وعلى تَرَائي الثَّوابِ من غير تصحيـح ولا طَهارة القلب ، ولا تَتَوَقَّى ؛ فأَعمالُه تُـوضَع في الخـزائن ليُحَصَّلَ[3] مـا في صدْرِه يَـوْمَ العَـرْض ؛ فإنَّ الله تعـالىٰ كان شـاهداً عليـه في وقْتِ عملِه ، لاَ يَخْفَى

(١) الحاقة (٦٩/ ١٨) راجع تفسير الطبري (٢٩/ ٣٨) .

(٢) الجـزاف : بيع الشيء لا يعـرف كيله ولا وزنه ، وهـو الاندفـاع في الكـلام من غيـر روية .

(٣) حصل ما في صدره : ميز ما فيها من خير وشر .

عليه شَيْءٌ ؛ فقد قال اللهُ جلَّ ذكره[1] : ﴿ يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور . واللهُ يَقْضِي بالحَقِّ والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير ﴾ .

والصادقُ يُعْرَض على اللهِ تعالىٰ حين ينظُرُ إليه ، فإذَا وقعت نظرَتُه إليه أَشْرَقَ لنظرته نورُ العمل ، فازداد نُوراً ، وازدادَ قلْبُ العاملِ في الأَرض نُوراً ؛ لأَنَّ الأَعمال تُرْفَعُ إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ ، والنيةُ فيه باقيةٌ ، وهي أَصْلُ العَمَلِ التي منها بَدَأَ العَمَلُ ؛ فمضىٰ العملُ إلى اللهِ تعالىٰ .

وأَصْلُ العَمَلِ باقٍ في القَلْبِ متَّصِلٌ بالعمل [٧٩] ، فإذَا وقعت نظرةُ اللهِ على العَمَلِ فأَشْرَقَ وازْدَاد نُوراً خالصاً ، وتأَدَّى ذلك إلى هذا الأَصْل فأَشْرَق القلْبُ بما تَأَدَّى من النُّورِ وهي النية ، فهذا شأْنُ الصدِّيقين والصادقين ، وهذا تفسير القبول .

وإِنَّما قيل قبول ؛ لأنه عُرِض على اللَّهِ فيكون في قُبَالةِ[2] وَجْهِه الكريم حيث نَظَر إليه ، وما لم يُعْرَض عليه ووُضِع في الخزائن فذاكَ لتَخْليط فيه حتَّى يُحَصَّلَ يومَ القيامة ، وإنَّما يظهر قبولُه وردُّه يَوْمَ القيامةِ ؛ وهذا الذي عُرِضَ قُبَالَةَ وَجْهِهِ ظهر قَبُولُه في الحالِ .

---

(١) غافر (٤٠/ ١٩، ٢٠) .
راجع تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٣) والطبري (٢٤/ ٣٦) .
خائنة الأعين : الأعين الخائنة ، قال ابن عباس : « هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر » أ هـ . راجع الصابوني (٢٤/ ١٢٦٠) وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٤) وما بعدها ومختصر ابن كثير (٣/ ٢٣٩) .
(٢) قبالته : تجاهه ، بضم القاف .

مثـل الواعـظ

مَثَـلُ الواعظِ مثـل رجـلٍ ينفُـخُ في كِيْـرٍ[1] لـه ، فعلى قَـدْرِ قُـوَّةِ المِنْفَـخِ[2] وقُوَّة الـريح التي فيـه تَصِلُ النَّفْخَـةُ إلى تلك الجَمَرات حتى تتـوقَّدَ تلك النـارُ ، وتُحْمِي جُـدرَانَـه مِنْ حـول تلكَ النـارِ ، وَيَتَلَظَّى[3] ويُضِيءُ ذلك البيتَ ، ويذُوبُ ما في الكُورِ ذهباً كان أو فضـة أو نُحاساً أو حَـدِيداً حتى يَـزُولَ عنـه خَبَثُـه[4] ، وتَبْقَى صَفْـوَتُـه[5] ، فـإنْ كـانت المِنْفَخـة[6] صَغيرةً لم يكن لنَفْخِـه قُـوّةٌ تؤدّي إلى الجَمْـرَة ، فـالجمـرةُ بحـالها مـع الـرَّمَـاد والخُمـود ؛ وإنْ كـانت المِنْفَخـةُ كبيـرةً ولكن فيهـا خُـروق ، فكلما مَـدَّها حتى تَمْتَلِىء من الـرِّيح ، فـإذا عصرهـا خرجت الريحُ من تلك الخُروق ولم يَتَأَدَّ إلى الجمرةِ منه إلَّا قليلٌ ، فهي بحالها جامِدةٌ ، ذاتُ رَمَـادٍ ، لا تَتَلظَّى[7] ولا تُضِيء البيتَ ، فإذا لم يَكُنْ بهـا خروق ، والمِنْفَخةُ كبيـرةً ، والنافِـخُ ذا قوةٍ وصلت النفخـةُ إلى الجَمْرَةِ فتوقَّدَت وأَضاءَت البيتَ ، وحَمِيت الجُـدْرَان ، واستحـرَّ[8] الـوَقـود ، واستمـدَّ ، وذَابَ مـا في الكُـورِ[9] ، ورمَى بخَبَثِـه ، وصفَّى البـاقي ،

---

(١) الكير : زق الحداد الذي ينفخ فيه ، وهو من جلد سميك .

(٢) المنفخ : المنفاخ أو آلة النفخ .

(٣) يتلظَّى : يتوقد ويلتهب .

(٤) خبث الحديد : ما نفاه الكير إذا أذيب ، وهو ما لا خير فيه .

(٥) صفوته : خالصه .

(٦) المنفخة : آلة النفخ .

(٧) لا تتلظَّى : لا تتوهج ولا تتقد .

(٨) استحر : اشتد .

(٩) الكور : مجمرة الحداد .

الذهبَ والفضة ؛ فصارت نُقْرةً صافية تصلحُ للدَّراهم والدَّنانير ؛ فإذا ضربت كلَّ شيءٍ يروجُ في الأَسواق .

فالواعِظُ إذا وَعَظَ مِنْ قَلْبِ عالمٍ لكن لم يَكُنْ لِعِلْمِهِ سلطانٌ لم تَصِلْ إلى القلوبِ نَفْخَتُه ، والإيمان في القلوبِ مثلُ الجَمْرة ، والجَمْرَةُ إذا بَقِيت في الشهوات عَلَاها غُبَارُ الشَّهَوَاتِ ورَمَادُها ، فإذا لم يَصِلْ إلى القَلْبِ نَفْخَةُ سلطانِ الوَعْظِ ، مِثْلَ النَّفخِ إذا لم يَصِلْ إلى الجَمْرَة بقيت ، ذاتَ رَمادٍ ولم تتوقَّد ، وإنَّما يَستَمع إلى ذلك أُذُنُ القلبِ ، واتَّعَظَ به ساعةً من النهار ، ثم يَدْرُس[1] ذِكْرُه ويُعَطَّل ؛ لأَنَّ القلبَ لم يَعِهِ ؛ لأَنه لم يَكُنْ له سُلْطانٌ ، فتنْفُذَ الأُذنُ إلى باطنه ، فتمتزج بنورِ الإيمان ، فيشتمل عليه الإيمانُ ، فذَاكَ وِعَاءُ القلب للموعظة .

فإذا كان لِعِلْمِه سُلْطانٌ ولكن لم يكن لقَلْبِه سلطانٌ فوعَظَ به ، ونظر إلى نَفْسه في ذلك الوَعْظ ، فرأى نَفْسَه فوعظها بمنزلةِ المِنْفَخ الكبير الذي فيه خُروق ، فخرج الرِّيحُ من تلكَ الخروق ، ولا يَصِلُ إلى الجَمْرَة إلَّا قليلٌ منه ، والغبارُ والرَّمَادُ باقٍ على الجَمْرَةِ والبيتُ مظلم ، ولا تَحْمِيَ الجُدْرَان ، ولا يَذُوبُ ما في الكُورِ ، فلا يُزايلُ[2] الخَبَثُ من ذلك الذهب والفِضَّة .

فإذا كان عِلْمُ الواعظِ ذا سلطان وعن قَلْب ذِي سلطان ، ناظِراً بنُور ذلك السلطان إلى جلالِ اللَّهِ الذي منه بَدَا[3] ذلك السلطان في قلبه طارت عَنْ عَيْنَي فؤادِه رُؤْيةُ نفسِه ، وقطعَه شغْلُه بجلالِ اللَّهِ عن

---

(١) يدرس : يزول وينمحي .

(٢) يزايل ما كان عليه : يفارقه .

(٣) بدا : ظهر .

الالتفاتِ إلى النَّفْس ، وزينها في ذلـك يقينُها ، فـأَدَّتْ ذلكَ الـوَعْظَ مع سُلطانِهِ إلى القُلوبِ ، وَرَمَىٰ كلَّ غُبـارٍ وَرَمَاد على جَمْـرةِ الإيمان ؛ لِأَنَّ الشهواتِ لَا بَقَاءَ لها مع السلطان .

وإذا أَوْرَد القَلْبُ سلطانَـه على الصدر خـافت النفسُ فسكَنَتْ عن تَلَظِّيهـا ؛ فانقـطع دُخَانُهـا ، وانكشفت الجَمْرَةُ عن غِـطَائها وغُبـارِهـا ، فتلظَّتْ ، وَأَضَـاءَ الصَّـدْرُ ، واستحـرَّ القَلْب[1] ، فـأَبصـرت أَعْيُنُ فُؤادِ السـامعين الذين خلصت إلى قلوبِهم النَّفْخَـةُ ، صورةَ تلك الأَشيـاءِ التي وصفَهـا الواعظُ ؛ فصـارت أُمورُ الآخـرةِ مُعاينـةً[2] على تلك القلوب ، فأَجابت القلوبُ منهم والنفوسُ إلى ما دُعُوا إليه ، من الصِّدْقِ والوَفَاءِ للَّهِ تعـالى ؛ فما دام الـوَاعظُ بهذه الصفـةِ فإجـابةُ القلوبِ لـه خوفـاً وإلقـاءً بـاليدين سلْمـاً ؛ لأَنه وصـل إلى قلوبهم خوفُ السلطانِ الـذي كان في قَلْبِ الـواعظِ ، فصار كـالنَّافـخ بالكِيـر بالمِنْفَـخِ الكبير الـذي ليس فيـه خروق ، ولكن مع هذا لا يُؤمَنُ عليهم الارتدادُ على العَقِبَيْن ، والرجوعُ عن هذه الأَحاديثِ إلى إجابةِ النفـوسِ ، إذا سكن عنهم الخوفُ دَعَتْهُم إلى فِتْنَةٍ تَعْرِضُ لهم من الشهوات بشيء .

فإذا انتقلَ الوَاعِظُ عن هذه الدَّرَجةِ إلى دَرَجـة أَعْلَى من هذه حتى وَلَجَ[3] منازِلَ المُحِبّين ، ووصَـلَ إلى الملك ، واحتظى[4] من مجـالس مَلِكِ الملك ، وشَـرِب من الكأْس الأَوْفَى[5] من شَـرَابِ خَالِقِـه ، وهـو

---

(١) استحر القلب : أصبح حاراً .

(٢) معاينة : مشاهدة ، ويقصد معهوداً بها المعاينة .

(٣) ولج : دخل .

(٤) احتظى : حظى .

(٥) الكأس الأوفى : الكاملة التامة .

شَرَابُ المَحَبَّة ؛ وهـو حُبُّ اللَّهِ لـه ، لا حبُّـه للَّهِ ، صـار عِلْمُـهُ ذا سلطان ؛ لأنه يُعَايِن بفؤاده عَمَّا يَنْطِقُ به ؛ فتلكَ الأَنْوارُ سلطان عليهـا ، فـإذا وَعَظ كان وَعْـظُهُ رِيَـاحَ مَنَـافِخِـه[1] مِنْ ملك الأُلُـوهـة ، ومِنْ ملك الحبِّ ، ومِنْ ملك اللَّه .

وإذا وصلت إلى القلوبِ صـارَتْ موعـظتُـه قيـداً للقلوبِ ؛ وليس لهذا العَبْد التفاتٌ إلى النفس ، ولا للنفس مَهْربٌ أيضاً .

فـالأَوَّل رِيـاح مَنَـافِخِـه[1] من ملك الجَـلاَل ؛ فخـافت القلوبُ وَوَجِلَتْ[2] ، وَخَمَدتْ شهواتُ النفس من الخَوْف .

فإذا كان حَدَثٌ أو فَتْرَة[3] دَرَس[4] هَوْلُ الخَوْف ، فأَطْلَعَتِ النَّفْسُ رَأْسَها ؛ لأَنَّ الخوفَ يسكِّنُ النَّفْس ، ويُخْمِدُ الشهواتِ ، ولا يُقَيِّد .

والحبُّ يُقَيِّـدُ الشهواتِ عن طبـائعها ؛ فتتضـاعَفُ كـلُّ شَهْـوَةٍ من اللذة أَضعـافاً بِحَـلاَوَةِ الحبِّ ، فيتعلق القَلْبُ بتلك الحلاوَةِ ، ويشتمـلُ عليه ، والتزقت النَّفْسُ بالقلب لِمَا وجـدَتْ من اللَّذَّة ، وما يُحيطُ بـه من نُـورِ العـظَمــة حـارســاً للحُبِّ ، حتى لا يحـدثَ من النفس ، فتتــرك الأَدَب ؛ وصار القَلْبُ مُقَيَّداً بحلاوةِ المحبَّة .

---

(١) منافخ : جمع منفخة وهي آلة النفخ .

(٢) وجلت : من الوجل وهو الخوف .

(٣) فترة : ضعف ولين وانقطاع .

(٤) درس : امحى .

مثل المدعو إلى دار السلام

مثَلُ(١) المَدْعُوّ إلى دَارِ السلامِ فأجاب مَثَلُ رَجُلٍ دُعِيَ إلى عُرْسٍ فأجاب ، فلما نَظَر إلى نَفْسه رأى في نفسه هَيْئَةً ؛ فعلم أنْ ليس له مع هذه الهيئةِ مكانٌ في ذلك العُرْس ، ولا يُتْرَكُ للدخول ثَمَّة(٢) ؛ لأنه نَظَرَ إلى شَعر وَسخ مُلْتفّ برأسه ، ولحيته غَيَّرها الدخانُ حتى اصفَرَّت ؛ وإلى أظافيرَ قد طالت ، وبَرَاجِم(٣) قد تَوَسَّخت ؛ وَدَرِنَتْ(٤) ، وثياب دَنِسَة ، وخُلْقَان(٥) ، ورائحةٍ مُنْكَرة ؛ ومع هذا كلِّه قد بات في المَزابِل ؛ فانْقَطع طَمَعُه من أنْ يُتْرَكَ للدخول في تلك الدار بهذه الهيئة ؛ فكيف يَطمَعُ أنْ يَدْخُلَ دارَ السلام ودَارَ الجلال مع أوساخ الذُّنوب وأدْنَاس العُيُوب ، ودَرَنِ الخَطَايا ، ونَتَنِ [٨٠] المعاصي ، وأقذارِ السيئات ؛ وهو يَعْلَمُ أنَّه حين يُدْعَىٰ إلى عُرْسِ الدنيا أنَّه يأخذ مِنْ شَعره ، ويُنقِّي من دَرَنه ، ويَغْسِلُ رَأْسَه ولِحْيَته ، ويُقَلِّمُ أظافيره ، ويَغْسِلُ ثيابَه ، ويتطيَّبُ ويتزَيَّن ؛ فإذا نظروا إليه مع هذه الهيئة أَخَذُوا بيده ، وأدخلوه ، وأجلسوه على الصَّدْرِ ، ورَقُوا(٦) به على معالي الوَسَائِد ؛ وصاحبُ العُرْس عالم بما كان فيه مِنْ هيئة بالأَمْس ، فيعلم

---

(١) لقوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ يونس (١٠/ ٢٥) ودار السلام : الجنة ، قال الحسن وقتادة: « السلام هو الله ، وداره هي الجنة . وسميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحظون بالسلامة والنجاة من النار » أ هـ بتصرف .

(٢) ثَمَّة : هناك .

(٣) رؤوس عظام الأصابع من ظهر الكف ، إذا قبضت الكف ارتفعت .

(٤) الدرن : وسخ الثوب .

(٥) خلق الثوب : بلي .

(٦) رقوا به : ارتفعوا به .

أنَّ هذا إنما هَيَّأ[1] لعُرْسه ، فيُكرِمه غايةَ الكرامة .

فهذا مَثَلُ عَبْدٍ تائبٍ قد أزال عن نَفْسه الفُضُولَ من كل شيءٍ ، لم يُطْلِق له الشُّرُع[2] ، وهي المعاصي ؛ وتـأدَّب بأَدَب الإسـلام ، وتزَيَّن بالزَّهَادة[3] والتَّقْوى ، وَتَطيَّبَ بصدْقِ الباطن من صحة النيَّـة ، وإخلاص العبودية ، وبَذْلِ النفس للَّهِ ، ومحاسنِ الأَخـلاق ؛ وكان وَليًّـا من أولياءِ اللَّهِ تعالى ، فقدِمَ على ربِّه وقد سبقت هذه المحامِدُ مَذْمُومَاتِه ؛ فغفر له مغفرةً ؛ لا يُبْدِي[4] له شيئاً من سالِف[5] سيِّئاته ، وجاد عليه بفَضْلِه الذي سهَّلَ له سبيلَ الشفاعةِ في عَدَدٍ كثير من خَلْقِه .

فالَّذي صار إلى ذلك العُرْسِ بتلك الهيئةِ القبيحةِ مُنع في الطريق عَنْ أَنْ يَأْتِيَ الباب ، وجلس هنـالكَ ليـأْخذَ من شَعـره ونَشَرَه[6] ، وكـلَّ فضول أتى به ، فإذا أزال من نفسه تلكَ الفُضُولَ أُتِيَ به بعده في المجلس والمائدة ؛ فالذي صار إلى العَرْضَةِ مع هذه الهيئةِ السيئةِ مُنِع عن دار[7] السلام ، وبَقِيَ في مجلس الصِّرَاط ، حتى تَأْخذَ النـارُ من شَعَره ونَشَـره أَكْلاً أَكْلاً ، وحَرْقاً حَرْقاً ، كلَّما احترقَ عادَ كما يُرَى له حتى يأْخذَ الحقُّ منه ما وجبَ له عليه ، ثم تُدْرِكهُ الرحمةُ مِنْ أَرْحَمَ الراحمينِ ، فيتخلَّص فيُكْسَى ويُطَيَّبُ ، فيذهب إلى دار السلام .

---

(١) هنأ [أ] وهو تصحيف .
(٢) الشُّرُع : جمع شراع .
(٣) الزهادة : الزهد .
(٤) يبدي : ويبدو بمعنى يظهر .
(٥) سالف : سابق .
(٦) النَشَرَ : بالتحريك المنتشر المتفرق .
(٧) منع عن دار السلام : محبوس عن الجنة .

مثل الذي ينطق بأسماء اللَّه ويدعوه بها ويتلو كتاب اللَّه وليس له نور تلك الأشياء

مَثَلُ الذي ينطِقُ بإسماءِ اللَّه تعالى ويَدْعُوه بهـا ، ويَتْلو كتـابَ اللَّه تعـالى ، وليس له نـورُ تِلكَ الأشياءِ في صَـدْره ، كمثَل شَـرَرِ الحديـدة المُحْمَـاة(١) إذا ضُرِبَتْ بـالمِطْرَقَتين ، فـرمَتْ بالشَّـرَرِ ، ثم يَنْـطِفِيءُ من ساعته ، وليس له لَهَبَانٌ(٢) ولا حَرَارةٌ ولا ضَوْءٌ يُضِيءُ بها .

كـذا الناطِقُ بهـذه الأَسماءِ، والتـالي لكتابِ اللَّهِ تعـالى إذا أَخْرج الكلماتِ من صَدْرٍ تَلَطَّخَ(٣) بالشهوات لا يكونُ لكلماته من النُّورِ ما يَنْفذُ شُعَاعُه فَيَسْطع ضَوءُه .

فالناطقُ الذي له نورٌ في قَلْبِه كمثَل نَفَّاطَ(٤) رَمَىٰ بِنِفْطٍ ، وكحريق اشتعل ناراً ، فأَحرقَ ما حَوْلَه ، وسطع ضَوْءُه ، فأَضـاءَ كلَّ شَيْءٍ ، وإِن لكل حرف مِنْ كلامِهِ نُوراً ، وما أَنزل على عبده فإنما أُنْـزِل مع النُّـور ، فـإذا دَنَـا من الصَّـدْرِ استقبلتـه أَدنـاسُ الشَّهَـوات ، وظُلْمَـة الهَـوَىٰ ، والحِـرصُ والرَّغْبـةُ ، والكِبْرُ والحَمِيَّـة(٥) ، والحَسَـد والبَغْي ، والتَّجَبُّـر والتَّعَزُّز ، والتمَلُّقُ والاقتدار ، والعلوّ والتِّيـه والتعظيم ، رجـع النورُ كـأَنه يقـولُ : هذا ليس بمكـاني ، إِنَّما أَحُـلُّ بصَدْرٍ طَهُـر عن هذه الـظلمات والأَقذار ، فهناك محلُّه ، ومَعْـدِني يقفُ خارجـاً يلتمس صَدْراً بـريئاً من

---

(١) المحماة بالنار .

(٢) اللهبـان : اللهب ، ولسان النار بغير دخان .

(٣) تلطخ : تلوث .

(٤) النفاط : من يرمي بالنفط وهو ما توقد به النار .

(٥) الحمية : الأنفة ، والاستكبار ، والاستنكاف .

هذه الأَشياءِ ، فمن احتمل عِلْمَ هذه الأَشياءِ عَلِمَ الحروف ، ثم أَخذها بالصوت بكلمات ، فذاكَ العالم .

العلم علمان :

أَترى ما قاله عليه السلام : العلمُ علمان ؛ فعِلْمٌ على اللِّسان ، وذاكَ حجةُ اللَّهِ تعالى على خَلْقِه . وعِلْمٌ على القَلْبِ ، فذاكَ العلمُ النافعُ .

فمن احتمل في صَدْرِه عِلْمَ هذه الأَشياءِ بلا نُور فهذا عِلْمُ الذِّهْنِ تلْقاه تعلُّماً وتحفُّظاً ؛ فهو على لسانه ، ولطائفُ الحروف ومعانيها هو محجوبٌ عنها ومستورةٌ عنه ؛ فإِذا لَفَظَتْها[1] شَفتاه[2] ، وهو الحروف ، فهو كالشَّرَرِ يَخْمُد ويَنْطَفِئُ من ساعته فلا يَرْتَفِع، ولا يُضِيء الصدورَ ، ولا يُحْرِق الشَّهوات ، ولا رَيْنَ[3] الذُّنوبِ من خَوْفِه ؛ والذي رَاضَ نَفْسَه حتى تَطَهَّرَ من تلك الأَدناس ، وزَايَلَتْهُ[4] تلك الظلمات ، فخَلاَ صَدْرُه من ذلك ، فطاب وطَرِبَ وطَهُر ؛ فجاءَ النورُ فوجَدَ مكاناً قد طاب وَطَهُر ؛ وطهارَتُه من تَقْوَاه من هذه الأَشياءِ في تَقْواه ، وطيبُه من حياةِ القُرْبَة ؛ وذلك أَنَّ العَبْدَ كلما ازْدَادَ طهارةً من هذه الأَشياءِ ازداد قُرْبَةً ، وكلما ازداد قُرْبَةً ازْدَادَ حياةُ قَلْبِه ؛ لأَنه إِنَّما يَحْيَا قَلْبُه بالحيّ الذي لا يَمُوتُ .

فصاحبُ هذا إِذا وجد ذلك النورُ مِثْلَ هذا الصدر وَلج[5] فيه نورُ

---

(١) لفظتها شفتاه : تلفظتا بها .
(٢) في جميع الأصول [شفتيه] وهو تحريف من النساخ .
(٣) الرين : الدنس ، والرجس .
(٤) زايلته : فارقته .
(٥) ولج : دخل .

ذلك الكلام ؛ فإذا نطق به خرج منه الشُّعَاعُ الساطعُ[1] ، فأحرق ما في الجَوْفِ ، فأضاءَ البيت ؛ بمنزلة ذلك الحريق الذي أحرق ما حَوْلَه ، وأضاءَ الفضاءَ ؛ فذاك العِلْمُ النافعُ الذي قاله صلَّى اللَّه عليه وسلم .

آدم لما أهبط إلى الأرض :

ورُوِي في الحديث أَنَّ آدَمَ صلواتُ اللَّهِ عليه لما أُهْبِط إلى الأَرض ابْتُلِي بالحَرْثِ والنَّسْج ؛ فقال : يا رَبِّ ، شغلْتَني بهذا ، وقد كنتُ أَسمعُ تَسْبيحَ الملائكةِ ومَحَامِدَهم ؛ فأَوْحَىٰ اللَّهُ تعالى إليه أَنْ قُلْ الحمد للَّهِ حَمْداً يُوافِي نِعَمَه ، ويكافِيءُ مَزِيدَه ؛ فإنَّك إذا قلْتَ هذا غلبْتَ جميعَ الخَلْقِ في المَحَامد والتسبيح .

دواوين ثلاثة :

وإنَّما غَلَب الخَلْقَ لأَنَّ العَبْدَ في أَثقال النِّعم ، ولا ينفَكُّ منها إلَّا بالحمد ، فيحتاج لكل نعمةٍ إلى حَمْدٍ ليتخلَّص منها .

ودِيوانُ النعم غَيْرُ ، وديوَان الحساب غير ، وديوان السيئات غَيْرُ ، وديوانُ مظالم العِبَادِ غير ؛ فيُنْشَرُ على العبد يوم الحسابِ دَوَاوِينُ ثلاثة ، كذا جاءَنا عن رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

فكان العَبْدُ مُحْتَاجاً عند كل نعمة إلى حَمْدٍ ، فتفضَّلَ اللَّهُ عليه ، وأعطاه كلمةً جامعةً تَتَشَعَّبُ[2] تلك الكلمةُ وتتجزَّأُ عدَدَ كلِّ نعمة للَّه عليه حتى تذهَبَ إلى كلِّ نعمة فتَلْزَمها ، حتى إذا وقف غداً بَيْنَ يدي

(١) الساطع : المرتفع .
(٢) تتشعب : تتفرق وتنفرج وتتجزأ .

اللَّهِ تعـالى ، ويَنْشُر عليـه دِيوانَ النعمـةِ ، وجدَ عنـد كلِّ نعمـة نُوراً قـد لزمها ؛ وذلكَ نورُ الشُّكْرِ ، نَطَق بحمـده ها هنـا جملة ، فتوزَّع وانقسم بـأَجـزائهـا على جميـع النِّعم ؛ فكـأنـه يقـولُ جـلَّ ذِكْـرُه على وَجْـهِ المُبَاهَاة(١) : مـلائكتي ، هذا عَبْـدٌ خلقْتُه من تُـراب ، فبلغ من مَعْرِفتـه إيّاي أنْ شَكَرني على كلّ نِعمَةٍ ، فيرى الملائكـةُ نِعَمَه ، مـع كلِّ نعمـةٍ نُورٌ قد لزمها ؛ وهو نورُ شُكْرِ الْعَبْدِ من تلك النعمـة التي قد نـطَقَ بها ، فيقول اللَّهُ تعالى : فهـذا للنعمة التي وَجَّهْتُ إلى عَبْـدِي ، وهذا النـورُ الـذي وجَّهَهُ عَبْـدِي إليّ لما تـوجهت إليه ، فعلمـوا بذلـك للعبـد على رُؤوس الخَـلَائق يومئـذ بِتلكَ المُبَاهَـاة ؛ لأَنه قـال : الحمـدُ للَّهِ حَمْـداً يُوافِي نِعَمَه ، ويكافِئُ مَزِيدَه ، أَوْفى(٢) حَمْدُه نِعَمَـهُ ، فَلَقِيَ كلَّ نعمـة جزءٌ من ذلك الحمدِ ، وبَقِيَ للمزيد أَجزاؤه حتى يكافِئَه بها يَوْمَ المَـزِيد والزيادة ؛ فإذا لقِيَه العَبْدُ لَقِي من نوره ، وكذا لقيه الحمد ولقيه بـأَجْزَاءِ المكافَأَة ، وهو حُبُّه ؛ لأَنَّ العَبْدَ لا يَقْدِرُ أَنْ يُكافِىءَ رَبَّه [٨١] عن رؤيته والنظرِ إليه بشيءٍ إلَّا بحُبِّه إياه ؛ فإنَّما حَمِدَه الْعَبْدُ بهذا الحَمْدِ الـذي له من نُور الحبِّ ما يتجزَّأُ ، فيلحق كلُّ جـزءٍ منه كـلَّ نعمةٍ من اللَّه تعـالى عليـه فتلزمها ، ويلحق أَجـزاءَ المزيـد فيقوم ، حتى إذا بـرز للخَلْقِ يوم الزِّيَادة ؛ ولَقِيه العَبْدُ بحُبِّه مكافِئـاً لما صنـع الرَّبُّ من رَفْـعِ الحجاب ، وإظهار جَلَالِهِ على عَبْده ؛ فهذه كلمةٌ قد ملأَت الدُّنيا والآخرة ؛ فلذلك قال لآدم عليه السلام : إذا قلتَ هذا فقد غلبْتَ جميع ما خلقْتُ ؛ فإنَّما عَظُمَ ذلك ، لأَنَّ الكلامَ حين جاءَه جاءَ مع النُّـور ، وَوَلَج(٣) صَـدْرَه مع

(١) يباهي : يفاخر ويكاثر .
(٢) أوفى : عدل وساوى .
(٣) ولج : دخل .

نُـورِ الكلام ، فلمـا نطق بـه خـرج من النُّـور والشُّعَـاعِ مـا وسـع النِّعَمَ أجزاؤه ، وبقي المكافأةُ يوم المزيد ما يكون كِفَاءَه(١) ، والذي لم يَتَطَهَّرْ من هـذه الأَدْناس فـإنَّما في صَـدْرِه من عِلْمِ الحـروف المؤلَّفـة ؛ فتلك الكلمـةُ والصوتُ الـذي يُبْرِزُهـا(٢) به فـإنَّـه قـوةٌ لتلكَ الحـروف ، حتى تتجزَّأ ؛ فيلحق كلَّ نعمة ويلزمَها ؛ وإنَّما ثباتُ العَبْدِ على النطق ؛ فـإنَّه قد أعمل العَبْدُ جوارحَـه(٣) في الطاعـات ، وأثقال النِّعم والشكـر باقيـة عليه .

نشر ديوان النعم :

فإذا وَقَفَ بين يدي اللَّهِ تعـالى ، ونُشِرَ دِيْـوَانُ النِّعم وُجِدت النِّعَمُ خاليةً من أنوارِ الشكر ، فـاستحيى مِنْ لَهْوِهِ وغَفْلَتـه وبَطَالَتـه(٤) ؛ فيبقى في شُكـر النعمة ، والنعمـةُ تَقْتَضي شُكْـرَه ، فحينئـذ إمَّـا مُعَـذَّب وإمـا مَغْفـور ؛ فأعـطى اللَّهُ المؤمنين جُمَلَ الكـلامِ ، وأعـطاهم شُكْـرَ النِّعم كلمةً ؛ فلحق نورُها جميعَ النعم بأجزائهـا ؛ فصارت كـلُّ كلمةٍ مقـرونةً بها شكر العبد .

كلمات أعطاها اللَّه العبد :

فأعطاهم لنَفْيِ الشَّكِّ كلمةً صارت مقرونـةً بكل شيء خلقَـه اللَّهُ تعالى للعباد ، نـافِية للشـكِّ عنه ؛ وهي كلمـة الشهادة : لا إلَـه إلَّا اللَّه محمدٌ رَسُولُ اللَّه .

---

(١) الكفاء : النظير .
(٢) يبرزها : يظهرها .
(٣) جوارحه : أعضاؤه ، جمع جارحة .
(٤) بطالة الرجل : عدم عمله .

وأعطاهم لتنزيهه كلمةَ : سبحان اللَّه ، فصارت مَقْرُونةً بكل مَدِيح إليه ، فإذا سبَّحه بحمده فقد أتى بجميع المَحَامد .

وأعطاهم لِذلَّةِ العبودة[1] كلمةً ؛ وهِيَ قول : اللَّهُ أكبر ؛ فإذا كبَّره فقد تواضَع ؛ وألْقَى بيديه سَلْماً .

وأعطاهم للقُوَّة على هذه الأشياءِ كلمةً ؛ وهِيَ قولُ العبد : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللَّه ؛ فإنَّما تخرجُ هذه الكلمةُ من العَبْد مع نُورِ الكلمةِ حتى يعملَ بعملها ، ويبلغَ مَبْلَغَها ؛ فإذا قال العبد ؛ الحَمْدُ لِلَّه ،فإنَّما هي كلمة جملة ؛ فإذا شَرَطَ وأشار إلى شَيْءٍ موصوف فقال : حَمْداً يُوَافي[2] نعَمَه ، خرجت الكلمةُ بنورها .

فمن كان له ذلك النورُ ، فتوزَّعت وانقسمت على جميع نِعَمِ اللَّهِ تعالى ، فلحقت كلَّ نعمةٍ قِسْطها[3] فلزِمَتْها ، فيتخلَّص من أثْقالِ النِّعَم ؛ لأنَّ اللَّه تعالى قال في تنزيله[4] : ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ﴾ .

فإذا عجز العَبْدُ عن عَدِّ النِّعم لم يُحْصِها ، فعلَّمه كلمةً تلحقُ بأجزائها كلَّ نعمة على حِدَتها ، فوافَاها حتى اقترنا : كلُّ نعمة وشُكْرُ العَبْدِ مقرونٌ بها لما نطق بهذه الكلمة .

وهذا الكلامُ إنَّما يخرجُ من هذه الأفْواه حروفاً مؤلَّفةً ، والأنوارُ

---

(١) العبودة : الطاعة .

(٢) يوافي : يكافىء ويعادل ويساوي .

(٣) القسط : النصيب والحظ .

(٤) إبراهيم (١٤/ ٣٤) .

كسوتُها معها نزلَتْ للعباد مِنَ السماءِ ، والعِبَادُ متفاوتون في النُّطْقِ بهـذه الكلمة كالشأْن في الأَنْوار .

مثل ذلك مثل الخواتيم :

وَمَثَـلُ ذلك مثـل الخَـوَاتيم(1) ، فليس بين خَـوَاتِيم النـاسِ كَثِيـرُ تَفَاوُت ؛ فإِنَّ أَكْثَرها فيما بين مِثْقَالٍ ومِثْقالين ؛ فعامَّةُ أَوْزَانِها بهذا القَدْرِ من الفِضَّـةِ أَو مِنَ الذَّهب ، إِنَّمـا الشـأْن في الفُصـوص التي تبـايَنَتْ(2) جواهِرُها : فرُبَّ جَـوْهرِ فَصٍّ لخاتم لا يُساوِي دِرهمـاً ، ورُبَّ فص تبلغ قيمتُه آلافاً من الدراهم والدّنانير . فكذا النُّطقْ(3) بهذه الكلمات مُتَفَاوتٌ في إِبـرازها لَفْـظاً وقراءَة ودُعـاءً ؛ ولكن التفاوتَ في المَعَـادِن التي فيها هذه الأَنْوار ، وعلْمِ هذا الكلام .

وتفاوتُ هذا أَكثَرُ من تَفَاوُت الفُصوص أَضعافاً ؛ فكلمةٌ تخرجُ من قَلْب ، مَعْدِنُ ذلك القلبِ الدُّنيا ، فذاكَ يبغى به الثوابَ . وكلمة تخرج من قَلْبٍ ، مَعْدِنُ ذلك القَلْبِ العُقْبى(4) . وكلمة تخرجُ من قَلْبٍ ، معدنُ ذلـكَ القلبِ الملَكُوت . وكلمـةٌ تخـرجُ مِنْ قلبٍ ، معـدنُ ذلـكَ القلبِ مالك الملك بين يَـدَيْه ؛ فـإِنَّما استنـار قَلْبُه بـذلك النـورِ ، وكلُّ كـلامٍ يخرج منه من ذلك النور .

---

(1) الخواتيم : جمع خاتم وهي الحلي التي للإصبع ، ويقال الأعمال بالخـواتيم أي أنها مرهونة بنهاياتها .

(2) تباينت : اختلفت .

(3) المنطق [أ] .

(4) العقبى : الجزاء .

مثل الغافل عن اللَّه تعالى

مَثَل الغافِل عن اللَّه تعالى مثَلُ رجُلٍ أَخذ المَلِكُ بيده ، فطاف به في قصورِه وبساتينِه وَمُتَنَزَّهَاته حتى عايَنَ ما فيها ، ثم أُدخله في خزانته ؛ فطافَ به ، فأَرَاهُ جميعَ ما في خزانته ، ثم أَفْشى إليه أسرارَه التي تكونُ في عداد الثواب والدرجات وأَسرار تَدْبير الملك ، أَراد بذلك أَنْ يتعلَّق قَلْبُه به ، وتطمئن إليه نفسه ، ويكون من خواصّ خَدَمِهِ بين يَدَيْه ، لا يَبْرَحُ من الخدمة ؛ فتعلَّق به قلبُه ، واندسَّ في أُموره ، ولزم بابَ الملك ، وَنَسِيَ أَحوالَ نَفْسَه ، فلو وَسَّعَ عَلَيه بعد ذلك ، أَو ضيَّق ، أَو بَرَّهُ أَو منعه بِرَّه ، لم يَبْرَح البابَ ، لَمَا اطَّلَع عليه من أَسراره ؛ لأَنه عرفَه معرفةً لا تَتَّهمه[1] في المَنْع والضِّيق .

وآخَر فتح له البابَ ، فوقف به على الباب ولم يَطُفْ به ولا أَطْلَعه على أَسراره ، وبَقِيَ على الباب ليس له دُخولٌ على الملك ولا مَعَهُ سرٌّ ولا شيء ؛ فإذا هذا الشيءُ أَحَلَّه هذا المَحَلَّ ، خرج من الباب ، وقام مع ذلك الذي لا يُؤْذَنُ لهم بهذه الكرامات ، فأُعجب العقلاءُ من فِعْل هذا ؛ أَنَّ الملكَ اختاركَ من الجميع ، وعطف عليك ، وأَظهر عليكَ مَحَبَّتَه ، وعليك بَسطَ رَأْفَتَه وشَفَقَته ، وآثَرَكَ[2] على هذا المَلإِ[3] الكثير ؛ فأَخذ بيدكَ من جُمْلتهم ، واستَخْرجَكَ وخلَّصكَ مِنْ بَينهم ليَطُوفَ بك في قصوره ، ولِيُطْلِعَكَ على أَسراره ، واختارك لِكَشْفِ

---

(١) لا تهمة [أ] تهمه [ب] .

(٢) آثرك : من الإيثار ، فضلك .

(٣) الملأ : الجماعة .

أسراره عليك في تدبير المملكة ؛ فتركتَ ما هنالكَ ، ووَلّيْتَ مُعْرِضاً لم تَرَ شيئاً ، وأَقْبَلْتَ على فَهْمِ نَفْسك تَتَشَبَّهُ في سيرتك وآدابك وأعمالك بهذا المخذول المَطْرُود المحروم على الباب الذي لم يعْبَأْ به ، كأَنَّ جميعَ ذلك عندكَ لا شيءَ ؛ وتركهم كأنهم في مَفَازَة حَيَارَى ، ثم لم يَزَالُوا في أعمالهم حتى أَوْقَعهم في أرض شاكة[1] مُلْتَفَّة أشجارها ، حَدِيدة شَوْكها ؛ فهم في فَيَافٍ[2] جِيَاع عِطاش جَرْحى من ذلك الشَّوْك والحَسَك[3] ؛ فما الذي يُؤمنك أَنْ يَرْمِيَ بك الملكُ لَتَشَبُّهكَ بهم في آدَابِهم وسِيرتهم ، فيُنَحِّيك[4] إلى الباب ، ويَسُدّه عَنْك ، حتى تقعَ في مَفَازَة الحيرة والأرض الشاكة .

فربُّنا جَلَّ جَلَالُه خَلَق دَاراً ، فحشاها بالرحمة ، وملأها بساتين ونعيماً ورِيَاضاً[5] ، وقُصوراً ، وأعدَّها لعبادِه ، وخلق سِجْناً ، فحشاها بسلطانه وغَضَبه ، وملأها بعَذابه ، وأعدَّها للذاهبين برقابهم ، وأظهر من مُلْكه في مَلَكُوت عَرْشِه ، ولا حاجةَ له إلى شيءٍ من ذلك ؛ إنَّما فعل هَذَا كله من أَجْل الآدَمِيِّين مِنَّةً ، [٨٢] فاختار مِنْ كلِّ أَلْفٍ مِنْ عباده واحداً ، ففتح البابَ له حتى عايَنَ هذه الأشياءَ ، وتركَ الباقين في مفازَة الحيرة الشاكة وهي المعاصي ؛ فتَرَدَّوْا في آبارِ الكبائر وجرفِ الجبابرة ، ويرتعون في القاذورات والكُنَاسات ، فإذا كان هذا الواحدُ

---

(١) شاكة : كثيرة الشوك .

(٢) الفيافي : الصحارى .

(٣) الحسك : هو نبات تتعلق ثمرته بصوف الغنم وله ورق كورق الرجلة ، وعند ورقه شوك صلب ذو شعب ثلاث .

(٤) ينحيك : يقصيك ويبعدك .

(٥) رياض : حدائق ، جمع روضة .

المختارُ المفتوح له الباب ، والمقبولُ في الدار ، والمُطَّلِعُ على الخزائن والأَسرار ، أَحْمَقَ لَهَا عن فَتْح الباب وعَمّا اطلعَ عليه ورَجَا فيه ، خرج من الدار ، وأَقبل على ظُلماتِ نَفْسِه الخائنة ، وغَرَّة العدوُّ ، وأَخرجه رُوَيداً رُوَيْداً[1] من الباب الذي فتح له ، فَوَلَجه[2] فأَبصره بالاستلذاذ وقَضَاءِ النَّهمات[3] والأَمَاني الكاذبة نفسيّة وشهوانية ، قد أَجلب له حتى تَأْشَر نَفْسُه ، وتَبْطَر[4] ، ويمتليء من لَذَّتها والفرح بها ، فيُورِثه الأَشَر والبَطَر حتى يخرجه إلى ما لم يُطْلقْ له من ذلك النَّوع الذي أُحلَّ له ، ويتعدى حُدُودَ اللَّه فيه حتى أَشِرَ وبَطِر ، وتعدَّىٰ حدودَ اللَّه فيها وتجاوَزَها ، فقد ظلم نَفْسه ، حتى يَصِيرَ عادِياً يَسْتَرِقُ من اللَّهِ نَفْسَه وَجَوَارحَه ويَعْدُو هَارِباً ؛ فسمَّاه عادِياً في تنزيله بفِعْله ؛ قال اللَّهُ تبارك وتعالى[5] : ﴿ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون . إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم فإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين . فمن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذلك فأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُون ﴾ .

فلا يزال العَدُوُّ يَسُوقُه في مَفَاوِز[6] الحياةِ حتى يَرْمِيَ به إلى النار سَوْقَ الحِمَار الدَّبِرِ[7] ، الجَوَّال في أَفْنِية[8] الدُّور ، يَرْتَعِي في

---

(١) رويداً رويداً : شيئاً فشيئاً .

(٢) ولجه : دخله .

(٣) النهمات : الشهوات جمع نهمة .

(٤) الأشر والبطر : كفر النعمة وكنودها وعدم شكرها .

(٥) المؤمنون (٢٣/ ٥ ، ٦ ، ٧) راجع مختصر ابن كثير (٢/ ٥٥٩) والبحر المحيط (٦/ ٣٩٧) بتصرف .

(٦) المفاوز : الصحارى ، جمع مفازة .

(٧) الدبر : بالتحريك قرحة الدابة ، وتجمع على دبر وأدبار .

(٨) أفنية الدار : ما اتسع من أمامها جمع فناء .

كِنَاسِهم[1] حتى يَرْمِيَ به إلى الشاكة الملتفة أشجارُها وشَوْكُها ، فسجنه فيها حتى لا يَقْدِر أَنْ يخرجَ منها ، كلما اضطرب لـزِمَتْه حِـدَّةُ الشَّوْكِ ، وأوجعَتْه جِراحَتُها ؛ وهي الكبائر من الدِّمَـاءِ والأموال والبَغْي[2] والعلوّ ، والجرأة على اللَّه تعالى .

فكلُّ ما ذَكَرْنَا عايَنَ في تلك الفُسْحَة ، والتفت إليهـا ، التفت مِنْ بُعد ؛ وذلك لبُعْدِ قَلْبِه ؛ فعايَن ذلك كـالجبالِ من البُعـد الذي تَبـاعد ؛ فـالقَلْبُ قَلْبُ الموحِّـدين ، واللسـان لسـانُ المـوحِّـدين ، والنَّفْسُ نَفْس الكافرين بما تشبَّهَ بهم في الأعمال والسيرة .

وهذا جَزَاءُ مَنْ رَفع اللَّهُ لقَلْبِه عَلَماً فأعرض عنه ، وهـذا جزاءُ مَنْ أقبـل على نَفْسه بعـد كَرَامِـةِ اللَّهِ تعـالى إيـاه ، حتى يَبْقَىٰ في العـذاب غَداً ، وفي دَارِ الهَوَان دَهْراً ، لا يَدْرِي كم أَمَدُ[3] ذلكَ الدهر .

المـــرارات :

فـذاق مَرارةَ الحيـاةِ ، وذاقَ مرارةَ المـوتِ ، وذاق مـرارةَ القَبْـر ، وذاق مـرارةَ فَتَّـانَي[4] القَبْـرِ ، وذاق مـرارةَ عَـرْضِ المعـاصي والسؤال والنُّشُـور[5] ، وضِيق المقام ، والصِّـراط والصُّحُف ، ووَزْن الأعمـال ، حتى تدرِكَه رحْمَتُه يوماً ؛ أو يكون رجـلاً قد غلَبَ عليـه الشَّقَاءُ لكُفْـرَانه نِعَمَ اللَّهِ تعالى .

---

(١) الكناس : ما يستتر به .
(٢) البغي : الظلم والعدوان .
(٣) الأمد : الغاية .
(٤) فتانا القبر : هما منكر ونكير .
(٥) نشر الموتى : إحياؤهم .

فمن فُتح له الباب ، فكفَرَ النِّعْمَـة ، واستخفَّ المِنَّةَ[1] ، وآثَـر[2] الشَّهْـوة ومَـرْضَـاةَ النفسِ ؛ فبـدَّل نعمـةَ اللَّه كُفْـراً ، فـأَحَـلَّ قَـوْمَـه دَارَ البَوَار[3] ، جهنَّم يَصْلَوْنَها فبئس القَرَار[4] .

فانقلب فيه مَنْكـوساً ، وسُلبَ مـا أُعْطِيَ ، وأُخْـرِجَ من الباب إلى الآبار المتردّيَة[5] المَنكُوسة فيها بلا يَدٍ ولا رِجْل ، فبَقي فيها أبـداً ؛ فلا دَاعِيَ ولا مُجِيب ، لا يَدْعُوهُ اللَّه أبداً[6] إلى نفسه، ولا يُجيبه إنْ دَعَاه .

اعـتمـال العقــل :

ومَنْ رُزِق عَقْلاً فاعتمل عقْله فيما فُتِح له من البـاب ، فعقد قَلْبَـه على طاعةِ النـاصح الـرَّشِيد ، وهـو العَقْلُ الـدالُّ على اللَّهِ تعالى وعلى مَـرَاشِد[7] أُمـورِه ، فلم يـزل العقـلُ يمهِّـدُ لـه ، ويُـزَيِّن لـه ، ويُـدَبِّـره بـالأَخـلاق الكـريمـة ، والأَعمـالِ السنِيَّـة[8] ، والأَفعـالِ المـرضيـة ، والأَقوالِ البَهِيَّة[9] ، والإِشارات الشهية ، والمَرَاتب العَلِيّة ، حتى وَقَفَـه على حَدِّ الأَمانة ؛ فصار أَمِينَ اللَّهِ تعالى في أَرْضه ؛ بلغَ سِـرَّهُ ، وَمَحَلّ

---

(١) المنة : هي النعمة وجمعها المنن .
(٢) آثر : فضل .
(٣) أحل قومه : أنزلهم ، ودار البوار : جهنم والبوار هو الهلاك .
(٤) بئس القرار : بئس المستقر .
(٥) المتردية : الساقطة في مهواة .
(٦) أبداً : إلى غير انتهاء .
(٧) مراشد الأمور : صلاح أحوالها .
(٨) السنية : الرفيعة .
(٩) البهية : من البهاء وهو الجمال والسحر والنضارة .

نَجْوَاه[١] ، ومَعْدِن[٢] حِكْمته ؛ وخزانةُ جَوْهره علت في المرتبـة ، وأَقام بالبابِ يُلاَزِمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ ، ولا يَبْرَحُ مكانَه ، وأَخـذ من الحظوظ حـظًّا صار عند الملك وَجِيهاً[٣] ، كلما شاءَ دَخَلَ عليـه بلا إِذْن ، وأَينمـا شاءَ قَعد في مجالسه من الاقتراب والدُّنوّ[٤] ، فائْتَمَنه على خزانته ، ووضـع عنـده تَدْبيـرَه وأَسرارَه ، ونفـذ حُكْمـه في مُلكـه ، فيُقْسم عليـه فيُبِـرُّ[٥] قَسَمـه ، ويتمنى فيُسْعِفـه بِمُنَـاه ؛ ويَشَـاءُ ويُـرِيـد فيُمْضي[٦] مشيئـاتِـه وإِراداتِه ؛ وهذا في دار الـدنيا ، حتى إِذا قَـدِم عليه فيَـا لَهُ مِنْ مَقْـدم لا يُحَـاط بـوَصْفِـه : مِنْ سـرورِه بلقـاءِ اللَّهِ تعـالى ، وتمكُّنِــه من مَعَـالي الدرجات ، والمصير إِليه في الفِرْدَوس[٧] الأَعْلى ، زائراً لا يُحْجَب في النَّـظَر ، ولا يؤَخَّرُ ؛ ولهـذا قـال رسـولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليـه وسلم : لا يعجبنّكم إِسـلامُ أَحَدٍ حتى تعلمـوا ما عُقـدة عَقْلِه ؛ فالإِسـلام ظاهـرٌ ، وعقـده العقل بـاطنٌ مستورٌ عن الخَلْق ؛ فمن اعتبـر بما رأَى من ظـاهرِ الإِسـلام من نفسـه أَو مِنْ غيـره ، فهـو مَغْبـون[٨] ، حتى يعلمَ على أَيِّ شيءٍ عقدة[٩] العَقْلِ ؛ فواحدٌ قد فَتَح له البَابَ ، ورَزَقه العَقْلَ ، فاطَّلع مَطْلعه ، وقبل مَا عَرَضَ عَلَيه ثَمَّ ولا يظهره ، وأَقبل على نَفْسِه مُكِبًّا على

---

(١) النجوى : السر ، ومحل نجواه : موضع سره .
(٢) المعدن : الأصل .
(٣) وجيهاً : ذو وجاهة وحظ ومرتبة .
(٤) الدنو : والتداني أي القرب .
(٥) يبر قسمه : يمضيه على الصدق ، فيكون قد بر به .
(٦) أمضى الشيء : نفذه .
(٧) الفـردوس : الجنة وجمعهـا فراديس ، وأصـل الفردوس : البستـان يجمع كـل ما في البساتين .
(٨) المغبون : المنقوص .
(٩) العقدة : العزم والهمة .

وَجْهِـهِ لقضَاءِ الشَّهَـوات في عاجِـلِ الدُّنْيـا ، فصارت عقـدةَ عَقْلِه طَلَبُ النَّهمـاتِ وأحـوالُ النفس ، يخـادِعُ اللَّهَ وَيَعْمَـلُ في العُبُـودَة بـالجُـزَاف والغَفْلة « والشـايذبـوذ » على التجويـز[1] ، ويَتَمَنَّىٰ الكرامـات على اللّهِ تعـالى وَمَعَـالي[2] الـدرجـات ، ويَعُـدُّ تلكَ الأَمَـاني من نفسـه رَجـاءً ، ويقول : أَرْجُو رَبِّي وأُحْسِن الظنَّ به ، وإِنَّما[3] هو أماني وليس برجاءٍ ؛ وقال اللَّه جلَّ ذكره[4] : ﴿ لَيْسَ بأَمَانِيِّكمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْـلِ الكتابِ . مَنْ يَعملْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يجدْ له مِنْ دُون اللَّهِ وَلِيًّا ولا نَصِيراً ﴾ .

مثل معرفة العامة

مَثَل معرفةِ العامـةِ مثل رَجُـلٍ في يديـه جَوْهَـرة ، فهو متحيِّـرٌ في شَأْنِها ، لا يَدْرِي ما قيمتُها ؛ فمرةً يُخَيَّلُ إليه أنها لا تُساوِي إلَّا دِرْهماً ، فلا يجد في قَلْبه كبِيرَ فَرَح ، ولا في نَفْسه غَنَاءً[5] ، ومرةً يأْمُلُ أَكثـرَ من ذلك ، فإذا قِيل له : إنَّ هذه جوهرة مما يُصابُ بها وِقْـرٌ[6] من الدنـانير امتلأَ سروراً وفَرَحاً ، وانبسطت جَوَارِحُه ، واستغنت نَفْسُه ، حتى وجـد قوةً بالغَنَاءِ[5] في جميع جَسده مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْلِكَ الدنانير ، ومِنْ قبل أَن

---

(١) التجويز : الإجازة .

(٢) معالي الدرجات : أعلاها .

(٣) كذا ورد بالأصل .

(٤) النسـاء (٤/ ١٢٣) قال الحسن البصـري : ليس الإيمان بـالتمني ولكن ما وقـر في القلب وصدقـه العمـل ، إن قومـاً ألهتهم الأماني حتى خـرجوا من الـدنيا ولا حسنـة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنـوا العمل . راجـع صفوة التفاسير للصابوني (٥/ ٣٠٦ ، ٣٠٧) .

(٥) الغَناء : الكفاية والاستغناء .

(٦) الـوقر : بكسـر الـواو ، حمـل الحمـار أو البغـل وفي جميـع الأصـول [وقـراً] وهـو تحريف .

ينكَشِفَ له الغِطَاءُ عن شأنها : مـاذا يُصيب بها ؟ كـان في قَلْبِهِ تَحَيُّـر ، وفي نَفْسِه غَائلة(١) ، وجوارِحُه مُنْقَبِضة .

قلوب العامة في معرفة ربهم

فكـذا قلوبُ العامَّـةِ في معـرفـة رَبِّهم ، يـزعمـونَ أنهم يعـرفـون رَبَّهم ، وتلك معرفةُ التوحيد ، يُوَحِّدُونه ولا يُشْرِكونَ به شيئـاً ، وهم في عَمىً مِنْ وَرَاءِ ذلك ؛ ولذلك قَدَر الشيطانُ أنْ يُهزَّهم هَزًّا عن الاستقامـة في أحوال النفوس ؛ ولَهَوْاً عن الواحدِ الذي وحَّدوه رَبًّا .

وَمَنْ عَرفه معرفةَ الآلاءِ(٢) ، ومعرفةَ المعروفات ، امتلأ قَلْبُه فـرحاً وَنَفْسُه غِنىً ، بمنزلةِ مَنْ دخلَ بيتـاً مُظْلِمـاً مُمْتَلئاً دنـانير ؛ فهـو في تلكَ الظُّلْمَةِ مُتحيِّـرٌ ضَعِيف ، فلما أَضَـاءَ البيتُ أبصر تلك الـدنانيـرَ التي في البيت ، واستغنى استغناءً بحيث لا يَضُرُّه مـا فاتـه [٨٣] وما أُصيبَ منـه من الضَّرر والمصائب .

قال له قائل : وما مَعْرُوفاته ؟

معروفات اللّه جل جلاله :

قال : جلاَلُه(٣) وجَمَالُه ، وعظمَتُه وبهاؤه ، وبَهْجَتُـه(٤) ورَحْمته ، وسُلْطانُه وَمَجْده ، ومنَنُه(٥) وعَطْفُه ، وغِنَاه وسَعَتُه ، وكرَمُه ورَأْفَتُه ؛ فمَنْ

---

(١) غائلة : جمعها الغوائل وهي المصائب والغائلة الصداع بالرأس .

(٢) الآلاء : النعم .

(٣) الجلال : العظمة .

(٤) البهجة : الإشراق .

(٥) مننه : نعمه وآلاؤه .

عَـرف ربَّـه بهـذه المعـرفـة امتـلأ قَلْبُـه فـرَحـاً ، ونَفْسُـه غِنيً ، وقـوِيَتْ جوارِحُه ، وفَسُحَ[1] أَمَلُه ، وعَظُمَ رَجَاؤه ، واستغنى بِغِنَى اللَّهِ ، وتوسَّعَ في سعة اللّهِ ، واجتمعت هِمَمُه ، وَصَلُب إيمانُه ، واستقام هُدَاه ، وثبت رُكْنُه ، وَوَفَى[2] إسلامُه ، وصدقت عُبُـودَتُه ، وَشَـرُف ذِكْرُه في العُـلاَ ، ونَبُـل جَاهُـه ، وكـان من المختصِّين بـرحمتـه ، المَهْـدِيِّين بـولايـةِ اللَّهِ تعالى .

وهـذه المعروفـات كلُّها في حظِّ النفس ، فمتى لم تَعْـرِف النفسُ رَبَّهَا بهذه الصفات فهي متحيِّرةٌ فقيرة خاملةٌ مُغْتَرَّة ذَابلة .

مثل موت واحد من المؤمنين

مَثَلُ مَوْتِ واحدٍ من المؤمنين مثل شهودٍ شهدُوا عند الحاكم فنقَص مِنْ عـدَدِهم واحد ، إمَّـا برُجـوع أو بغَيْبَة منهـا ، وإمَّا بـرجُوعـه عنها ، فكلمـا نَقَص منهم واحدٌ زاد الـوَهن[3] في ذلك الأَمْـرِ ؛ وذلـكَ أَنَّ اللَّه تبـارِكَ اسْمُـه خلقَ الآدمِيَّ ، وأحلَّه مَحَـلاًّ لم يحلَّه لأَحـد مِنْ خَلْقــه ، وسخَّـرَّ له[4] مـا في السموات ومـا في الأَرْضِ ، وسمَّاهم بِـاسْمَيْنِ في تنزيله ، دَلَّ الإسمانِ على محله ؛ أَحدهما الآدَمِيّ ، والآخر حَبِيب .

فأَمَّا آدم فهو الوَصل ، يقال في اللغة : آدَمَنِي أَي وَصَلني ، وكذا سُمِّي الإدَام إدَاماً ، أَي يُوصِلُ ذلكَ الخُبْزَ .

---

(١) فسح : اتسع وطال .

(٢) وفى إسلامه ، تم وكمل .

(٣) الوهن : الفتور والضعف .

(٤) سخر له : ذلل وروض له .

ورُوي أَنَّ الـنَّـبِيَّ صلى اللَّهُ عليـه وسلم أَخذ كِسْـرَةَ[١] خُبْزٍ بيمينه وتَمْراً بشماله ، فأكلهما ، وقال : هذه إِدَامُ هذه ؛ أَي هـذه التَّمْرَةُ وُصْلَةٌ بهذه الكِسْرة .

فآدَمُ عليه السـلام خلقه اللَّهُ بيَـده ، وقَرَّبـه بباءِ الـوُصْلة ، فقال : خُلِقْتَ بِيَـدي ؛ والبـاءِ للوصـل ، وسمَّـاه آدَم في تنـزيله ، وسمَّى أولاده آدَمِيِّين بهـذا الاسم ، فقال[٢] : ﴿ يـا بَنِي آدَمَ ﴾ ؛ ثم سمَّاه إِنسـانـاً ، وسمَّىٰ أولادَه النـاس ، فقال[٣] : ﴿ لقـد خَلَقْنا الإِنْسَـانَ ﴾ ، لأنـه لَمَّـا خَلَقَ من الـطِّين أَنِسَ[٤] به وبِقُـرْبه ، فبقيت تلكَ الإِنْسِيَّـة فِينـا ، فليس أَحَـدٌ من أولادِه - بَرّ ولا فَـاجر - إلا يَـأْنَس بربّـه في المنافـع والمضارّ ، وإليه يَلْجَأُ ، وإليه يَفْزَع[٥] ، وبِذِكْره يَـأنَس في جميع أَحـواله وأُمـورِه ، إِلَّا أنه إذا وَجد بُغْيَتَه[٦] ، وأَدرَكَ نَهْمته[٧] من حـاله ، اشتغـل بالحـاجة والبُغْيَة ، وَلَهَا عنه إِلَّا عصابة[٨] من الموحِّدين .

أولياء اللَّه تعالى :

وهم أَوليـاءُ اللَّهِ الذين عجن طينَتهم بحُبِّـه ، فأُشْـرِبَتْ قلوبُهم[٩]

---

(١) الكسرة من الخبز : القطعة منه .
(٢) الأعراف (٧ / ٢٦) راجع القرطبي (٧ / ١٨١) والطبري (١٢/ ٣٥٥) .
(٣) الحجر (١٥/ ٢٦) .
(٤) أنس به : سكن إليه واطمأن إلى جانبه .
(٥) يفزع : يلجأ .
(٦) البغية : المراد والطلبة .
(٧) نهمة : شهوة ومطلب .
(٨) عصابة : وعصبة بمعنى جماعة .
(٩) أشربت قلوبهم حبه : خالط حب الله حبات قلوبهم .

حُبَّـه ؛ فهم الذين بُغْيَتُهم في الـدَّارين مولاهم وخـالِقهم ومليكُهم ، قد ملك حبُّه قُلوبَهم ، ولا يقدِرُ شيء دونَه أنْ يَمْلِكَهم .

طائفــة أخــرى :

فـأمَّا مَنْ (١) دُونَهم من المؤمنين فـطائفـةٌ منهم أَقـرَّت بتـوحيـده ، وقَبِلَتْ العُبُـودَة صِدْقـاً من قلوبهم ، ثم ملكتْهُم نفوسُهم الشَّهـوانية حتى خَلَطُوا العبودَة ؛ فمرةً تزِلُّ قدَمُـه (٢)، ومرة تثبُت ؛ فتـراه في جميع أمـره مرةً مُطِيعاً ، ومرة عاصِياً ؛ مرةً لاهياً ، ومـرّةً مُقْبِلاً .

وطائفة نافرة :

وطائفة منهم نَفَرت نفرةً مُنْكَرة ، وأَدْبَرت (٣) عن عِبـادته ، وأَقْبَلَتْ على عِبَــادةِ مَنْ دُونـه ؛ مِن الشمس والقمَــر وســائـر (٤) المخلوقين ؛ وأَشْرَكُوا بالله تَعالىٰ في مُلْكه .

الثابت على التوحيد :

فمَنْ ثبتَ على توحيده ، وقبل ما جاءَ به الـرسولُ عليـه السلامُ ، سمَّـاهُ مُؤمناً ومُسلمـاً ، وتـائبـاً وعـابِـداً ، وحـامـداً وصـائمـاً ، وراكعـاً وساجداً ، وشاكراً وصابراً ، ومُحْتَسِباً (٥) ، وخالصاً ووَلِيّاً .

---

(١) الدون : من هو أدنى وأقل مرتبة وأحط درجة .

(٢) تزل قدمه : لا تثبت .

(٣) أدبرت : رجعت

(٤) سائر : باقي .

(٥) المحتسب : هـو البدار إلى طلب الأجـر بالتسليم والصبـر . وقيل أيهـا أعظم الشكـر على النعماء أم الصبر على البلاء ، وقال أحد الصالحين : لأن أعافى فأشكر ، أحب =

المدبر الذي ركب بعض شهواته :

وَمَنْ أَدْبر بالكلية سمَّاه مُفْسِداً وكافراً .

ومن رَكِبَ بَعْضَ شهواتِهِ وقَلْبُه معه ، سمَّاه ظالماً لنفسه مِخْلَطاً[1] ؛ ثم ذكر في تنزيله : إنَّ اللهَ يُحِبُّ التوّابين ؛ ويُحِبُّ المتطهِّرين . ويُحِبّ المتقين . ويُحِبُّ الشاكرين ، ويُحِبُّ الصابرين ، ويُحِبُّ المُحْسِنين . واللهُ وَلِيُّ المُؤْمنين .

وقال في حقِّ المدْبِرين : إنَّ اللهَ لا يحبُّ الكافرين . لا يحب الظالمين . لا يُحِبُّ المُفْسِدين .

فسمَّانا في تنزيله أَحِبَّاء مع جميع هذه الأسماءِ التي هي محاسنِ الأَخلاقِ مِنَّا . فخَلق هذا الخَلْق كلَّه عُلْواً وسُفْلاً ، وخلقَنا من قَبْضَةِ مِنْ تُراب ، فوضعنا فيما بين هذين سبعة أَطباق مِنْ فوق ، وسبعة أَطباق من تحت ؛ والأَطباق المرفوعة من فوق معلَّقَةٌ بالرحمة ، والأَطباق من تحت موضوعةٌ على الهَبَاءِ[2] .

في بيان الهباء :

قال له قائل : ما الهَبَاءُ ؟ قال : غُبار الثَّرى[3] .

= إلي أن أبكي فأصبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب معك العافية » .

(١) المخلط : الذي يلبس الأمور على السامعين والناظرين فيشق عليهم تبين الحقيقة من غيرها .

(٢) الهباء : دقائق التراب ، وهو الشيء المنبث الذي يرى في ضوء الشمس .

(٣) الثرى : التراب .

وجعل الطبقَ الأعلى الذي نَحْنُ عليه لنا بِسَاطاً ، وَزَيَّن لنا هذا البِسَاطَ بأَلوانِ الزينة من الذَّهَبِ والفضة ، من الجِبَال والجَوَاهر ، والبحار والنبات ، من القِفَار[١] ؛ ذات أَلوان من المَطَاعم والمَشَارِب ، والملابس والمَشَامّ ، وسائر المنافع ، والدوابّ وسائر الحيوان[٢] ؛ ثم بسط على هذا البِسَاطِ بساطَ العُبودة ، مِنَ الذِّكْرِ والقِيام ، والرُّكوع والسجود، والصيامِ والصَّدَقَة . والحَجِّ والجِهَاد ، وسائِر أَعمال البر والطاعات ، ثم بسط على هَذَيْن البساطَيْنِ بساطاً آخر ؛ وهو بساطُ الرُّبُوبية والتدبير ؛ ثم أَقَامَنَا مَعاشِرَ ولدِ آدم على بساط الهَبَاءِ ، ودعانَا إِلى دَار مُلْكه ، ودارِ السلام في جِوَاره ، ودارِ القَرَار ، ودارِ السُّكون ، ودارِ السرور ؛ وقد نَشَر بِساطَ العُبودَةِ على بساطِ الزِّينة ؛ فكلما قطَعْنَا مِنْ بساطِ العُبُودةِ شِبْراً ، وتَخَطَّيْنَاه ، وَطَوَيْنَاه حتى نَنْتَهي إِلى الأَجَلِ الذي أُجِّلَ[٣] لنا ، والوَقْتِ الذي وُقِّتَ لنا ، فدَعانَا اسماً اسْماً دعوةً لا يقدِرُ أَحَدٌ منا أَنْ يمتَنِعَ من الإِجابة ، وقد طَوَىٰ مِنْ بساط العبودة ما طَوَىٰ ، فنَلْقَى اللهَ تعالىٰ به في تلكَ العَرْضَةِ يوم الموقف بين يَدَيْه .

من أراد الله به خيراً :

فمن أَرَاد اللهُ به خيراً قذفَ في قَلْبِه نوراً أَحيا قَلْبَه به ، ففتح عَيْنَي فؤادِه في صَدْرِه ، ثم أَشرقَ فيه نورُ التوحيد حتى أَنارَ قَلْبَه وأَضَاءَ ، ثم أَعطاه نورَ العَقْلِ حتى بانَ له أَمْرُ العُبُودةِ ، فقبلها عَنْ رَبِّه ، إِنَّما يَأْتَمِر[٤] بجميع ما يَأْتيه عن الله ، ويَنْتَهِي عن جميع ما نَهاه

---

(١) القفار : الصحارى .　　(٢) الحيوان : الكائنات الحية .
(٣) أجل الشيء : جعل له أجلاً ووقتاً ومدة .
(٤) يأتمر : يسمع ويطيع .

اللهُ تعالىٰ عنه ، ثم اقتضاه الوفاءَ بذلك ؛ فوقع العَبْدُ في كـدٍّ ومُجَاهـدةِ النَّفسِ الشهـوانية ، والعـدوّ الحاسـد ، والهَوىٰ المُـرْدِي(1) ؛ فلم يزل العَبْدُ يتشَمَّرُ(2) لـذلك ويجتهِـدُ ، وَيُدَاوِمُ على ذلـك ، ويُقَاسِي غُمُـومه وعُسْـرَه ، ويتضرَّعُ إِلَىٰ اللهِ تعـالىٰ ويستغيثُ به حتى يَـرْحَمَه ؛ فـأَجابَ دعوتَه ، فأَيَّدَهُ بِرُوحٌ منه .

فلما جاءَت تلكَ الأَنوارُ على قَلْبِه سقط عنه الجهد ، واستراح من المُجَـاهَدَة ؛ وذلـك قولـه تعـالىٰ(3) : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلَكم خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ .

فجعله وليّاً مِنْ أَوليائه ، وخليفةً من خُلفاءِ أَرْضِه ، وإماماً من أَئِمَّةِ الهُدى ، وَحَبِيباً مِنْ أَحبّائه ؛ وذلك قوله تعالىٰ(4) : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّـارَةٌ بالسُّوءِ إلَّا ما رَحِمَ رَبِّي ﴾ .

فالمرحوم صِفَتُه ما ذَكَرْنَا ، وَمَنْ سقَط عن هذه الصفةِ فهو مَـرحوم أَيضاً بالتَّوْحيد ، حيث أَنْقَذَهُ مِنْ الشِّرْكِ ، وَمَنَّ عليـه بهدايـة التوحيـد . وقال(5) : ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فلما خلقَ اللهُ تعالىٰ [٨٤] هذا الخَلْق ، ابتدأَ خَلْقَ هذه القَبْضة

---

(1) المردي : المهلك ، من الردى وهو الهلاك .

(2) شمَّـر في عبادته : إذا اجتهد فيها ، وراض نفسه عليها .

(3) النمل (٢٧/ ٦٢) والمضطر هو المجهود المكـدود ذو الضرورة . ويكشف السـوء : يزيل الجور والضيم والضير .

(4) يوسف (١٢/ ٥٣) راجع تفسير القرطبي (٩/ ٢١٠) والصابوني (١٣/ ٦٥٣) .

(5) النـور (٢٤/ ٣٥) راجـع تفسيـر الـطبـري (١٨/ ١٠٩) والقـرطبي (١٢/ ٢٣١) واللسان (١/ ٦٦) .

من تُـرَاب ، شَهِد بنفسـه لنفسه أَنَّـه لا إِلَهَ إِلاَّ هُـو ، وَشَهِدَت المـلائكة بـذلك ، وَشَهِـدَ أُولو العِلْمِ من الآدَمِيِّين بـذلك ، ثم أَنَـارَ شهـادَتَـه في قلوب الموحِّدين حتى شَهِـدُوا على شَهَادتـه ، عالمين بـالشهادة مُـوقِنِين به ، عالمين بالمشهود له ؛ وذلك قوله تعالىٰ[1] : ﴿ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهم يَعْلَمُـون ﴾ . فهم بأَجمعهم أَهْـلُ رَحْمَتِه ، وَأَهْـلُ رأْفَتِه وأَحبَـابُه ، سابِقُهم ومُقْتَصدهم[2] وظالمهم .

السابق والمقتصد والظالم :

فمَنْ مات منهم ظالماً كان أَو مُقْتَصِداً أَو سابقـاً فكلُّهم حبيب اللهِ ومـأْثـورُه ، ومُخْتَـارُه ومَـرْحـومُـه ، ومرؤوفُـه ومُـوَحِّـدُه ، وشـاهِــدُه في الأَرض[3] ؛ فمتىٰ مات واحدٌ منهم فقـد نقص من أَهل شهـادته شـاهِدٌ فقـد حـلَّ بعُقْـدَة الـوَهن[4] في أَهــلِ السَّمـوات والأَرض ، والجبَـال والبحـار ، والشَّجَرِ والـدوابّ ، والخَلْق والخليقة ؛ والكـلُّ إِنَّمـا استقَـرَّ

---

(١) الزخرف (٤٣/ ٨٦) يقول المفسرون : المراد بـ (من شهد بـالحق) عيسى وعزيـر والمـلائكة ، فـإنهم يشهدون بـالحق والوحـدانية لله سبحـانه وتعـالى ، فهؤلاء تنفـع شفاعتهم للمؤمنين ، وإن كانوا قد عبدوا من دون الله .
راجـع الصابـوني (٢٥/ ١٣٣٠) بتصـرف ، وراجـع تفسيـر الآيـة الشـريفـة في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٢٣) ومختصر ابن كثير (٣/ ٢٩٨) .

(٢) المقتصد : المؤمن العاصي والسابق : التقي ، والظالم لنفسه : الكافـر أو الفاسق أو المشرك .

(٣) قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الآيـة : ﴿ ثم أورثنا الكتـاب الذين اصـطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بـإذن الله ، ذلك هـو الفضل الكبيـر ﴾ الآية ٣٢ من سـورة فاطـر . ثم قـال صلى الله عليـه وسلم : ـ « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » ـ

(٤) الوهن : الفتور والضعف .

على الأَرْضِ بتوحيد الموحّدين ؛ وذلك قول الله تعالىٰ[1] : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهم ببَعْض لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ على العالَمِين ﴾ .

وَرُوِي في الخبر أَنَّ اللهَ تعالىٰ قال : يا موسىٰ ؛ لَوْلَا مَنْ يُوَحِّدُني لِسيلَتْ جَهَنَّمُ على الكافرين سيلاً .

وإنَّما دَخَلَ الوَهَن عليهم ؛ لأَنَّ كلَّ مُؤْمِنٍ رُفِعَ مِنَ الأَرْضِ انقطعت حِصّته[2] من الرحمة ، وانقطع مَدَدُه مِنَ البَرَكة .

فإذا افتقدت[3] السمواتُ والأَرضُ الرحمةَ الدارَّة من العليِّ إلى العَبْد ، والبركة المنتشرة في أَحوال العَبْد وأُموره ، بكت السموات والأَرض .

وإذَا افتقدت العُبُودَةَ السَّمواتُ والأَرض ومَنْ عَبَدهُ على وَجْه الأَرض ، وأَنوار الطاعات المُنْتَشرة من العَبْد إلى اللهِ تعالىٰ في جَوِّ السماءِ بَكَتَا لفَقدِه .

مثل المتَّكل على ماله

مَثَلُ المُتَّكِلِ على مالِه مَثَلُ عَبْدٍ أَعطاه مَوْلَاهُ رَأْسَ مالٍ ليتصرَّف ويتَّجِر ، والربحُ للعبد ؛ فضرب العَبْدُ بهذا المالِ يميناً وشمالاً ،

---

(١) البقرة (٢/ ٢٥١) .

(٢) الحصة : النصيب .

(٣) وردت بالمطبوعة [افتقدت] وهو تصحيف .

وتصرَّف في أَنواع التِّجَارات والبضائع ، فباع واشترى ؛ فصار هذا المالُ كلُّه نَسِيئةً[1] . وإِذَا نظر في الدِّيوان[2] رأى أَنَّ على فلان كذَا وعلى فلان كذا ، وعلى فلان كذا ؛ فتجمَّع أُلوفُ أَضْعاف رَأْس المال ، كلُّها نَسِيئة ؛ فإذا كان أَحْمَق[3] طابت نَفْسُه بالآلاف التي يُحْصِيها واتَّكَل عليها ، ولا ينظر إلى ما تَحَصَّل له في يده ، فكم من غَرِيمٍ[4] بايَعْتَه على الوفاءِ ، وهو عندك مَلِيٌّ[5] ؛ فإذا أَتىٰ على ذلكَ مدةٌ ظهر إفلاسُه ، وَلَوَى[6] ما عليه ، فلم يحصل له منه إِلَّا كتابةُ اسْمِه في دِيوانك ، وتَقْدِير مَا عليه حساباً ؛ وربما يحصَّل منه شيء وذهب بشيء فأَنْتَ على غيرِ ثِقَةٍ مِنْ غُرَمائك حتى تقبض منه ، وتنقد بعض القَبْضِ وتستَيْقِن بأَنَّها خِيَار تَنْفُق[7] في كلِّ سُوقٍ إِلَّا في سُوقِ الوَضَح[8] التي لا تُبَاع ولا تشترى إِلَّا بالدَّرَاهم الوَضح[9] .

فالعَبْدُ المُؤْمِنُ قد أَعطاه اللهُ تعالىٰ رَأْسَ المالِ ، وهو الإِيمَان والتوحيد ، وأَمَره أَنْ يَتَّجِرَ بأَنواع من الطاعات وأَعمال البرّ ، والأَرباح لك ، لتُنْفِقَ على نفسك يوم فَقْرك ؛ فإِذَا اتَّجر ورَبح من الصوم والصلاة والزكاة والحج وسائر[10] أَعمال البِر ؛ فهذه الأَعمالُ كلُّها كأُولئك الغرماءِ

---

(١) نسأه : أخره وأجله .
(٢) الديوان : ما يقيد فيه الديون على الناس .
(٣) الحمق والحماقة : فساد العقل واعتلال الفهم .
(٤) الغريم : المدين .
(٥) المَلِيءُ : الغني المتمول .
(٦) لوى ما عليه : أنكره .
(٧) تنفق : تروج .
(٨) الوضح : حـليّ من الفضة .
(٩) الوضح : هي الدرهم الصحيح .
(١٠) سائر أعمال البر : الباقية .

الذين يَرْجُو أَرْباحَهم التي رَبِح على رَأْسِ مالِه ، أي أَعمال الطاعات كلّها ، رِبحُ التوحيد ، والتوحيد رَأْس المالِ لا يُقْبَلُ عمَلٌ إلاّ به ، ومنه يخرجُ رِبْحُ المُؤمِن ؛ لإنَّهُ لم يَتَبيَّن القبولَ فهو على غَرَرٍ[1] مِنْهُ ، فإذا اتَّكَلَ على هذه ، وحُوسِبَ يَوْمَ الحساب ، وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ[2] ، وطُولِبَ بالصِّدْقِ والإخلاصِ منها ، فلم يوجَدْ في كثيرٍ منها الصدقُ والإخلاصُ ، فَرَضِيَ بذلك العملِ ؛ فكان كهذا الْغَرِيمِ[3] الذي ظَهَرَ هاهنا إفلاسُه ، فلم يَنَلْ منه رِبْحاً ، وخِيفَ على رَأْسِ ماله أَيضاً ؛ لأَنَّه عَمِلَ لِغير الله تعالى ، واستهزأَ بأَمْرِ اللهِ تعالىٰ ، وآثَرَ[4] دُنْياهُ وَهَوَىٰ نَفْسِه على مَحْبُوبِ اللهِ تعالىٰ ومختارِه ؛ فهذا كهٰؤُلاءِ الغُرَماءِ الَّذين ظهر هاهنا إفْلَاسُهم ، فلم يَبْقَ في أَيْدِيهِم إلاَّ دِيوانُ الكَتَبة .

فالعَبْدُ إنْ كان كيِّساً[5] يَبيعُ ويَشْتَرِي نَقْداً برِبْح يسير ؛ لأَنَّ اليَسِيرَ من الرِّبْح مع قِيامِ رَأْسِ المال خَيْرٌ من الرِّبْحِ الكثير مع هلاك رَأْسِ المال ؛ أَو إذَا باعَ نَسِيئةً يأْخُذُ بالثقة ، وعَامَلَ الغُرماءَ بالوَثَائق ؛ إمَّا الرَّهْنُ أَو الكَفَالَة[6] على مليء[7] ؛ واستَقْصَىٰ[8] النَّظَر ، ثمَّ لم يُقْنِعْه ذلك فهو أَبداً خائفٌ من أَنْ يَضِيعَ رَأْسُ المال ورُبَّما غَرق في الربح للنَّسيئة ؛ ومع ذلك الخَطَرُ باقٍ ؛ وذلك لأَنَّه ربما يَهْلك الرَّهْنُ فيهلك

---

(١) الغرر : مجهول الباطن ذو الظاهر المغري باقتنائه .
(٢) حصل ما في الصدور : تميز ما فيها من الخير والشر .
(٣) الغريم : المدين .
(٤) آثر : فضل .
(٥) الكيس : الفطن اللبيب .
(٦) الكفالة : الضمان .
(٧) مليء : غني .
(٨) استقصى النظر : وتقصى النظر ، أرسله طويلاً وأمعن فيه .

بما فيه مِنَ الدَّيْن ، أَو يموت الكَفيـل ، أَو يَغِيب غَيْبةً منقـطعة ؛ فيهلك ماله .

فكذا مَنْ عامل في الطاعـات ووقَع في الأَهـواءِ ؛ مثل القَـدَريَّة ، والجَبْرِيّة ، والمُعَـطّلة ، والمشبّهة ؛ فغـرق رَأْسُ مالِهم في أَربـاحهم ؛ فصارت كلُّها نَسِيئةً من غيرِ ثِقَةٍ ولا مَلَاءٍ[1] .

فـالكَيِّسُ لَمَّا رَأَىٰ ذلـك قال : إِنِّي لا أُبـايع ولا أُتَـاجِـرُ أَحَـداً إِلَّا بِرَهِينة وكَفِيل[2] ووثَائق ؛ فالقليلُ من الربح مـع وَفَارَةِ رَأْسِ المـال خَيْرٌ من كثير الأَرباح مع تَضْيِيع رأْسِ المالِ ؛ فإذا المالُ والأَرباحُ قد ذهبت كلُّها ؛ لأَنَّها صارت في غير مَلَاءةٍ ولا ثِقَة ؛ فإِنَّ هذه الأَربـاح كلَّها على خَطَر ؛ فينبغي أَنْ يكونَ كفيلُه ثقةً مُجانِبَ الأَهْوَاءِ .

وكُنْ على حَذَرٍ وتَقْوىٰ من الاستماع إِلى كلامِهم ؛ فإِنَّه كلُّه هَلَاكٌ وتَـوىً[3] ؛ والْزَمْ السَّـوَادَ[4] الأَعظم الـذي أَشَارَ إِلَيـه صـاحبُ الشَّـرْعِ صَلَواتُ اللهِ عليـه ، واتَّبعْ سَبِيلَه[5] ؛ فقـد أَمَرَنَـا اللهُ تعـالىٰ في تنـزيله بـذلك ؛ فقـال جَلَّ ذِكْـرُه[6] : ﴿ لقـد كـانَ لَكُمْ في رَسُـوْلِ اللهِ أُسْـوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[7] .

---

(١) الملأ : جمع مليء وهو الغني .
(٢) الكفيل : الضامن .
(٣) توى : هلاك .
(٤) السواد : جماعة الناس ومعظمهم .
(٥) السبيل : الطريق .
(٦) الأحزاب (٣٣/ ٢١) راجع مختصر ابن كثير (٣/ ٨٩) .
(٧) الأسوة : القدوة .

فـالأُسْوَةُ الحسَنَـةُ اتِّبَاعُ كتـابِ اللهِ تعالىٰ وسُنَّـةِ رَسُولِـه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وسُنَنِ خُلفائه الراشدين المَهْدِيِّين الذين قَضَوْا بالحق ، وبِهِ يَعْدِلُون[١] .

وقـد قـال صلَّى اللهُ عليـه وسلَّم في خـطبتـه : إِنَّكم سَتَـرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اختلافـاً كثيراً ، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّـةِ الخلفاءِ من بعـدي ، عضُّوا عليها بالنَّواجِذ[٢] .

فـاتِّكَالُ الكَيِّس على رَحْمَـةِ اللهِ تعـالىٰ الـذي أَعْـطَىٰ منهـا رَأْس المـالِ ، فتلكَ رَهينتُـه[٣] ووثيقتـهُ ؛ وحُسْنُ ظَنِّهم بـاللهِ تعـالىٰ كفيلُه ، فأَوْفَرُهم من حُسْنِ الـظنِّ به أَقـواهم كفيلاً ، وَأَمْلؤهم أَدَاءً ومُقْتَضيـه من غُرَمائه دَعَوَاته وتضرُّعه إِلَىٰ الله تعالىٰ .

فعليكَ بِحِفْظِ الرَّهْن لئلاَّ يَهْلك فتُذْهِبَ بِدَيْنِكِ ؛ واحْبِس الكفيـلَ لئـلاَّ يَغِيبَ فيذْهَب بمـا عليه ؛ وعليـك بالتقـاضِي[٤] كلَّ يـوم بالـدُّعـاءِ والتضَرُّع والبُكاءِ بالنيّات الخالصةِ لِتُجَابَ .

مثل حركات المؤمن

مَثَـلُ حركـاتِ المُؤْمِنِ مع الحفَـظة مَثَلُ رجـلٍ لـه حُـرفـاءُ[٥] في

(١) يعدلون : ينصفون في الحكم فيقضون بالعدل .

(٢) النواجذ : الأسنان التي تبدوعند الضحك ، أو أقصى الأسنان .

(٣) رهينة : مرهـونة .

(٤) بالنقاض [أ] ولعله تصحيف .

(٥) حرفاء : جمع حريف وهو المعامل .

السُّوقِ ، يُنْفِقُ مالَه فيما يَظْهَر فيه حاجةٌ من السُّوق ، يأْخُذُ من الخبَّاز الخُبْزَ ، ومن القَصَّاب[1] اللَّحم ، ومن البَقَّال الحَوَائج ، ومِنَ الآخَر الفواكه [٨٥] ، ومن البَزَّاز[2] ما يحتاجُ إليه ، فهم يكتبون حِسَابَهم ، فإذَا أُهِلَّ[3] الهِلاَلُ ، وأَخْرَجُوا عليه حساباً جَمّاً[4] وديواناً[5] طَوِيلاً ، فإن قَضَىٰ[6] ما عليه على رَأْسِ كلِّ شهرٍ تَخِفُّ عليه المؤونة[7] ، وهنِئَتْ له النِّعْمَة ؛ وإنْ تَغَافَلَ عن ذلك حتى توالَتْ[8] عليه وَظَائِفُ الشُّهُور والسنين غَرِق في الدين .

كذا الْعَبْدُ بَيْنَ نِعَمٍ كثيرة ، ودُيون كثيرة ، والحقُّ يَقْتَضِيه شكر كُلِّ نِعمةٍ ، والعَدْلُ يَقْتَضِيه الاستغفارَ والإنابةِ[9] من كل خَطِيئة . فإذا كان العَبْدُ مُنْتَبهاً حَيِيَّ القلبِ أَخَذَ لكلِّ نعمة حَمْداً ، ولكل خَطِيئة تَوْبة واستغفاراً ، حتى تخِفَّ عنه السيئاتُ وأَثْقَالُ النِّعم ، وَيَمَّحِي ما في الديوان .

وإن تغافَلَ عن ذلك ، وَحَمِدَ حَمْدَ الْغَافِلين ، واستغفر استغفارَ السَّكَارَى على العادة ، خرج الحَمْدُ والاستغفارُ منه ، ولم يَجِدْ

---

(١) القصاب : الجزار ، ويقال قصبه إذا قطعه .
(٢) البزَّاز : الذي يبيع البز وهو نوع من الثياب .
(٣) أهل : ظهر .
(٤) جماً : كثيراً .
(٥) الديوان : الصحف المجتمعة المكتوب فيها الديون والحساب .
(٦) قضى : أدى ، من القضاء .
(٧) المؤونة : الحَمل والثقل .
(٨) توالت : تتابعت .
(٩) الإنابة : الرجوع .

مَسَاغاً(١) ؛ لأنـه ليس بِقَلْبِهِ طَـرِيقٌ إلى اللّهِ تعـالى ؛ والـطريقُ مسـدودٌ بالْهَوَى والشهوات ، رَجَعَ الحَمْدُ والاستغفارُ إلى فَمِـهِ ، وتراكمت أَثقـالُ النِّعَمِ وأَدنـاس الذنـوب على القلب فغرقتـه ، فصـار القلب غـريقـاً في الذنوب كالذي ضربنا له في المثل ، وكالذي يغـرق في الماءِ ولم يجـد متعلقـاً به ولا تخلصـاً يحصل بـه الخلاص فيغـرق ويهلك فيـرجـع إلى أنفاسه لا يجد متنفساً فيموت غَرقاً . ومن كان لقلبه طريق إلى الله تعالى وجد حمده واستغفاره مَسَاغاً إلى محلٍّ(٢) الحَمْـدِ والاستغفار ؛ فـوقعت في مَحَلِّه وَمَـرْتَبته ؛ فخفَّتْ عليـه الأَثقال ، وصـارَ كَنَهْرٍ وجـد مساغـاً ؛ فَجَرَى بسلاسة ، وإِنْ لَمْ يَجِدْ مَسَاغاً تراجَعَ الماءُ فصار بَحْراً يغرق فيـه صاحِبُه .

مثل العمال بطاعة الله

مَثَلُ العُمَّالِ بطاعة اللّه تعالى مَثَلُ مَلكٍ له عَبِيد اختارهم لِلْخِدْمـة بين يديه على مَرْأَى العَيْنِ ، فمن استَحْلَى منهم خدمَتَـه يَظْهَـرُ ذلكَ في حِلْيَتِهِ وكِسْوَتَه ، فَوَاحِدٌ بين يديه في قُرْطُق(٣) واحِـد ومِنْطَقَـة(٤) ، وَغَيْرُهُ يَدْرُجُ(٥) بين يديه على قَدَمَيْه .

---

(١) المساغ : السهولة والقبول .

(٢) محل الحمد : مجال وموضع الحمد .

(٣) القرطق : لبس ، وقرطقته : ألبسته ، ويجمع على قراطق .

(٤) المنطقة : كل ما يشد به الـوسط ويسمى أيضاً النـطاق ، وبذلـك سميت أسماء ذات النطاقين ، إذ كان لها نطاقان .

(٥) يدرج : يمشي .

وآخر مَعَ قَراطِق كثيرة ، بَعْضُهَا على بَعْض ، مِنْ بَيْنِ دِيباج وَحَرير وساج[1] وَكَتَّان ، لَوْنٌ على لَوْن ، وَمِنْطَقَة ذَهَب فيها فُصُوصٌ وجواهر ، كلُّ فصٍّ له ثَمَنٌ نفِيس وإِكْلِيل كمثلها ، وبيَدِهِ ضَبَائر[2] الرَّيْحَان مِنْ كلِّ لَوْنٍ من الوَرْدِ والْبَانِ والياسمين ، يَفوحُ[3] منه رِيحُ المِسْك .

فَعَيْنُ هذا المَلِكِ على مِثْلِ هذا الخادم ؛ فإذا سار بين يَدَيْهِ سَارَ على مَوْكِبِهِ بِحَرَسِهِ وَلِوَائِهِ .

فَإِنَّما نَال هذه الرُّتْبَةَ والمَحَلَّ والتمكين ؛ لأنه اسْتَحْلى صورَتَه وخِلْقَته ، وَهَيْئته وخِدْمَتَه ، وَأَدَبَه وَكَيَاسَته ، وَظَرْفَه ، ومَحَاسن أفعاله ، وطهارة خُلُقِهِ ، ولو كَانَ دَميماً في خِلْقَته ، سَمِجاً[4] أَبْلَهَ[5] في أخلاقه ، سَيِّءَ الخُلُق ، كَسْلان الخِدْمَة ، لم يَنَلْ من هذه المرتبة شيئاً إِلَّا ما يَقِيه مِنَ الحرِّ والبَرْد ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَه ، وَيُشْبِعُ بَطْنه .

فكذا العُمّال بطاعةِ اللّهِ تعالى إنما يَعْمَلُونَ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ؛ فَمَنْ كان طَاهِرَ الخُلُق ، كَيِّسَ الذِّهْنِ ، فَطِنَ[6] الفَهْمِ ، عاقِلَ اللُّبِّ[7] ، ذا حَظٍّ من الْحِكْمَة كان الإِذْنُ لَهُ بين يدي الملك أَوْسَعَ وأكبر ، وكان كالعَبْد الذي تلوَّنَتْ كسوته وزِينَتُهُ بين يدي المَلِك ؛ فإنما كساهُ الملكُ بهذه الألوان ، لأنه وجده بحيث يَلِيقُ به هذه الألوانُ كلُّها ، وأعطاه ضَبَائِرَ

(١) الساج : هو الطيلسان الأخضر أو الأسود .
(٢) ضبائر : مجموعات .
(٣) يفوح : ينتشر ويتضوع .
(٤) السماجة : القبح .
(٥) بله : ضعف العقل والفهم .
(٦) الفطن : الذكي الحاذق العارف بالشيء .
(٧) اللب : هو العقل .

الرَّيْحان لنَزَاهته[1] وطِيبه وكِيَاسته ؛ فهذا الْعَبْدُ بطهارة خُلُقِهِ ، وَصَفَاءِ قَلْبِهِ ، وَوَفَارة[2] عَقْلِه ، وإدراكِ حكمته ، سَقَاه الملكُ الأعلى شربةً من كأْسِ حُبِّه حتى سكر عَقْلُه عن جميع أَحوال النفس ، حتى صار كلُّ أمورِه من المحبوب والمكروه عنده حُلْواً ، يَجِدُ ثمرةَ الحُبّ ، فَبِكياسةِ ذِهْنِهِ أَدركَ دَقَائِقَ الحِكمة ، وبِفَهْمِهِ وفِطْنَته بلغ محلَّ الخِدمة ، وَعَرَفَ أَوقاتَ الملك وأَوقات الأَشياءِ ؛ فَإِن الخِدْمَةَ ذاتُ أَلوان وفنون ؛ وبعَقْلِهِ وَلُبِّه عَظَّمَ أمْرَها وصانَها ، وبحكمته أَمسكها اللّهُ تعالى ؛ فهذا الكَيِّسُ الفَطِنُ الذي إذا نَالَ الحِكمَةَ نظر إلى عمل من أَعمال البرّ ، فيقول : ما هذا ؟ فَفَهِمَ أَنَّ هذا محبوبُ اللّهِ تعالى ،قام إلى ذلك مُحْتَسِباً[3] .

قال له قائل : بيِّن واحداً مِنْ هذا[4] حتى نَفْهَم .

قال : إنَّ اللّهَ تعالى أَمرنا بالصَّلاَةِ والصَّوْمِ وغيرهما ، فإذا نَظَرَ الكَيِّسُ بنور الحكمةِ أَنَّ في الصلاة أَمْرَه[5] ، وفيها قِيامٌ بين يَدَيْهِ ، وَدَلَّهُ عليه عِلْمٌ بفهمه وحكمته ، أَنها محبوبُ اللّهِ تعالى ؛ فهل أحبَّ قيامي بين يديه إلا مِنْ أَجل أَنه أَحَبَّني ، فَبِحُبّه إياي أَعطاني موطنَ القِيَامِ بين يَدَيه ، فاطَّلَعَ بفهمه على أَمْرٍ عظيم ، يَسْتَدِلُّ بذلك على أَنَّه حبيبُه . ومن حبِّه أحبَّ كونَه بين يديه ؛ فإذا فهم هذا كانت صَلاَتُهُ قُرَّةَ عَيْنِه ، وَخُرُوجه عنها مصيبة عظيمة ، وكذا في كل نوع من أنواع البِرِّ هذا .

---

(١) نزاهته : ترفعه وتنزهه عن المكروه بالعفة .

(٢) الوفارة والوفرة : التمام والكمال .

(٣) احتسب الأجر على الله : إدخره عنده فيما يدخر ليوم القيامة فلا يرجو جزاءه في الدنيا .

(٤) كذا ورد بالأصول .

(٥) أمره : أمره سبحانه وتعالى .

مثل الثناء والتسبيح

مثل الثَّنَاءِ والتسبيح لِلّهِ تعالى مَثَـلُ ملكٍ بين يديـه خَدَم ، استقبله أمْـرٌ ، فوجَّهَهُم إلى عَمَـلٍ لا يَنْفَكُّ في ذلـكَ العمل(١) ؛ فـوجَّهَ عَبِيـدَهُ وَعَسْكَرَه إلى ذلك الأمْرِ ، فذهبوا عِجَالاً(٢) فَأَتَمُّوا ذلكَ الأمْرَ ، وَرَجعـوا إلى مَقَـامِ الخِدْمَـةِ مُنْتَصِبين ؛ فما مِنْ أَحَـدٍ منهم رَجَعَ عن طـريقـه الا أَخَذَه من غُبَار الطَّريق .

ولمـا أرادوا الـدخـولَ بين يـدي الملك فـأَوَّلاً نفَضُـوا الغُبَـار عن رُؤُوسهم وثيابِهِم حتى يدخُلُوا على الملك على هيئتهم التي كـانت لهم قَبْلَ ذلك بين يديه ، مع الطَّرَاوَة(٣) والنَّقَاوَة(٤) .

فكذا العِبَاد المؤمنون إذا مارسُوا أُمورَ الدنيا ، وخـالَطُوا الخَلْقَ لم يَخْلُوا من الغُبَـار والأدْنَاس الـذي حَلَّ بهم ، وإن اجتهـدُوا في الصِّـدْقِ والتقوى والتدبُّر ؛ فيرجعون إلى ربِّهم بالثَّنَاءِ والتسبيح ليكونَ ذلك نَفْضاً لمـا لَحِقَهُم من الأدْناس ، ونـالهم من الغُبـار والـدُّخـان ، ليتـطهَّـروا ؛ فيصيرون أهلاً للدخول بين يَدَي مَلِيكِهم .

مثل المجتمعين على ذكر الله بكرة وعشيًا

مَثَلُ المجتمعين على ذِكْرِ اللّهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ، فـذكروه ، ثم رَفَعُـوا

---

(١) العلم [ب] .
(٢) عجالاً : متعجلين مسرعين .
(٣) الطري : الندي الغض .
(٤) النقاوة : والنقاء أي النظافة .

إليه أَيْدِيهم مُرْتَقِبِينَ[١] ، فَسَأَلُوهُ الرَّغَائِب[٢] مَثَلُ قومٍ مِنَ الفُقَرَاءِ والمساكين لهم « وارنبد » بالأعجمية . كلُّهم على عصى اجتمعوا ، وأخَذَ كلُّ واحدٍ منهم بِيَدِ صاحِبِهِ حتى صاروا كلُّهم كَوَاحد ، ثم اجتمعوا على باب وبابٍ وبابٍ ؛ منهم مَنْ يَرْكُضُ بِرِجْلِهِ رَكْضاً[٣] ، ومنهم بِرَأْسِهِ هَزّاً ، ومنهم بالأَيْدِي شَدّاً ، ومنهم بالأَلْسُن لَحْناً ، وبالأصوات لَحْناً[٤] وغِنَاءً ، وبالعيون لَحْظاً ؛ فلهم دُنُوٌّ[٥] من كلِّ بابٍ على تلكَ الحالِ ، فيُخْرَجُ لهم من كل بابٍ شَيْءٌ[٦] ؛ فمن باب ثِيَابٌ ، ومن بابٍ طَعامٌ ، ومن باب شَرَابٌ ، ومن بابٍ فَوَاكه ، ومن بابٍ لحم ، ومن باب إِدَام[٧] .

فكذا المجتمعون على ذِكْرِ اللّهِ إذا طاب ذِكْرُهم ، وسُقُوا بالكأْس الأَوْفَى ، فطَرِبُوا وَمَلَكَتْهُم بَهْجَةُ الحبيبِ ، وَدَبَّ فيهم سُكْر الكَأْس ، وطارت عقولُهم إلى وَلِيّ الكَأْسِ ، فسقُوا هناك [٨٦] صِرْفاً[٨] فاعتمادُ أَوَّلهم وقائِدِهم على محلِّ النَّجْوى ، وتُحْفَة[٩] التحيةِ ؛ لهم دَوران وَطَوَاف على الأبوابِ لا سِيَّمَا ولهم من كل بابٍ اسْم تحفة وَنَوَال على قَدْرِ حَظِّه من ذلكَ الاسْمِ ، وعلى ما تضمَّنَ ذلكَ الاسم .

---

(١) مرتقبين : منتظرين .
(٢) الرغائب : الرغبات .
(٣) ركضاً : قفزاً وجرياً .
(٤) لحن في القراءة : طرب فيها .
(٥) دنو : قرب .
(٦) شيئاً [أ - ب] وهو تحريف .
(٧) الإدام : ما يؤتدم به من لحم أو غيره .
(٨) الصرف : الصريح والمحض الخالص .
(٩) التحفة : الهدية ، وكل ما أتحفت به غيرك .

مثل أسماء الله تعالى

مَثَلُ أسماءِ اللّهِ تعالى مَثَلُ ملكٍ له بُسْتَان أَحاطَه بحائط ، وله غَرْسٌ وأَشْجَارٌ ذاتُ أَلوان من الفواكِهِ وفُنُونِ[1] النِّعَم ، فساقَ إلى عَبِيده : كُلُوا من هذه الثِّمارِ ، واشْرَبُوا من هذه الأنهار ؛ فهذا مَعَاشُكُم وَمَأْوَاكم ، ولكن شأنكم مَرَمَّة[2] هذا البُسْتَان ؛ من جَرْيِ النهر ، وحِفْظِ البساتين من مَنَابِتِ السُّوءِ ؛ فَإِنَّكم لو قَصَّرْتُم في هذا الأمْر فَعَن قريبٍ انْكَبَس[3] النَّهْرُ ، وَيَبِست الأشجَارُ ، ونبتت مَنَابِتُ السوءِ من القَتِّ[4] وغيرها ، فتتغيَّرُ الألوانُ ، ولا تَتَوَرَّد .

فانظروا إلى نَزَاهة هذه الثمارِ والأَوْرَاد والرَّيَاحين ، فمن لم يسمَنْ على أَكْلِ هذه الثمار ، وشرب هذا الماءَ فعلى أيِّ شيءٍ يَسْمَن ؟ فالماءُ أَصْلُه واحدٌ في[5] الصَّفَاءِ والعُذُوبة ، فإذا نظرتَ إلى ثَمَرَةِ كلِّ شجرة وَجَدتَ إِحْدَاهَا حُلْواً ، وأُخْرَى حامِضاً ، وأُخرى مرّاً ، وأُخرى بارداً ، وأُخرى حارّاً ، وأُخرى بين الحموضة والحلاوَة ، فكلُّ شيءٍ له نَفْعٌ دُونَ صاحبه .

فكذَا اللّهُ تعالى هَيَّأَ لعبادِهِ بُستاناً ، وأَحاط له حائطاً ، وشقَّ نَهْراً ، وأَجْرَى الماءَ ، وأَنبتَ الأشجارَ ، وأخرج من كلِّ شجرةٍ لوناً من الثمرة ؛ فالحائطُ مِلْكُه ، والنهر لِصْقُه ، والماءُ ماءُ الحياةِ ، أَجْرَى ماءَ

---

(١) فنون : أنواع .

(٢) المرمة : الإصلاح .

(٣) كبس البئر : طمها بالتراب .

(٤) القَتّ : حب بري لا ينبته الآدمي .

(٥) كذا وردت بالأصول .

الحياةِ في نَهْـرِ اللَّطَفِ إلى هـذه الأشجـار ، وهــو أسمـاؤه الحُسْنَى ، وأُجري إلى العباد كلَّ اسْم حُلْواً وحامضاً ، وعَذْباً ومُرّاً ، وبارداً وحارّاً ، فمِنَ اسْمِهِ الرزَّاق رَزَقَهم ، ومِنَ اسْمِهِ التوَّاب تـاب عليهم ، ومِنَ اسْمِهِ الغَفَّـار غفر لهم ، ومِنَ اسْمِـهِ العزيـز جاد عليهم ، ومن اسْمِـهِ الرؤُوف رَؤُف بهـم ، ومِنَ اسْمِــهِ الــرحمٰن رَحِمهم في دينهم ، ومِنَ اسْـمِـهِ الرحيم رَحِمهم في الدنيا والآخرة ، ومِنَ اسْمِهِ الوَكِيل توكَّلَ بهم ، ومِنَ اسْمِـهِ الكَفِيـل تكفَّـلَ لهم ، ومن اسْمِـهِ العـظيم أغنـاهم ، ومِنَ اسْمِـهِ الجليـل أعزَّهم ، ومِنَ اسْمِـهِ الكريم أكـرمهم ، ومِنَ اسْمِـهِ المَنَّـان مَنَّ عليهم بـالرحمـة العُظْمى ؛ فَهَـدَاهُمْ . ومِنْ اسْمِـهِ « اللّه » اجتبـاهم[1] وَوَلَّـهَ[2] قلوبَهُم وَعَلَّقَ ؛ فَمِنْ كلِّ اسْم أَهْـدَى إليهم ما وُضِـعَ في ذلـك الاسم ؛ لأنه مِنْ أجلهم أخرج الأسماءَ إليهم ؛ فَمَنْ كان أَشَـدَّ محافـظةً لهم ، وإكْبَـابـاً عليهم ، وأَدْوَم قيـامـاً على نَفْسِـهِ ، كـانت فُـوَّهَـةُ نَهْـرِهِ أَوْسَع ، والماءُ فيه أكثر ، ووجدنا أنَّ هذه الثمرةَ إنما يُسِيغُهَا آكِلُهَا بالماءِ الـذي في قَبْوِ حَنَكِـه ، وَيَجِدُ لـذةَ الأشياءِ بـذلك في ذلـكَ الموضـع ، فبتلك القُوَّةِ ينتفعُ بهذه الثمار .

فكــذا القَلْبُ إذا لم تَكُنْ فيـه تلكَ المحبَّــةُ اللذيـذة التي يجِـدُ حلاوَتَهَا في قَلْبِهِ لَم يَجِدْ حلاوةَ هذه الأسماءِ ؛ فبالحُبِّ ينالُ طعمَ ما في هذه الأسماءِ مِن هذه المعاني التي في الاسم ، فلكـلِّ اسْم بما فيـه من معنـاه أكلاً يسمن عليـه ، كمـا يسمنُ صـاحبُ الأشجـارِ من أَكْـلِ تلك الثمار التي أثمرت هذه الأشجارُ ؛ فالأسماءُ ثمـرَتُهَا معـانيها ، وسُقْيـاها

(١) اجتباهم : اختارهم .

(٢) الوله : شدة الحب .

مـاءُ الحياةِ ، فـإذا لم يكن القَلْبُ حيّاً لم تَكُنْ لـه تلكَ المحبةُ التي من الحياة العطائيّة ؛ فإذاً هذه الأسماءُ لـه كالأشجـارِ التي قد انقـطع ماؤهـا فلم تُثْمِـرْ(١) ، ولم تتـورَّقْ(٢) ، ولم تتـوَرَّدْ ، وَيَبست(٣) الأشجـارُ فـلا تصلُحُ إلا للحَرْق .

وإذا أُجْـرَى مـاءَ الحيـاة ، وانْتَبَـه القَلْبُ ، وَحَيِيَ بـاللّهِ جاءَت المحبَّةُ .

فَبِحَلاَوَةِ المحبَّةِ تَحْلُو الأَسماءُ ، ويجد القَلْبُ لذةَ تلك الحلاوَةَ ، ويـرطب بـذلـك اللُّطَف(٤) ؛ لأنَّ في الأَسمـاءِ صِفَـات المحبـوب وَلَطَفَه(٤) ، وآلاَءه(٥) ، وأخلاقه ، وَكَرَمه ، وَرَحمتَـه ، وأَفْضَالـه ؛ فعلى قَدْرِ محبَّتِهِ له يَجِـدُ حَلاَوَةَ الصفـاتِ ، واللُّطَف ، وَالآلاءِ ، والأَخْلاَقِ ، والعَـطْفِ ، والكرم ؛ وَتَعْـظُم أفعالُـهُ عندك ، وَيـأْخُذُ مِنْ قَلْبِـكَ سلطانَ ذلـك الفِعْـل ؛ فـإذا أثنى على ربِّـه ، أو مَـدَحَـه ، أو دَعـاه بـاسم من أسمـائه ، فـإنـه يُخْـرِجُ كلمتَـه مِنْ فِيـه على قَـدْرِ سُلْطَانِـهِ من القَلْبِ ، وَمَمْلكة القلب من الحياة والمَحَبَّة .

مثل من يردد ذكر الله في قلبه

مَثَلُ مَنْ يُرَدِّدُ ذِكْرَ اللّهِ في قلبِهِ ولسانِهِ مثـلُ ماءٍ رَاكِـد في مَـوْضِـعٍ

---

(١) تثمر : تنتج الثمار .
(٢) تتورق : يخرج ورقها .
(٣) يبست : جفَّت .
(٤) اللطف : الرفق ، ولطف الله رحمته .
(٥) آلاؤه : نعمه .

قد أَحاطَ به زَبَد(١) وَغُثَاءٌ(٢) ، فإذا هاجت الريحُ فَضَرَبَت الماءَ يَذهب ذلك الغُثَاءُ والزَّبَد إلى ناحيةٍ من الماءِ ، وَبَقِيَ الماءُ صَافياً ، فكلما ازْدَادَ هَيَجَانُ الرِّيح ازداد اضطرابُ الماءِ ، فازدادت صفوةُ الماءِ ، حتى يَأْتي بمَحْضِ(٣) الماءِ الذي في وَسَطِهِ .

فكذا كلما تردَّدَ الذِّكْرُ ، وَتَتَابَعَ ، ازدَادَ قوةً في قَلْبه ، وصفوةً في ذِكْرِه ، حتى تُمْلأَ مِنْ نُورِ ذِكْرِهِ السمواتُ والأَرْضُ .

وكذا جاءَنا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قال الحمدُ للهِ مَلأَ نُورُه ما بين السماءِ والأَرْض ، وإذا قالها ثانياً ملأَ ما بين العرش إلى الثَّرى(٤) .

ففي أَوَّل دفعة قالها صَفَّتِ المَجْرَى ، وذهب الغُثَاءُ المحيطُ على الصَّدْرِ ، فظهر الصَّفَاءُ ، فإِذَا قالها ثانياً فإِنَّما قالها مِنْ صَفَاءِ العِلْم باللهِ ، فازداد طريقُ مَجْرَاها صَفاءً ، فأَخرجها من مَحْضِ القَلْبِ عن عَيْش(٥) الحَمْدِ ؛ لأَنَّ عِلْمَ هذه الكلمة في قلبه ؛ فكلما انكشفَ الغِطَاءُ عن العلم كان أَصْفَىٰ وأَنْوَر ، وأَعظم أَجْراً ، حتى ملأَ ما بين الخافِقَيْنِ(٦) ومِن العَرْشِ إلى الثَّرَىٰ مِنْ نُور الكلمةِ مِنْ فِيهِ .

---

(١) الزبد : من البحر كالرغوة .

(٢) الغثاء : ورق الشجر البالي المختلط بزبد السيل .

(٣) محض الماء : خالصه وصافيه .

(٤) الثرى : التراب .

(٥) عش [أ] .

(٦) الخافقان : المشرق والمغرب .

مثل من يعبد الله بلا علم

مَثَلُ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ بِلاَ عِلْمٍ مثلُ مَنْ يَتَّجِرُ بلا بَصَرٍ في السِّلَع[١] ، ولا عِلْمٍ بأَسعارِها ولا بجَوَاهـرِها ولا بِقيمتها ، ولا بِنَقْدِ الأَثْمان ، فإِذا اشتَرى اشترى بغلاءٍ ، وإِنْ باعَ باع بوَكْس[٢] ، وإِن اقتضى اقتضى زُيُوفاً[٣] وبهرجة[٤] على عمىً ودُلْسَة[٥] .

مَثَلُ مَنْ يتعلم العلم ولا يعمل به ولا يعلمه الناس

مَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّم العِلم ولا يعمَلُ به ولا يعلِّمه الناس مَثَلُ رَجُلٍ رزقَه اللهُ مالاً كثيراً فكنَزَه تحْتَ الأَرضِ[٦] ، فلا يُنْفِقُ منه على نَفْسه ، ولا يصلُ الناسَ به ؛ فلا ينتفِعُ به هو ولا غيره ، وصار وَبالاً عليه في المَعَاد .

ومَثَلَهُ أَيضاً مَثَلُ الكلبِ اتَّخذ مَأْوىً[٧] في مَعْلَف[٨] فيه تِبْنٌ كثير ؛ لا يَعْتَلِفُ هو ، ولا يَدَعُ غَيْرَهُ لِيَعْلِفَ به دَوابَّه ؛ فكلُّ مَنْ قصدَ ذلك نَبح ودَفعه[٩] عنه .

---

(١) السلعة : جمعها سلع وهي البضاعة والبضائع .
(٢) الوكس : النقصان .
(٣) زفت الدراهم : ردأت .
(٤) البهرجة : الرداءة، ويقال لرديء الفضة « درهم بهرج » ونبهرجه [أ ، ب] .
(٥) الدلسة : الخديعة .
(٦) والأمثلة على هذا كثيرة جداً في كل المجتمعات المعاصرة والغابرة .
(٧) المأوى : السكن والملاذ .
(٨) المعلف : موضع العلف وهو ما تأكله الدواب .
(٩) دفعه : منعه ورده .

فهذا أَيضاً لا يعمـلُ به فَيَنْفَعـه في الدارين ، ولا يعلِّمُ غيـره ، لا يسلك به طريقَ الجنَّة هو بنفسه ، ولا يُرشِدُ غَيْرَه .

مَثَلُ من يتعلم العلم ويعمل به ولا يعلم غيره

ومَثَلُ الذي يتعلَّمُ العِلْمَ فيعملُ بِهِ وَلاَ يُعَلِّم غيـره مَثَلُ رَجُـلٍ رزقَهُ اللهُ مـالاً جمّاً(١) ، فـانتفعَ بـه ، وتنعَّم به آنَـاءَ الليـلِ والنَّهـار ، ولا(٢) يعطفُ بشيء منه على الجِيران والأَقارب والمسلمين .

مثل من يتعلم العلم ويعمل به

ومَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ فيعملُ به مثلُ رجُـلٍ رَزَقَهُ اللهُ مـالاً طيِّباً ، فانتفع به وتنعَّمَ به ، وأَنْفَقَ على الجيران والأَقارب والمسلمين .

مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ويعلمه الناس

ومَثَـلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ وَلاَ يَعْمَـلُ بـه ويعلِّمـه النـاسَ مثـلُ رجـل [٨٧] رزَقَه اللهُ مالاً كثيراً فكلُّ مَنْ أَخَذَ منه أَو سرق منه لا يُبَـالِي به ، ولا يُنْفِقُ على نفسه وعلى عِيَاله شيئاً(٣) ، وتموت عيالُه جُوعـاً وعُرْيـاً(٤)

---

(١) مالاً جماً : وفيراً كثيراً .
(٢) لا يعطف منه بشيء على الجيران : يتفضل عليهم بشيء منه .
(٣) شيء [في الأصول] وهي تحريف لأن الأصح كما أوردنا .
(٤) عرى [ب] وهي تحريف .

وهو أَيضاً في بُؤس وفَاقَة[1] من المطعم والمَشْرب ، لا يُطيق أَنْ يأْكل منه شيئاً[1] بنفسه ، أَوْ يُنْفِق على عِيَاله ؛ فقد خَسِر هو في الدُّنْيا والآخرة .

وَمَثَلُ مَنْ يتعَلَّم العِلْمَ ولا يَعمَلُ به ويَبْذُله للناس للمُبَاهَاة[2] والرِّفْعَة في الدنيا مثَل السِّراجِ يُضِيءُ للناس ويَحْرِق نفسه .

وَمَثَلُهُ أَيضاً مَثَلُ رجُلٍ وَضَع السِّراجَ على طَرف سَطْحِه فانتفعَ به المارُّون ، وهو في بَيْتٍ مظلم لم ينتَفِعْ به ، وهو محتاجٌ لذلك .

ومَثَلُ مَنْ يطلُب العلومَ الكثيرةَ وجَمْعَها ، ولم يَعْمَلْ بها ، ولا يُرَىٰ أَثَرُ ذلك عليه ، فيجمع العلومَ والكتبَ دائماً ولا يَشْبع من طلبها مَثَلُ من يَجْمَعُ كلَّ يومٍ وساعةٍ طعاماً كثيراً في بيته من فُنُونِ الأَطعمةِ والأَشْرِبَةِ والفواكه والطَّيْرِ ممَّا يَتسارع[3] إليه الفَسادُ ، ولا يطعم منه شيئاً وهو جائع غَرْثَان[4] ؛ فكلَّ يومٍ يأْكلُ مقدار رَغِيف مِنْ ذلك ممَّا قد يَبِس وتَكَرَّجَ[5] ، وَيَنْظُرُ إلى أَلوانِ الأَشياءِ ، وَيَبْخَلُ على نفسه ، ولا يَشْبَعُ مِنْ جَمْعه كلَّ يوم ، إلى يوم مَوْتِه ، فيَنْتَن بَيْتُه ، وفسدت الأَشياءُ ، فتُلْقَىٰ ، ولا يأْكُلَها أَحَدٌ وقد مضىٰ .

---

(١) الفاقة : الفقر .
(٢) المباهاة : المفاخرة .
(٣) يتسارع : يسرع .
(٤) الغرثان : الجائع .
(٥) تكرَّج : فسد .

مَثَلُ من يبتغي نزول الرحمة قبل التوبة

مَثَلُ مَنْ يَبْتَغِي[1] نُزُولَ الرَّحمةِ من اللهِ تعالىٰ قَبْلَ التوبةِ مثَلُ سَاكنٍ في بيتٍ قد آذاهُ الحرُّ والغمُّ والذِّبَّان ، فكلما دخله يَتَصَبَّبُ فيه عَرَقاً ، ويتقلَّبُ في غَمِّه ، ويتأذَّى بالذِّبَّان ، فإذَا أَرَادَ أَن يتزوَّج فيه ، وَيَتَنَعَّم بالجلوس والنَّوْم والقَرار ، فأَوَّلاً ينبغي أَنْ يُخرِج ما في البيت من القُمَاشَاتِ[2] والأَطعمةِ التي فيها مَجْمَع الذِّبَّان ، فذهب فاحتال له فَرَشَّه ، فلا يَزال يُدِيمُ الرشّ بالماءِ حتى يبرد ، ويبرد الماءُ ؛ فكلَّما دخله استقبله رَوْحُ[3] ذلك الرَّشّ ، وطِيبُ ذلك الرَّوْح ، فأَوَّل فِعْلِه أَنْ يبتدىءَ في كَنْسِه ؛ فإنَّ في ذلك البيت قمَاش ونُثَارَ[4] الطَّعَام ، ومجمع الذِّبَّان ، وثُفْل[5] الفَوَاكه ، وَمَا يُرْمَىٰ به ؛ فليس مِنْ شَأْن هذا الذي يُرِيدُ رَوْحه أَنْ يتركَ هذا البيت شِبْه كُناسة ، ويرشّه بالماءِ ليروح عنه[6] مغتمه ، فإنَّ هذا يَزِيدُهُ رَائحةً مُنْكَرةً ونَتَناً ، ولكن يَكْنُسه مرةً ثم أُخرىٰ بالمِكْنَسة الثقيلة ، ثم يكنسه بالمكنسة اللَّيِّنة ، ثم يرشُّه بالماءِ رشّاً بعد رَشٍّ ، فإذا دخله وجد روح ذلك الرش ؛ فإنَّ في الماءِ رطوبة وبرودةً ؛ فَيَرُشُّ الماءَ في كلِّ مرةٍ حتى تَنْشَفَ الأَرضُ الماءَ ؛ ويكنسهُ أُخرى ، ويرشُّ الماءَ ، ثم يَبْسُطُ الحَصِيرَ حتى يطيبَ ، وتَزُولَ عنه الرائحةُ

---

(١) يبتغي : يطلب .

(٢) القماشات : وهي القماش ، ما على وجه الأرض من فتات الأشياء .

(٣) الروْح : نسيم الريح وهو الراحة .

(٤) النثار : ما يتناثر من الشيء .

(٥) الثفل : الحثالة من الشيء ، وهو الثخين المجتمع المترسب أسفل الصافي .

(٦) عند [ب] وهو تحريف خطير .

المُنْكَرة ، فإذا انتشفت الأَرض رطـوبةَ المـاءِ بَقِي روح البرودة هنـاك ، وذهبت الحـرارةُ والغُمَّة(١) ؛ فحينئـذٍ إذا دخل يَجِـدُ الـروحَ والـراحـةَ ، فافترق الذِّبَّان .

فكـذلكَ صَـدْرُ الآدميّ وقَلْبُـه ؛ فـإنَّ الشهـواتِ في قلبـه ؛ فنَفْسُ الآدَمِيّ كـالأَتُون(٢) الـذي يَتَلَظَّى(٣) لَهبُ نـارِه من الشهـوات والهَـوَى ، وشعلها مُتأَدِّية إلى جَوَارِحِه ، فشُعلة منها تَتأَدَّى إلى العَيْنِ ، فكلما رَمَىٰ ببصره بِقُوَّةِ تلك الشُّعْلَةِ إلَىٰ شيءٍ من زينةِ الدنيا رجعت إلى النَّفْس بلذَّة يَسكـر عَقْلُه بها ؛ لأَنَّ تلكِ اللذةَ سـرَى حُبُّها في نَفْسِـه ، فَتَأَدَّى بـذلك الحبِّ إلى الصَّـدْر ، فسكر العَقْـلُ مِنْ ذلـك وتَـدَنَّس(٤) ، فـانْكَمَن في الدماغ ، وامتنع من الإشراقِ ، وافتقد الصَّدْرُ شُعَـاعَه الـذي كان يَـرْمِي إلى الصَّدْرِ فيُشْرِقُ على الصَّدْرِ ، ويستنيرُ منه ؛ بمنزلـة شَمْسٍ شُعاعهـا تُضِيءُ به الأَرض(٥) ، فيحول بينهـا وبين الأَرْضِ سَحَابَـةٌ سَوْدَاءُ قـامت بإِزَاءِها(٦) ، فذهب ضوْؤهـا ،فيصير البيتُ مُظْلماً كالليل أَوْ شِبْهه .

وشُعْلةٌ منها تَتَأَدَّى إلى السَّمْع ، فكلما أَلْقى سَمْعَه إلى شيءٍ تلذَّذَ به السَّمْعُ ، فتَأَدَّت اللذةُ إلى النفس ، فثار دُخانُها إلى الصدر .

---

(١) الغمة : تكاثف الغيم والضباب .

(٢) الأتون : الكانون .

(٣) يتلظى : يلتهب .

(٤) الدنس : الوسخ وجمعها أدناس وأوساخ .

(٥) تأمل أيها القارىء حفظك الله أن المؤلف ربما كان يحيط علماً بالنظريـة الجيولـوجية التي تقول أن نور الشمس ينعكس عند سطح القمـر ، لأنه يجعـل نور الأرض مـطلقاً من الشمس ، وهذا مجرد استنباط ، وقد يكون قول عارض له .

(٦) إزاء الشيء : محاذياً له .

وشُعْلةٌ منهـا تَتَأَدَّى إلى اللسـان . وشُعْلةٌ إلى الحَلْقِ ، وشُعلة إلى الفَـرْج ، وشُعلة إلى اليَدِ للبَطْش والتناول والبَذْل ؛ وشُعْلة إلى الرِّجْل .

فهـذا الصَّـدْرُ كمَـزْبَلةٍ ، وفيـه فَـوَرَانُ هـذه الشهـواتِ ؛ والبَـطْنُ كالأَتُون الذي يُطبَخُ فيه اللَّبَنُ قد احتدَّتْ حرَارَتُه وحَمَيَانه ، فصـار اللبنُ فيـه أَجزاء[1] ، يقـال بالأعجميـة (بختـه) ؛ فـلا يـزال يَمْضُـر[2] اللَّبَنُ وَيَذُوب حتى يصير كَزُبْـرَةِ[3] الحديدِ ، فكذا الشهوات في البَطْن ، حتى صارت بتلك الصفة ، فمتى يُفْلِحُ هذا ؟ وكيف يَعْبُدُ رَبَّه ؟

تطهير الصدور

قال الإمامُ أَبو عبد الله[4] رحمـه الله : فَمَنْ شَأْنـه أَنْ يَبتدِىءَ في كَنْس هـذا الصَّدْرِ أَنْ يَقُمّـه[5] حتى يُخْلِيَ صَدْرَه من كُنَـاسةِ الـذُّنوب ، وقُمَاشَات العُيُوب والفُضول التي فيها ؛ فإذا جـاهَدَ في هـذا حقَّ جهَادِه كما أَمَرَه اللهُ في تنزيله[6] : ﴿ جَاهِدُوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِه ﴾ فـإذا فعل ذلـك فحينئـذٍ أَمـطر اللهُ في قَلْبِـه مَـطَرَ الـرحمـة ، فـرشَّ صَـدْرَه بمـاءِ الرَّحمةِ ، فثارت البرودةُ إلى الجَوْف ، فأَطفـأَتْ نيرانَ الشهـوات ، فبرد الأَتُون ، وصار الصَّدْرُ مُرَوَّحاً ببَرْدِ الرحمة التي أَمطرت عليه .

فمَنْ أَراد أَنْ يتعرَّف هذا مِنْ نفسه أَنَّه هل وَصل إليه مطَر الـرحمةِ

---

(١) آجراً [ب] .

(٢) مضر اللبن : حمض ، وابيض .

(٣) الزبرة : القضيب من الحديد .

(٤) وهو المؤلف .

(٥) قمه : كنسه .

(٦) الحج (٢٢/ ٧٨) .

فلينْظُر إلى هذه الشَّهَوات التي ذكرناها التي في جَوْفه ، هل سكن تَلَظِّيها[1] ، وانقطعَ لَهبُها عن الجَوَارح ؟ وهل سكنت حدَّةُ بصره بالنظر ، وحِدَّةُ سَمْعِه بالاستماع ، وحِدَّةُ حَلْقه عند المضغ والتَّلَمُّظ[2] ، وحِدَّةُ لسانه ، حتى ينطقَ في وقتِ دَوَران العرقين بذلك اللسان ، وحدة يَدِه حين تناول ، وَحِدَّةُ وَرِكَيْه حين يَضْطربان باختلاف القَدمين وتخطِّي الركبتين ؛ فإذا افتقد الحدَّةَ في هذه المواضع فقد استَيْقَن أنَّ التَلَظِّي قد سكَنَ في الجَوْف ، وأَنَّ القوةَ ـ قوةَ الشهوة ـ قد ضعُفَت ؛ فعندها يعلم أنَّ مَطَرَ الرحمةِ من الماجد الكريم ، العزيز الوهَّاب ، قد حلَّت به ، وأَمطرت على صَدْرِه وقَلْبه حتى طَفِئَت نارُ الشهواتِ في نفسه ، وبَردَ الأَتُون[3] .

فالكيِّس هاهنا فَهِمَ وأدرك أَمْرَه ، فقال في نفسه : لم يَزَلْ رَبِّي ماجداً رَحيماً جَوَاداً ، فكيف احتبسَتْ عني رحمتُهُ حتى عمِلَتْ هذه النيرانُ في جَوْفي ما عَمِلَتْ ، حتى فَضَحني عند رَبِّي وعند ملائكته الكتَبةُ ، وعند سمائه وأَرْضِه ؛ ثم رجَع إلى عَقْله فَبصَّرَهُ عَقْلُه أَنَّ هذه الرحمةَ امتنعت عنكَ ؛ لأَنَّكَ تحتاجُ إلى غَسْلِ بيتك حتى تُطهِّرَهُ من الأَدْناسِ والأَوساخ ، فأَقْبَلَ إلى الازْدِيَادِ كَنْساً بعد كَنْس ، حتى صار بهيئة مِنْ كثرة تفقُّده أَلَّا تَسْخُوَ[4] نَفْسُه أَنْ يتركَ فيها تِبْنَةً أو أَدقَّ[5] من التِّبْنَة في ذلك البيت حتى يرفَعها [٨٨] ، فكلما ازداد من ذلك توقِّياً

---

(١) تلظيها : توقدها .

(٢) تلمظ : أخرج لسانه فمسح به شفتيه .

(٣) الأتون : الكانون .

(٤) تسخو نفسه : ترضى ، وتجود .

(٥) أدق : أصغر .

وتفقُّداً ازداد رَوْحَ قَلْبٍ ، وطيبَ نَفْس للرُّوح والقَلْب ؛ فالنفسُ الدَّنِيَّـة(١) إِذَا شَعَـرَت برحمـةِ الله تعالى ، وعلمَتْ بـذلك ، تَنَـزَّهَتْ في ساحـات رِيَاضها ، ومَرَحت في جِنَانِهـا(٢) وأَشِرت وبَـطِرت(٣) ؛ فإذا كـان القَلْبُ أَبله(٤) غَتِماً(٥) ، وأُعطي عِلْمَ الرحمة أَنَّ الله تعـالىٰ رَحِيم ، نقل ذلـك العِلْمَ إلى النفس حتى تَأْشَر(٦) وَتَبْـطر ، وَتَسْتَرْوِح ، وتـركض في فُسحة اللَّذات ، وتستَـرْوِح إلى ذلــك العلم أَنَّ الله تعــالـىٰ رؤُوفٌ رَحيـم ، يتردَّى(٧) بذلك في آبَار الهلاك .

فإذا كان القلْبُ كيِّساً نَقلَ ذلك العلم إلى العَقْل ، فيُبْصر العَقْل ، وقال له : هل يستحقُّ الموصوفُ بالرحمة أَنْ تبذُلَ نفسك وتقومَ له بأَمره على أَشفار عَيْنيك ، وتضع أموره على رأْسك من التعظيم ؛ فإِنَّ الرحمةَ مَـديحـه ، والممـدوح بـالـرحمـة من عَبِيـده في دار الـدُّنيـا تَسْمُـو إِليـه الأَبصارُ ، وتَهْتَشُّ(٨) إليه النفوسُ بهذه الخَصْلَة الموجودة فيه .

وكذا كلُّ خصلةٍ من خصال الكَرَم ِ من الحُسْن والبَهَاءِ تَجِدُهـا في عَبْـد من عَبِيده ، فـإذا عرفتَـه بتلك الخصلةِ(٩) أَحببتَه عليهـا حبّاً يَـأْخُـذُ

(١) الدنية : الوضيعة من الدناءة والدنو .
(٢) جنان : جمع جنة ، والجنة هي البستان والروضة .
(٣) الأشر والبطر : الكنود ، وكفر النعمة ، وعدم الشكر على نعمتها .
(٤) أبلهاً [أ ، ب] .
(٥) غتم : عيى ، لا يستطيع الإفصاح عن شيء .
(٦) نشر [ب] .
(٧) يتردى : يسقط ، ويهلك من التردي والردى .
(٨) تهتش : من الاغتباط والارتياح والنشاط .
(٩) الخصلة : الصفة .

بقلبك ، ويَسْبي نَفْسَك ؛ فَرَبُّك الممدوح بهذه المَدائح الموصوف بهذه الصفات أَحقُّ وأَقْمن[1] أن تأْخذَ مدائحهُ قلبَك وتَسْبِي نفسك ؛ فإذا علمت أَنَّه رَحيم فزِدْ في تعظيمه وتَوْقِيره بأَنبيائه وأَحبَّائه وشغوفاً بكلامه ، ونصائحه ، وَمَوَاعظه لك شفقةً عليك ورأفةً بك .

فهذا العَقْلُ يَدُلُّ هذا القلبَ الكيِّسَ على هذا .

فإذَا كان أَبْلَهَ مالَ إلى النفس ، وقارنَها بالفَرَح بهذه الرحمة أَنَّ ربَّنا ملكٌ كريمٌ رَحِيم ، فَتَعَالَ حتى نَرْكُضَ في هذه الشهوات والنَّهَمَات[2] نَنْتطرُ بها ، ونَسْتَقْصِي في نَهَماتها ؛ فإذا عِلْمُهُ في هذا بأَنَّ ربَّنا رَحِيم ، قد سود وَجْهَه ، وأَحْرَقَ جَسَدَه ، ونكَّس قَلْبَه ؛ ولذلك كان رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتعَوَّذُ دُبرَ[3] كلِّ صلاة : اللهم إِنِّي أَعُوذُ بكَ من علمٍ لا يَنْفَعُ ، وقَلْبٍ لا يَخْشع ، ودُعَاءٍ لا يُسْمَع ؛ لأَنَّه قَلْبُ أَبْلَه[4] جاهل بربّه ، فهو وإن عَلِمَ أَنَّ رَبَّه رَؤُوفٌ رَحيم فهو جاهلٌ بالرحمة ، لا يَدْرِي ما الرحمةُ إلَّا عِلْمَ اللسان ؛ فعِلْمُهُ بالرحمةِ مقدارُ ما أَنْ يقولَ في نفسه : إنَّه إذَا رُحِمَ فقد نجا من النار ، ولا يَعْلَم بجَهْلِهِ بنفسه وبربِّه أَنَّ للهِ تعالىٰ نقمات وسَطَوات يتمنَّى العَبْدُ أَنْ يُصْرَفَ به إلى النار .

العار والخزي بين يديّ الله

حدَّثني أَحمد بن مَخْلَد ، حدَّثني محمد بن أَبي بكر المُقَدَّمِي ،

(١) أقمن : أجدر وأحق .

(٢) النهمة : الشهوة .

(٣) دبر كل صلاة : بعد كل صلاة .

(٤) الأبله : ضعيف الفهم والعقل .

عن المُعْتَمِر بن سليمان ، عن خاله فَضْل بن مُؤَمَّل الرَّقاشي ، عن محمد بن المُنْكَدِر[1] ، عن جابر بن عبد الله رضِيَ الله عنه ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ، إنَّ العارَ والتَّخْزِية لَيَبْلُغان بِالْعَبْد في المَوْقِف بين يَديِّ اللهِ تعالىٰ ما يتمنَّى أَنْ يُنْصَرف به ، وقد علم أَنَّما يُنْصَرفُ به إلى النار .

فالعارُ والخِزْي بَيْنَ يديّ اللهِ تعالىٰ وَجَعُهُ على الأكباد والقلوب ، وعلى الأرواح ، وَوَجَعُ الأرواح والقلوبِ والأكباد يَضْعَف[2] على وَجَع الأجساد أَضعافاً لا تُحْصىٰ ؛ لأن الرُّوحَ بحياته يَأْلَم ، والجسدُ بالروح يَجِدُ الأَلَم ؛ فإذا خلص إلى الجسَدِ شَيءٌ أَلم الرُّوحُ منه ، وإذا خلص إلى الروح شيء تضاعفَ الأَلَم للحياة التي في الرُّوح وشدة شعوره بالألم .

المعذب من الموحّدين

فالمعذَّبُ من الموحِّدين إذا أُلْقِيَ في النار أُميتَ إماتةً حتى تحرق النارُ جسدَه ، ثم يَحْيَا بعد ذلك ؛ هكذا رُوِي لنا عن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله

---

(١) محمد بن المنكدر : هو محمد بن المنكدر القرشي التميمي من بني تميم بن مرة المدني ، زاهد من رجال الحديث ، من أهل المدينة ، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم ، له نحو مائتي حديث ، قال ابن عيينة : « ابن المنكدر من علامات ومعادن الصدق » اهـ . راجع تاريخ الإسلام (٥/ ١٥٥ ـ ١٥٨) وتهذيب التهذيب (٩/ ٤٧٣) وقد توفي سنة ١٣٠هـ . وقيل إنه توفي سنة ١٣١هـ وعاش ٧٦ سنة . راجع الإعلام لخير الدين الزركلي (٧/ ٣٣٣) .

(٢) ضعَّفهم : كثَّرهم بالضعف .

تعالى[1] : ﴿فإِنَّ لَهَ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فيها ولا يَحْيَا﴾ . قال : أَمَّا الـذينَ هم أَهْلُها فإنهم لا يموتون ولا يَحْيَوْن . وأَمَّا الذين ليسوا من أهلهـا فإِنَّ النارَ تُميتُه إماتةً ثم يقوم ويشفع .

معناه عندنا أَنَّ الذين لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن ، ليست لهم تلك الحيـاة التي في الجنَّة ؛ لأَنَّ حيـاةَ أهلِ الجنـة من قُـدْس الحيـاة تحت العرش ، فَبِنَسِيمها يَحْيَا أَهلُ الجنة .

حيـاة أهـل النـار :

وحيـاةُ أَهْلِ النـارِ من غُسَالـة أَهْلِ الجنَّـةِ حين يشربُـون مِنْ مـاءِ الحيـاةِ على بابِ الجنـة حتى تزولَ عنهم أَدْنَـاسُ الآدَمية ، وأَسْقَـامُها ، وأَثقالُها وأَذَاها ؛ فتجري تلكَ الغُسَـالَةُ إلى بـاب النار فتَسْقِي أَهْـلَ النارِ حتى يَحْيَوْا بتلك الغُسالة ؛ ولا يتهَنَّوْنَ بها ؛ فتلكَ حياةٌ يجـدونَ بها أَلَمَ الحياةِ ولا يجدونَ طِيبَ الحيـاةِ ؛ فلا حيـاةَ ولا موْتَ ؛ فهـذا الموقـوفُ بين يَـدَيِ اللَّهِ تعالى في العـارِ والتخزيـة أَشدُّ عـذاباً في ذلـك الخَوْفِ والهَـوْلِ والحَيَـاءِ مِنَ الـذي أُمِيتَ في النـارِ ، والنـارُ تحـرقُ جســدَه ؛ والرحمةُ من اللَّه تعالى محيطةٌ به ، لا يزالُ يَقْتَضِي بها نَجاتَـه وخَلاَصَـه حتى يخلِّصه اللَّهُ تعالى ، ثم يُرْمَىٰ به إِلى الجنة طاهراً .

مثل من يحشر في الموقف على تلون[2] الأحوال

مثل مَنْ يُحْشَرُ إِلى المـوقف غداً على تَلَوُّنِ الأَحـوال مَثَلُ عَسْكـر

(١) طه (٢٠/ ٧٤) .
(٢) تلون الأحوال : تغيرها .

نُـودِيَ فيهم بالـرَّحِيـلِ حين انفجـار الصُّبْـحِ ، ففُتِـحَ بـابُ المـدينـةِ ، فخرجوا ؛ فراكِبٌ على هِمْلَاجٍ[(١)] بلغَ المنزلَ[(٢)] ضَحْوَةً قبل أنْ ينالَه حَرُّ النَّهارِ ، فوجدَ المَنْزِلَ خالياً فنـزل على مُخْتَارِهِ في أَلْـطَف مكان وأَنْـزَهِه وأَكْثَره مرفقـاً ، ووجد الأَعـلاف مُهَيَّأَة ، والسـوقَ مُزَيَّنـاً خاليـاً ، والمياه صَـافيـة ، والمسـاقِيَ نـظيفـة طَيّبـة ؛ فينـال من كـل شيء على مُنْيَتِـه واختيارِه ، حتى إذا انْتَصَفَ النَّهَارُ جاءَت الرُّكْبان على دَوَابِّ الحُمُر مـع الأثقـال ، وازْدَحَموا على المنـازل في المنازل ، ومـالُوا على الأَعْـلَاف والأَسواقِ حتى تضايَقَت الأَمْكِنَةُ والأَعلاف ، وأَقبلوا على سَقْيِ الدواب على الازدحـام ؛ فـإذا كـان آخـر النهـار جـاءَت أَصحـابُ الـدَّوَابِّ القُـطف[(٣)] ، فوجـدوا بقيـةَ المـاءِ والأَعـلاف ، ولـم يَجِـدُوا مكـانـاً في المنـزل ، فنزلـوا في الصحراءِ ، وهم بَعْـدُ في ضَوْءِ النهـار يُبْصِرون أَنْ ينزلوا ويجـدوا[(٤)] شيئاً من العَلَف والمـاءِ وما يحتـاجون إليـه ، حتى إذا أَمْسَوْا جاءَت الرَّجَّالة[(٥)] فنزلـوا حَوْلَ المَنْـزَلِ بالبُعْـد من المرافق ، ولم يجـدوا شيئاً من الميـاهِ والأَعـلاف إلَّا بقيـة ، ومن المسـاقي المـاءَ مـع الكـدورة والطِّين ، حتى إذا جَنَّ[(٦)] الليـلُ جـاءَت الـرجَّـالَـةُ الـزَّمْنَىٰ[(٧)] والأَعْرجُون[(٨)] والعُمْيَان ونحوهم يتخبَّـطُون الطريقَ ولا يَجِـدُون مَوْضِـع

---

(١) الهملاج : هو البرذون الذلول .

(٢) المنزل : المكان الذي ضربوا فيه أوتادهم واستقرت به نواهم ، وألقوا فيه عصاهم .

(٣) قطفت الدابة : ودابة قطوف أي ضاق مشيها .

(٤) أن ينزلون ويجدون [أ ، ب] وهو تحريف خطير من الناسخ .

(٥) الرجالة : الذين يسيرون على أرجلهم .

(٦) جن الله : أقبل بظلامه .

(٧) الزمنى : مفردها الزمن وهو المريض .

(٨) الأعرجون : جمع مفرده أعرج .

نزولٍ إلَّا في الخرابات والأرض الشاكة[1] والكُنَاسات والمُتَغَوَّط[2] ، في ظُلْمَةِ الليل وهجومِ البَرْدِ والرياح والأَنْدَاءِ من الثلوج وغيرها ، فلا مكانَ ولا عَلَفَ [89] ولا مرفق ولا كِنَّ[3] ولا مُسْتَقَرَّ ؛ فهم يتمنَّوْن انكشاف[4] الليلِ وانفجارَ الصبح ، ولا صُبْح .

فهذا مَثَلُ أَهْلِ الحَشْرِ غداً إلى اللَّهِ تعالى ، وذلك قولُ اللَّه تعالى[5] : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فجَمَعْنَاهُم جَمْعاً ﴾ . وقال اللَّهُ جلَّ جلالُهُ[6] : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ من الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهم يَنْسِلُونَ ﴾ .

يحشر الناس ركباناً ورجالة وعلى وجوههم :

وقد قال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلّم : يُحْشَرُ الناسُ أَثْلاثاً : ثُلث رُكبان ، وثُلُث رَجَّالة ، وثُلث على وجوههم . رُكْبَانُهم قول اللَّهِ تعالى[7] : ﴿ يَوْم نَحْشُرُ المتَّقِينَ إلى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ . قال علي رضِي اللَّه عنه نَجَائب .

وإنَّما تَلَوَّنَ حَشْرُهم لأَنَّ المراكب متفاوتةٌ كما ضَرَبْنَا في المثَل :

---

(1) الشاكة : ذوات الأشواك .
(2) المتغوط : المكان يتغوط فيه .
(3) الكن : الستر .
(4) انكشاط (ب] .
(5) الكهف (18/ 99) فجمعناهم جمعاً : أي جمعنا الإنس والجن في عرصات القيامة للعرض على الله سبحانه وتعالى .
(6) يس (36/ 51) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (15/ 40 ، 41) والطبري (23/ 11) وتفسير غريب القرآن ص 366 بتصرف .
(7) مريم (19/ 85) .

مِنْ فارسٍ ، وراكِب حمارٍ ، وصاحبِ قَطُوفٍ ، ورَاجِـل، ومَنْ دَونَه من الزَّمْنَىٰ وغيرهم ؛ فيصل إلى الموقف على قَدْرِ مَرْكبـه ، ومَرْكبُـه معرفـةُ اللَّهِ تعـالى ؛ فذاك مَـرْكبُ قَلْبُه إلى اللَّهِ تعـالى بقَدْرِ معـرفتِه للَّه تعـالى وعِلْمِـه بـاللَّه تَعـالى ، يصـلُ إلى اللَّهِ تعـالى بنيَّتـه في الأَعمــال[١] ؛ ففُـرسانهم السـابقـون المُقَـرَّبـون ؛ وتفـاوُتُ سَبْقِهم في الأَعمـال بتلك القلوبِ الفَوَارِس على قَدْر تفـاوتِ مَرَاكبهم ، كتفـاوُت الخيولِ هـا هنا في دَارِ الدُّنيا ؛ فَرُبَّ فرسٍ تبلغُ قيمتهُ وثمنهُ أَلفاً[٢] من الدراهم ، ورُبَّ فـرس أَلف من الدنـانير ؛ ثم مِنْ بعـدهم المُقْتَصِـدُون وهم على قُـطُفِ الدوابِّ والأَثقال والحمولات ، ثم مِنْ بعدهم أَصحابُ الحُمر يَفتُرون[٣] مَرَّة ويقومون أُخرى ، مرةً رُكْبَاناً ، ومرة مُشاة ، يسوقون حُمُرَهـم بـالعَنَاءِ والعَجْز ، حتى بلغوا المَنْـزِلَ ؛ ثم مِنْ بعدهم الـرجَّالـةُ حُفَاةً وأَصحـاب كـارَاتٍ[٤] على ظهـورهم وأعنـاقهم ، قـد حَفِيت أَقـدامُهم ، ونكبَتْ[٥] أَكتــافُهم ، وانعقـرت[٦] من الحمــولاَت التي على أعنـاقهم ومن تلك الكَـارَاتِ ؛ فهم رجَّالـة الـديْنِ ؛ ليس لهم نيّـات ولا تَقْـوَىٰ ولا تَقِيّـة ، يَخْتَبِطون الطَّريق في الدِّين تَخبُّطاً على العادة « والشايـذبوذ » ، يعملون على العادة والتجويز ؛ فهؤُلاءِ هم أَهلُ العـامَّة في أَسـواقهم ، يستترون بالوُضوءِ والصلاةِ ، والصَّومِ ، والصدَقَة ، والشرائع ؛ وقلوبُهم مشحونةٌ

---

(١) لأن الأعمال منوطة بالنية ولا ثواب إلا بالنية والأمور بمقاصدها والأمور مرهونة بـالمراد منها ، ونية فاعلها .

(٢) ألف [أ ، ب] وهو تحريف .

(٣) يفترون : تنكسر حدتهم وتلين طبيعتهم بعد الشدة .

(٤) الكارات : جمع مفرده الكارة من الثياب وهي ما يجمع ويشد .

(٥) نكدت [ب] ، وهي تصحيف .

(٦) انعقرت : جرحت .

بحبِّ الـدنيا ، ومفتـونـةٌ بـالشَّهـوات ، قـد ضَيَّعُـوا أَحكـامَ الفـرائض ، وَتـوَثَّبُوا[1] في الحـدود ، ويعملون أعمالَ البِـرِّ على العادة بـالجُزَاف[2] والتخبُّط ، قد نَسُوا المَعَـاد ، وخَلَوْا من ذِكْرِ المـوت وخَشْيَةِ اللّٰهِ تعـالى في السِـرِّ ، وأهملوا الـوَرَع ؛ فهم سُـرَّاقُ الأَسـواقِ فـي مكـايـلهم ومَوَازينهم ، وتَضْيع أماناتهم .

ثم مِنْ بعـدهم هؤلاءِ المُتَهوِّكـون[3] المَفْتُونـونَ في الدنيـا حيَارَىٰ سكَـارى ، فهم عُرْج وزَمْنَىٰ[4] وعُمْي ، لا يصلون إلى المنـزل إلا بعد أَهْوَالٍ وشدائد وعجائب ، ثم بَقُوا في ظُلْمة الصِّراطِ ، ونَفَخاتِ النارِ ، ودُخَان الحَرِيق .

صفة فارس من السابقين :

قال له قائل : صِفْ لنا فارساً من السابقين ما صِفَتُه ؟

قال : ذاكَ فارِسٌ رَكِبَ مَرْكباً من مَـرَاكب المعرفـة يَطِيـرُ قَلْبُه إلى اللّٰهِ تعالى في كلّ وَقْتٍ وأَمْـرٍ وحُكم ، حتى لو استقبلَتْـهُ نِعْمَةٌ طـار قَلْبُه إلى المُنْعِم ، ولَهَـا عن النعمـة ، وإذا استقبلتـه شـدَّةٌ طـار قلبُـه إلى المقـدر ، ووقف ببـاب القُـدْرَة ينـظر إلى تقـديـره لـه ذلـك قبـل اللَّوْح والقَلَم ، وخَلْقِ العَرْشِ والكرسيّ ، والجنة والنار ، فهاب[5] أَنْ يلاحِظَ غَيْرَ ذلك الذي قدَّرت له نفسه بشهواتها وأُمنيتهـا ، وإنْ ذَكَر الـرِّزْقَ طار

---

(١) توثبوا في الحدود : استولوا عليها ، واحتلوها .

(٢) الجزاف : المساهلة ، وهو أيضاً بيع الشيء لا يعلم له كيل ولا وزن .

(٣) المتهوكون : جمع متهوك وهو المتحير ، والمتهور .

(٤) زمنى : مرضى .

(٥) هاب : تهيب .

قَلْبُه إليه ، وإنْ ذَكر أَمْرَ الرزق طار قلبُه إلى الرازق ، فوجد الأَمْرَ مفروغاً منه(١) ، وأنَّهُ قد ضَمِنَ له ذلك ، وأُبرز ضمانَه في اللَّوْحِ ، وإنْ نَابَتْهُ نائبةٌ(٢) طار قلْبُه إلى ما نَابَهُ عنه ، فنزل منازِلَ الواثقين بكرمه ، وأَحسنَ الظنَّ به ، ووَثِق به ، وسكَن في مَحَلِّه لربه ، مطمئنَّ القَلْبِ والنفسِ ؛ وإنْ أَعْوزه أَمْرٌ وأَزْعَجه ، طارَ قَلْبُه إلى المدبِّر ، فتعلَّقَ به مضْطَرًّا إليه مُفْتَقِراً إلى ما أَمّلَه ورَجَاه ؛ فهذا رَاكِبٌ نال مَرْكباً سَرِيًّا بَهِيًّا هَنِيًّا ، ما أَسرع ما يَبْلُغُ به يَوْمَ المَحْشَر إذا بُعِثَ مِنْ قَبْره فيجد مكاناً في ظلِّ العَرْشِ من قبل أَنْ تَجِيءَ الرحمة ، وقد نال أَهْلُ المَحْشَرِ في المَوْقِف من العَطَش والجُوع والحَرِّ .

حدثني محمد بن يَحْيىٰ بن أَكْرَم بن حَزْم الْقُطَعِي ، حدثني بِشْر بن عُمر الزَّهْرَاني ، حدثني ابْنُ لَهِيعة ، عن خالد بن أَبي عِمْرَان ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عنها ، عن رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم أنه قال : طُوبَىٰ(٣) للسابقين إلى ظِلِّ اللَّهِ تعالى . قيل : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : الذين إذا أُعْطُوا الحقَّ قَبِلُوهُ ، وإذا سُئلوا بذلوه ، والذين يَحْكُمونَ للناس بحُكْمِهم لأَنفسهم .

فصاحبُ هذه الصِّفَةِ قَلْبُه حيٌّ باللَّه ، ونَفْسُه سَخِيةٌ مُنْقَادةٌ(٤) للَّه ، قد ذلَّت بحدّة الحياة للَّه واقفاً عقله بعدلِ اللَّه ، يَحْكُمُ لخَلْقِه بحُكْمِه لنفسه ، فمَرْكَبُه من أعالي المراكب ، وأَجودِ الحيوان .

---

(١) مفروغاً منه : منتهياً .

(٢) نائبة : باقعة ونازلة وداهية .

(٣) طوبى : إسم الجنة ، وقيل هي شجرة فيها .

(٤) منقادة لله : مستسلمة في خشية وإخبات .

مثل العامل يعمل أعمال البر

مَثَلُ العاملِ الذي يعمَلُ أعمالَ البِرِّ على طريق الثوابِ والعقاب مثلُ نَهْرٍ اجتمع في مَوْضِعٍ فيه مِنَ البَرْدِيِّ والحطَبِ ، وأُصولِ الأَباءِ ونحوها ، فخاض فيه إنسانٌ ؛ ففي كل موضع وَصَلتْ يَدُهُ يَقَعُ في يده شَيءٌ من تلك الأَشياءِ ، وبعضها على ظَهْرِه وَرَأْسه وبَطْنه ، فيخرج من النهر متلوّثاً بها .

فأَهْلُ الغَفْلَةِ يَجْمعون حركاتِ الجَوَارح بأَعمالِ البِرّ ، وليس لهم من ذلك إلا الظاهرُ في مَقَاصِدهم ونيّاتهم إلاَّ الثوابُ الذي وَعَدَ اللَّهُ لعمّاله بذلك ، فعلى قَدْرِ طَهَارَتِهم وصِدْقهم يُثابون من الجنَّةِ أُجورَ عمالتهم ، وتَعَبَ أَجسادهم ؛ وتلك الطاعةُ تُنَالُ من أَنوارِ الإِيمان ، وتلك نِيَّات أَنوار الإِيمانِ الذي اعتقدوه فقط .

فأَمَّا أَهْلُ الانتباهِ فيعملون الأَعمالَ عُبُودةً[1] للَّه ، عارفين مُوقِنين عالمين باللَّه ؛ فمَثَلهم كمثَلِ مَنْ يَغُوصُ في البَحْرِ والأَنهار ، فيضربُ بيده في غَوْصِه ، فبلغ في يَدِه جوهرة لا يُحِيط بثمنها عِلْمٌ من نَفَاسَتِها[2] وصَفَائها ، فهم يَدْخُلُونَ في الطاعات بحركات الجَوَارِح ، ولكن في قلوبهم من العجائب ما تعجَّب الملائكةُ إذا رفعت إلى اللَّهِ تلك الحَرَكاتُ في حَشْوها من الأَنْوار ما يَمْلأُ الأُفُقَ الأَعْلَى .

وأَهلُ الغَفْلةِ حَشْوُ حركاتِهم في الطاعات أَنوارُ نِيّاتهم

---

(١) العبودة : العبودية ، الطاعة والخشوع .

(٢) نفس الشيء نفاسة : أي علا قدره .

وَمَقَاصِدهم ، وتلكَ من نُورِ الإيمانِ الذي اعتقدوه .

وأهلُ الانتباهِ حَشْوُ حركاتِهم في الطاعات ؛ لأَنَّ في حركات جَوَارِحِهم نُورَ الحُبِّ ، ونورَ الحياءِ ، ونورَ الشوقِ والحنين ، والتضرُّع ، والقَلَق ، والسُّرُور والبَهْجَةِ ؛ والشُّكْر ، والذِّكْر الصافي [٩٠] ، والإقبال على اللّهِ ، والإنَابَةِ ، والخَشْيَة ، والخضوع والتسليم ، ورؤية المِنّة[١] ، والتَّبَرِّي من الحوْل[٢] والقُوَّة ؛ فهؤلاءِ غَوَّاصُون يَغُوصُونَ في كل حَرَكةٍ في بُحور المعرفة[٣] في وقْتِ مُرُورهم في استعمال الجَوَارح ومُضيِّهم فيها بقلوبهم ؛ ويستَخْرجون من غَوْصِهم الدُّرَّ اليَتِيم[٤] ، والجَوْهَر النَّفِيس ؛ لأَنَّ القلب خزانةُ اللّهِ تعالى ، وفيها نورُه ؛ فإذا طَهَّرَ العَبْدُ سَاحَةَ الخزانة ، وهي الصَّدْر ، ظهرت في تلك الساحةِ من باب الخزائن في وقت عمل يعملُه عجائبُ لا توصَفُ من هذه الجواهِرِ والدُّرَر ، وحركات الطاعات ذات صور ؛ فكلُّ طاعةٍ لها صورةٌ ومِثَال ، وفي كل صورة يعملها ثَوَاب[٥] فَيُرَائي بها رَبَّه ، ويتزيَّنُ العَبْدُ بتلكَ الصورةِ لما فيها من الجَوَاهِرِ لمعبوده ؛ فهذا عَبْدٌ يتزيَّنُ بجواهره من كنوزه ، حتى إذا جازَ هذه الخطَّةَ ، ووصل إلى فَرْدِيّته[٦] ، فكان هذا عبداً[٧] تَزَيَّن للّهِ باللّه ، وكان اللّهُ مُسْتَعْمله في قَبْضَته ، وهي دعوةُ أَجَلِّ العبادِ ، واحد من السبعة الذين لقِيهم يونس

---

(١) المنة : النعمة .

(٢) الحول : القدرة والقوة .

(٣) تأمل هذا التعبير الصوفي .

(٤) الدر اليتيم : الذي لا نظير له .

(٥) ثواباً [أ ، ب] وهو تحريف من الناسخ .

(٦) فرديته : وحدانيته ، والأنسب والأليق أن يقول (الأحدية) .

(٧) عبد [ب] وهو تحريف .

صلواتُ اللّهِ عَلَيْهِ ، وكان يَدْعُو ويقول : اللهمَّ بكَ أَتزَيَّنُ فاجْعَل اليقين شِعَاري ، والصَّبْر دثاري[1] ؛ فهذا عَبْدٌ تزيَّن باللّه للّه .

مثل من وثق باللّه في ضمان رزقه

مَثَلُ مَنْ وَثِقَ باللّه في ضَمَانِهِ في رِزْقه وكِفَايته وَمَوَاعِيده مَثَلُ مَنْ ضافَ[2] مَلِكاً من الملوك ، فدعاهُ الملكُ ، فخاف من دَعْوَته ، وامتنَع واحتالَ لنَفْسِه هرَباً وامتناعاً لقلَّةِ ثِقَتِه به ؛ لأنه لا يَدْرِي ما لَه عِنْدَ الملك في الغَيْب ؛ فعلم المَلِكُ بحاله ، فوجَّهَ إليه وَلَداً من أولادِهِ رَهِيناً[3] عنده ، وقال : هذا وَلَدِي عندكَ وثيقة ، فاحْضُرْ إليَّ ، فإنّي أَفِي لكَ بالأمان والوَفَاءِ بكلِّ ما وعدْتُك .

فسكن الخائفُ بذلك الرَّهِين ، واطمأَنَّت نَفْسُه ، وعلم أَنَّ الرِّهَانَ[3] لطُمأْنينةِ القَلْب والأَمَان، ولا محالةَ يَفِي له بذلك .

فالمُؤْمِنُ وضعَ اللّهُ تعالى في قلبه نورَه ، ثم ضَمِن له الرزقَ والكفايةَ ، وأَمره بالعُبُودَةِ ، ودعاهُ إلى طاعته ، ووعَده حُسْنَ المآب[4] ؛ فكُلَّما نظَرَ المؤمِنُ إلى هذا الرَّهِين الذي عنده اطمأَنَّ ، وحَسُنَ ظَنُّه به ، وقال في نفسه : لو لم يُرِدْ بي خيراً ما وضَع مِثْلَ هذا الجَوْهَرِ

---

(١) الشعار : هو ما ولي الجسد من الثياب ، ولكن الدثار فهو ما يتدثر به الإنسان ويتلفف به وهو الكساء فوق الشعار .

(٢) ضاف ملكاً : نزل به ضيفاً عنده .

(٣) الرهين : كل ما احتبس به شيء .

(٤) المآب : المرجع .

النفيسِ في وثيقـة ورَهْناً ، فبـذل نَفْسَه لَـهُ ، وأَلْقَى[1] بيَـدِه ، وارتفعت التُّهْمَة وسوءُ الظن وخوفُ الرزق .

مثل أهل الثبات في الأعمال

مثلُ أهلِ الثَّباتِ في الأَعمال مثلُ مَلِك له ثـلاثة أَعْبُـد ، فأَعـطى كلَّ واحدٍ منهم قَضِيبَ كَـرْمٍ لِيَغْرِسَـه ويُعَمِّرَهُ ويُثَمِّـره ، ويَحْمِلَ شـرابَ عَصِيـره إليه ؛ فعَمَـد[2] أحدهم إلى كَـرْمِه فجعله مُـرَبّى[3] لَـهُ ، وقـام بعِمَارَته في السَّقْيِ ، وتقليب الأَرْض ، يَكْرِيه[4] ويُسَرْقِنُهُ[5] ويشدّه وما يصلح[6] لها ، حـتى أَدْرك وأَثمر ؛ فإذا جاءَ أَوان عَصِيـره فعصره فَمـلأَ زقًا صافياً صرْفاً[7] من العَصِير .

وَعَمَدَ الآخرُ إلى قَضِيبه فسقاهُ سقْيـاً دُون سَقْي ، ولم يثمِّرْهُ ، ولم يَقُمْ بعمَـارَتِهِ مِثْـل الأَول ؛ فـأَدْرَك الكَـرْمُ ، ولكن ليس لشجـرِهِ نَـزاهـةٌ وَطَرَاوَةٌ ، ولا لِعَنَبِه من الحلاوَةِ ما يكونُ لمثله ، فعصر وملأَ زِقَّهُ ممزوجاً بالماءِ .

وَعَمَدَ[8] الثَّالثُ إلى قَضِيبه فسقاه واحدةً ، ولَهَا عنه ، ولم يُثَمِّره ،

---

(١) ألقى بيده : سلم .

(٢) يقال عمد إلى الشيء : قصده .

(٣) مربى له : مكان يربى فيه وينمو .

(٤) يكريه : يحفره من جديد ، ومنه سميت الكراكة أي الآلة التي تقوم بالكراية .

(٥) يسرقنه : من السرقين وهو الزبل .

(٦) كذا ورد بالأصول .

(٧) صرفاً : محضاً خالصاً .

(٨) عمد إلى الشيء : قصد إليه .

ولم يَقُمْ بعمارته بشيء ، حتى أَدْرَكَ عِنَبُه ، كلُّه حامِضٌ ، ليس فيه من الطَّرَاوَةِ والماءِ شيء ، فعصره كذلك ، فلم يَمْلأ الزِّقَّ ، فنفخ فيه حتى امتلأ ريحاً ، فصار في رَأْيِ العين كالممتلىء .

يَحمِلُ كلُّ واحدٍ زِقَّه إلى الملك فرأى الملكُ كلَّها ، في رَأْيِ عَيْنه ممتلىءٌ ؛ فحلَّ من الأول وِكَاءَه[1] فذاقَه ، فرآهُ شراباً صِرْفاً لذيذاً ، فأعجِب الملكُ بذلك وقَبِلَه واستَحْلاه ، ووافَقه وأعدَّ له جَزيلاً[2] ، وأكرمه ، وخلع عليه خِلْعَةً[3] بَهِيَّة[4] ؛ فحلَّ وِكَاءَ الثاني فَذَاقَه فوجده ممزوجاً بالماءِ ، ولم يَجِدْ له كَثِيرَ حلاَوَة ؛ فرمَىٰ به وَجْهَه ، وأخرجه من بين يَدَيْه .

فَلَما حلَّ وِكَاءَ الثالثِ خرجت الريحُ ، فبقي في الزِّقِّ شيءٌ قليل ، فلما ذاقَه وجده حامِضاً غَيْر مُدْرك[5] ، فضرب بالزِّقّ على رَأْسه ، وأخرجه من بين يديه ، وسقطت الجلدة بين يديه .

عمال اللّه تعالى على ثلاثة أصناف

فعُمَّالُ اللّهِ تعالى ثلاثةُ أَصناف : فعامل تَصْدُرُ أعمالُ بِرِّهِ مِنْ قَلْبٍ سَقِيم ، فصدْرُه مُغَيِّم بسقَم قَلْبِه من أمراض الذُّنوب ، وغَيْمه من دُخانِ الشَّهَواتِ وقضاءِ المُنَىٰ ؛ فقوَّةُ عملِه إنَّما هي[6] من نُور التوحيدِ

---

(١) الوكاء : حبل يشد به رأس القربة .

(٢) الجزيل : العطاء الكثير .

(٣) الخلعة : ما يمنحه الإنسان لغيرة من الثياب .

(٤) بهية : جميلة ، من البهاء وهو الحسن والجمال .

(٥) غير مدرك : غير ناضج .

(٦) إنما هو [ب] وهو تحريف من الناسخ .

فقط ، فإذا خرج عَمَلُه حشو نورِه الذي بدر من التوحيد ؛ فالأعمالُ قوالبُ ، وحَشْوُهَا الأنوار ، فصاحبُ هذه الصِّفَةِ كصاحب زِقٍّ[1] منفوخ فيه حين حُلَّ وِكَاؤُهُ خرجت الريحُ ، وبَقِي في أَسفله شيءٌ يَسِير قَليلٌ ، وتساقط الزِّقُّ ؛ فإذا رُفِعَ عَمَلُ هذا إلى اللَّه تعالى لم يَظْهَرْ منه من النُّور إلا بمقدار النُّور الذي ذكرنا ، وسائرُها[2] حركات الجَوَارِح بلا نُور .

والثاني خرج عَمَلُه إلى اللَّهِ تعالى ممتلئاً نُوراً ممزوجاً بنُورِ الرّجاءِ والنَّوال[3] من اللَّه تعالى ؛ فطمَعُ نَوَالِه أَذْهَبَ حَلَاوةَ عَمَلِه .

والثالث خرج عمله إلى اللَّهِ تعالى ممتلئاً نُوراً من نُورِ القُرْبَة ، حَشْوُ ذلك النور حُبُّ اللَّهِ تعالى ، لم يَبْتَغِ[4] به غَيْرَ وجهِهِ الكريم من غير أَنْ يلتفِتَ إلى نفس ولا طَمَع ؛ فلما رُفِعَ إلى اللَّهِ تعالى ظهر منه من النورِ ما أَحاطَ بالمعرضِ من العَرْشِ ، وانتشر في جَوَانبه ، وملأ الخَزَائِنَ ؛ فهذا عَمَلُ المُقَرَّبِين والثاني عَمَلُ المقتصدين ، والثالث عَمَلُ المُخْلِصين الظالمين لأنفسهم .

مثل الطاعات في الزينة

مَثَلُ الطاعات في الزِّينة مَثَلُ زِينة الثَّوْبِ المنسوج المنقوش بألوانِ النقوشِ ، فكلُّ مَنْ نظَر إليه في هذه الزينةِ ذُهِل عَقْلُه من حُسْنِه

(١) الزق : جلد يجز ولا ينتف للشراب وغيره ، وهو أيضاً السقاء .
(٢) سائرها : باقيها .
(٣) النوال : العطاء .
(٤) يبتغي : يطلب .

وبَهـائه ، وسَبى قَلْبَـه بهجتُه ؛ فـالناظـرون إلى زينـةِ الأعمـالِ أحقُّ أن تَسْبِيَ منهم قلوبَهم بزينتها وبهائها وبَهْجتها .

قال له قائل : ما زِينةُ الأعمال ؟

قال : زِينتها في لَبَقِهـا[1] ؛ فمن احْتَظَى من اللَّبَق زَيَّنَهـا ؛ فزينـة الثيـابِ إنما ازدادت بـاجتماع الألْـوَانِ المنسوجـةِ بعضها ببعض ، فـإذا تلوَّنَت على العيون على اختلافِ ألوانِها ونقُوشها التذَّتْ بتأليفها ، فزينـةُ الأعمالِ في لَبَقِها ، فمن احتظى من اللَّبَق رأى زينتها .

قال له قائل : ضربْتَ المَثَلَ بشيء فأفْهِمْنا بـه ، فبيِّن لنا نَـوْعاً[2] من ذلك نَفْهَمُ .

قـال : فـانـظُرْ إلى الصَّـلاَةِ فـإنَّمـا هي قيـامٌ ، ثم انتصـابٌ ، ثم تكبير ، ثم وُقوف ، ثم ثَنَاءٌ[3] ، ثم تِلاَوة ، ثم ركـوعٌ ، ثم سجود ، ثم جُثُـوّ[4] ، ثم ارْتِغَـاب[5] ثم تسليم ؛ فهـذه أفعـالٌ مختلفـة ، وأقـوالٌ مُتبَاينَةٌ ؛ ولكلِّ فِعْل زِينة ، ولكل زينة بَهَاءٌ ؛ وبَهَاؤه من أصله الذي منه بَدَأ وإلَيْهِ يَعُود .

فإذا اجتمعت هذه الأنـواع على التَّفَاوُت بعضهـا في بعض تلوَّنت [٩١] ، وازْدَانَتْ ، والتـذَّت القلوبُ بـتلك الأفعـالِ والأقـوال ؛ ثم الملتـذُّون بهـا على دَرجـاتهم في التـرائي ؛ فـطائفـةٌ منهم تَلْحَظُ في

---

(١) لبق به الثوب : لاق به وناسبه .

(٢) نوع [ب] وهو تحريف .

(٣) الثناء : المدح.

(٤) الجثو : الجلوس على الركبتين .

(٥) ارتغب : ابتهل وضرع .

أعمالهم إلى حركاتهم فيها على الخضوع والذِّلَّة ؛ يتذَلَّلون لمَلِيكهم بتلك الحركات عُبُودَةً وأَسْراً .

وطائفة تَلْحظُ إلى حركاتهم فيها إلى فَرَحِ اللَّهِ بفِعْلِ العَبِيد ؛ فهم يَتَقَلبُون ويتصرفُون فيها التذاذاً بِفَرَح اللَّهِ تعالى ومَسراته بتلك الأفعال ، وقوله لعيسى عليه السلام : يا عيسى ، تَحَرّ[١] مَسَرتي ؛ وهو قوله صلى اللَّهُ عليه وسلم[٢] : لَلَّهُ أَفْرحُ بتَوْبَةِ العَبْد من أن يضِل أحدكم رَاحِلَته[٣] في أرضٍ فَلاَةٍ ، عليها زادُه ومَتَاعُه ، فيضرب يميناً وشِمَالاً فلا يَجِد ، فيقول في نفسه : أَرْجِع إلى ذلك الموضعِ فأموت فيه ، فوطَّن نَفْسَه[٤] على ذلك ؛ فإذا رجع إلى ذلك الموضع وَجَدَ راحِلَته قائمةً هناك عليها زَادُه وشَرابُه ومَتَاعُه .

وكذلك الصَّوْمُ إنَّما هو دَعْوةُ القلب النَّفْس إلى تَرْك الشهوات ليَوْمِه الذي يُريد أن يُصْبح فيه ، والنفسُ تَتَاقلُ وتَنْفُرُ عن ذلك النَّفْرة التي تَنْفر ، وتتثاقَلُ عن تَرْكها حتى إذا أَجابت القَلْبَ إلى ذلكَ ارتحلَ القَلْبُ إلى اللَّهِ تعالى بانقياد النَّفْس له ومُتابَعتها إيّاه ، وقَبولِ القَلْب من اللَّه تعالى ذلكَ التَّرْكَ والكفَّ عن الشهوات من الطعام والشراب والنِّساءِ ، والحفْظَ للسَّمْع والبَصَر واللسان عَمَّا لا يَحلُّ ، ثم إلى النَّفس عازماً ؛ فذاك الارْتجاعُ زينةُ عَمَله في العزيمة عند الرُّجوع إلى النفس وقَبُوله من اللَّه تعالى ؛ فجاءَ بذلك القبول ، فأَحاط بالنَّفْس ؛ فتلكَ

---

(١) يتحرى : يتعمد .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) الراحلة : المركب من الإبل .

(٤) وطّن نفسه على أمر ما : مهدها لفعله وروضها وذللها .

الإحاطَةُ عَزيمةُ القلب ، وانقيادُ النفس وثاقه[1] إياها ، فربَضَت النفسُ ساكنةً .

هذا مُبْتَدأُ[2] الصَّوْم ؛ فمِنْ مُبْتَدَأ هذا اليوم إلى آخره في صَدْره خواطرُ ،وعلى ظاهر جَوَارِحِه عَوَارضُ تحتاجُ النَّفْسُ إلى أَنْ تتجرَّعَ مرارةَ تلكَ الشهوات خاطرةً[3] كانت أو عارضة ؛ فكلما خطر ببَاله في صَدْرِه بين عيْنَيْ فُؤاده خَطْرَةٌ هاج البالُ ، واشتهت النفوسُ لتلك الشهوة ، وسكَّنها القلبُ فريضَتْ[4] ، كان لها بكل خاطرة وعارِضةٍ تتجرَّعُ النَّفْسُ مرارةَ التَّرْكِ جزاءً عند اللَّه تعالى ، فمن يُحْصِي هذه الخطراتِ والعَوَارضَ إلاَّ اللَّه تعالى .

ولذلك قال : الصَّوْمُ لي ، وأنا أجْزِي به ؛ لأَنَّ النَّفْسَ تجرَّعَتْ مرارةَ التَّركِ للَّهِ تعالى، والقَلْبُ وَفَىٰ بما قَبِلَ من اللَّهِ تعالى ؛ فالثوابُ بتجرُّع المرارةِ ، والجزاءُ للقلب بالوَفَاءِ .

فطبقةٌ منهم في هذه الخَطرات والعَوارض في دَرَجَةِ ملاحظةِ الثوابِ والعقاب .

وطائفة منهم في دَرَجَةِ ملاحظةِ حُبِّ اللَّهِ تعالى فتلاشَت المَرَارَات بِحَلَاوةِ حُبِّه .

وطبقة منهم في دَرَجَةِ ملاحظةِ مَسَرَّاتِ اللَّهِ تعالى وقُرَّة[5] العَيْن ،

---

(١) كذا ورد بالأصول .

(٢) مبتدأ الصوم : أوله .

(٣) الخاطرة : ما يخطر على القلب من خطرات .

(٤) ريضت : ذللت ، من راض، يروض .

(٥) قرة العين : سكينتها .

فيفْتَقِدون المراراتِ لابتهاج نفوسهم بمسراتِ اللّه تعالى .

مثل المعرفة التي لم تضء

مَثَلُ المَعْرِفة التي لم تُضِء مثلُ لؤلؤةٍ بيضاءَ صافيةٍ نقيَّة ، ثم تجدها قد دخَلَتها صُفْرةٌ بطول استعمالها من العَرَقِ والحرِّ والبرْدِ وأدْناسِ الجسدِ وغيرها ، وترى ياقوتةً أيضاً بمائها وصَفَاءِ لونها قد ذهب صفَاؤها وتغَيَّر لونُها بطول لُبْسها ؛ فأصحابُ الجواهر أبْصَرُ بما يغسلون تلك اللؤلؤةَ لتزولَ صُفْرتُها وتعودَ إلى حالِها .

وكذا الياقوتةُ تُعَالَجُ حتى تعودَ إلى مائها وصَفَائها .

فكذا المعرفة تجِدُها حُلْوةً نَزِهة نَيِّرةً ، فعلى طُولِ مُجَاوَرَتها بشهواتِ النَّفْسِ ومُلَامَسَتِها إياها تَجِدُها مُتَغيِّرةً قد افتقدَتْ حَلَاوتها ونَزَاهتها وطِيبَها ؛ لأنها قد تدنَّسَتْ بأدْناس الشهوات ، فيجب أنْ يُحْتَال لأمْرِهَا حتى تعودَ كما كانت .

قال له قائل : فكيف يكونُ ذلك ؟

قال : أليس هذه[1] الياقوتة ، واللؤلؤة - جوْهَرُها[2] قائم ؟ وإنَّما افْتُقِد صَفَاؤها وماؤها لِمَا لَزِقَ بها من الدَّنَس ، وتغيّب عنها صفَاؤها ؛ فبالمعالجة زالَ عنها ما كان لَزِق بها ، وعادت إلى حالها ، وظهر صفاؤها ؟ فكذا المعرفة قَائمةٌ إلَّا أنَّ أدناسَ الشهواتِ حجَبَتْ عنكَ إشراقَها لما حَلَّت في عَيْنِ فُؤَادِكَ في صَدْرِكَ ، فصارت كشمس

---

(١) هذان [أ] .
(٢) جوهر كل شيء : أصل خلقته المجبول عليها .

انكسفت ، فذَهَبَ ضَوْؤُهَا وإشراقُها ، فإذَا انْجَلَتْ عن الكسوف عاد إليها مُضِيئاً .

فكذا المعرفةُ إذا غَشِيَتْها[1] الكبائرُ فقد انكسفت شَمْسُك ، فصِرْتَ في لَيْلٍ دَامِسٍ[2] ، فلو اجتنبتَ الكبائرَ دُونَ الصغَائِر وهي السيِّئاتُ ، فأَنْتَ في نهارِك في سَحابٍ وغُيُوم ؛ فلو دَامَ هذا الغَيْمُ والسَّحَابُ لم يَنْعَقِدْ لكَ حبَّةٌ من حبُوب الأَرض ، ولا نضجت ثمرةٌ من أثمار أشجارك ؛ ووجدتَ الآدَمِيَّ مقسوماً على ثلاثة أجزاء :

قلب بما فيه من الإيمان ، وروح بما فيه من الطاعةِ ، ونَفْسٌ بما فيها من الشهوة . والقلبُ يقتضي الإيمان ، والروحُ تقتضي الطاعةَ ، والنفس تقتضي[3] شُكْرَ النعم ؛ والعَبْدُ مُقَصِّرٌ في الثلاث كلِّها ؛ فحبُّه لربِّه يوفي تقصيراته ، فكلما كان حُبُّه أَوْفَرَ كان أَثْمَرَ لتوفير تَقْصيراته ؛ لأَنَّ أَصْلَ المعرفةِ قائمة ، لكنها مُتَغَيِّمة ، فإذا أَحبَبْتَها كلها عملتَ بلا تقصير ، فلا تحتاج إلى التوفير .

ومَثَل ذلك مثَلُ عَبْدَيْن لكَ اقْتَضَيْتَهما الإقرارَ لكَ بالعُبُودَةِ والاستقامةِ بين يَدَيْك ، واقتضَيْتَهما ما وظَّفْتَ[4] عليهما من الخَراج ، واقتضَيْتَهما شُكْرَكَ ؛ فَقَصَّرا في جميع ذلك ؛ وكان أَحدُهما أَظهَرَ حُبًّا لك من الآخَر ؛ فإنْ كان أَحَدُهما أكثرَ عَمَلاً والآخَر أَقلَّ ، فنظرت إلى قلَّته ، وقُلْتَ في نفسك : وهذا يحبنا فنحن نَقْبلُ منه بحبِّه إيانا مُوَفَّراً .

---

(١) غشيتها : غطتها أو أتتها .
(٢) الليل الدامس : المظلم .
(٣) تقتضي : توجب .
(٤) ما وظفت : ما قدرت .

مثل الائتمار بأمر اللّه

عن زيد بن أَسْلَم رَحِمه اللّه أنـه قال لي : حـديثان أُحـدِّث بهما إذا خَلَوْت :

مَثَـلُ الائتمَار بـأَمْرِ اللّه تعـالى ومثـل القلوبِ مَثَـل أمير وُلِّي على كُورَةٍ[١] فورَدَها ، فوجد الكُورَةَ غِيَـاضاً[٢] ومُـروجاً[٣] وآجـاماً[٤] ، فيهـا الخَنَـازيرُ والسِّبَـاعُ ومِياهُ النَّـزِّ[٥] ، فلمـا نـظر إليهـا رجَـعَ نـاكِصـاً على عَقِبَيْه[٦] ، فقال : ليس مع هذا النَّزِّ قوَامٌ ، ولا مَـعَ هذه الخنـازِير عَيْشٌ ولا إِمْرَة .

وَوُلِّيَ آخَـرُ على كُورَةٍ أُخْـرَى ، فوجـدها ذات قُصـورٍ وَبَساتين ، وأَنهار جارية وأشجار ، ومساكن نَزِهَة ، وسُكَّان كثيرة ، وأَسواق مُزَيَّنَة ، فيها أَلْوَانُ المَتْجَر ؛ فحلَّ بهم ، واستقرَّ قَرَارُه ، وَمَلَكَهُمْ وَتَـأَمَّرَ عليهم ؛ ففتـح بـابَ خَـزَائِنِـهِ ، وَقَسَّمَ كُنُـوزَهُ فيمـا بينهم [٩٢] حتى أَغْنَـاهم وَقَوَّاهم .

فَأَمر اللّهُ تعالى عبادَه بأُمورٍ ، ونهاهُمْ عن أَشْيَاءَ ، لا لجـرِّ نَفْع ولا لدَفْعِ ضُرّ ، لكن رحمةً منـهُ عليهم ، ورأْفـةً بهم ، فمَنْ وافاهُ[٧] أَمـرُه

---

(١) الكورة : المدينة .

(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهي الشجر الكثيف الملتف .

(٣) المروج الخضراء : هي الأرض ذات النباتات والمرعى ، جمع مرج .

(٤) آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف .

(٥) النز : هو ما يتحلب من الأرض من الماء .

(٦) نكص على عقبيه : رجع .

(٧) وافاه : آتاه .

فوجد صدره مشحوناً بأشغال أحوالِ النفس ، وقلْبَه مشْغُوفاً[1] بحبِّ الدنيا ، ونفْسه مفْتُونَةً بالشهوات والمُنى ، وعقله معتوهاً[2] بالْهَوَى رجع الأَمِيـر قهقرى ، ولا يجـد مَحَـلًّا ولا مُستقـراً ؛ لأن في هـذا القلبِ من العتاهةِ ، وفي هذه النفس من النهمات[3] والشهواتِ ، وفي هذا الصدْرِ من الأمـاني والفِتن ، والمكْـرِ والغِـلّ ، والحَسَـد والخِيـانـة ، وأشغـال وسْوَاسِ العَبْدِ ما هو أقْبَح ؛ لأن هذه الأشيـاءَ أقبح من الخنـازير ؛ ومِن الهـوى ما هـو أكثر ضـرراً من النَّزِّ ، فكيف يَقْـدِر الأمير أنْ يملكَ هـذا القلب ، ويحـلَّ[4] بهـذا الصَّـدْرِ ، ويتملَّكَ على هـذه النفس ؟ وكيف يقتضي العقل القيامَ بها ؟

وَمَنْ وَافَى إمْـرَتَه فـوجد قَلْبـاً مشحونـاً بحُبِّ اللّهِ تعالى ، وَصَـدْراً مُشْرِقَاً بنُور اللّه تعالى ، وَنَفْساً مُزَيَّنـة بنزهـة بساتينِ اللّهِ تعـالى ، وَعَقْلاً مشحوناً بنُورِ وَجْهِ اللّهِ تعالى حلَّ به الأميرُ فشـربَ القَلبُ حلاوةَ الأمـر ، وَطَعِمت[5] النفسُ لُبَابَهُ[6] ، وازداد العقلُ بالـرأفة التي تضمّنت الأمْـر ، وظهر العَمَلُ على الأركان على حَسَب ما وَصَفْنَا من الباطن .

وهذا لما ذكرنا أن الله تعالى لم يأْمر عِبَادَهُ أمـراً لجرِّ منفعـة ؛ ولا نهاهم لدفـع مضرّةٍ ؛ ولكن أمرهـم رأْفةً بهم ورحمـةً عليهم ؛ ولما فيـه مصالحهم ؛ ودفع المضار عنهم .

---

(١) مشغوفاً : كلفاً متعلقاً .
(٢) المعتوه : ناقص العقل إلا أنه ليس بمجنون .
(٣) النهمات : الشهوات ، جمع نهمة .
(٤) يحل : ينزل ويقيم .
(٥) طعم الشيء : ذاقه .
(٦) اللباب من كل شيء : خالصه وصريحه .

أمر الله على نوعين :

فَأَمْرُهُ عَلى نَوْعَين : فَأَمرٌ منه موافِقٌ طَبعه ، كقوله : ﴿ كُلُوا واشرَبوا[1] . . . ﴾ الآية . فتهتشّ إليه النفس ، وتسَرُّ به .

وأمر يتثَاقَل عليه وَيَتَباطَأُ ، كقوله : صم عن الأَكلِ والشرب ، فمَنْ ساكَنَ قَلْبَهُ حبُّ اللّهِ تعالى وعظمته وجلالته ، فشرِب قَلْبُهُ حلاوَةَ الأمر ؛ لأنَّ حلاوةَ الحُبِّ تُحَلِّيه ، وَعَظَمَته تعظِّمه ، وجلاله يجلُّه ، فتعمل الأركانُ على ما في الصدر والقلب ؛ فإن كان هذا الأمْرُ محبوباً فهذه صفتُهُ ، وإن كان مكروهاً لاحظَتْ عَيْنُ فؤادِهِ رحمةَ اللّهِ وَرَأْفَتَه عليه ؛ فَمَرَّ في ذلك الأمْرِ كالسَّهْمِ ، وهانت عليه أثقالُها ، وَرَأى أَنَّ أباه إذا أقعده بين يدي الخَتَّان ليَخْتِنَه ، أو بين يدي الحجَّام لِيَحْجِمه ، أوْ بين يدي الطبيب لِيُشْرِبَه دَوَاءً من الأدوية المُرَّة البَشِعَة ، فلم يَخْلُ مِنْ وَجَع وَأَلَم وَأَذَىً ، ولكن لم يَتَّهِمْ والِدَه في ذلك لِمَا علم مِنْ رَأْفَته وَشَفَقَتِهِ عليه ، فكذا لَمَّا رَأى مِنْ رأْفَة اللّهِ ورحمته وَشَفَقَتِهِ عليه لاَ يَتهمُهُ بهذا الأمر ، وإن كان غَيْرَ مُوَافِق طبْعَه ؛ فَقَبِله مسرعاً ، وقام به على الاهْتِشَاش .

فهذا أمير وافى قَلْباً غَنِيّاً ، وَصَدْراً عامراً ، وَنَفْساً طَيِّبَةً نزهَة ، وَمَنْ كان بخلافِ تلك الصِّفَةِ فقد وَافَى أَمْرُهُ قَلْباً خَرِباً ، وَصَدْراً ذا مُروج وَخَنَازِير ، ونفْساً بَطَّالة شَرِهَة ، وَعَقْلاً مَعْتُوهاً بالهَوَى ، فَأَمْرُ اللّهِ جلَّ وَعَلاَ على هذه الأركان كما كان أَمْرُ اللّهِ على المنافقين الذين كانوا

---

(١) كل واشرب [أ] الآية وهو تحريف ، الأعراف (٧/٣١) راجع أسباب النزول (١٦٨، ١٦٩) وتفسير القرطبي (٧/١٨٩) والطبري (٨/١١٨، ١١٩) والبحر المحيط (٤/٢٨٩) والدر المنثور (٣/٧٨) .

مـع أصحـاب رسـول اللّهِ صلّى اللّهُ عليـه وسلم وَرَضِيَ عنهم ؛ لهم مقارَنَة معهم في مَغَازِيه(١) ، وَمَجْمَع الصلاةِ والصيام والجُمَع والأَعْيَاد ، وقلوبُهُم حَزِبَةٌ(٢) ، فقد مضت تلكَ الصِّفَةُ ، ولا يزال في كلِّ قَرْنٍ منهم يزدادُ وَيَكْثُر حتى امتلأت الأَرْضُ منهم ، وَغَلَبَتْ ، وقَلَّ أَهْلُ الصِّدْقِ .

وكذلِكَ رُوِيَ عن رسولِ اللّهِ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : يَأْتِي على النـاسِ زَمَـانٌ لا يَبْقَى من الإِسـلامِ إلا اسْمُـه ، ومن القـرآن إلا رَسْمُه ، ومساجدهم عامرةٌ من أبدانهم ، وقلوبُهُم حَزِبَةٌ(٣) من الهُـدَى ؛ أُولئكَ شَرُّ مَنْ تُظِلُّ السماءُ ؛ منهم تخرجُ الفِتْنَةُ ، وعليهم تَعُود .

الأجساد قـوالب :

ثم إنَّ اللّهَ تعـالى خَلَقَنـا ؛ فجعــل أجسـادَنَـا قـوالبَ للقلوب ، ونُفُوسَنَا مَعْـدِناً للشهـوات ، ورؤوسَنَا مَعْـدناً للعقـل ، وصدورَنَـا مَعْدنـاً للعلم ، وقلوبَنَا مَعْدناً لكنوز المعرفة ، وأكبادَنَا موضعاً للقـوة ، وَمَجْمَعاً للعروق التي تَجْرِي فيها القُوَّةُ مع الدم ، وطِحَالَنَا مَعْدِنَ الرأْفة ، وَجَعَلَ فينا رُوحاً حَيّاً اشتمل على الجميع منَّا ؛ فظهرت الحركات بتلك الحيـاةِ في جميعنـا ، وأَشرق في قلوبنـا نور المحبَّـةِ لتَحْيَا قلوبُنَـا بـاللّهِ ، وكَتَمَ فيهـا نُـورَالهـدايَةِ لنَهْتَـدِيَ في تلك الحركـات بِهُدَى اللّهِ الـذي هَدَى بـه أَحِبَاءَه ؛ وجعل المعـرفةَ أميـراً على العَقْل ، وخلَقَ الْهَـوَى وجعله قَرِينَ العَـدُوّ ، وجعل لهمـا سبيلاً إليـه حتى يُوَسْـوِسَ العَدُوّ ، وجعـلَ لِلْهَـوَى سُلطانـاً حتى يَقْهَرَ(٤) بسلطانِـهِ العقلَ ، وَيَـطْمِس العِلْمَ ، وَيَحْسِم بـابَ

---

(١) المغازي : الغزوات . (٢) قلوب حزبة : مهمومة محزونة .
(٣) لعله يقصد (خربة) وهذا ربما يكون تصحيفاً .
(٤) يقهر . يغلب .

الكِبْـر ، ويغلب الروحَ ، وَيَخْـدَع النَّفْسَ ، ويجعلها أميـراً ؛ فإذا ذاقت النفْسُ طَعْم الإمارة وعِزَّهـا انخدَعَتْ وَمَـرَّت معه ، فتـظاهَرا[1] وخـرَجَا على القَلْبِ ، فَـأخـذاه ، بمنــزلـة خــارجيّ متغَلِّب خــرج على وَالِي الكُـورَةِ ، فَأَخَـذَه وقيَّده وسجنـه وأَوْثَقَه[2] ، وأغـار على كنوزه ، وَفَـرَّق جُنُودَه ، وقعد أميراً ، فَخَرَّبَ الكُورَةَ ، وأفسَدَ الرعيَّة .

فَأَمَرنا رَبُّنَا جلَّ وَعَلاَ بأُمورٍ ، وَنَهانَا عمّـا يُفْسِدُ تَـدْبيرَه فينـا ، وهو المعاصي ؛ وذلك دَوَاؤنا وشِفَاؤنا ، وصحةُ النفسِ من الأسقام ؛ أسقامِ الدين .

ثم يَنْصَحنا كما يَنْصَحُ الطبيبُ الرَّفيقُ بشفاءِ الدَّوَاءِ .

ثم حَذَّرَكَ عن أَشْيَاءَ ، وَأَمرَكَ بالحمايَةِ عنها ، فحذَّرنـا رَبُّنا اتبـاعَ الهوى ، وزِينَةَ الدنيا ، ومُكَـايَدَة العـدوّ وإجابـة دَعْوَتـهِ ، وأَيَّدَكَ بـالعلم والعَقْـلِ والمعرفـة والحِفْظ والذِّهْنِ والفِـطْنَة ، وَأَيَّـدَكَ بكلامـه المُهَيْمِنِ على الكُتُبِ نُـوراً وَشِفَـاءً لمـا في الصـدور ، وَهُـدًى وَرحمـة ، وأَيَّـدَكَ بأَسمائه تسعة وتسعين .

الدعاء لم يكن لسائر الأمم

وفتـح لـكَ بـابَ الـدُّعَـاءِ مـا لم يكن لسـائِرِ الأُمم ، يقـول اللّهُ تعالى[3] : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

---

(١) التظاهر : المعاونة .

(٢) أوثقه : قيَّده .

(٣) غافر (٤٠/٦٠) والـدعاء هـو العبادة ، وهـو التوحيـد ، وبالعبـادة والتوحيـد يغفر اللّه الذنوب ، فإن قوله أدعوني أي وحدوني واعبدوني ، قال أنس رضي اللّه عنه : « قال =

وإنما كانت للأنبياءِ خاصة دُونَهم ، حتى إذا نَابهم نَائِبَة فَزعُوا إلى الأَنْبِيَاءِ لِيَدْعُوا لهم ؛ فلذلك كثـرت أَنبياؤهم لحـاجتهم إلى ذلك ، حتى كانَ لِكُلِّ مَحَلَّةٍ[1] نَبِيّ وَنَبيّان وثلاثة وأربعة وأكثـر : لحاجَـةِ[2] العَبْدِ في ذلك الموقف العظيم .

قـال له رَبُّـهُ : أَعطيتَـكَ ثلاثـةً من الأَمَراءِ ، مـا من أَمِيـرٍ إلا ولـهُ سلطان وَجُنْد وَنَفَاذُ أَمرٍ ؛ أفما كان لِأُمَرَائـك من العُدَّة والقُـوَّة ما يغلبـون هَوَاك ؟ بلى ، قد كان ؛ ولكنكَ قد مِلْتَ إلى هَوَاكَ ، وَوَضعْتَ يَدَكَ في يـده حتى أَسَرَكَ ، وَضيعْتَ أَمْـراً لي ، والمحاربـةَ للنفس مع أُمـرائي ، وقد أَمَرْتُكَ بالمجاهدة ؛ وقلت[3] ﴿ وَجَـاهِدُوا في اللّهِ حَقَّ جِهَـادِهِ ﴾ ، وأَعـطَيْتُكَ الأُمَـرَاءَ مـع الجنـودِ لمجاهـدةِ نَفْسـكَ وَهَـوَاكَ ، فَمِلْتَ إلى النفْسِ والهَوَى ، وأَعرضْتَ عن الأُمراءِ والجنود ، وأَلْقَيْتَ نَفْسَـكَ أَسِيراً بين يَـدَي الهَوَى ، حتى وضعـكَ في يـدِ العـدوّ ؛ وَفَضَحَـك [٩٣] ، فخـرجْتَ إلى هـذا المَجْمَـع بين يـدي الـرحمٰنِ والأَنبيـاءِ ، وَالأَوْلِيَـاءِ والملائِكَةِ ؛ مع هذه الأَعمال القبيحَةِ والفضائح : اللسانُ لسانُ الأَوليـاءِ والأَعمـالُ أَعمالُ الأَعـداءِ ؛ أُفٍّ لِعَبْـدٍ أَحْمَقَ ، وَزَبُـونٍ أَبْلَه ؛ أَين كـان عِلْمُكَ حتى تَبَلَّهْتَ ؟ وَأَيْنَ كان عَقْلُكَ حَتى تَحَمَّقْتَ ؟ وَأَين كـان ذِهْنُكَ حَتى أَعـرضْتَ عن الله تعالى ، وأَقْبَلْتَ عَلَى نفسـك ، وتصـامَمْتَ عن

= النبي صلى اللّه عليه وسلم : « ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع » » اهـ .

راجع الجامع لأحكام القرآن (١٥/٣٢٦) .

(١) المحلة : المكان يستقر فيه القوم.

(٢) في حجة [ب] وهو تحريف .

(٣) الحج (٢٢/٧٨) .

أَدَبِ اللّهِ تعـالى وكلامِـهِ وَمَواعِـظِهِ ، وَأَصْغَيْتَ إلى وساوس شيـطانك ؟ اتهمت مصالحَ اللّهِ ، وَانْخَدَعْتَ لِعَدُوّكَ ؛ وَعَـدَكَ عَدُوُّكَ الفقـرَ ، وأمرك بالفَحْشَاءِ ، واللّهُ وَعَدَكَ مَغْفِرَةً منه وَفَضْلاً ؛ فَآثَرْتَ وَعْدَهُ وَأَمْرَه على وَعْدِ رَبِّكَ وَمَغْفِرَتِهِ وَفَضْلِهِ ؛ وإنَّما أُوتِيَ العَبْدُ هذا من قِبَـل رقِّ النفس ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا مَلَكَها الهَوَى صارت رَقِيقاً للْهَوَى مملوكةً ذليلةً ، تنقادُ للهوى حَيْثُما قَادَها ، حتى يَهْوِي[1] بها في النار التي منها خرج إلى النفس .

فَـالْهَوَى هـو نَفَسُ النَّارِ ، فـإذا تنفَّست فإنمـا لها لَهَبـان وَنَفسان : نفس من السّموم ، وَنَفَسٌ من الزَّمْهَرِير[2] ؛ فكـلاهما في الهَـوى : بَرْدُ الـزَّمْهَريـر[2] ، وحرارة السَّمُـوم ؛ فـإذا خلص إلى القلب بَـرْدُ زَمْهَـرِيـرِ الهوى ، خَمدت حرارةُ حياةِ القَلْب ؛ فإذا ذهبت الحرارةُ مات القَلْبُ ، وَجَمَدَ الدَّمُ .

أَلَا تَـرَى إذا خـرج الـرُّوح جمـد الـدم ، ثم النَّفس ، وبَقِيَ دَمُ العروق على حاله ، وتلك دِمَاءُ الطبيعة .

في قلب المؤمن حياتان :

ففي قَلْبِ المُؤْمِنِ حَيَاتان : حياة الريح ، وحياة المعرفة ؛ وفيهمـا الحرارة ؛ فإذا جاءَ الهَوَى ببَرْدِهِ خَمَدَت الحـرارةُ التي في القلب ، فَبَرَدَ القَلْبُ عن أَمْرِ اللّهِ تعالى وعن دارِ الآخرة ، وجاء العدوُّ بزينةِ الدُّنيا على أثـرِ الدنيـا حتى سَبَى قَلْبَه بتلك الـزينة ، ويُغْـوِيه عن أَمْـرِ اللّهِ تعالى ؛

---

(١) يهوي : يسقط .

(٢) الزمهرير : شدة البرد .

والغيُّ حَـوَّلَ[1] القلب عن الرشـد ، وبالـرُّشْدِ لازمت المعـرفةُ القَلْبَ ، فهي ملازِمَتُهُ أبداً ، وبالرشد ثباتُ المعرفةِ ، والغَيُّ ضدُّ الرُّشد .

الرشد سر الله في قلب المؤمن :

قـال اللّهُ تباركَ وتعـالى في تنزيله حيث بَعَثَ رسـولَـه[2] : ﴿ قَـد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ ﴾ . والرُّشْدُ : سِرُّ اللّهِ تعالى في قلوب المؤمنين ، لَا يَـطَّلِع عليه إلا الأنبيـاءُ عليهم السلام ، والأوليـاءُ فمنْ دُونَهم عجـزُوا عن مَعْرِفَةِ كُنْهِـه[3] ؛ فالـرِّقُّ بَرْدُ القلب وخمـودُه عن حرارة حيـاةِ القَلْبِ باللّهِ تعالى ، وَمَوْت القلب عن اللّه تعالى ، وَبَرْد النَّفْسِ وخمودُهـا عن التحلُّل لـلأركـان في أَمْـرِ اللّه تعـالى ، فـظهـر على القَلْبِ الجمـودُ والعَجْزُ ، وعلى النفس القَهْرُ وَذَهَابُ القوة والكَسَلُ .

فكلُّ مَنْ مَلَكَهُ هَوَاه فقَلْبُهُ مقهور ذَلِيل لا يعتـزُّ بأَمْـرِ الله ، ولا يهتزُّ له ؛ لأنَّ أَمْرَ اللّهِ تعالى ملكُهُ وسلطانُـه ، وزينتُهُ وبهـاؤه وَحَلاَوَتـه ، فإذا وَافى قَلْباً مَأْسُوراً وَصَدْراً مُظْلِماً بِأَشْغَالِ الدنيا ، قد خَرَّبه الهَوَى ، وَصَيَّرَ صَـدْرَهُ مُرُوجَـاً وَغِيَاضَـاً وآجامـاً ، يخوضُ فيهـا الخَنَازِيـرُ ، وتتردَّدُ فيهـا الذِّئابُ والسِّبَاعُ ، والأُسْد والثّعالب ، لـم يَبْقَ هناك للأمير سلطانٌ ، فإذا لم يكن لـلأمير مَمْلَكَـةٌ ولا سلطان فلم تَبْرُزْ زِينَتُـهُ وَبَهَاؤه ، ولم تـوجَـدْ حَلاَوَتُه ؛ فلذلك لا يجدُ صاحبُ الهَوَى طَعْمَ أَمْرِ اللّهِ تعالى وَحَـلاَوَتَه ، ولا يرى بهاءَه وَسَنَاءهُ[4] وزِينَتَه ؛ فإذا عمل ذلك الأَمْرُ كـان كالمُكْـرَهِ[5]

---

(١) حال [أ] وهو تحريف .

(٢) البقرة (٢/٢٥٦) .

(٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) السناء : الضوء.

(٥) المكره : المجبر .

الذي لا يَجِدُ بُدّاً ، أو كالذي يُجَرُّ برجليه على مَوائد النِّعم وبساتين النُّزْهة ، كما تُجَرُّ جِيَفُ الميتةِ لتُرْمَى ، ولا يَجِدُ طَعْمَ ما حَلَّ بالموائد ، ولا يشَمّ رَيَاحِينَ البَسَاتين ولا يلتذّ بِنُزْهَتِها .

ومن خلص مِنْ رِقِّ الهَوَى فَيُوسَم سِمَةَ[1] الأَحرار قَعد على موائد النِّعم ونُزْهَةِ السُّنَن ، فكانت الأَعمالُ موائدَ غِرَاسه ، والذِّكْر بساتينه ونزهته ، فالرقُّ يُدَنِّسُ الْقَلْبَ وَيَقْهَرُهُ[2] ، فإذا صار حُرّاً تَطَهَّر القَلْبُ من الأَدْنَاس ، وخرج من قَهْر الهَوَى ، فاعتَزَّ باللّه ، واسْتَغْنَى باللّه .

مثل اعمال البر في الجسد

مَثَلُ أعمالِ البِرِّ في الجسد مثلُ أيام الربيع إذا هاج الحرُّ من تحت الأَرض ، وذهب البَرْدُ من الجوِّ ، فإذا غَشي الحرُّ بُزُورَ الأَرْضِ ، وعُرُوقَ الأَشْجَارِ ، انفطرت[3] الأَرْضُ ، واهتزَّتْ[4] وَرَبَتْ[5] ، وَتَوَرَّدَت الأَشْجَارُ وَالأَوْراد ، واخْضَرَّتْ الزُّرُوعُ والنباتُ في الأَودية والجِبَالِ والبَرَارِي[6] ؛ فهاجت رِيحُ كلِّ شيء ؛ فطاب الهواءُ ، فإذا طابَ الهَوَاءُ من انْفِطَارِ هذه الأَشْيَاءِ ، وَوَصَلَ نسيمُ الأَوْرَادِ والرَّياحين إلى الخَيَاشيم ، فصارت شِفَاءً لأَجسامهم ، وصلاحاً

(١) السمة : العلامة .

(٢) يقهره : يغلبه .

(٣) انفطار الأرض : انشقاقها .

(٤) اهتزت : تحركت .

(٥) ربت : ارتفعت وزادت .

(٦) البراري : الصحارى .

لطبائعهم ، وَمَرَمَّة لأعضائهم ، وذهبَتْ عنهم زُهُومَـةُ[1] الشتاءِ والـدُّخان والأَدْنَاس .

فكـذا الأَعمـالُ السيئـة كـدَّرَتْ أَحـوالَ المؤمنيـن ، ودنَّسَـتْ جَـوَارِحَهم ، وثقلت أَركـانَهم ، ووَهنتْ[2] أَعْضَاءَهُمْ ؛ فإذا خـالـطَتْهـا الأَعمالُ الصالحةُ صارت شِفاءً للقلوب، وقوةً للأَركان ؛ كـأَيَّام الـربيع ، وطِيبِ الهواءِ للأَجساد التي وَصَفْنَا ؛ وحَيِيَت القلوبُ بالأَعمال الصـالحة التي ماتت مِنْ تَعَاطِي الشهـوات ، كالأَرض حَيِيَت بـالأَمطار في الـربيع من مِيَاهِ الحياة ، وكذا قال جلَّ جلالُه[3] : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكم ﴾[4] ؛ أَي إِنَّ اللهَ تعالىٰ دعـاكم إلى طاعتِهِ فأَجِيبوه ، وَوَفُّوا له بما دَعاكم إليه تَحْيَـى قلوبُكم به .

مثل القلب والنفس

مَثَلُ القَلْب والنَّفْسِ مَثَلُ القَوْسِ أَعلاها أَوْسع من أَسْفلهـا ؛ فإِذَا غَفَلَ عنها صاحِبُها أَخذَ البيتُ الأَسفلُ من البيت الأَعلى قليلاً قليلاً حتى يَصِيرَ الأَعْلى ضَيِّقاً والأَسفـل واسعاً ؛ فـلا تخرج الـرميةُ عن قُـوَّةٍ ، ولا تَبْلُغ المَقْصد[5] .

فكذلك القلبُ ؛ هو في غِنَاه وَسِعَتِـه وقُوَّتـه متمكِّنٌ في التدبيـر ،

---

(١) الزهوم : ريح اللحم السمين المنتن ، المتعفن .

(٢) وهنت أعضاءهم : أضنتها، من الوهن وهو الضعف .

(٣) الأنفال (٨/٢٤) راجع تفسير الطبري (٩/١٤٣) بتصرف .

(٤) الاستجابة : الإجابة.

(٥) المقصد : المراد .

وهذه الجوارحُ والنفس في ضِيقها وفقْرها وحاجتِها ، فلا تَزال تأْخُـذُ من سِعَةِ القلبِ ومِنْ قُوَّتِه حتى يَضْعُفَ القلْبُ ؛ وَيَقِلَّ غنـاه ، وَيَضيق ؛ فلا تخرج رَمْيَتُه مستويةً ، ولا عَنْ قوة ؛ فلا يصل إلى المقصود .

قال له قائل : ما الرَّمْيَة ؟

قـال : النِّيَّة الصـادقـة ؛ فـالنِّيَّـةُ من القلب إِذَا خـالـطه عَـلاَئقُ[1] النفسِ ضعُفَت النيةُ ، وخرج الفعلُ غير مستوٍ ولا صَافٍ .

قيل : مِثْلُ ماذَا ؟

قال بيانُه : رجل أَخرج شَطْرَ[2] مـالِه ليتصـدَّقَ به ابتغـاءَ وَجْهِ اللهِ تعالى ؛ فهذه نِيَّةٌ صادِقةٌ خرجت من قَلْب صافٍ صادق ، ثم قـال : أَيْنَ أَضَعُها ؟ فحدَّثَتْه نَفْسُه أَنْ ضَعْها في غَرِيمك[3] فلان ، لـكَ عليه دَرَاهم ليَرُدَّ عليك قضاء مَالَكَ[4] عليه ، أَو ضَعْها في تَابِعيٍّ من خَدَمِكَ ؛ فهذه عَلاَئِق خالطت الصِّدْقَ الذي ادَّعى أَنَّه يُرِيدُ به وَجْهَ اللهِ تعـالىٰ ، أَراد به غَيْر [٩٤] وَجْهِ الله تعالىٰ ، عَرَضاً من عَرَض[5] الـدُّنيا ؛ فـزَاغَ[6] قَلْبُه عن الاسْتِـواءِ إلى المَيْـل إلى شيء عن اليمين إلـى الشمـال ، وعن الأَعْلَىٰ إلى الأَسفـل ؛ كالقَـوْس إِذا جعلتَ بيتَ أَسفله أَعـلاه ، وأَعـلاه أَسفلَه ؛ فإِذَا وَجَدَتِ النَّفْسُ إلى ذلك سبيلاً اعتادَتْ ذَلك ، فمـرةً أُخرى

---

(١) العلاقة : بفتح العين ، وكسرها : الحب المتمكن من القلب ويجمع على علائق .
(٢) شطر المال : نصفه .
(٣) الغريم : المدين .
(٤) عمالك [ب] .
(٥) العرض : متاع الحياة الدنيا .
(٦) زاغ : انحرف ومال .

أَخَذت القوةَ من القَلْب .

ثم أَخـرج من مـالـه شـطْراً آخَـر ليُنفِقـهُ في سبيـلِ الله تعـالىٰ ؛ فقـال : أَيْنَ أَضَعُـه ؟ فـطَمِعَتْ نَفْسُـه أَنْ يتصـدَّق بـه على مَـلأ[1] من الناس ، فتحمدك الناسُ على ذلكَ ، ويقال : إنَّه سَخِيٌّ خَيِّر ؛ فقد زالَ عن الاستـواءِ إلى أَنْ بطلَتْ رَمْيَتـه حتى خرجَتْ من الْقَـوْس ، فسقـطت بالأَرض ، ولم يَصِلْ إلى مقصوده من الرَّمْيَة .

ثم أَخـرج دِرْهماً آخـر ، فقال : أَينْ أَضعُـه ؟ فذهب فـوضَعه في مَعْصِيةٍ ، فهذه رَمْيَـةٌ لم يعمل القـوسُ فيها ، فـالقَوْسُ مُعَـطَّلَةٌ ، والوتَـر منقطع ، والسَّهْمُ مُعْوَجّ ، والرَّمْيَة غير مسدَّدَة .

مَثَلُ المحق والمبطل

مَثَلُ المحقِّ والمبْطِلِ مَثَـلُ رجُلٍ بيـده اليمنىٰ كوزٌ مملوءٌ من مـاءٍ عـذْبٍ باردٍ صـافٍ هَنِيٍّ مَرِيٍّ ، يجـدُ عذُوبتَـه في لَهَاتِـه[2] ، وَبَرْدَه في فِيهِ ، وحلاوتَه في حَلْقِه ، وهَنَـاءَته ومَـرَاءَته في جَـوْفه ؛ وبيـده اليُسْرىٰ كوزٌ فيه بَوْلٌ قَذِرٌ مُنتِنٌ ، وتراهُ يُؤْثِرُ[3] هذا على الماء الصـافي العَذْب ، ويشربُ من هذا الرِّجْس[4] ، فَمَنْ نَظَرَ إلى فِعْله أَلَيس يُقْضي عليه بأَحدِ الحالين : إمَّا جنون ، أَو سكر ؟

---

(١) ملأ من الناس : جماعة وجمهرة منهم .
(٢) اللهاة : هي اللحمة المشرفة على الحلق ، أقصى الفم .
(٣) الإيثار : التفضيل .
(٤) الرجس : القذر .

قال : فإنَّما مثَّلْتهما بكُوزَيْنِ ؛ لأَنَّ الكوزَ وعـاءٌ للماءِ ، والأَعمـال وعـاءُ الحقِّ والبـاطـل ، فَعَمَـلٌ رَضِيَ اللّهُ بـه ، وأَمـركَ بـه ، وأَحَبَّـه ، فـالحقُّ فيه ، وذلـك العمل وِعـاءُ ذلك الحقّ ؛ فـأَيُّ ماءٍ أَعـذبُ وأَبـرد وأَصفىٰ وأَهْنَأُ وأَمْرَى من الحق !

وفِعْلُ آخر زَجر اللهُ تعالىٰ عنه وسخِطَه وأَبْغَضه[1] ، ونهاك عنه ، ومَقَتَ[2] فـاعِلَه ، فالبـاطلُ فيـه ، وذلك وِعَـاءُ ذلك البـاطل ، فمثلهمـا كمثل الكُوزَيْنِ في يَدي ذلك على ما وصفنا ، أَخَذَهُما رجـل بيَدِه على ما وصَفْنَا ؛ فمن آثر كوزَ البَوْلِ على كوزِ المـاءِ العَذْب الهنيء المـريء لم يُوضَعْ أَمْرُه إلَّا على الجنون أَو السكـر ؛ فمن آثَرَ البـاطلَ على الحق لدُنْيا يُصِيبها[3] أَو لنفسٍ يَغُرُّها وَيُبَاهِي بها فإنَّما هو لأَحـدِ أَمرين : إمَّـا أَن تكون المعرفةُ قد اختبأَتْ فيه فهـو منافِقٌ شـاكٌّ في رَبّه أَو ممـا يشرب صِرْفاً[4] من حلاوة حُبِّ الدنيا فأَسْكَرَتْه ؛ ولـذلك قـال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ ؛ فإِذَا أَصَمَّهُ وأَعْمَاهُ نافَق ، فإذا آثر الباطلَ انْمَحَقَ الباطلُ وزَهَقَ[5] ؛ وإِنَّ البـاطلَ كـان زَهُوقـاً[6] ، وتـلاشت الدُّنيـا عنه ، وَبَـطَلَ مُلْكه بهـا ، وانتقلت إلى غيـره ، ونَفْسُـه الطالبةُ للْعزّ والجاهِ عادت جِيفَةً مُنْتِنةً ، ملأً بطنه صديدٌ وديدان .

---

(١) أبغضه : معناه كرهه من البغض وهي الكراهة .
(٢) مقت فاعله : كرهه .
(٣) دنيا يصيبها : ينالها ويظفر بها .
(٤) صرفاً : خالصاً .
(٥) زهق الباطل : بطل وزال وانمحى .
(٦) راجع « الإسراء » (١٧/ ٨١).

مثل العارف المنتبه

مَثَلُ العارِفِ المُنْتَبِه قبل الانتباه مَثَلُ عَبْد له مَوْلَىً ، ولـكن لا يعلمُ مَنْ مَـوْلَاه[١] ، وكـان في جَمْـع عـظيم ، وكلُّهم مَـوَالي العبيـد ، فقـال : أَيُّهم مَوْلَايَ مِنْ بين هؤلاءِ ؟ فـأَشارُوا لـه إِلى واحـدٍ منهم : إِنَّ هذا مَوْلاكَ وسَيِّـدُك ؛ فنظر إِليـه بعين الرِّضَـا ، فوجـده أَجْمَلَهم وَجْهَاً ، وأَغْنَـاهم مالاً ، وأَحسنَهم خُلُقـاً ، وأَطْهَـرَهم سِيـرة ، وأَجـودَهم كفّـاً ، وأَحلاهم منطقاً ، وأَنفذهم قَـوْلاً ، وأفرسهم فـارساً ، وأَعْلَمهم علمـاً ، وأَبْهَـاهم زِينـة ، وأَرفعهم كِسْـوَةً ، وأَوْسَعهم مُلْكـاً ، وأَعـظَمَهُم رَحمـةً وتَحَنُّناً ، وأَشْكَرَهم لعبده ؛ فامتلأ هذا العبدُ فَرَحـاً لَمَّا وجَـدَ مولاه على هذه الصفة ؛ واستطالَ[٢] به على سـائر[٣] العَبِيـد مِنْ نُظَرائـه ، واختال وافتخَر به ، ووجد القوةَ في ظَهْرِه كلَّ القُوّة ، والسرورَ في قلبـه ؛ ورأَى نَفْسَـه لهذا المـولى الذي وجـدَه بهذه الصفـات أَنَّه ليس لـه كُفْواً[٤] من أَشكاله من العَبِيد بما وَجَدَ مَوْلىً مِثْلَ هذا .

فهـذا حالُ العَـارفِ إِذَا انتبه مِنْ رَقْـدته ، وعـرَفَ أَنَّ له رَبّـاً بتلك الصفات التي كانت لـه تسعةً وتسعين اسمـاً ، ووجد في أَسمـائه تسعـة وتسعين صِفَة ، فكُلُّ اسْمٍ إذا دَعاهُ به عرف أَنَّ هذا اسْمُـه على الحقيقة لا على الاستعـارة ، وعلم أَنَّ الصفةَ مِنْ وراءِ الاسم ، قـد أَعـدَّ لـه مـا وضـع من تلك الصفات لعبـده ، فمتىٰ يَسَعُ هـذا العبد في الـدنيا وفي

---

(١) المولى : السيد .

(٢) استطال به : فخر به .

(٣) سائر : باقي .

(٤) الكفو : النظير .

العُقْبَىٰ(١) متى وَجَدَ سيِّدَه بهذه الصفات !

مَثَلُ العلم مثل الماء

مَثَلُ العِلْم مثلُ الماءِ ؛ فإنَّ فيه حياةَ الأَرْض ، فالماءُ يَخْرُج به النباتُ ، ويشتدُّ نباتُها بالتُّراب المُلْقَىٰ(٢) فيها ؛ فبه(٣) تَتَقَوَّى الأَرضُ ، ويشتدُّ نَبَاتُها ؛ فلو أَنَّ رجلاً غَرَس أَغْراساً(٤) ، ثم لَهَا عنها ، فلم يُلْقِ فيها التُّرَابَ ، ولم يَسْقها بالماءِ ، يَبست الأَغراسُ ، وبطلَ عَمَلُه .

فكذا العِلْمُ فيه حياةُ القلوب ؛ يحْيَا القَلْبُ بالعلم ، ويقوى ويَشْتَدُّ باستعمال العلم بالعمل .

فلو أَنَّ رَجُلاً تعلَّمَ العِلْمَ ثم لَهَا عنه ، فلم يَعْمَل في انكشاف الغِطَاءِ عنه ، حتى يَصِيرَ العِلْمُ له مُعَايَنةً ، ويُتَصَوَّر في صَدْرِه ؛ لأَنَّ مِرْآته في صَدْرِه ؛ فالذي يَسْمَعُ بأُذني رَأْسِه يتأَدَّى(٥) إلى أُذُنِ فؤاده وبَصَر فُؤَاده ، ففي أُذُنَيْ فُؤَاده وَقْر من رِيَاح الشهوات وأَهْوِيَتها ؛ فضلَّ سَمْعُه ، فتلاشىٰ ما سَمِعَ بأُذني الرأْس ، وعَمِي بَصَرُ فؤادِه عن صُورةِ ما يتصوَّر من ذلك العلم في قلبه ، فتراكم(٦) دُخَانُ الشهواتِ وفَوَران حريقها المتأَدِّي من جَوْفِهِ إلى صَدْره ، فأَظلم عليه إِشراقُ نُورِ شمسِ

---

(١) العقبى : الآخرة.
(٢) الملقاه فيها [ب] وهو تحريف .
(٣) فيها [ب] وهو تحريف .
(٤) الأغراس والغراس : جمع غرس ، وهو المغروس المزروع .
(٥) يتأدى : يصل .
(٦) راكم [أ] وهو تحريف .

المعرفةِ عن صَدْرِه ، فَبَقِيَ على لسانه كلامُ ذلك العلم ؛ وذلك الكلام وذَاكَ عبارة العِلْم .

فأَمَّا العِلْمُ فقد احتجب وغَاب في ظُلْمَةِ ذلك الدُّخَان والفَوَرَان ، فذهب عنه استعمالُه ، فلم يَبْقَ عِلْمٌ ولا عمَل ، إنَّما بقيَتْ عِبَارة اللِّسَان ، وتلك حجّةُ اللهِ على ابن آدم .

فهذا بمنزلة غارِسٍ غَرس أَشجاراً ثُمَّ لَهَا عن سَقْيِها وتربيتها حتى يَبِس وبَطَل عَمَله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

مثل التائب

مَثَلُ التائب مثَلُ عَبْدٍ للملك أَبقَ[1] منه ، فصار إلى بَلَد من البُلْدَانِ ، فَوَجَدَ الملكُ عليه وَجْداً[2] شديداً بكُفْرانه بِنِعَيمِه ، وذهابه بالرَّقَبَةِ ، وإِيثارِه النَّهْمة على الكَوْنِ بين يديه من الخِدْمَةِ ، وسقط مِنْ عَيْنِه .

فلما افتقد[3] العَبْدُ عِزَّ القُرْبَةِ ، وشَرَف الخِدْمَةِ ، وحلاوةَ القيام ، وافْتَقَدَ مَرَافِقَه ، وَغَلَبَهُ العَجْزُ ، والشُّعُوثَة ، والكُدْرة ، والعناءُ[4] في طَلَبِ المعيشة ، وحالةُ البُؤْس والفقرِ مِنْ تلك المرافق ، ورَخاءِ العَيْشِ ، نَدِم على ما كان منه لِمَا حلَّ به ، ولم يَدَعْ[5] شقاوةَ نَفْسِه أَنْ

---

(١) أبق العبد : هرب .

(٢) وجد عليه : غضب وسخط عليه .

(٣) افتقد : فقد .

(٤) العناء : الجهد والمشقة .

(٥) يدع : يترك .

يرجع بنفسه إلى مَوْلاه .

وَقَدْ عَلِمَ الملكُ بما أَصَابه وبما نَدِم ، فبعثَ إليه بِكُسْوَة ورَاحِلَةٍ[1] وكتب كتاباً أَنِ ارْجعْ إلينا ، فلكَ عندنا ما كانَ لكَ .

فارتحلَ عَنْ وطنه ذلك راجعاً إلى الملكِ ، فكلَّما مَرَّ بمِصْر وقَرْيَةٍ فيها نُزْهة مكثَ أياماً ، وقَضَىٰ نهمه [٩٥] ثم يرتحل فيَهْجم على أُخرى مِثْلها فمكث هناك ؛ ثمَّ يرتحلُ ، والمَلكُ ينتظرُ وُصولَه وهو يتباطَأُ إلى اقتضاءِ الأَوْطَارِ والمُنَىٰ .

فبينما هو كذلك إذ بعثَ الملكُ قاصداً فأَخذه وقَيَّده وسجَنَه هناكَ في بعض السجون إلى يَوْمَ يَدْعُوه للمُعاتبة والحساب ؛ يوم موقَّت بذهاب العلَّة .

وعَبْدٌ آخر قِصَّتُه هذه القصة ، فلما ارتحلَ مِنْ متبدإ أَمْرِه لا يُسْرع إلَّا إلى ما لا بدَّ له منه ، وقَطَع البُلْدَان والمفَاوِز والبُحورَ والجِبَالَ والآكام[2] ، لا يَنامُ ولا يُنيم ، كلما ازداد قُرْباً بحضرة الملكِ اهتاج سَيْراً وجدّاً ، حتى وصلَ بابَ الملك ، فأُقيم بالباب فنزل ، وأُشير له إلى مكانٍ يحطُّ رَحْلَه ؛ ففعل . وَبَقِيَ هناك مدةً لِيَتَزَيَّنَ ويتأَدَّبَ ، ويعتاد ويتوقَّر ، ولتَزُولَ عنه الخِفَّةُ والاستبدادُ والعَجَلة ، ويلبس أَثوابَ الخَدَم ، ويتهيَّأَ للخدمة تَهَيُّؤاً يَصْلُحُ له بين يَدي الملك ؛ فلا يزال هكذا في مُدَّة طويلة حتى يُرْفَعَ السِّتْر ، ويُؤْذَنَ له بالدخول بين يديه ،

---

(١) الراحلة : هي المركب من الإبل .
(٢) الآكام : جمع أكمة وهي المكان المرتفع عما حوله من الأرض .

فهو ما دام يفكر ما فَعَلَ يَأْخذُه بما صنع بالإِبَاق حتى لا يَدْرِي مـا يَصْنَعُ مِنَ الحَياءِ .

فـإِذَا عَلِم الملكُ مِنْ حالـه أَنَّه يَسْتَحِي من ذلـكَ بسطَ له بَسْـطَاً ، وَبَرَّه بِرّاً ، ولم يذكر له شيئاً ممـا صنع ؛ وقَبِلَه ووَلَّاهُ ولايـةً سنِيَّة، وخَلع عليـه خِلَعاً يـظهر عنـده أَنَّ الملكَ مِمَّنْ قـد رَضِيَ عنـه رِضـاً لا يَسْخَطُ بَعْدَه ، وعاد كما كان في مَحَلِّه ومَرْتَبته ؛ وذلـك قولُ رسـولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صاحِبِ الشَّرْع : التائبُ منَ الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ .

مثل الخاشي

مَثَلُ الخَاشِي[١] مَثَلُ رَجُلٍ وقـعَ في مَفَازةٍ لا يَـرَىٰ فيها أَشيـاء ولا عُمْـران ولا نَبَـاتَ ، فقـد امتـلأ خَشْيَـةً من ضَـلَالِ[٢] الـطريقِ ، ومِنَ الظَّلماءِ ، ومن قلَّة القُوت .

وكمثَل رَجُلٍ وقَع في غِيَاضٍ[٣] ومُرُوج ، قد سبقَ إِليـه العلمُ بأَن المروجَ مواضعُ الأُسْد ؛ فالخشيةُ من الأُسْد كائنةٌ فيه .

مثل الخائف

وَمَثَلُ الخائف كمثل رجُلٍ رأى في هذه المُروج آثار خُطَاه ومـأْوَاه الذي يَأْوِي إِلى أَشْبَاله[٤] .

---

(١) الخاشي : المتوجس الخائف .

(٢) ضلال الطريق : عدم الاهتداء .

(٣) الغياض : جمع غيضة ، وهي الشجر الكثير الملتف .

(٤) الشبل : ولد الأسد وجمعه أشبال .

مثل العارف

ومَثَلُ العارفِ كمثل مَنْ عايَن الأَسد ، ونظر إلى شَخْصِه في ذلك المَرْج[1] ، فأَخذت هيبةُ الأَسد بمجامع قَلْبِه ، وركبت أَهواله نَفْسَه ، وصار كثوبٍ بال وحِلْس مُلْقىً[2] مِنْ رَوْع[3] القَلْبِ وفَزَع النفس .

مثل أهل الإرادة

مَثَلُ أَهل الإرادةِ في دَرَجاتِهم مَثَلُ خَدَم الملك كلُّ واحد منهم قد اتَّخذَ على رأْسه إكليلاً وبارِقَةً في يده ليَلْقَىٰ بها الملك يوم العَرْضِ ، فعَمَدَ أَحدُهم إلى الذَّهَبِ الأَحمر الصافي فصاغَه ، ثم عَمَدَ[4] إلى جَوَاهر ثمينةٍ من اللآلىء والياقوت والزُّمُرُّد فركَّبَها فُصوصاً ، فبلغت قيمةُ إكليله مائة أَلْفٍ وزيادة .

وآخَر عَمَدَ[4] إلى ذَهَب معمول مغشوش فصاغَه وركَّب فيه من الفصوص ما يُبَاعُ[5] بثمن يسير من الأَخزاف[6] ونحوه ، وعظام صدف ؛ فإذا كان يوم العَرْضِ ، ولَقِيَهُم الملكُ فأَنفذهم إلى سُوقِه

---

(١) المرج : الأرض الخضراء بالنبات ، وجمعها مروج .

(٢) حلس : كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل .

حلس ملقاة [أ] وهو تحريف .

(٣) روع القلب : خوف .

(٤) عمد إلى الشيء : قصده .

(٥) ما يبلغ [ب] .

(٦) الخزف : الآنية المعمولة من الطين ، والفخار هو هذه الآنية المطبوخة .

لِيُعْطِيَ كلَّ واحدٍ منهم ثمنَه من الخزانة ؛ فعندها يظهَرُ الأَسَفُ والنَّدمُ على ما فَرَّط في ذلك .

فعمَّالُ اللهِ تعالىٰ في هذه المراتب على إرادتهم ؛ فمن عَمل على طريقِ الحُبِّ والتَّحَنّن فعَمَلُه كتلك الجواهر الثمينة والذهب الخالص ، فأَوْفَرُهم حبّاً له أَعْلَاهم ثمناً لجوهره ، وأَصْفَىٰ في ذَهَبه ؛ فالذهبُ الخالِصُ صِدْقُه ، والفصوص المركبة حُبُّه لمولاه .

فعمَّالُ اللهِ تعالىٰ هكذا صِفَتهم ؛ فعامِلٌ يخلط ويَشوبُ[1] ؛ فهو كالذَّهَبِ المعمولِ الذي شَابَهُ ذلك النحاسُ والصُّفْرُ والأَدوية مع التخليط ؛ إِذَا صفت إِرَادتُه بجهده لم يتفكَّرْ في العلاقة ، فعمَلُه مع طَلب الثَّوَابِ والنَّجَاةِ من العقاب ؛ فهذه فُصوصٌ ليس لها كثيرُ أَثمان ؛ لأنها ليست بجواهر ، وكيف تكونُ جواهرَ وقد شَانَها[2] طلَبُ نَجَاةِ النفس وثَوَابِها ، فَبَالُ النَّفْس قائمٌ بين يديّ مَوْلاه ، وقَلْبُه حِجَابٌ كثيفٌ يَحْجُبُه عن مولاه .

وَأصحابُ الجَوَاهر في أَعمالهم ؛ مَنْ عَملَ لربِّه بلا علاقة ؛ وصدَق اللّهَ في ذلك العَمَلِ بالمُجَاهَدَةِ بطلبِ الصدق ، وخرج العَمَلُ منه منْ نارِ الحبِّ وَفَوَرَانِهِ ، فصعد إلى اللّهِ تعالى ؛ فلا ينتهي حتى يَصِيرَ إلى مَحَلِّ الحُبِّ ؛ فهناكَ يُعْرَضُ ، وهناكَ يُقْبَل ، وهناكَ يُثَاب .

وَأَعْمَالُ هؤلاءِ الآخرين مُنْتَهَاها إلى العَرْضِ على العرش .

---

(١) يشوب : يمزج ويمذق ويخلط .

(٢) شانها : عابها من الشين وهو مشين : معيب .

أعمال هذه الأمة على ثلاث مراتب

فصارت أعمالُ هذه الأُمَّةِ على ثـلاث مراتب : صِنْفٌ منهم يَـرفع عَمَلُهم إلى الخزائن ، ويُرَبَّى[1] هناك بالرحمة ، فيصير الواحدُ عشرة ؛ وهـو عَمَـلُ المخلصين ، وذلـك قـول اللّهِ جَـلَّ ذِكْـرُه[2] : ﴿ مَنْ جَـاءَ بالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها ﴾ .

وصِنْفٌ آخـر يُرْفَـعُ عَمَلُه إلى عِلِّيِّين إلى السِّـدْرَة التي أَصْلُهـا في الجنـة وَرَأْسُهـا ببـاب اللّهِ ، فيُـربَّى هنـاكَ بـالـرأْفـة ، فيَصيـر الـواحِـدُ سبعمائة ؛ وهو عَـمَـلُ الصادقين ؛ وذلك قولُ اللّهِ تعالى جَلَّ ذِكْـرُه[3] : ﴿ مَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهم في سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَل حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّة ﴾[4] .

وصنْفٌ يُـرْفَع عَمَلُه إلى اللّهِ تعـالى حتى يُقْبِلَ اللّهُ عليـه ، فينـظر اللّهُ إليـه فَرَبَّـاه هناك بنُصْـرَته، فيصيـر الوَاحِـدُ آلافَ أَلفِ ، ولا يُحْصِي عَـدَدَها إلاَّ اللّهُ تعـالى ، وذلـك قـولُ اللّه تعـالى[5] : ﴿ فيُضَـاعِفَـهُ لـه أَضعافاً كثيرة ﴾ .

وإنَّمـا كان كـذلك لأنَّ هـذه الأُمَّـة أبـرزت بـاليقين ، فـاستقـرَّتْ قلوبُهم إلى حُكْمِ اللّهِ تعـالى ، وأُنْفِذَت إلى حُبّ اللّه تعـالى ، فوقعت أعمالُهم في تربيةِ اللّهِ تعالى .

---

(١) يربي : ينمي ويزيد .

(٢) الأنعام (٦/ ١٦٠) .

(٣) البقرة (٢/ ٢٦١) .

(٤) الحب : كل ما يزرعه الناس ويقتاتون به ويعيشون عليه .

(٥) البقرة (٢/ ٢٤٥) .

مثل العمال في إخلاصهم في العمل

مَثَلُ العُمَّال في إخلاصهم في العَمل مَثَلُ عَبْد دفَع إليه مولاه ثَوْباً منسوجاً مختلِفَ السَّدَى ؛ فطاقةٌ منه كَتَّان ، وطاقةٌ منه صُوف ، وطاقةٌ منه شَعر ، وطاقةٌ منه إبْرَيْسَم[1] ؛ فقال مولاه في ظلمة الليل : استخرجْ طاقةَ الإبْرَيْسم من هذه الطاقات ، ليَمْتَحِن حَذَاقَتَه[2] ، فإذا قَدر على ذلك عظُمَ شَأْنُه عند مولاه ، وصار أَمْرُه بين العبيد عجَباً .

فكذا المؤمِنُ إذا أَخلص الطاعةَ من بَيْنِ شهواتِ النفس وإعجابها وَعَلاَئقها[3] ، من الرَّغْبَةِ ، والرَّهبة ، والحِرص والشَّرَه ، والغَدْر ، والعُلُوّ ، والكِبْرِ ، والحسد ، والغِلِّ ، والغِشّ ، والمكْرِ ، والخيانة ؛ أَخلص طاعةً منْ بين هذه الشهوات الدنيئة الرَّجِسَة الدَّنِسَة ، ثم خرج بها إلى اللَّهِ تعالى عَظُمَ شأْنُه ، وصار أَمْرُه بين الملائكة عَجَباً ؛ كيف قَدر على مِثْلِ هذا ؟ وإنَّما هو لَحْمٌ ودَمٌ وطين وتُرَاب ، وشَهَواتٌ ، ولا تَعْلَمُ الملائكةُ بما أعطاه اللَّه من القوة في سِر أَسرَّه[4] من الجميع ، فبِتِلْكَ قَدَر على مِثْلِ هذا .

مثل الأعمال في زينتها

مَثَل الأَعمالِ في زِينتها وبَهَائِهَا مثل الأَثواب من الدَّيَابيج[5]

(١) الإبريسم : الحرير .
(٢) الحذق : المهارة .
(٣) علائقها : ما يتعلق بها .
(٤) أسره : أخفاه واستبطنه .
(٥) الديابيج : جمع ديباج .

والوَشايش[1] ، فالوشايش فيها بألوانِ . والأَعمـالُ [٩٦] أنواعٌ ؛ فثـوبٌ منها أَبيضُ ليس فيه شيءُ من الألوان والنُّقُوش ، ومـع ذلك خَشِنٌ ليس بِجَوْهَرِي ، لأَنه مغشوش في أَصْلِه ؛ فهذا غَيْرُ ثمين ؛ وإن كـان فيكون قليـلاً نموذجَ شَيْء من الثيـاب ، فلا يشتـرك الإِبَاقُ[2] وَوَكْس[3]الثمن ؛ فهذا عَمَلٌ من صـاحب تخليط ، وخُلق سيء وخُشونـة رُوح ، فلا يُعْبَـأُ بعمله بشيء .

وثـوب ليس لـه جـوهـر إلَّا أَنَّهُ خـالصٌ ولا نَقْشَ لـه ، فهـذا ممـا يُشْتَرَىٰ وَيُرْغَب فيه .

فهذا الصادقُ المُـرِيد يَـطْلُب مَرْضـاته ، الـذي قد لانت جَـوارحُه للين نَفْسِه ، وخَشْعة قَلْبه .

وثَوْب جوهري خالص كـذلك ذو أَلْـوان من النقوش ، ولكن ليس له طَرَاوَة ؛ ولن تُؤخَذَ العيونُ بحلاوته فهذا صديقٌ صار إلى اللّه بجُهْده ، فجُهْده نصْبَ عَيْنيه كلَّما عَمِل عملاً رأى نَفْسه في ذلك العمل ، فأَعجبه ذلك ، فهو يعمَلُ على التعظم ، ويجتهدُ في العَمل ونيتـه ، ولكن ليس له لَبَق[4] .

وثـوب جَيّد جَـوْهَـرِيٌّ خـالصُ الغَـزْل من الإبْـرَيْسَم[5] ، مُحْكَم

---

(١) الثوب الموشى : المنقوش المنمنم .
(٢) الإباق : هروب العبد من سيده .
(٣) الوكس : نقصان الثمن .
(٤) لبق : ماهر حذق .
(٥) الإبريسم : الحرير .

النَّسج ، ملوَّن النقوش بِفُنُون[1] الأَشياءِ ، من الأَشجارِ والطُّيور ، والتماثيل والتَّصاوير ؛ فيزداد بثَمَنِه عشرة أَضعاف ، كلَّ مرة تأْخُذه العيون بحلاوةِ لَبَقِه .

فهذا عَمَلُ أَهْلِ المحبَّةِ ، وهم أَهْلُ اللَّبَقِ في أَعمالهم ، قد زايَلَتْهمُ الأَهواءُ والنفس ، والالتفاتُ إلى شيء سِوَىٰ العُبودة ، والفَرَح بشيء سِوَاه ؛ فأَعمالُهم بالسكينة والوَقَار ، والتعظيم والإِجلال ، وحَشْوُها[2] حُبُّ اللَّهِ تعالى .

مثل عمل الذي لا لبق له

فمَثَل عَمَلِ الذي لا لَبَق له مَثَلُ تلك النقوش التي تُنْقَش على الحِيطان والعيدان بأَلوانِ النقوش ، ولا تَلْتَذُّ العيونُ برُؤْيتها ، ولا تذوق حلاوَتَها ، حتى تُذَهَّبَ بالذهب ؛ فحينئذ صار لها بَريق وإِشراق ؛ فعندها تلتذُّ العيونُ بحلاوةِ زينَتها .

فكذا الأَعمال ؛ وإِنْ صدرَتْ لا لَبَق لها إِلَّا بحلاوة لبقها ، وهو حبُّ اللَّه تعالى الذي هو أَقْوَىٰ الأَنوارِ ، وأَنْورُها وأَعْلاها وأَسْنَاها ؛ فهو جَوْهري مُحْكَم ، وإِنْ طالَ استعمالُه وابتِذَالُه فهو طَرِيُّ النقوش ، حَسَنُ الهيئةِ ، كالثَّوْب الجوهريّ المُحْكَم على ما وصفنا .

وإذا كان خَشِناً لا جَوْهَرَ له فبقليل الابتذال والاستعمال دَرَسْت[3]

(١) فنون الأشياء : مختلف أنواعها .

(٢) حشوها : ملؤها .

(٣) درست : مثل اندرست أي عُفِيَ عليها .

تلكَ النقوشُ وتهافَتَتْ[١] ، وبرزَتْ قِيمتُه إلى ثَوْب أبيض خَلَق[٢] .

فكـذا العامـل الذي قـامَ بـه ، واجتهـد في طَلبِ الصِّـدْقِ ، مـع خشونة وأخلاقٍ سيِّئةٍ لا تَدَعُه ، فقد نقش عَمَلَهُ وزيَّنه ، ولكن إذا طالت المُدَّة ، وكبرت سنُّه ، تهافتَتْ عنه تلك النقوشُ والزِّينة ؛ لأنه كلما كبـر ازداد سُوءُ خُلُقه ، وضِيقُ صَـدْرِه ، وخشونتـه ؛ فتعودُ حـالُه وقَـدْرُه عند اللّهِ تعالى كما عـاد ذلك الثـوبُ الذي قـد دَرس ، وصار ثَـوْباً خَلَقـاً لا نقوشَ فيه ، وتراجعت قيمتهُ إلى قيمةِ ثَوْب أبيض خَلَق .

مثل من يجاوب الذاكرين

مَثَل مَنْ يجاوبُ الـذَّاكرين والمؤذِّنين عنـد التهليل[٣] على طَـرِيق المُساعدةِ بلا رَوِيَّة ولا استعمالِ عَمَل ، مثـلُ رجل يُلْقِي في زَرْعِـه من التـراب والعَلَف ليُقَـوِّيـه ، ثم امتنـع من سَقْيـه ، فمـا يـزيـدُه ذلـك إلاَّ يَبَساً[٤] ، ويلقي عنه النبت[٥] . ومَنْ سَقَاه سَقْياً مُتَرَادِفاً[٦] مرّتين أو ثلاثاً استخرج الماءُ قوةَ ذلك الملقي ، فأدّاها إلى الزرع ، فنبت وقَوِي واشتَدَّ ساقُه ، وسَنْبَل[٧] ، وتَفرّع ، حتى أدرك الزرعُ وقَوِيَ .

(١) التهافت : التساقط شيئاً فشيئاً .
(٢) الثوب الخلق : الثوب البالي .
(٣) التهليل : قول (لا إلّه إلا اللّه) .
(٤) يبس : جف .
(٥) ويبقي عن النبت [أ ،ب] .
(٦) الترادف : التتابع .
(٧) سنبل الزرع : إذا أخرج سنابله .

فكـذا مَنْ جاوبَ المُهَلِّلَ بـدُونِ حَياةِ القَلْبِ ولا يفعـلُ ما يقـولُ ، فـذلكَ كـالترابِ الـذي يُلْقى في الزَّرْعِ ، ومُنـعِ سُقْيَـاه ، لم يَـزْدَدْ إلَّا ثقلًا ؛ لأَنه إنما اقْتُضِيَ التهليلَ في جميع عُمْرِه مَرَّةً واحدة ، وهو الإقرارُ بتوحيده ، وما سِوَاهُ تجـديدُ الـوَلَه ؛ فهـذه الكلمةُ إنَّمـا تَقْتَضِي مِنْه وَلَـهَ القَلْبِ إليـه ، فإذا لم يُـوَلِّه قَلْبـه إليه لم يُقْبَـلْ ذلك منـه ؛ لأنه لمـا آمن اطمأَنَّتْ نَفْسُه ، وَوَلَـهَ بالـواحِدِ ؛ فكلمـا ذهب مِنْ وَلَهِ[1] قَلْبـه عنه إلى شيءٍ غَيْـرِه فـإنَّمـا يـذهبُ سهـواً لا عَمْـداً[2] ، فـإذا سَهَـا[3] عن ذِكْـر الصانع ، واشتغل بالمصنوع ؛ لغَلَبَةِ حلاوةِ المصنوع على قَلْبه ، وحِدَّةَ شَهْـوَتِهِ لـه في نفسه ؛ فـإذا بَقِيَ فيه خَـرِبَ قَلْبُه ، وأَظلم صَـدْرُه ؛ فإذا هلَّلَ فإنَّما يجدِّد الوَلَهَ ، ويرجعُ إلى اللّهِ تعالى ؛ فيـربط القَلْبَ ، وتعود النفس طرِيّة .

فهذا المجاوِبُ إذا سمـع تهليلَه ، فجاوَبَـه على طريق المسـاعدة والغَفْلة فهو كالتُّرَابِ المُلْقَى على ذلك الزَّرْع بلا سَقْي ؛ فلا يزيدُه ذلكَ إلَّا ثقلًا ، كذا هذا المجاوِبُ لا يزيده مِنْ ذلك إلَّا خساراً وحجة[4] .

ومَنْ نَطَق به على كَشْفِ الغِـطَاءِ كان كمَنْ سقَى زَرْعَـهُ بعد إلقـاءِ التـراب فيه ، فـرَطُبَ ذلك التـرابُ ، وتأَدَّتْ قُـوَّتُه إلى الـزرع ، فقـوِي واشتـدّ ساقُـه ، وأَعجبَ الزُّراع ليَغِيظَ بـه عدوَّه الكـافرَ ، ووَعَـد اللَّهُ عزَّ وجلَّ أُولئك بـالمغفرة والأَجْـرِ العظيم؛ لقـولِ اللّهِ سُبْحَانَـه وتعالى[5]:

---

(١) وله قلبه : شدة حبه .

(٢) العمد : القصد .

(٣) سها : غفل .

(٤) أي حجة عليه .

(٥) الفتح (٤٨/٢٩) راجع تفسير الإمـام الـطبـري (٢٦/٧٢) والقـرطبي (١٦/٢٩٥) واللسان (١/٩٤) والبحر المحيط (٨/١٠٢).

﴿ وَعــد اللَّهُ الَّـذِين آمَنُــوا وعملُوا الصــالحــاتِ منهم مَغْفِـرةً وأجْــراً عَظِيماً ﴾ .

مثل من يستمع قلبه إلى حديث نفسه

مَثَلُ مَنْ يَستَمع قلْبُه إلى حديثِ نَفْسه فيقبَلُ منها ، ويستشيرها في أمـورِه ، ويَقْبَلُ مـا تُشير عليـه ، مَثَلُ رجـلٍ معروف بـالعَقْل والعِلْم ذي خَطَرٍ[1] وجَاهٍ ، يستشيره الناسُ في أُمورهم ، أَقبل على صَبي مع خُلْقَان وأدنـاس[2] ، وبُزَاق[3] ومُخَـاط ، يلعَبُ بالتـراب لَعِبَ الصِّبْيَـان ؛ فهـو يَستشيره في الأُمور ، ويستمع مقالاته ، ويَقْبَلُ منـه ، فكلُّ مَنْ نَـظَر إليه من العُقَلاءِ تحَيَّرَ في أَمره ، وتعجَّبَ من فِعْله .

فكـذا النَّفْسُ في جـوْف الآدَمِيّ بهــذه الصفـة : نَهمتُهــا اللعبُ والبَـطالـة ، من الشهـوات والنَّهمـات ، مـع خُلْقَـان الأَعمــال وأَدْنـاس الـذنـوبِ ، وبُـزَاق[3] الغَضَب ، ومُخـاط البُكـاءِ ، جَـزَعـاً على فَـوَاتِ الدُّنْيَا ، ومَصَائِب أَحوالها .

فإذا ذهبَ القَلْبُ الذي أَكرمَهُ اللَّهُ تعالى بمعرفته ، وزَيَّنَه بالعقل ، وشَرَّفه بعِلْم أَسمائه وعِلْم القُرْآن ، فأَعرضَ عن هذه العـطايَا والهـدايَا ، وأَقبل على حديثِ النفس وإشاراتها ، وإلى ما تَدْعُو إليه ، فَقَبِـلَ منها واستفاد بها ؛ فهذا شأْنٌ عجيب ، ومَنْ نظر إليه فيه حَيَّرهُ .

---

(١) الخطر : القدر والدرجة ، وقد وردت (ذا خطر) في [أ ،ب] .
(٢) الأدناس : الأوساخ .
(٣) البزاق : هو البصاق .

مثل عمال اللّه تعالى على طريق الرجاء والثواب

مَثَلُ عمَّالِ اللّهِ تعالى على طريقِ الرَّجَاءِ والثواب مثل بَعِير الرَّحا[1] ، يشدُّ على عصاري حَجَرِ الرَّحا وأُخِذَ بعينيه ، فهو يَدُورُ على ذلك القُطْبِ[2] والبَكرة في أرضٍ عشرة أذرع ، لا يَبْرَحُ مِنْ تلك البُقْعة في شَهْرِهِ ودَهْرِه ، ولا يعرفُ سِوَى ذلك شيئاً ؛ فالرَّحا الأَعمالُ الثِّقالُ ، وتَعَبُ الأَركان فيها ، وطِحْنُها[3] الذي تَرْمِي به تلك الأَنوارُ التي تصعَدُ إلى السماءِ من تلك الأَعمال ، والقُطْبُ الذي تدورُ عليه أَعمالُهم نيَّاتُهم ومَقَاصِدُهم يَبْتَغُون[4] بها [٩٧] الثوابَ من اللّهِ تعالى ؛ فهم الشَّهْرَ والدهرَ مَشَاغيل في الأَعمال ؛ وَدَوَرَانُ قلوبهم على طَلَبِ ذلك النَّوَال لا يبتغُونَ غَيْرَ ذلك .

مثل الصديقين العارفين في الأعمال

وَمَثَلُ الصدِّيقين العارفين في الأَعمال مثل أَرْحِيَة الماءِ ؛ جَاءَ الماءُ مُنْحَدِراً جِدًّا ودار القُطْبُ بما فيه من الأَجنحة ؛ فالماءُ علمهم بتَدْبِير اللّهِ وعِلْمهم باللّه .

---

(١) الرحا : هي الطاحونة .

(٢) قطب الرحا : ما تدور عليه.

(٣) الطحن : المطحون أو الطحين .

(٤) يبتغون بها الثواب : يلتمسونه ويطلبونه .

مثل خاص الأولياء

مَثَلُ خاصِّ الأولياءِ مثل أَرْجِيَة الريح ، جاءَت الريح فتحمل ذلك الرَّحا ، فهو في رَأْيِ العَيْنِ يَدُورُ كالطائر يَطير ، وسَبَبُ دورانِه مُنْكَمِن ، فهؤلاءِ المستعملون في القَبْضة ، أَسبابُ أُمورِهم قد انقطَعَتْ عن أَسبابِ أَهْلِ الدنيا ، وخَفِيت لأنها من عند اللَّه تعالى .

مثل المؤمن والكافر والمنافق

مَثَلُ المؤمن والكافر والمنافق مَثَلُ ثلاثة نَفَرٍ أَتَوْا نَهراً عظيماً في مَفَازة ، فوقع وَاحِدٌ منهم في النَّهرِ فسبَح سَبْحاً ، وخرج ؛ ووقَع الثاني ؛ فكلما كاد أَنْ يَصِلَ إلى شَطِّ النهر[1] ناداه الثالثُ الذي لم يَدْخُلْ بَعْدُ في النَّهر : أن يا فُلاَنُ ، هَلُمَّ[2] إليّ إليَّ ، فإنَّ الطريقَ مَخُوف فتهلك ، ارجع إليّ ، فإني أَعلَمُ بطريقٍ آخر يُعْبَرُ بالسلامةِ على القَنْطَرة ؛ والذي خرج يُنَاديه : أَنْ إليَّ إليَّ ؛ فإنَّ الطريقَ آمِنٌ ، وعندي من النعيم ما لا يُوصَف ، فما زال يذهبُ إلى هذا وإلى ذاك حتى يَغرق في الماءِ ويَهْلك .

قال قتادةُ رَحِمَهُ اللَّه : فالأَوَّل الذي عَبَر مُؤْمِنٌ مخلص ، والذي لم يَعْبُرْ بَعْدُ كافر ، والذي دَخل مُنَافِقٌ يَدْعُوه المسلمُ مِنْ وَرائه ، والكافر يَدْعُوه من خَلْفه ، وهو متردِّدٌ مُتَذَبْذِبٌ[3] حتى يأْتيه الموتُ ،

---

(١) شط النهر : ساحله .

(٢) هلمَّ إليَّ : أقبل ، وهي إسم فعل .

(٣) المتذبذب : المتردد .

فيموت مُنافقاً ، فيبقى في قَعْرِ جَهَنَّم في أَسفل السافلين .

ومصداقُ هذا قولُ اللّهِ سبحانه وتعالى[1] : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً[2] ﴾ .

ومَثَلهُم أيضاً مَثَلُ أَهْلِ بلدةٍ بَقُوا في جُدوبة وقَحْط ، وشِدَّة ويُبُوسة ، وعُسْر وضِيق وفَقْر ، فجاءَ رجلٌ بَهِيّ سَخِيّ ، كريم جَوَاد ، رؤوف رحيم ، وقال لهم : أنا لَكُمْ ناصح أمين ، وإنكم بَقِيتُم في هذه البُقْعَةِ في هذه الشدة والمِحْنة[3] ، فإني أَدُلُّكم على أَرض فيها خِصْبٌ وسَعَة ، وخُضرةٌ وماءٌ ، ونَعيم ؛ فارْتَحِلُوا إليها تَنْجُوا من هذه المِحْنَة ؛ فقومٌ قَبِلُوا نصيحَتَه وارتحلُوا إلى تلك البُقْعَةِ ؛ فوجدوا ما أُخْبِرُوا وَزِيَادَةً ، وقوم لم يصدِّقوه ولم يلتفتوا إلى كَلاَمِه ، وبَقُوا في أَرضهم في القَحْطِ[4] والشدَّةِ وجازُوا ذلكَ ، فنزلوا فيها واطمأنُّوا بها فَرِحين بها ، مُعْجَبين بها ، وأرسلوا إلى هَؤُلاءِ القومِ الذين بَقُوا في دِيَارِهِمْ وأخبروهم بذلك : إنَّا وَجَدْنَا ما وَعَدَنَا الرجُلُ وزيادة ، تعالَوْا معنا تَنْجُونَ من هذه الشدة ، فلم يَقْبَلُوا ، ولم يخرجوا ؛ فلما لبَثَتْ تلكَ الطائفةُ في تلك الأَرضِ زَماناً وشهوراً وسَنِيناً متنعِّمين جاءَ الرجلُ ثانياً ، وقال : إنَّ في موضع آخر أَرضاً أَحسنَ من هذه ، ونعيمُها ومياهها وأَشجارها وثِمارُها أَضعافٌ من هذا ، فارْتَحِلُوا إلى هنالك .

فصدَّقَ بعضٌ منهم وارتحلوا ، فوجَدُوا هنالك أكثر وأطيب مما وَعَدهم الرجلُ ، فمكثوا ثَمَّة[5] ، وأخذوا في التنعُّم ، وبَقُوا في

---

(١) النساء (٤/ ١٤٥).

(٢) الدرك : أسفل الشيء وقعره .

(٣) المحنة : الابتلاء والاختبار .

(٤) القحط : الإمحال والجدب وإمساك المطر عن الناس .

(٥) ثمة : هناك ، وتقال أيضاً (ثم) .

الرَّفَاهية ، وبَعَثُوا إلى أُولئك القَوْم الذين كانـوا معهم في الأرض الأُولى في النعيم : أَن وجَدْنَا مـا وعدَنَـا الرجـلُ الأَوَّل وزيادة ، هَلُمُّـوا[1] إلينا نعيش ونَتَنَعَّم ، فـأَبَوا ، وقـالـوا : لا نُعْـطِي المـوجـود بـالمفقـود ، ولا نبـدِّل ؛ فـإذا سَحَـابـةٌ جـاءَت من السمـاءِ فضـربت الأَشجـارَ ؛ فيَبِست بساتينُهم ومِيَاهُهم وما عندهم حتى هَلَكُوا جميعاً .

فالناسُ كلُّهم في ظُلْمَـةِ الكُفْرِ وشِـدَّةِ الشِّرْكِ والقَحْط والضِّيق في مَفَاوِزِ الكُفْرِ حَيَارَىٰ في عُسْرٍ[2] وضيق ، فجاءَهم الرسـولُ الكريمُ صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم ، وبَيَّنَ لهم الهُدَىٰ ، وَنَصحهم ، وبَيَّنَ لهم طريقَ الحقِّ والصِّـرَاطَ المستقيم ، فآمنَ بـه بعضهُم ونَجَوْا من ظُلمـة الكفـر والبُؤْس والفَاقة[3] ، وأَخرجوا أَنفسهم من ظُلْمَةِ الكفر ، وَتَبَيَّنَ لهم طريقُ الرُّشْـدِ من الغَيِّ .

وَقَوْمٌ لم يَقْبَلُوا نَصيحةً ؛ وهم الكفَّـار فَبَقُوا في مَفَـازَةِ الكُفْرِ ، في أَرضِ القحْط والجُدُوبَةِ ، والضِّيق والضَّنْكِ[4] .

ثم إنَّ المُؤْمِنين الـذينَ آمَنُوا بـاللَّه ورسولِـه ، ثم لم يَرْتَـابُـوا[5] ، وجاهَدُوا بأَموالِهِم وأَنْفُسِهم في سبيل اللَّهِ أُولئكَ هم الصَّادِقُـونَ ، بَدَّلوا ما عنـدهم إلى دارِ القَـرَار ونعيم الآخـرة بمـا عنـدهم مِنْ نعيم الـدُّنيـا ، وارتحلوا إلى دَارِ الآخرة .

---

(١) هلموا إلينا : أقبلوا علينا .

(٢) العسر : الشدة والضيق .

(٣) الفاقة : الفقر .

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) الارتياب : الشك .

والمنافقون قالوا : لا نُعْطِي الموجودَ بالمفقود ، فَخَابُوا وخَسِرُوا ؛ ذهب الموجودُ مِنْ أيديهم ، ولم يَصِلُوا إلى الآخرة ، فبَقُوا في نِفَاقهم وشكِّهم .

وأما المؤمنون فخرجوا إلى الأَرْضِ الثالثة وهم الصادقون ، كما قال اللَّهُ تعالى في وَصْفِهم(1) : ﴿ أُولَئِكَ هم الصادقون ﴾ بقبولهم دار الآخرة خالصاً ، لأنَّ إيمانَهم كان خالصاً مخلصاً ؛ قال اللَّهُ تَعَالىٰ(2) : ﴿ وَلَقد كَتَبْنَا في الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالحون . إنَّ في هذا لَبَلاغاً لِقَوْم عَابدينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمين(3) ﴾ .

---

(1) الحشر (٥٩/٨) .

(2) الأنبياء (٢١/١٠٥، ١٠٦، ١٠٧).

(3) الزبور : كتاب داود والذكر هو توراة موسى .
العباد الصالحون : أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم .
والقوم العابدون : هم أهل الصلوات الخمس من الموحدين .

وقد جاءَ في آخر النسخة (ب) ما يأْتي :

(تم بحمد اللَّه ومنّه وحسْنِ عـونه ، وصلَّى اللَّهُ على محمـد نبيه وأزواجه وذرِّيته وأصحابه وكافة أُمته وجعلنا منهم بمنه وطَوْلِه) .

وفي نهاية النسخة (أ) ما يأْتي :

(تمَّ بحَمْدِ اللَّه وَمَنِّه وحُسْنِ عَوْنه ، وصلى اللَّه على محمد نبيه ، وأزواجه ، وذرّيته وأصحابه ، وكافة أُمَّته، وجعلَنا منهم بفضله وطَوْله .

واتفق تمامه على يـدي الفقير إلى رحمـة اللَّه علي بن سليمان بن أحمد بن سليمان المـرادي الأندلسي ، نفعـه اللَّهُ به ، وَعَلَّمَـه ما فيـه ، وجعله من المُؤْتَمّين بنبيّه ، بفَضْلِه ورحمته ، وغفر له ولوالديه ، ولكافـة أُمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم) . ا هـ .

الفهرس